فريدريك بول وآرثر كلارك

النظرية الأخيرة

ترجمة شيماء عبد الحكيم طه

النظرية الأخيرة

تأليف
فريدريك بول وآرثر كلارك

ترجمة
شيماء عبد الحكيم طه

مراجعة
محمد إبراهيم الجندي



النظرية الأخيرة

فريدريك بول وآرثر كلارك

The Last Theorem

Frederik Pohl and Arthur C. Clarke

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٠٧٣ ٦

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

المحتويات

التمهيد الأول

لم تكن أحداث بيرل هاربر قد وقعت بعد، وكانت الولايات المتحدة لا تزال في حالة سلمٍ عندما انطلق بخار سفينة حربية بريطانية في جزيرة نانتوكيت وعلى متنها ما أُطلِق عليه لاحقًا «أثمن شحنة تصل إلى الشواطئ الأمريكية على الإطلاق». لم تكن شحنة مبهرة؛ ليست سوى أسطوانة معدنية طولها نحو سنتيمترين ونصف السنتيمتر، مزودة بوصلات وزعانف تبريد. ويسهل حملها في يدٍ واحدة. غير أن هناك مزاعم قوية بأن فضل الانتصار في الحرب في أوروبا وآسيا يرجع إلى هذا الجسم الصغير؛ مع أن القضاء على آخر دول المحور تطلَّب اللجوء إلى استخدام القنبلة الذرية.

كان هذا الجسم المبتكَر للتوِّ هو صمام الماجنترون الفجوي.

لم يكن الماجنترون فكرة جديدة من حيث المبدأ. فقد كان معلومًا منذ فترة أنه يمكن لمجال مغناطيسي قوي أن يحافظ على حركة الإلكترونات في دوائر محكمة، مما يؤدي إلى توليد موجات الراديو. غير أن هذه المعلومة ظلت مجرد فكرة في المختبرات إلى أن عُرف أنه يمكن استخدام موجات الراديو هذه في أغراض عسكرية.

وعندما استُخدمت هذه الموجات في أغراض عسكرية، أُطلق عليها اسم الرادار.

عندما تسلم العلماء الأمريكيون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا هذا الجهاز أخضعوه للعديد من الاختبارات. وقد تملَّكتهم الدهشة عندما اكتشفوا أن ناتج طاقة الماجنترون كبير جدًّا بحيث لا يقوى أيٌّ من أجهزتهم المختبرية على قياسه. وبعد فترة قصيرة، ومع زيادة قدرة الهوائيات العملاقة التي سرعان ما أقيمت على طول بحر المانش، أدى هذا الرادار البريطاني مهمة رائعة؛ إذ رصد تشكيلًا من أعداد هائلة من الطائرات الحربية التابعة لسلاح الجو النازي أثناء استعدادها للهجوم على إنجلترا. والواقع أن الفضل

يرجع إلى الرادار — أكثر من أي شيء آخر — في انتصار القوات الجوية الملكية في معركة بريطانيا.

وسرعان ما اكتُشف أنه لا يمكن استخدام الرادار في تتبع طائرات العدو في السماء فحسب، وإنما في إعداد خرائط إلكترونية أيضًا للأرض التي تحلق فوقها الطائرات. ومعنى هذا أنه يمكن تصوير الأرض في الأسفل صورًا يمكن تمييزها على أحد أنابيب الأشعة السالبة — حتى وإن كان الظلام دامسًا أو كانت السماء ملبدة بالغيوم — مما يساعد في الملاحة وفي عمليات القصف. وما إن صار الماجنترون متاحًا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا حتى طرح فريق يرأسه لويس ألفاريز الحائز جائزة نوبل السؤال التالي: «ألا يمكننا استخدام الرادار لمساعدة الطائرات في الهبوط هبوطًا آمنًا وأيضًا في إسقاطها؟»

وهكذا بدأت فكرة التوجيه الأرضي للطائرات، أي إرشاد الطائرات للهبوط في الأحوال الجوية السيئة باستخدام رادار دقيق.

استخدمت الوحدة التجريبية «مارك ١» تقنية التوجيه الأرضي بواسطة رادارين منفصلين، أحدهما يعمل على مسافة عشرة سنتيمترات لتحديد اتجاه الطائرة في زاوية السَّمْت (المسافة الزاويَّة شرقًا أو غربًا من نقطة الشمال)، والآخر — وهو أول رادار في العالم يعمل على مسافة ثلاثة سنتيمترات — لقياس الارتفاع فوق سطح الأرض. ويمكن للمُشغل الذي يجلس أمام الشاشتين توجيه الأوامر للطائرة لتهبط بأمان بحيث يخبر الطيار متى يُسرع بالتحليق يمينًا أو يسارًا أو متى يزيد الارتفاع عند الضرورة.

قوبلت فكرة التوجيه الأرضي للطائرات بترحيب حماسي من قبل قيادة الطائرات القاذفة التابعة للقوات الجوية الملكية التي كانت تفقد كل يوم بسبب سوء الأحوال الجوية عددًا من الطائرات أكبر مما يُسقطه العدو. وفي عام ١٩٤٣ اتخذت وحدة «مارك ١» وطاقمها مكانًا في قاعدة جوية في سانت إيفال بمدنية كورنوول. وأُرسِل طاقم تابع للقوات الجوية الملكية للحاق بهم، وكان هذا الطاقم بقيادة الملازم طيار لافينجتون. وكان مساعد لافينجتون هو الضابط طيار المكلَّف حديثًا آرثر سي كلارك.

الواقع أنه لم يكن يُفترض لكلارك الانضمام إلى القوات الجوية الملكية مطلقًا. فأثناء حياته المدنية عمل كلارك موظفًا حكوميًّا في وزارة المالية البريطانية، وهي من الوظائف التي يُعفَى من يعمل بها من أداء الخدمة العسكرية. غير أن كلارك ظن — وكان محقًّا في ظنه — أن إعفاءه سيُلغى قريبًا؛ لذا فقد تسلل من عمله ذات يوم وتطوع في أقرب وحدة تجنيد

تابعة للقوات الجوية الملكية. حدث ذلك في الوقت المناسب تمامًا. فبعد بضعة أسابيع بدأ الجيش في البحث عنه باعتباره هاربًا من الجندية ومطلوبًا للخدمة في الفيلق الطبي! ولما كان كلارك لا يحتمل منظر الدماء — خاصة دماءه — فقد كان من الواضح أنه نجا من الخدمة في الفيلق الطبي بأعجوبة.

في ذلك الوقت كان آرثر كلارك مولعًا بفكرة السفر إلى الفضاء بعد أن انضم إلى جمعية ما بين الكواكب البريطانية بعد تأسيسها عام ١٩٣٣ بوقت قصير. وحين أدرك أنه يتحكم في أقوى رادار في العالم — يصدر أشعة ضيقة النطاق — فقد وجَّهه ذات ليلة نحو القمر البازغ وعدَّ ثلاث ثوانٍ ليرى ما إذا كان سيتلقى صدًى أم لا.

وللأسف لم يتلقَّ شيئًا. وقد مرت سنوات بعد ذلك قبل أن يتمكن أي شخص من استقبال أصداء للرادار من القمر.

غير أن شيئًا آخر ربما يكون قد حدث؛ مع أن أحدًا لم يكن بمقدوره أن يعرف به في حينه.

آرثر سي كلارك

التمهيد الثاني

ثمة أمران في حياتي أظن أن لهما تأثيرًا على موضوع هذا الكتاب؛ ولذلك قد تكون هذه فرصة مناسبة للتحدث عنهما.

الأمر الأول أنني عندما كنت في أوائل الثلاثينيات من عمري تعرضت لدراسة قدر هائل من الرياضيات — جبر وهندسة وحساب مثلثات وقليل من حساب التفاضل والتكامل — سواء أفي مدرسة بروكلين تيك الثانوية حيث ظننت مخطئًا لفترة وجيزة في شبابي أني قد أصبح مهندسًا كيميائيًّا، أم في كلية الأرصاد الجوية التابعة للقوات الجوية الأمريكية في قاعدة شانوت بولاية إلينوي — أثناء الحرب العالمية الثانية — حيث حاول المدرسون تعليمي شيئًا عن الأسس الرياضية لعلم الأرصاد الجوية.

لم يترك أي فرع من فروع الرياضيات هذه أثرًا كبيرًا في نفسي. وكان الشيء الذي غيَّر هذا الوضع — تغييرًا جذريًّا ودائمًا — هو مقال في مجلة ساينتيفيك أمريكان في مطلع الخمسينيات تناول فرعًا من الرياضيات لم أسمع به من قبل. وهو ما كان يُسمى «نظرية الأعداد». تهتم هذه النظرية بوصف وتعيين خصائص الوحدة الأساسية في علم الرياضيات — ألا وهو العدد — وقد أثارت النظرية اهتمامي.

أرسلتُ سكرتيري إلى أقرب مكتبة ليشتري لي نسخًا من جميع الكتب المذكورة في المقال، وقرأتها حتى صرت مولعًا بالنظرية. وعلى مدار فترة امتدت أكثر من عام قضيت كل ما أستطيع اقتطاعه من وقت في حياتي المزدحمة في كتابة عمليات حسابية غير منتهية على أكوام من الورق. (تذكروا أنني أتحدث عن الخمسينيات. فلم تكن توجد أجهزة كمبيوتر. أو حتى آلات حاسبة. وعندما كنت أريد تحليل عدد أظنه عددًا أوليًّا، كنت أستخدم نفس الأسلوب الذي استخدمه فيرما أو كيبلر أو ربما أريستاركوس، وهو إجراء عمليات حسابية مكتوبة بخط اليد تحفل بتكرار ومشقة غير متناهيين.)

لم أعثر على مبرهنة فيرما المفقودة قط، ولم أجد حلًّا لأيٍّ من الألغاز الرياضية الكبرى. بل إنني لم أحقق تقدمًا ملموسًا في المحاولة الوحيدة التي ظننت لفترة من الوقت أني سأحرز فيها تقدمًا، وهي إيجاد صيغة رياضية يمكن من خلالها الحصول على الأعداد الأولية. وكان الإنجاز الذي حققته — وهو إنجاز ضئيل للغاية مقارنة بكل هذا الجهد — هو ابتكار اثنتين مما يمكن أن تسميه حيلًا رياضية. إحداهما كانت طريقة للعد على الأصابع. (من المؤكد أنك تقول الآن إن أي شخص يمكنه العد على أصابعه. حسنًا، لكن هل يمكن لهذا الشخص الوصول إلى العدد ١٠٢٣؟)، بينما تبدو الأخرى مهمة مستحيلة.

وفيما يلي توضيح لهذه الحيلة:

إذا رسمتَ صفًّا من العملات المعدنية — بصرف النظر عن طول هذا الصف — فسيكون بوسعي في غضون عشر ثوانٍ أو أقل أن أكتب العدد الفعلي للتباديل (صورة-كتابة-صورة، صورة-كتابة-كتابة، إلخ) التي يعطيها هذا العدد من العملات المعدنية عند قذفها في الهواء. ولمزيد من التعقيد سأقوم بذلك حتى مع إخفاء أي عدد تريده من العملات في الصف — عند أيٍّ من الطرفين — بحيث لا أكون على علم بعدد العملات المعدنية الموجودة في الصف.

مستحيل، أليس كذلك؟ أترغب في محاولة فهم الأمر؟ سأعود إلى هذه النقطة ولكن ليس الآن.

الأمر الثاني الذي أظن أن له علاقة بموضوع الكتاب حدث بعد ذلك بنحو عشرين عامًا عندما وجدت نفسي للمرة الأولى في حياتي أقضى بضعة أسابيع في جزر الإمبراطورية اليابانية. ذهبت إلى هناك ضيفًا على هواة الخيال العلمي اليابانيين، وكان معي براين ألديس ممثلًا عن بريطانيا، ويولي كاجارليتسكي ممثلًا عما كان يُعرف حينها باسم الاتحاد السوفييتي، وجوديث ميريل ممثلة عن كندا، وآرثر سي كلارك ممثلًا عن سريلانكا، وآخرون من معظم دول العالم. كنا نتجول في المدن اليابانية — برفقة مجموعة من الكتاب والمحررين اليابانيين — لإلقاء المحاضرات وإجراء المقابلات الصحفية والقيام ببعض الأفعال الطائشة عندما كان يُطلب منا ذلك. (أدى آرثر رقصة الهولا المعروفة في هاواي على الطريقة السريلانكية، بينما حاول براين أن ينطق بقائمة طويلة من الكلمات اليابانية، التي اتضح أن معظمها كلمات بالغة البذاءة؛ لأن مُضيفِينا كانوا يحبون المزاح. ولن أخبركم بما فعلتُ أنا.) وكنوع من المكافأة دُعينا جميعًا إلى عطلة ترويحية في بحيرة بيوا حيث

تجولنا في المكان ونحن نرتدي أزياء الكيمونو اليابانية، وأسرفنا في تناول الشراب في حانة الفندق.

قضينا معظم الوقت يخبر بعضنا بعضًا بما فعلنا منذ آخر مرة التقينا فيها. أظن أن حديث جودي ميريل كان الأكثر تشويقًا. وصلت جودي إلى اليابان في وقت مبكر، وقضت يومين في هيروشيما قبل وصول بقيتنا. كانت جودي تجيد وصف الأشياء، وحازت اهتمامنا أثناء روايتها ما شاهدته. الجميع يعرف ذلك الهيكل الحديدي المنبعج الذي حافظ عليه اليابانيون بوصفه نصبًا تذكاريًّا عندما تطايرت جميع الأجزاء الأخرى من ذلك المبنى إثر تفجير أول قنبلة نووية، ويعرفون أيضًا الوجه المنصهر لتمثال بوذا الحجري. وظِل الرجل الذي حُفِر على السلم الحجري الذي كان يجلس عليه — تلك الصورة التي لا يمكن محوها من الذاكرة ما إن يراها أي شخص — من جرَّاء الانفجار النووي الذي أحدث وهجًا رهيبًا في السماء.

قال أحدنا (أظن أنه براين): «لا شك أن هذا الضوء كان متوهجًا.»

قال آرثر: «متوهج بما يكفي لأن يكون عدد كبير من سكان النجوم المجاورة قد شاهدوه الآن.»

قال آخر (أظن أنه أنا): «لو أن هناك مخلوقات تشاهد ما يحدث هنا.»

واتفقنا على أنه ربما يكون هناك من يشاهد ما يحدث على الأرض بالفعل ... أو على الأقل راقتنا هذه الفكرة.

فيما يتعلق بتلك الحيل الرياضية التي أشرت إليها:

لا أظن أنه ينبغي عليَّ شرحها لك الآن، لكني أعدك أنه قبل انتهاء هذا الكتاب سوف يشرحها لك شخص ما.

على الأرجح سيكون هذا الشخص شابًّا ذكيًّا يُدعى رانجيت سوبرامانيان، وستلقي به بعد بضع صفحات.

ففي النهاية يدور هذا الكتاب بالكامل حول قصة رانجيت.

فريدريك بول

التمهيد الثالث

اختبار جوي

في ربيع عام ١٩٤٦ وعلى جزيرة مرجانية جنوب المحيط الهادي كانت تشتهر (في السابق) بجمالها واسمها جزيرة بيكيني؛ جمعت البحرية الأمريكية أسطولًا يضم بضعًا وتسعين سفينة. تنوعت هذه السفن ما بين سفن حربية وطرادات ومدمرات وغواصات وسفن مساعدات متنوعة، قادمة من مصادر متعددة. فبعضها كان سفنًا ألمانية أو يابانية من مغانم الحرب العالمية الثانية التي وضعت أوزارها مؤخرًا، ومعظمها كان سفنًا أمريكية إما في حالة سيئة بسبب الحرب أو قديمة الطراز من الناحية التكنولوجية.

لم يكن هذا الأسطول موجهًا لشن حرب بحرية هائلة ضد أي دولة، بل إنه لم يكن متجهًا إلى أي مكان. فجزيرة بيكيني المرجانية كانت المحطة الأخيرة لتلك السفن. كان السبب الذي جُمع من أجله الأسطول هو إلقاء قنبلتين نوويتين فوق الجزيرة المرجانية. كان من المقرر إلقاء إحداهما من الجو، والأخرى من تحت سطح البحر. كان الهدف المأمول من هذا العمل الشاق هو توفير بعض المعلومات للقادة البحريين عما يمكن أن يتكبده أسطولهم من خسائر في أي حرب نووية قادمة.

وبالطبع لم تكن جزيرة «بيكيني» المرجانية نهاية اختبار الأسلحة النووية. وإنما كانت مجرد بداية. فعلى مدار أكثر من اثني عشر عامًا تالية فجَّر الأمريكيون قنبلة تلو الأخرى في الجو مع تدقيق النظر في حساب الأرباح والخسائر وأي أرقام أخرى يمكن استخلاصها من الاختبار. وهكذا فعل السوفييت والبريطانيون بعد ذلك بقليل، ثم تلاهم

الفرنسيون والصينيون. فجَّرت أول خمس قوى نووية (التي لم يكن من قبيل المصادفة كونها الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة) ما يزيد عن ألف وخمسمائة سلاح نووي في الجو. وقد حدث ذلك في أماكن مثل جزر مارشال في المحيط الهادي، وفي الجزائر، وبولينزيا الفرنسية، وفي مناطق صحراوية من أستراليا، وفي مدينة سيميبالاتينسيك في كازاخستان السوفييتية، وفي نوفايا زيمليا في المحيط المتجمد الشمالي، ومنطقة لوب نور التي تكثر فيها المستنقعات في الصين، وفي العديد من الأماكن الأخرى في مختلف أنحاء العالم.

لم يكن منشأ هذه الانفجارات ذا أهمية كبيرة. كان كل انفجار منها يُنتج وميضًا براقًا إلى حدٍّ لا يمكن تصوره؛ وميضًا — «أشد بريقًا من ضوء ألف شمس» على حد وصف الفيزيائي هانز ڤيرينج — يتضخم في الفضاء في دائرة فوتونات نصف كروية متمددًا بمعدل ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية.

في ذلك الوقت كانت فوتونات ضوء الرادار البدائي الذي وجَّهَه الشاب آرثر كلارك إلى القمر قد قطعت مسافة طويلة من المكان الذي كان يوجد فيه كوكب الأرض في المجرة عندما أُطلقت هذه الفوتونات.

كم تبلغ المسافة التي قطعتها؟ حينئذٍ كانت نحو ثلاثين سنة قد مرت دون استقبال أي بيانات من موجات الرادار. ينتقل الضوء — أو موجات الراديو أو الإشعاعات الإلكترونية من أي نوع — بسرعة ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلومتر) في الثانية، وتلك هي سرعة الضوء. وهكذا فإنه في كل سنة كانت تلك الفوتونات تبتعد مسافة سنة ضوئية واحدة، وفي طريقها اجتاحت هذه الفوتونات بالفعل أنظمة عدة مئات من النجوم. والعديد من هذه النجوم محاط بالكواكب. فضلًا عن أن عددًا قليلًا منها به كواكب تصلح للحياة. وجزء صغير جدًّا من تلك الحياة يمكن وصفه بأنه حياة ذكية.

لم يتعرف البشر قط على النجم الذي كان لكائناته السبق في اكتشاف ما يحدث على سطح كوكب الأرض. هل هو النجم جرومبريدج ١٦١٨؟ أم ألفا قنطورس ب؟ أم ألفا قنطورس أ؟ أم القزم الأحمر لالاند ٢١١٨٥ أم إبسلون إريداني أم تاو سيتي؟

لم يعرف البشر شيئًا عن هذا قط، وربما كان هذا أفضل لهم. فربما لا يجنون من وراء هذه المعرفة شيئًا سوى القلق.

وأيًّا كان النظام النجمي الذي سكنه فلكيُّو تلك الكائنات (الذين لم يسموا أنفسهم فلكيين بل اسمًا من قبيل «مستكشفي المؤثرات الخارجية») فقد اهتموا كثيرًا بتلك النبضة الضعيفة الأولية التي وصلتهم. وأزعجتهم.

ليس ثمة أي وجه تشابه بين هذه الكائنات وبين البشر، لكن لديهم «مشاعر» معينة شبه إنسانية، ومن بين هذه المشاعر شيء يشبه الخوف كثيرًا. كانت انبعاثات الموجات القصيرة القادمة من كوكب الأرض هي أول ما أثار قلق هذه الكائنات. ثم جاءت الانفجارات الشديدة التوهج التي وصلتهم بعد ذلك بقليل؛ تلك التي صدرت عن أول اختبار نووي في منطقة وايت ساندز، ثم من هيروشيما وناجازاكي، ثم من كل مكان على الأرض. وبسبب هذه الومضات بدأت حالة من اللغط والجلبة بين مراقبي السماء من الكائنات الفضائية. فتلك الومضات تمثل مشكلة، وربما مشكلة كبيرة جدًّا.

لم يكن هؤلاء المراقبون يخشون ما يفعله البشر على كوكبهم الضئيل البعيد. فهم لا يكترثون على الإطلاق لما يحدث على كوكب الأرض. إنما الأمر الذي سبب شعورهم بالقلق هو أن هذه الإشعاعات لن تتلاشى بعد مرورها بنجمهم. وإنما ستستمر في طريقها إلى أماكن أشد بعدًا وعمقًا في المجرة. وعاجلًا أو آجلًا سوف تصل إلى أفراد معينين من المرجح أنهم سيتعاملون معها بجدية بالغة بالفعل.

الفصل الأول

على صخرة سوامي

ها نحن الآن نلتقي — أخيرًا — رانجيت سوبرامانيان الذي يدور هذا الكتاب حول حياته الطويلة والمميزة.

في ذلك الوقت كان رانجيت في السادسة عشرة من عمره، وكان طالبًا مستجدًّا في الجامعة الرئيسية في سريلانكا بمدينة كولومبو، ومعجبًا بنفسه بدرجة تفوق ما يمكن أن يكون عليه أي فتًى عادي في السادسة عشرة من عمره. غير أنه لم يكن في الجامعة حينئذٍ، فبناءً على طلب والده قطع رانجيت رحلة طويلة من كولومبو مرورًا بجزيرة سريلانكا ووصولًا إلى مقاطعة «ترينكومالي» حيث نال والده لقب كبير الكهنة في المعبد الهندوسي الذي يسمى تيرو كونيسفارام. أحب رانجيت والده حبًّا جمًّا. ودائمًا ما كان يبتهج برؤيته. لكن بهجته برؤية والده هذه المرة كانت أقل إلى حد ما؛ لأنه يعلم تمام العلم الأمر الذي يود جانيش سوبرامانيان المُوَقَّر التحدث معه بشأنه.

كان رانجيت فتًى ذكيًّا؛ بل كان في الواقع قاب قوسين أو أدنى من مستوى الذكاء الذي ظن نفسه عليه. وكان حسن المظهر أيضًا. لم يكن طويل القامة بدرجة كبيرة، لكن معظم أهل سريلانكا ليسوا كذلك. كان رانجيت ينتمي عرقيًّا للتاميل؛ ذا بشرة بنية داكنة كلون ملعقة من الكاكاو قبل مزجها بالحليب الساخن. مع ذلك لم يكن لون بشرته يعزى إلى أصله التاميلي. فالسريلانكيون يتمتعون بمجموعة متنوعة من ألوان البشرة بدءًا من الأبيض الشبيه بلون بشرة الاسكندنافيين إلى الأسود الشديد القتامة. كان أقرب أصدقاء رانجيت — جاميني باندارا — سنهاليًّا خالصًا يعود نسبه إلى أجيال سنهالية عديدة، لكنهما كانا متشابهين في لون البشرة.

نشأت الصداقة بين الفتَيَين منذ زمن طويل؛ تحديدًا منذ تلك الليلة المروعة التي شب فيها حريق أتى على مدرسة جاميني؛ غالبًا بسبب تدخين اثنين من الطلبة للسجائر المحظور تدخينها في أحد المخازن.

وكأي شخص في الجوار قادر على أن يحمل قطعة من الخشب الرقائقي ويلقي بها فوق سطح شاحنة، اختير رانجيت للمشاركة في أعمال الإغاثة. كان شأنه في ذلك شأن جميع الطلاب الآخرين في مدرسته. كان عملًا مُهينًا وأشق بكثير من أن تتحمله عضلات فتًى في مرحلة النمو، ناهيك عن الشظايا والخدوش والجروح التي لا تنتهي بسبب قطع الزجاج المبعثرة في كل مكان.

تلك هي الجوانب السلبية، وقد كانت كثيرة. لكن كانت هناك جوانب إيجابية أيضًا. كالمرة التي تتبَّع فيها رانجيت وفتًى آخر في مثل عمره تقريبًا مصدر صوت أنَّات تنبعث من بين كومة من الحطام، وأنقذا قطًّا سياميًّا كبير السن بدا مذعورًا — وإن لم يُصَب بسوء — كان يمتلكه مدير المدرسة.

عندما حمل أحد المدرسِين القط إلى صاحبه، وقف الفَتَيان وكل منهما يبتسم للآخر. مَدَّ رانجيت يده على الطريقة الإنجليزية. وقال لصاحبه: «رانجيت سوبرامانيان.»

قال الفتى الآخر وهو يهز يده مبتهجًا: «وأنا جاميني باندارا، لقد قمنا بعمل رائع، أليس كذلك؟»

اتفقا على أنهما قاما بعمل رائع بالفعل. وعندما سُمح لهما بترك العمل في ذلك اليوم، وقفا معًا في صف للحصول على وجبتهما المسائية من حساء الشعير، ووضعا أكياس النوم متجاورة هذه الليلة ليصبحا أقرب صديقين منذ ذلك الحين. وساعدهما في ذلك — بكل تأكيد — أن مدرسة جاميني أصبحت غير صالحة للسكن بسبب الحريق، ومن ثم كان على طلابها أن يتشاركوا أماكن النوم مع طلاب مدرسة رانجيت. اتضح أن جاميني يتمتع بكل صفات الصديق الحميم، بما في ذلك حقيقة أن الهوس الأكبر في حياة رانجيت — الذي لم يكن يمكن لأي شخص آخر أن يشاركه إياه — لم يكن يعني جاميني في شيء على الإطلاق.

وبالطبع كان هناك أمر آخر يتعلق بجاميني. كان هذا الشيء هو إنه كان جزءًا من حوار رانجيت الوشيك مع والده، وهو حوار لم تكن لدى رانجيت أدنى رغبة فيه.

تجهم وجه رانجيت. وكما طُلِبَ منه اتجه مباشرة إلى أحد الأبواب الجانبية للمعبد، لكن لم يكن والده هو من قابله هناك. وإنما كان من قابله راهبًا عجوزًا يدعى سوراش أخبره — بلهجة رآها رانجيت آمرة بعض الشيء — أن عليه الانتظار قليلًا. لذا فقد انتظر

وقتًا اعتبره طويلًا جدًّا دون أن يفعل شيئًا سوى الاستماع إلى أصوات الترانيم الصادرة من معبد والده الذي كان يثير في نفسه مشاعر مضطربة.

أعطى المعبد والد رانجيت غاية ومكانة وعملًا مجزيًا، وكلها أمور جيدة. لكنها شجعت الوالد العجوز على أن يعقد آمالًا واهية أن ابنه سيسير على خطاه. لكن هذا ما كان ليحدث قط. فحتى عندما كان رانجيت صبيًّا لم يستطع أن يؤمن بآلهة الهندوس الذين كان لبعضهم رءوس حيوانات متعددة الأشكال وعدد هائل من الأذرع، والذين كانت تماثيلهم المنحوتة تغطي جدران المعبد. عندما بلغ رانجيت السادسة من عمره كان يعرف اسم كل إله من تلك الآلهة، ويستطيع تعديد قدراته الخاصة وذكر أيام الصوم الأساسية أيضًا. لكن ذلك لم يكن نابعًا من حماسة دينية. وإنما فقط لأنه أراد إدخال السرور على نفس والده الذي أحبه.

تذكر رانجيت استيقاظه في الصباح الباكر وهو طفل صغير عندما كان لا يزال يقيم في بيت أبيه، واستيقاظ والده مع شروق الشمس ليغتسل في مسبح المعبد. كان يشاهد والده متجردًا من ثيابه حتى خاصرته في مواجهة الشمس المشرقة، ويسمعه وهو يكرر لفظة «أوم» طويلًا وبصوت رنان. وعندما تقدم رانجيت في السن قليلًا، تعلَّم إنشاد الترانيم، وتحديد مواضع الجسد الستة التي كان يلمسها، وتقديم الماء إلى التماثيل في غرفة الطقوس. لكنه ذهب بعدها إلى المدرسة. وهناك لم يعد لطقوسه الدينية مكان، وهكذا سُطرت نهايتها. وعندما بلغ العاشرة من عمره، أدرك أنه لن يسير على نهج والده الديني أبدًا.

لم يكن السبب في ذلك أن مهنة والده ليست جديرة بالاحترام. لم يكن معبد جانيش سوبرامانيان بنفس قِدَمِ أو اتساع المعبد الذي بُني ليحل محله. ومع أنهم أقدموا بشجاعة على تسميته بنفس اسم المعبد الأصلي — تيرو كونيسفارام — نادرًا ما كان كبير الكهنة يطلق عليه اسمًا آخر سوى «المعبد الجديد». لم يكتمل بناء المعبد حتى عام ١٩٨٣، وفيما يتعلق بمساحته لم يكن المعبد الجديد يضاهي تيرو كونيسفارام الأصلي؛ ذلك «المعبد الشهير ذي الألف عمود»، الذي مضت ألفا سنة على نشأته.

وفي النهاية لم يلتقِ رانجيت بوالده، وإنما التقى بسوراش العجوز. بدا معتذرًا. إذ قال: «هؤلاء الحجاج هم السبب، فأعدادهم هائلة! هناك أكثر من مائة حاجٍّ ووالدك — كبير الكهنة — مُصِرٌّ على تحية كل واحد منهم. اذهب يا رانجيت واجلس على صخرة سوامي، وتأمل البحر. سيلحق بك والدك ربما في غضون ساعة …» تنهَّد سوراش، وهز رأسه، ثم

انصرف لمساعدة رئيسه في التعامل مع الجمع الغفير من الحجاج. ليترك بذلك رانجيت يتدبر أمر نفسه.

والواقع أن ذلك العرض راق لرانجيت الذي اعتبر أن اختلاءه بنفسه على صخرة سوامي ساعة أو نحو ذلك هو هدية ترحيب.

المتأمل في صخرة سوامي قبل نحو ساعة كان سيجدها مزدحمة بأشخاص يتنزهون في ثنائيات أو أسر كاملة، ويزورون المعالم الشهيرة، أو يستمتعون بالنسيم العليل القادم من خليج البنغال. أما الآن — والشمس تتوارى خلف التلال نحو الغروب — تكاد الصخرة تخلو من زائريها.

هكذا كان رانجيت يفضل المكان. لقد أحب صخرة سوامي. في الحقيقة، لقد أحبها طوال حياته؛ أو ربما لا — هكذا عدل أفكاره — فهو في سن السادسة أو السابعة لم يكن يحب الصخرة نفسها قدر حبه للبحيرات الضحلة والشواطئ المحيطة بها حيث يمكنه اصطياد السلاحف النجمية الصغيرة وإجراء سباق فيما بينها.

غير أن هذا كان فيما مضى. أما الآن — وهو في السادسة عشرة من عمره — فإنه يعتبر نفسه رجلًا مكتمل النضج لديه أمور أهم للتفكير فيها.

وجد رانجيت مقعدًا حجريًّا خاليًا فجلس — مستمتعًا بدفء الشمس الآخذة في الدلوك وراء ظهره ونسيم البحر الذي يداعب وجهه — وهو يتهيأ للتفكير في الموضوعين اللذين كانا يشغلان فكره.

والحقيقة أن الموضوع الأول لم يكن بحاجة إلى الكثير من التفكير. لم يكن رانجيت مستاءً من غياب والده. لم يخبر جانيش ابنه البالغ من العمر ستة عشر عامًا عما يود الحديث بشأنه تحديدًا. لكن رانجيت كان متيقنًا من علمه بالأمر على نحو بعث الهم في نفسه.

كان الموضوع باعثًا على الشعور بالحرج، وأسوأ ما فيه أنه لم يكن له داعٍ على الإطلاق. كان يمكن تلافي الأمر برمته إذا تذكر رانجيت أن يغلق باب غرفته كي لا يتسنى للحارس في سكنه الجامعي أن يقتحم الغرفة عليه هو وصديقه ظهيرة ذلك اليوم. لكنه لم يغلق الباب. وفاجأهما الحارس بالدخول عليهما وكان رانجيت يعلم أن جانيش سوبرامانيان قد تحدث مع الرجل منذ وقت طويل. تحدث معه لغرض واحد — حسب قول جانيش — وهو الاطمئنان على أن رانجيت لا ينقصه شيء. لكن ذلك سيضمن بالتبعية أن يظل جانيش على علم تام بما يحدث في حياة ابنه.

تنهَّد رانجيت. ربما تمنى تفادي هذا الحوار المرتقب. لكنه لم يستطع؛ لذا فقد حوَّل اهتمامه إلى الموضوع الثاني — والأهم — الذي كان يشغله والذي دائمًا ما كان يحتل صدارة أفكاره.

ومن موقعه فوق صخرة سوامي — على ارتفاع مائة متر فوق المياه متلاطمة الأمواج في خليج البنغال — تَوجَّه رانجيت بنظره ناحية الشرق. على السطح — في وقت الغسق — لم يكن يُرى شيء سوى المياه؛ لا شيء على الإطلاق لمسافة تزيد عن ألف كيلومتر، باستثناء بضع جزر متبعثرة حتى تصل إلى ساحل تايلاند. في تلك الليلة كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ساكنة والسماء صافية تمامًا. لاح في شرق الأفق نجم لامع اصطبغ ضوءه قليلًا بلون أحمر مائل إلى البرتقالي فكان أشد النجوم تألقًا في السماء. تساءل رانجيت في نفسه عن اسم هذا النجم. لا شك أن والده يعرف. فجانيش سوبرامانيان كان واحدًا ممن يعتقدون بصدق وإخلاص في علم التنجيم كما يفترض لكاهن المعبد أن يكون. لكنه كان ذا باع طويل أيضًا في الاهتمام بشتى أنواع العلوم الدنيوية. فعرف كواكب المجموعة الشمسية، وأسماء العديد من العناصر، وكيف يمكن توليد طاقة كهربائية تكفي لإضاءة مدينة باستخدام عدد قليل من قضبان اليورانيوم المعدني، ووَرَّث قدرًا من هذا الشغف لابنه. ورغم ذلك لم يدم في عقل رانجيت الكثير عن علوم الفلك والفيزياء والأحياء، وإنما دام في عقله ذلك العلم الذي يربط جميع العلوم الأخرى بعضها ببعض، وهو علم الرياضيات.

أدرك رانجيت أنه يدين لوالده بهذا بسبب ذلك الكتاب الذي أعطاه إياه في ذكرى ميلاده الثالثة عشرة. كان كتابًا بعنوان «اعتذار عالم رياضيات» لعالم الرياضيات جي إتش هاردي. وفي هذا الكتاب، وقعت عينا رانجيت لأول مرة على اسم سرينفاسا رامانوجن؛ ذلك الموظف الهندي المُعْسِر الذي لم يتلقَّ أي تأهيل رسمي في الرياضيات بيد أنه صار معجزة عالَم الرياضيات في السنوات الحالكة التي شهدت أحداث الحرب العالمية الأولى. تلقى هاردي خطابًا من رامانوجن يضم نحو مائة نظرية اكتشفها، وهو الذي أحضر رامانوجن إلى إنجلترا، وأدخله عالم الشهرة.

كان رامانوجن مصدر إلهام رانجيت — فالنبوغ في الرياضيات قد ينبع من أي شخص — وخَلَّف الكتاب لدى رانجيت اهتمامًا خاصًّا وطاغيًا بنظرية الأعداد. لم يقتصر اهتمامه على نظرية الأعداد فحسب، وإنما اهتم بوجه خاص بالأفكار الرائعة التي كانت موضع بحث العبقري بيير دو فيرما الذي رحل منذ قرون، وبصورة أكثر تحديدًا تلك المسألة

الشهيرة التي تركها فيرما لخلفائه، وهي إيجاد برهان يؤيد أو ينفي نظريته الشهيرة المعروفة باسم «النظرية الأخيرة».

كان هذا هو شغل رانجيت الشاغل والاستحواذ المسيطر عليه، وهو الموضوع الذي عزم على تخصيص الساعة المقبلة للتفكير فيه. لم يكن رانجيت يحمل آلته الحاسبة في جيبه، وهو ما اعتبره أمرًا سيئًا للغاية، لكن صديقه الحميم أقنعه بألا يفعل. قال جاميني: «أتذكُر ابن عمي تشاريثا؟ ذلك الذي يعمل نقيبًا في الجيش؟ لقد قال لي إن بعض الحراس يصادرون الآلات الحاسبة على متن القطارات. ويبيعونها مقابل أي مبلغ يحصلون عليه من المال. وربما يبيعون آلتك الحاسبة التي أنتجتها تكساس إنسترامنتس والتي تساوي مائتي دولار نظير عشرة دولارات لأي شخص يرغب في حساب ما أنفقه من نقود فحسب؛ لذلك من الأفضل أن تتركها في المنزل.» وهذا ما فعله رانجيت.

كان غياب الآلة الحاسبة مصدر إزعاج لرانجيت، غير أنه لم يكن بالخطب الجلل؛ لأن بساطة النظرية الأخيرة لفيرما هي أروع ما يميزها. فهل هناك أبسط من: $أ^{٢} + ب^{٢} = ج^{٢}$؟ ومعناه أن مربع طول ضلع مثلث قائم الزاوية مضافًا إلى مربع طول الضلع الآخر يساوي مربع طول وتر المثلث. (أبسط صور هذه المعادلة أن يكون ضلعا المثلث طولهما ثلاث وأربع وحدات، وحينئذٍ يكون الوتر خمس وحدات، لكن هناك العديد من الحالات الأخرى ذات الحلول الوحدوية.)

يمكن لأي شخص إثبات هذه المعادلة البسيطة بنفسه باستخدام مسطرة وعملية حسابية بسيطة. وكان ما فعله فيرما ليشغل بال أجيال من علماء الرياضيات أنه زعم أن مثل هذه العلاقة تنطبق فقط على الأسس التربيعية، وليس على الأسس التكعيبية أو أي أس أعلى رتبة. وأضاف أن لديه البرهان على ذلك.

لكنه لم ينشر برهانه.

(إذا أردت مناقشة أكثر شمولًا للنظرية «الأخيرة»، فثمة واحدة في نهاية الكتاب بعنوان «الخاتمة الثالثة».)

* * *

مط رانجيت جسده، وتثاءب، واستفاق من أفكاره. التقط حصاة، وقذفها بأقصى قوته، وفقد أثرها في ضوء الغسق قبل لحظة من ارتطامها بالماء في الأسفل. ابتسم رانجيت. ثم اعترف لنفسه أن بعضًا مما يقوله الناس عنه ليس عاريًا من الصحة تمامًا. فعلى سبيل المثال، لم يكن من الخطأ كليةً أنهم يقولون إنه مشغول بأفكار تستبد به. فقد اختار مبكرًا

ما سيكرس نفسه له، وظل متمسكًا به، وصار الآن ما يمكن أن يطلق عليه المرء أحد أنصار فيرما. ما دام فيرما قد زعم أنه وجد البرهان، فإن رانجيت سوبرامانيان — شأنه في ذلك شأن كثير من علماء الرياضيات قبله — يعتبر وجود البرهان من المَسَلَّمات.

غير أن هذا لا يعني انحرافًا عن المسلك الطبيعي كما حدث مع برهان وايلز الذي حاول إقناع أستاذه في الرياضيات بمناقشته في الجامعة. فلو جاز تسمية هذا العبث القديم (الذي يرجع تاريخه إلى أواخر القرن العشرين) برهانًا، فإن رانجيت — الذي تردد في استخدام كلمة «برهان» لوصف شيء لا يمكن لبشر قراءته — لم يُنكر صلاحيته من الناحية الفنية. كل ما في الأمر أنه اعتبره هراءً ليس غير. والواقع أنه أخبر جاميني باندارا قبل أن يفاجئهما هذا الحارس المَقِيت بفتح باب الغرفة بقليل أن برهان وايلز قطعًا ليس هو البرهان الذي تباهى بيير دو فيرما باكتشافه على هامش كتاب «الحساب» لعالم الرياضيات ديوفانتس.

ومرة أخرى تجهم وجه رانجيت؛ لأن ما حدث بعد ذلك هو أنه أخبر جاميني بأنه سيجد مبرهنة فيرما بنفسه. وكانت تلك بداية المزاح الصاخب بين الصديقين والتعليقات التهكمية المضحكة التي أدت مباشرة إلى ما رآه الحارس عند دخول الغرفة عليهما. احتشدت ذكريات ذلك الوقت في عقل رانجيت حتى إنه لم يسمع وقع أقدام أبيه من خلفه، ولم يدرك وجوده إلى أن وضع الأب يده على كتف ابنه، وقال: «مستغرق في التفكير، أليس كذلك؟»

حالت ضغطة يد جانيش دون وقوف رانجيت. فجلس جانيش بجواره، وأخذ يتفرس في وجهه وملابسه وجسده. ثم قال متبرمًا: «أصبحت نحيفًا.»

أجاب رانجيت مبتسمًا: «وأنت أيضًا»؛ لكنه شعر ببعض القلق أيضًا إذ علت وجه أبيه نظرة لم يرَها من قبل قط امتزج فيها القلق والأسى على نحو غريب في وجه العجوز الذي اعتاد بساطة الوجه. وأضاف رانجيت: «لا تقلق. فهم يطعمونني جيدًا في الجامعة.»

أومأ والده برأسه. وقال في اعتراف منه بدقة العبارة، وبأنه على يقين أن ابنه يحصل على التغذية الكافية: «صحيح.» ثم أضاف: «أخبِرْني عما يفعلونه هناك من أجلك أيضًا.»

كان بإمكان رانجيت أن يعتبر تلك دعوة للحديث عن حقه في حياة خاصة وفي بعض الحرية التي تحول دون تلصص الخدم عليه. لكنه آثر تأجيل هذا الموضوع قدر ما يتسنى له. قال رانجيت مرتجلًا في عجالة: «إنها الرياضيات التي تشغل وقتي في الأساس. أتعرف النظرية الأخيرة لفيرما ...» وعندما عبَّرت النظرة التي علت وجه جانيش عن استمتاع حقيقي للمرة الأولى استطرد رانجيت: «حسنًا، بالطبع تعرفها. فأنت الذي أعطيتني كتاب

هاردي في الأساس، أليس كذلك؟ على أي حال هناك شيء يسمى برهان وايلز. إنه عمل بغيض. ما الذي استند إليه وايلز في برهانه؟ لقد استند إلى إعلان كين ريبيت أنه أثبت وجود رابط بين فيرما وبين فرضية تانياما-شيمورا، وهي فرضية تقول ...»

ربَّت جانيش على كتفه. وقال برفق: «حسنًا يا رانجيت. لا داعي لأن ترهق نفسك بشرح فرضية تانياما-شيمورا لي.»

فكر رانجيت هنيهة. ثم قال: «لا بأس. حسنًا، سأبسط الأمر. تكمن المشكلة الأساسية في حجة وايلز في نظريتين. تقول النظرية الأولى إن أيَّ منحنًى ناقص يكون شبه مستقر لكنه ليس معياريًّا. بينما تقول النظرية الثانية إن جميع المنحنيات الناقصة شبه المستقرة ذات المعاملات الجذرية تكون معيارية. ومعنى ذلك أن هناك تناقضًا مؤكدًا، و...»

تنهد جانيش في حنان. وعلَّق قائلًا: «أنت مشغول للغاية بهذا الأمر، أليس كذلك؟ لكنك تعرف أنني لست خبيرًا في الرياضيات؛ لذا دعنا نتحدث عن شيء آخر. ماذا عن باقي المواد الدراسية؟»

بدا رانجيت حائرًا قليلًا، فهو يعلم يقينًا أن أباه لم يأتِ به إلى ترينكومالي ليتحدث عن دراسته، فأجاب قائلًا: «ها. أجل. المواد الدراسية الأخرى.» لم يكن هذا الحوار يثير نفس القدر من الإزعاج الذي قد يثيره الحديث عما نقله الحارس من أخبار إلى أبيه. لكنه في الوقت نفسه لم يكن بالحوار الرائع أيضًا. تنهد رانجيت، واصطبر على الأمر. ثم قال: «حقًّا، لماذا يتعين عليَّ تعلُّم الفرنسية؟ ألكي أذهب إلى المطار، وأبيع الهدايا التذكارية إلى السياح الوافدين من مدغشقر أو كيبيك؟»

ابتسم والده. وقال موضحًا: «الفرنسية لغة ثقافة. فضلًا عن أنها اللغة التي يتحدث بها بطلك المحبوب مسيو فيرما.»

«حسنًا»، قالها رانجيت مدركًا لنقطة الخلاف، لكنه ظل غير مقتنع. ثم أردف: «ولكن ماذا عن التاريخ؟ من يأبه به؟ لِمَ يُفترض أن أعرف ما قاله ملك كاندي للبرتغاليين؟ أو هل طرد الهولنديون الإنجليز من ترينكو أم العكس؟»

ربَّت والده على كتفه مرة أخرى. وقال: «هناك إجابة سهلة لسؤالك. السبب هو أن الجامعة تتطلب اجتياز هذه المقررات قبل أن تمنحك درجتك الجامعية. وبعدها يمكنك أن تتخصص في دراساتك العليا حسب ما تريد. ألا تدرس في الجامعة شيئًا تستمتع به سوى الرياضيات؟»

انفرجت أسارير رانجيت قليلًا. وأجاب قائلًا: «ليس الآن، لكن في العام القادم سأكون قد انتهيت من علم الأحياء الممل هذا. حينئذٍ يمكنني أن أدرس مقررًا علميًّا مختلفًا، ولسوف

أدرس علم الفلك.» وعندما أتى على ذكر علم الفلك رفع نظره إلى السماء حيث النجم الأحمر المضيء الذي بات يغطي الأفق الشرقي حينئذٍ.

لم يحبطه والده. وقال وهو يتبع مسار رؤيته: «إنه المريخ. إنه متألق على نحو غير معتاد، والرؤية واضحة الليلة.» ثم أعاد جانيش نظره إلى ابنه. وقال: «بمناسبة الحديث عن كوكب المريخ، هل تذكر بيرسي مولزويرث؟ ذلك الشخص الذي اعتدنا زيارة قبره، أتتذكره؟»

فتش رانجيت في ذكريات طفولته، وشعر بالسعادة؛ لأنه وجد ما يساعده في الإجابة عن سؤال والده. فقال: «نعم بالتأكيد. إنه عالم الفلك.» كانا يتحدثان عن بيرسي مولزويرث، وهو نقيب في الجيش البريطاني أُرسِل إلى ترينكومالي قرب نهاية القرن التاسع عشر. أردف رانجيت وهو سعيد بالتحدث عن شيء سيسر والده: «كان عالمًا متخصصًا في دراسة كوكب المريخ، أليس كذلك؟ إنه الشخص الذي أثبت أن ...»

ساعده والده قائلًا: «القنوات.»

– «أجل، القنوات! أثبت أنها لم تكن قنوات حقيقية شقَّتها حضارة مريخية متقدمة، وإنما هي مجرد مثال لأنواع الخدع التي تُوقعنا فيها أعيننا.»

أومأ جانيش إيماءة تشجيعية. وقال: «إنه عالم الفلك — عالم الفلك عظيم الشأن — الذي أدى معظم عمله هنا في ترينكومالي، وهو ...»

قطع جانيش عبارته. والتفت يحدق في وجه رانجيت. ثم تنهد. وأردف: «أترى ما أفعله الآن يا رانجيت؟ إنني أؤجل الحديث في أمر لا مفر منه. فأنا لم أطلب منك أن تأتي هنا الليلة للحديث عن علماء الفلك. هناك أمر بالغ الأهمية لا بد من الحديث عنه. وهو علاقتك بجاميني باندارا.»

ها قد آن الأوان.

أخذ رانجيت نفسًا عميقًا قبل أن يقول مندفعًا: «صدقني يا أبي! الأمر ليس كما تظن! أنا وجاميني لا نأخذ هذا الأمر على محمل الجد. إنه لا يعني شيئًا.»

بدا والده مندهشًا على غير المتوقع. وهو يقول: «لا يعني شيئًا؟ بالطبع ما كنتما تفعلانه لا يعني شيئًا. أكنت تظن أنني لا أعرف الأساليب التي يحب الشباب أن يجربوا بها مثل هذه السلوكيات؟» هز رأسه معاتبًا، ثم علا صوته فجأة وهو يقول: «لا بد أن تصدقني في هذا يا رانجيت. ليست تجربة السلوك الجنسي هي الأمر المهم. إنما المهم هو الشخص الذي تشاركه التجربة.» ثم شدد على النبرة التوكيدية في صوته كأنما شُقَّ عليه نطق هذه الكلمات. وقال: «تذكر يا بني أنك تاميلي وأن باندارا سنهالي.»

كان أول رد فعل لرانجيت أنه لم يستطع تصديق ما سمعه من والده. كيف يمكن والده — الذي طالما علَّمه أن جميع البشر إخوة — أن يقول كلامًا كهذا الآن؟ لقد كان جانيش سوبرامانيان مخلصًا لمعتقداته على الرغم من أن أحداث الشغب العرقية التي بدأت في الثمانينيات من القرن العشرين خلفت جراحًا ربما تحتاج إلى عصور قبل اندمالها. فقدَ جانيش عددًا من أقربائه بسبب الغوغاء الثائرين. وهو نفسه نجا من الموت بأعجوبة أكثر من مرة.

لكن هذا تاريخ قديم. لم يكن رانجيت قد وُلِد بعد في هذه الأيام — بل ربما لم تكن والدته المتوفاة قد وُلِدت بعد هي الأخرى — وثمة هدنة معقودة منذ سنوات ويلتزم بها الجميع. رفع رانجيت إحدى يديه. وقال متوسلًا: «أرجوك يا أبي! هذا ليس كلامك. جاميني لم يقتل أحدًا.»

كرَّر جانيش سوبرامانيان كلماته المؤلمة في تعنت. ليقول: «جاميني سنهالي الأصل.»

– «لكن يا أبي! ماذا عن كل الأشياء التي علمتني إياها؟ وتلك القصيدة التي جعلْتَني أحفظها عن ظهر قلب، تلك القصيدة من الشعر التاميلي. «جميع البلاد بلادنا، وكل الناس أهلنا، هكذا علمتنا آراء الحكماء.»»

كان رانجيت يحاول إقناع والده بيأس وبلا جدوى. فجانيش لم يكن ليتأثر بأبيات من الشعر التاميلي نُظِمَت منذ ألفي عام. لم يرد والده، وإنما اكتفى بهز رأسه، رغم أن رانجيت قرأ علامات المعاناة في وجه أبيه أيضًا.

قال رانجيت في أسًى: «حسنًا. ماذا تريدني أن أفعل؟»

بدت الجدية في نبرة والده. إذ قال: «ما يتحتم عليك فعله يا رانجيت. لا يمكنك أن تظل قريبًا هكذا من شخص سنهالي.»

– «لكن لماذا؟ لماذا الآن؟»

أجاب والده: «الأمر ليس بيدي. لا بد أن ألتزم أولًا بالواجبات التي تمليها عليَّ صفة كبير كهنة المعبد، وهذا الأمر يُحدث شقاقًا.» ثم تنهد، وأضاف: «لقد نشأتَ على الإخلاص يا رانجيت. لذا فإنني لستُ مندهشًا لرغبتك في البقاء مع صديقك. كل ما أتمناه أن تجد سبيلًا للإخلاص لأبيك أيضًا، لكن ربما يكون هذا مستحيلًا.» هز جانيش رأسه، ثم وقف، ونظر إلى ابنه. وقال: «لا بد أن أخبرك يا رانجيت بأنك لست محل ترحاب الآن في منزلي. سوف يدبر لك أحد الرهبان مكانًا تبيت فيه الليلة. وإذا قررت في النهاية أن تقطع علاقتك بباندارا، فاتصل بي، أو اكتب لي لتخبرني بذلك. وإلى أن تفعل ذلك، ما من سبب يدعوك للاتصال بي مجددًا.»

وعندما استدار والده، وسار بعيدًا، انتابت رانجيت فجأة حالة من التعاسة …

ربما تحتاج هذه الحالة إلى تحليل عن كثب. فلا شك أن رانجيت شعر بالتعاسة لهذه الفجوة المفاجئة التي تكونت بينه وبين والده الحبيب. غير أن هذه الحقيقة لم تجعله يفكر في أنه قد يكون مخطئًا بأي حال من الأحوال. فهو ليس سوى فتًى في السادسة عشرة من عمره على أي حال.

* * *

على بُعد نحو عشرين سنة ضوئية وعلى سطح كوكب متخم بالخراب والتلوث إلى حد لا يمكن معه تصور وجود كائنات حية على سطحه، كانت تعيش على الرغم من هذا سلالة غريبة الهيئة تعرف باسم كائنات «واحد فاصل خمسة».

كانت القضية التي تشغل تفكير عقول كائنات «واحد فاصل خمسة» — وهم يستعدون لتنفيذ الأوامر المحتَّمة من أسيادهم «عظماء المجرة» — هي إلى متى سيستمر بقاؤهم.

صحيح أن كائنات «واحد فاصل خمسة» لم تتلقَّ أوامر التحرك بعد. لكنهم كانوا على علم بما سيحدث. لقد انتبهوا إلى الانبعاثات المزعجة القادمة من كوكب الأرض في ظل اندفاع أمواج الفوتونات المتتالية نحو كوكبهم. وكانوا على علم أيضًا بالوقت المحدد الذي ستصل فيه تلك الفوتونات إلى عظماء المجرة.

وفوق كل شيء، كانوا يعلمون تمامًا رد الفعل المتوقع من عظماء المجرة. كانت فرائصهم ترتعد داخل دروعهم الواقية لمجرد التفكير فيما قد يعنيه رد الفعل هذا بالنسبة إليهم.

لم يكن لدى كائنات «واحد فاصل خمسة» آمال سوى أمل واحد فقط. انحصر في أن يتمكنوا من إنجاز كل ما يطلبه عظماء المجرة منهم، وأن ينجوَ من سلالتهم بعد انتهاء هذه المهمة عدد يكفي لاستمرار سلالتهم في الحياة.

الفصل الثاني

الجامعة

كانت الأشهر القليلة الأولى من تلك السنة الدراسية في الجامعة أفضل العطلات لدى رانجيت سوبرامانيان. وبالطبع لم يكن ذلك بسبب المحاضرات ذاتها. فقد كانت هذه المحاضرات رتيبة للغاية. لكنها كانت تستغرق بضع ساعات في اليوم، وبعدها يتاح لرانجيت وجاميني باندارا كل الوقت الذي لم تستأثر به الجامعة بعد، فضلًا عن مدينة مثيرة يستكشفانها معًا. زار رانجيت وجاميني المدينة بأكملها بدءًا من حديقة أيتام الفيلة في بينيوالا وحديقة حيوان ديهيوالا وصولًا إلى نادي الكريكيت والعديد من الأماكن الأقل شهرة. بالطبع قضى جاميني معظم حياته في كولومبو. واستكشف جميع هذه الأماكن وأكثر من ذلك منذ زمن طويل، لكن تعريف رانجيت بها جعله يشعر أنه يراها لأول مرة. تمكَّن الفَتَيان أيضًا من زيارة بضعة متاحف ومسارح دون أن يتكلفا الكثير من المال، فقد كان والدا جاميني يتمتعان بعضوية أو بطاقات اشتراك لكل مكان في كولومبو، أو لكل الأماكن الجديرة بالاحترام على الأقل. أما أماكن الجذب غير الجديرة بالاحترام فكان الفتيان يكتشفانها بنفسيهما. كان يوجد العديد من الحانات والملاهي المتدنية المستوى التي تقدم شراب التودي، وأيضًا نوادي القمار التي كانت سببًا في اشتهار كولومبو بأنها «لاس فيجاس المحيط الهندي». وبطبيعة الحال زار الفتيان هذه الأماكن، لكنهما لم يكترثا كثيرًا للعب القمار، ومن المؤكد أنهما لم يحتاجا إلى تناول الكثير من المُسْكِرات كي يشعرا بالسعادة. فالشعور بالسعادة كان شأنهما دائمًا.

عادةً ما كان رانجيت وجاميني يلتقيان وقت الغداء في غرفة طعام الطلاب حالما ينتهيان من محاضرات الصباح. ولسوء الحظ لم تكن تجمعهما أيٌّ من هذه المحاضرات. فلما كان جاميني قد استلهم من والده اهتمامه بالعلوم السياسية والقانون، كان عدم اجتماعهما في المحاضرات أمرًا محتومًا إلى حد بعيد.

وإن لم يُتح لهما الوقت للتجول داخل المدينة، كانا يحصلان على نفس القدر من المتعة تقريبًا عن طريق استكشاف حرم الجامعة نفسه. في البداية وجدا مدخلًا يسهل التسلل منه إلى ردهة كلية الطب. كانت تلك الردهة هدفًا مبشِّرًا بما تحتويه من أطباق الحلوى وكميات كبيرة من المشروبات (غير الكحولية). وللأسف كانت هذه الأشياء بعيدة عن متناول الفتيَين دائمًا، ذلك أن ردهة الكلية تكاد لا تخلو أبدًا من أعضاء هيئة التدريس. عثر جاميني على مكان فتحات التهوية بغرفة تغيير ملابس الفتيات في صالة الألعاب الرياضية بكلية التربية، وكثيرًا ما كان يستغلها تاركًا رانجيت في حيرة. وفي بناية غير مكتملة البناء ملحقة بمبنى «طريق الملكات» وتبدو في ظاهرها مهجورة وجد الاثنان كنزًا. بحسب اللافتات البالية كانت هذه البناية ستخصص كليةً للقانون المحلي، وقد أُسِّست في وقت كانت الحكومة تعرض فيه السلام ليس على التاميليين فحسب وإنما على المسلمين والمسيحيين واليهود أيضًا.

كانت البناية نفسها شبه مكتملة، واحتوت على صف من المكاتب غير المجهزة بالأثاث والمخصصة لأعضاء هيئة التدريس، فضلًا عن قاعات دراسة بالكاد بدأ العمل فيها. أما المكتبة فقد بلغت مرحلة متقدمة في البناء. حتى إنها اشتملت على الكتب. أشار جاميني — الذي أصر والده على تعليمه اللغة العربية المبسطة في سن مبكرة — أن كتب الحنفية والمالكية والحنابلة في أحد جانبَي القاعة كانت موجَّهة لأهل السنة، وأن كتب المذهب الجعفري في الجانب الآخر من القاعة خاصة بالشيعة. وفي فتحة صغيرة بين الجانبين استقر جهازا كمبيوتر متوقفان عن العمل، لكنهما صالحان للتشغيل في أي وقت.

أثار هذا المبنى الشاغر داخل الفتيَين الرغبة في الاستفادة منه. وهذا ما حدث بالفعل. ففي وقت وجيز اكتشفا قاعة استقبال مزودة بأثاث بسيط؛ كان مكتب موظف الاستقبال من الخشب الرقائقي، والكراسي المصطفة بجوار الحائط من النوع القابل للطي الذي يوجد غالبًا في قاعات دور الجنازات. لكن ذلك لم يكن اكتشافهما الأكثر تشويقًا. فعلى سطح المكتب وجدا مجلة أمريكية مصورة — من نوعية المجلات المخصصة لحياة مشاهير هوليوود — بجوار غلاية كهربائية وعلبة ملفوفة بورق الألومنيوم بها طعام أحد الأشخاص.

لم يكن هذا المكان المنعزل يحظى بالسرية الكاملة مثلما ظن الفَتَيان. لكن أمرهما لم يُكتشف، فضحكا ضحكة خافتة وهما يعجلان بمغادرة المكان.

أشاع اكتشاف المكان الجديد السرور في نفس رانجيت. في حين أن الدراسة في الجامعة لم تترك الأثر نفسه. ومع اقتراب رانجيت من نهاية العام الأول، كان قد تعلَّم أشياء كثيرة

رأى أن القليل منها هو الذي يستحق عناء المعرفة. واعتبر رانجيت أن قدرته المكتشَفة حديثًا على تصريف معظم الأفعال المنتظمة في اللغة الفرنسية بل وتصريف عدد قليل من أهم الأفعال الشاذة مثل الفعل «يكون» لا تندرج ضمن فئة الأمور التي تستحق المعرفة. ورغم ذلك كان ثمة جانب إيجابي هو حصوله بطريقة ما على درجة النجاح في مادة اللغة الفرنسية، وهو ما يمكِّنه من تأمين مكان له كطالب لسنة تالية.

علاوةً على ذلك كاد علم الأحياء الذي يبغضه رانجيت كثيرًا أن يصبح مشوِّقًا عندما نفدت ضفادع التشريح لدى مدرس المادة (الذي أبغضه رانجيت بنفس الدرجة) وانتقل بعدها من الحديث النظري عن الحشرات الناقلة للأمراض إلى بعض القصص الإخبارية الواقعية التي تتداولها وسائل الإعلام في كولومبو. كانت هذه القصص تدور حول وباء جديد متفشٍّ يُدعى شيكونجونيا. كان اسمًا مأخوذًا من اللغة السواحلية ومعناه «الشيء المنحني» كناية عن وضع الانحناء الذي يتخذه المرضى الذين يعانون من ألم المفاصل الفتاك. بدا أن فيروس الشيكونجونيا كان موجودًا منذ فترة لكن بأعداد تكاد لا تذكر. أما الآن فإنه يعاود الظهور فجأةً، ويصيب جحافل من بعوضة الحمى الصفراء المصرية. أصيب آلاف الأشخاص في جزر سيشيل وغيرها من جزر المحيط الهندي بطفح جلدي وحمى وألم في المفاصل يُفقِد القدرة على الحركة، ونبَّههم المدرس إلى أنه ما زالت في سريلانكا أعداد لا حصر لها من المستنقعات وبرك المياه الراكدة التي تعد بيئة خصبة لتكاثر بعوضة الحمى الصفراء. لم يتطرق المدرس بالنفي أو الإثبات إلى الشائعة التي تقول إن كائن الشيكونجونيا ربما استُخدم «كسلاح» — أي إنه تم تخليقه خصوصًا لاستخدامه في الحرب البيولوجية (دون ذكر للدولة التي استخدَمَت أو استُخْدِم ضدها هذا السلاح) — وأنه انتقل إلى أراضي المحيط الهندي بصورة أو بأخرى.

اعتبر رانجيت أن هذا الحديث هو الأكثر تشويقًا ضمن الموضوعات المقفرة لمادة أساسيات الأحياء. دول مُعادية؟ مرض يستخدم كسلاح؟ أراد رانجيت التحدث مع جاميني حول هذه الأمور، غير أن هذا لم يكن ممكنًا. فجاميني مرتبط بمحاضرة في العلوم السياسية قبل الغداء مباشرة، وهكذا فلن يتمكن رانجيت من الحديث معه قبل ساعة أخرى على الأقل.

ولما استبد به الملل أقدم رانجيت على فعلٍ تحاشى القيام به معظم الفصل الدراسي. كان هناك ندوة مفتوحة للجميع من فاعلي الخير المتطوعين حول مشكلات المياه في العالم. استُحِث جميع الطلاب على الحضور، وكالمتوقع اتخذ معظمهم موقفًا حاسمًا بالتغيب عن

حضور الندوة. وهكذا صارت الندوة مكانًا يستطيع فيه رانجيت أخذ سِنَة من النوم دون أن يتحدث إليه أحد.

لكن المُحاضر افتتح الندوة بالحديث عن البحر الميت.

لم يكن رانجيت قد فكر من قبل في البحر الميت، غير أن المُحاضر اعتبره كنزًا مستترًا. فقد ذكر أنه يمكن حفر قنوات من البحر المتوسط إلى البحر الميت على عمق أربعمائة متر أسفل مستوى سطح البحر والاستفادة من فرق الارتفاع في توليد الكهرباء.

تسارعت الأفكار في عقل رانجيت. واعتبرها حلًّا للمشكلة على نطاق واسع وأنها تستحق التنفيذ! وصار لا يطيق صبرًا على إخبار جاميني بها.

لكن عندما ظهر جاميني أخيرًا في وقت الغداء، لم يبدِ تأثرًا بالفكرة. وإنما قال: «إنه موضوع قديم. أخبرنا صديق والدي الدكتور العصر — وهو مصري الجنسية درس مع أبي في نفس المدرسة بإنجلترا — بهذا الأمر بينما كنا نتناول العشاء معه ذات مرة. لكن هذه الفكرة لن تتحقق أبدًا. فهي فكرة إسرائيلية، والأفكار الإسرائيلية لا تروق الدول الأخرى هناك.»

أبدى رانجيت دهشته مما سمع. فالمُحاضر لم يذكر أنها فكرة إسرائيلية. أو أنها طُرحت منذ عشرين عامًا، وأنه ما دامت هذه القنوات لم تُبنَ في عشرين عامًا فمن غير المرجح أن تُبنى الآن.

ولم يثر الحديث عن الشيكونجونيا اهتمام جاميني أيضًا، ثم حان دوره في أن يُعَلِّم رانجيت شيئًا. قال جاميني لصديقه: «مشكلتك هذه يطلقون عليها متلازمة «جي إس إس إم». أتعرف ما هي؟ كلا، لا تعرف، لكنها تصف حالتك تحديدًا. فأنت تشغل نفسك بأمور عديدة يا رانج. وتترك عقلك مشتتًا بين هذه الأمور. يقول أستاذ علم النفس إن ذلك قد يصيبك ببلادة العقل؛ فكل مرة تنتقل فيها من أمر لآخر، تعوق نفسك عن مواصلة الأمر الأول، وقد يؤدي تكرار ذلك كثيرًا إلى التأثير الدائم على القشرة الدماغية الجبهية وإصابتك باضطراب نقص الانتباه.»

قطَّب رانجيت جبينه. كان يعبث بكمبيوتر جاميني المحمول. بدأ رانجيت مؤخرًا تعلُّم كل ما يستطيع حول أجهزة الكمبيوتر. وأخيرًا قال: «ما اضطراب نقص الانتباه هذا؟ ثم ما هي متلازمة «جي إس إس إم»؟»

نظر إليه جاميني مستنكرًا. وقال: «يجدر بك محاولة متابعة آخر المستجدات يا رانج. اضطراب نقص الانتباه واضح من اسمه، و«جي إس إس إم» اختصار للحروف

الأولى من أسماء الأشخاص الأربعة الذين بحثوا في متلازمة أداء عدة مهام في وقت واحد. وهم جرافمان وستون وشوارتز وماير. يُذكر أن سيدة تدعى يونج جيانج شاركت في هذا البحث أيضًا، لكني أظن أنه لم يكن هناك متسع لوضع أول حرف من اسمها. على أي حال يبدو لي أنك مشغول للغاية بأحداث تتعدى نطاق سيطرتك.»

كان كمن ضُبط في حالة تلبس. ورغم ذلك حرص رانجيت قبل أن يأوي إلى فراشه تلك الليلة أن يشاهد الأخبار ليثبت أنه ليس متأثرًا بآراء صديقه. لم يكن كثير من هذه الأخبار سارًّا. ما زال الكثير من الدول تصرح في تعنت أن لديها كل الحق في اختيار البرامج النووية التي تنفذها، بل إن معظم هذه الدول دخل مرحلة التنفيذ الفعلي. وكالمعتاد كانت كوريا الشمالية تمعن في إظهار نفسها نموذجًا للدولة المارقة. وفي العراق الذي تعتريه اضطرابات دائمة، هددت غارة للشيعة على أراضٍ كردية غنية بالبترول ببدء سلسلة جديدة من الاضطرابات التي صارت طابعًا مميزًا لهذا البلد.

وهكذا كان حال بقية الأخبار.

وثمة أمر شخصي على وشك أن يضاف إلى قائمة الأخبار السيئة في غداء اليوم التالي أيضًا.

لم يدرك رانجيت ذلك على الفور. عندما رأى صديقه جاميني — وهو واقف أمامه يحدق في الكافيتريا بارتياب بدلًا من أن يطلب طعامهما — لم يشعر رانجيت بشيء سوى سعادته لرؤية صديقه مجددًا. لكنه انتبه للتعبير الذي علا وجه جاميني وهو يتخذ مقعده. سأله رانجيت: «هل من خطب؟»

أجاب جاميني على الفور: «خطب؟ لا، بالطبع لا.» ثم تنهد، واستطرد قائلًا: «تبًّا، في الواقع يا رانجيت هناك أمر أود إخبارك به. إنه عهد قطعته لأبي منذ سنوات.»

ساور الشك رانجيت في الحال. فلا يمكن أن يُرجَى خير من وراء عهد يخبره عنه بهذه اللهجة. وتساءل: «أي عهد هذا؟»

– «وعدت أبي أن أقدم أوراقي للانتقال إلى كلية لندن للاقتصاد بعد أن أنهي عامي الأول هنا. فقد زارها منذ سنوات، ويظن أنها أفضل كلية لتدريس العلوم السياسية في العالم.»

امتزج الاستياء بالدهشة في صوت رانجيت. قال متسائلًا: «العلوم السياسية؟ في كلية اقتصاد؟»

– «هذا ليس اسم الكلية كاملًا يا رانجيت. فاسمها كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية.»

هنا لم يستطع رانجيت أن يجيب إلا بالتعبير عن دهشته قائلًا: «ماذا؟» لكنه أضاف بعدها في تجهم: «إذن سوف تتقدم إلى الكلية الأجنبية فقط لتحفظ عهدك الذي قطعته لأبيك؟»

تنحنح جاميني. وقال: «ليس تمامًا. أعني أن الأمر لا يتعلق بما سأفعل. وإنما بما فعلته بالفعل. لقد تقدمت بأوراقي منذ سنوات. كانت تلك فكرة أبي. حيث قال إنه كلما بادرت بتقديم أوراقي زادت فرصتي في القبول، ويبدو أنه كان محقًّا. المشكلة يا رانجيت أنني قُبِلت بالفعل. تسلمنا الخطاب الأسبوع الماضي. وسوف أبدأ في كلية لندن ما إن تنتهي السنة الدراسية هنا.»

كان هذا هو ثاني الأحداث السيئة التي اعترت صداقة رانجيت سوبرامانيان وجاميني باندارا، وكان إلى حد بعيد أسوأ الحدثين.

لم تتحسن أحوال رانجيت. فها هي شحنة الفئران البيضاء المُحَنَّطة التي طلبها أستاذ علم الأحياء قد وصلت أخيرًا، وسوف تبدأ عملية التشريح المروعة مرةً أخرى، ولن يكون هناك مجال للحديث عن الموضوعات الشيقة مثل الشيكونجونيا. حتى أستاذ الرياضيات — الذي كان رانجيت يعوِّل على أنه سيكون سببًا يعينه على تحمل الأساتذة الآخرين — كان يخيب أمله.

مع انتهاء الأسبوع الأول في الجامعة، بات رانجيت متيقنًا أنه ألمَّ بكل موضوعات الجبر التي قد يحتاج إليها. فحل لغز فيرما الكبير لن يعتمد على القطوع المخروطية أو رموز المجموع. ورغم ذلك اجتاز رانجيت الأشهر القليلة الأولى بسهولة؛ فتحليل كثيرات الحدود إلى عوامل واستخدام الدوال اللوغاريتمية كانت على الأقل أمورًا مسلِّية إلى حد ما. ولكن في الشهر الثالث بات واضحًا أن أستاذ الرياضيات الدكتور كريستوفر داباري لم يكن يخطط لتدريس أي شيء يتعلق بنظرية الأعداد؛ ليس هذا فحسب وإنما اتضح أنه لا يعرف الكثير عن هذه النظرية من الأساس. والأسوأ أنه لم يكن راغبًا في التعلم أو في مساعدة رانجيت على التعلم.

اكتفى رانجيت بالمصادر المتاحة في مكتبة الجامعة فترةً من الوقت، لكن عدد الكتب في المكتبة كان محدودًا. وعندما انتهى من جميع كتب المكتبة، أصبح ملاذه الأخير بعض أو كل المجلات المتخصصة في الحديث عن نظرية الأعداد، مثل «مجلة نظرية الأعداد» التي تصدرها جامعة ولاية أوهايو في الولايات المتحدة أو «مجلة نظرية الأعداد» التي

تصدر في مدينة بوردو الفرنسية، والتي ستمكِّن رانجيت أخيرًا من الاستفادة من معرفته السطحية باللغة الفرنسية. لكن مكتبة الجامعة لم تكن مشتركة في أيٍّ من هذه المجلات، ولا يستطيع رانجيت الوصول إليها بنفسه. حسنًا، يمكن للدكتور داباري الوصول إليها عن طريق استخدام كلمة المرور الخاصة باعتباره واحدًا من أعضاء هيئة التدريس. لكن داباري ما كان ليفعل ذلك.

عندما قارب العام الدراسي على الانتهاء، احتاج رانجيت صديقًا يفضي إليه بمشاعر الإحباط التي ملكت عليه نفسه. لكن ذلك لم يكن متاحًا أيضًا.

كان ابتعاد جاميني عن رانجيت مسافة تسعة آلاف كيلومتر أمرًا سيئًا للغاية. لكن الأسوأ من ذلك أن الصديقين لن يستطيعا قضاء الأسابيع القليلة الأخيرة معًا. وكما اتضح لرانجيت فإن التزامات جاميني العائلية تأتي أولًا. في البداية قضى جاميني عطلة أسبوعية في كاندي؛ تلك «المدينة العريقة» التي كانت ذات يوم عاصمة للجزيرة. أصر أحد فروع عائلة جاميني على البقاء في المكان الذي كان موطن العائلة قبل أن يستقطب «الجاذبُ الأعظم» — أو مدينة كولومبو الصاخبة — المفكرين وذوي النفوذ بل والطامحين إلى موضع النفوذ الحالي. ثم كانت عطلة أسبوعية أخرى في راتنابورا حيث يشرف أحد الأقارب على مصالح العائلة في مناجم الأحجار الكريمة، وتلتها عطلة أخرى في المكان الذي تشرف فيه جدة جاميني على مزارع القِرفة التي يمتلكونها. وحتى عندما كان جاميني موجودًا بالمدينة، كان مشغولًا بواجبات لا بد من أدائها، ولم تكن هناك فرصة حقيقية لاصطحاب رانجيت معه عند أداء تلك الواجبات.

في غضون ذلك لم يجد رانجيت أمامه شيئًا يفعله ... سوى حضور محاضراته الرتيبة في المواد الدراسية التي كانت تفتقر إلى التشويق والتي لم يكن يكترث لأمرها من الأساس. وحينئذٍ كانت في انتظاره مشكلات.

حدث ذلك عند انتهاء محاضرة علم الاجتماع التي لم تنل إعجاب رانجيت قط. كان أستاذ المادة — الذي لم يكن يروق رانجيت أيضًا — هو الدكتور مينديس، وبينما كان رانجيت يهم بالانصراف، كان ميديس واقفًا عند الباب يحمل المفكرة ذات الغلاف الأسود التي يدون فيها الدرجات. قال ميديس لرانجيت: «راجعت لتَوِّي درجات امتحان الأسبوع الماضي. ودرجاتك غير مُرضية.»

لم يكن في ذلك ما يثير دهشة رانجيت. أجاب دون تفكير وهو يحدق النظر في زملائه الذين أسرعوا يتوارون عن الأنظار: «أعتذر يا سيدي.» ثم أضاف وهو يستعد للحاق بزملائه: «سأحاول تحسين أدائي.»

لكن الدكتور مينديس لم يكن قد انتهى من حديثه بعد. فقال: «تذكر أنني أوضحت في بداية الفصل الدراسي كيف ستُحسب درجاتكم النهائية. تُحسب الدرجة النهائية على أساس درجة اختبار نصف العام والاختبارات المفاجئة ونسبة الحضور والمشاركة في المحاضرة وأخيرًا الاختبار النهائي وذلك بنسب ٢٥ بالمائة و٢٠ بالمائة و٢٥ بالمائة و٣٠ بالمائة. وعليَّ أن أخبرك الآن أنه رغم أدائك المعقول في اختبار نصف العام فإن أداءك في المحاضرات وفي الاختبارات المفاجئة أقل بكثير من المستوى المطلوب؛ بمعنى أنه يتعين عليك الحصول على ٨٠ بالمائة على الأقل في الاختبار النهائي كي تحصل بالكاد على تقدير مقبول. ولا أظن حقًّا أنك قادر على هذا.» ألقى مينديس نظرة على الدرجات في مفكرته، ثم أومأ برأسه، وأغلق المفكرة بحدة. وأضاف: «لذا أقترح عليك أن تفكر في تقديم اعتذار عن خوض الاختبار النهائي لهذه المادة والاكتفاء بتقدير «غير مكتمل».» رفع يده كأنه يمنع رانجيت من الاعتراض، على الرغم من أن رانجيت لم يكن ينوي الاعتراض. وأردف: «أعلم بالطبع أن هذا سيعرقل آمالك في مواصلة المنحة الدراسية. لكنه سيكون أفضل من الإخفاق كليةً، أليس كذلك؟»

وجد رانجيت نفسه مضطرًّا للموافقة وإن لم يرفع صوته بها كي لا يشبع رغبة الدكتور مينديس. وعندما خرج من قاعة المحاضرات لم يجد من الطلاب في القاعة سوى فتاة حسنة المظهر تنتمي لطائفة البرجر تكبره في السن ببضع سنوات. لاحظ رانجيت أنها كانت معه في محاضرة علم الاجتماع، لكنها لم تكن في نظره سوى قطعة من أثاث قاعة المحاضرات. لم يكن في حياة رانجيت ما يربطه بأفراد البرجر — وهو الاسم الذي أُطلق على هذه الفئة الصغيرة من الشعب السريلانكي التي يمتد نسلها إلى قدماء المستعمرين الأوروبيين. ويُطلق على الإناث منهم على وجه التحديد.

كانت الفتاة تتحدث عبر الهاتف المحمول، لكنها أغلقته عندما اقترب رانجيت. وقالت: «سيد سوبرامانيان؟»

توقف رانجيت دون إبداء أدنى رغبة في الحديث. وصاح: «نعم؟»

يبدو أنها لم تأخذ رده على محمل الإساءة. وإنما قالت: «اسمي مايرا دو سويزا. لقد سمعت ما قاله لك الدكتور مينديس. هل ستفعل ما أشار عليك به وتكتفي بتقدير «غير مكتمل»؟»

كانت الفتاة تزعجه بحق. فقال: «أتمنى ألا يحدث هذا. ولِمَ أُضطر لذلك؟»

– «أوه، لست مضطرًّا. فكل ما تحتاج إليه هو القليل من المساعدة في المذاكرة. لا أدري إن كنت لاحظت أني أحصل على أعلى التقديرات دائمًا أم لا. يمكنني أن أساعدك في المذاكرة إن شئت.»

لم يتوقع رانجيت أن يسمع شيئًا كهذا، وعلى الفور تنبهت مشاعر الشك لديه. فسألها «لِمَ ترغبين في القيام بذلك؟»

وأيًّا كان السبب الحقيقي — ربما لأنه كان شابًّا وسيمًا فحسب — فإنها قالت: «لأني لا أظن أن الدكتور مينديس يعاملك بإنصاف.» لكن خيبة الأمل بدت على وجهها إزاء استجابته حتى إنها ربما تكون قد شعرت بالإهانة. فزادت نبرة صوتها حدة. وقالت مستطردة: «أخبرني فحسب إذا لم تكن تود المساعدة. لكن عليك أن تعرف أن ما يسميه الدكتور مينديس علم اجتماع ما هو إلا حفظ لما يرد بالكتب، وغالبًا ما يقتصر الأمر على الأجزاء المتعلقة بسريلانكا. يمكنني أن أشرحه لك قبل الاختبار النهائي بوقت كافٍ.»

فكر رانجيت في هذا العرض هنيهة. لكن الطبع غَلَّاب؛ فهي في النهاية ليست سوى أنثى. وأخيرًا رد رانجيت: «أشكرك، لكنني سأكون على ما يرام.» ثم أومأ برأسه إيماءة تعبر عن بالغ امتنانه في محاولة لإظهار الكياسة، واستدار وسار مبتعدًا.

ومع أنه ترك الفتاة وراءه، فقد حمل معه ما قالته له.

كان كلامها ينطوي على حصافة؛ صحيح أنه كلام صادر عن امرأة لكنه لا يخلو من الحكمة. من يكون هذا الأستاذ ليخبره أنه لن يستطيع اجتياز الاختبار النهائي بتفوق؟ هناك آخرون يعرفون تاريخ سريلانكا غير مدرس سنهالي وامرأة من البرجر. كان رانجيت متأكدًا من أن هناك مكانًا محددًا تُختزن فيه هذه المعرفة، وأن القائمين على هذا المكان سوف يَسعدون لمشاركته إياها.

اجتاز رانجيت الاختبار النهائي. ليس بنسبة الـ ٨٠ بالمائة التي اعتبرها الدكتور مينديس «مستحيلة» وتبعث على السخرية؛ وإنما بنسبة ٩١ بالمائة، وهي إحدى أعلى خمس درجات لهؤلاء الذين تقدموا للاختبار هذا العام. وماذا عسى الدكتور مينديس يقول الآن؟

كان رانجيت على يقين من أن انقطاع أبيه عن الاتصال به لا يعني أنه سيأبى مساعدة ابنه. وقد كان محقًّا. فعندما أخبر رانجيت سوراش — الراهب العجوز الذي رد على مكالمته — بحاجته إلى المساعدة سمع الرد الذي توقعه. قال سوراش متحفظًا: «لا بد

أن أستشير كبير الكهنة بخصوص هذا الأمر. من فضلك عاود الاتصال بي بعد ساعة.» لكن الشك لم يساور رانجيت بشأن الرد الذي سيتلقاه، وبالفعل أعد حقيبته فوضع فيها فرشاة الأسنان وثوبًا داخليًّا نظيفًا وكل ما قد يحتاج إليه أثناء إقامته في ترينكومالي قبل أن يعاود الاتصال مرة أخرى. قال الراهب المسن: «حسنًا يا رانجيت. تعالَ في أسرع وقت ممكن. سوف نوفر لك ما تطلب.»

كان السبيل الوحيد الذي يمكن أن يسلكه رانجيت للوصول إلى ترينكومالي هو السفر متطفلًا على شاحنة كانت تفوح منها رائحة طعام السائق المنكه بالكاري وأيضًا رائحة حمولتها من لحاء القرفة العَبِقَة. كان هذا يعني أنه سيصل المعبد بعد منتصف الليل بوقت طويل. لا شك أن والده قد خلد إلى النوم منذ وقت طويل، ولم يعرض الكاهن المساعد الذي كان يتولى نوبته حينئذٍ أن يزعجه. غير أن هذا الكاهن كان على استعداد لتلبية جميع مطالب رانجيت، فوفر له حجرة صغيرة وسريرًا وثلاث وجبات يومية متواضعة (لكنها تفي بالغرض) وإمكانية الوصول إلى أرشيف المعبد.

لم تكن السجلات مكتوبة على ورق الرَّق أو جلود الحيوانات كما كان يخشى رانجيت؛ فقد كان معبد والده مزودًا بجميع الضروريات العصرية. وعندما استيقظ رانجيت ذاك الصباح وجد كمبيوتر محمولًا على الطاولة بجوار سريره، ومن خلاله تمكن من الوصول إلى تاريخ سريلانكا كله منذ عصور قبائل الفيدا — أول سكان الجزيرة — وحتى الوقت الحاضر. كان هناك الكثير من المعلومات التي لم يتطرق إليها المدرس، لكن رانجيت أحضر معه كتاب المادة؛ ليس من أجل المذاكرة، وإنما ليستدل منه على الأجزاء التي يمكنه أن يتجاهلها في تاريخ الدولة دون مشكلة. كان أمامه خمسة أيام فقط قبل أن يضطر إلى العودة للجامعة. لكن تكريس هذه الأيام الخمسة لدراسة موضوع واحد كان كافيًا تمامًا لشاب يتمتع بالذكاء والحافز مثل رانجيت سوبرامانيان. (ولم يشتت انتباهها بأداء عدة مهام في وقت واحد. وهو ما يُحسب لصالح نظرية متلازمة «جي إس إس إم».) إضافة إلى ذلك تعلَّم رانجيت عددًا من الأشياء التي لن تَرِد في الاختبار النهائي. فقرأ عن الثروة الهائلة من اللآلئ والذهب والعاج التي استولى عليها البرتغاليون من معبد أبيه قبل تدميره مباشرة. وعلم أيضًا أن التاميليين حكموا الجزيرة بأسرها طوال خمسين عامًا، وأن الجنرال الذي ألحق الهزيمة بالقوات التاميلية في النهاية و«حرَّر» شعبه ما زال موضع تقدير السنهاليين المعاصرين ومن بينهم عائلة جاميني؛ لأن والده — داتوسينا باندارا — سُمِّي بهذا الاسم تيمنًا بهذا الجنرال.

توجه رانجيت إلى حجرة جاميني مباشرة عندما أوصلته سيارة المعبد إلى الجامعة. وانفرجت أساريره وهو يقرع باب جاميني ويفكر في مدى متعته عندما يخبره بما عرف.

لكن هذا لم يحدث. فجاميني لم يكن في غرفته.

عندما أيقظ رانجيت الحارس الليلي، أخبره الرجل بصوت يملؤه النعاس أن السيد باندارا غادر منذ يومين. تُرى إلى منزل عائلته في فورت؟ كلَّا، على الإطلاق. لقد رحل إلى لندن في إنجلترا حيث سيُكمل السيد باندارا دراسته.

وعندما عاد رانجيت إلى غرفته في النهاية وجد خطابًا تركه له جاميني، لكن كل ما جاء به كان رانجيت يعلمه بالفعل. فقد قال في خطابه إن موعد رحلته إلى إنجلترا تَقَدَّم بضعة أيام. وإنه سيسافر. وسوف يفتقد رانجيت.

لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي تكدَّر له رانجيت. كان من الطبيعي تمامًا ألا يزعج موظفو المعبد والد رانجيت عندما وصل في وقت متأخر من الليل. لكن قد لا يكون من الطبيعي ألا يزعج والده نفسه بالاطمئنان على ابنه ولو مرة واحدة طوال الأيام الخمسة التي قضاها في المعبد.

أخبر رانجيت نفسه وهو يطفئ المصباح بجوار فراشه أن هذا أمر غريب. فوالده لم يغفر له قربه من جاميني باندارا. لكن جاميني ليس قريبًا منه الآن على الإطلاق، فهناك تسعة آلاف كيلومتر تفصل بينهما.

هكذا فقدَ رانجيت أغلى شخصين في حياته، فماذا عساه أن يفعل إذن في هذه الحياة؟

في تلك الأثناء وقع حدث جلل آخر. لكن لم يكن رانجيت أو أي إنسان آخر يدري عنه شيئًا. وقع هذا الحدث على بعد سنوات ضوئية عديدة في المنطقة المجاورة لنجم لم يعرف عنه الفلكيون من البشر شيئًا سوى مطلعه المستقيم وميله الزاوي. أخيرًا وصلت واحدة من أنصاف الكرات الضخمة والمتنامية من الفوتونات — ربما تلك القادمة من جزيرة إينويتوك المرجانية وربما إحدى القنابل السوفييتية العملاقة — إلى مكان نتج عن وصول نبضات الفوتونات إليه اتخاذ قرار خطير ستكون له تبعاته المؤلمة على سكان كوكب الأرض. دقت هذه النبضات ناقوس الخطر لدى مجموعة معينة من الأذكياء ذوي القدرات الخاصة (أو ربما أحد هؤلاء الأذكياء؛ لأن طبيعتهم تجعل من الصعب اختيار صيغة للإشارة إليهم) الذين سكنوا (أو سكن جزء صغير منهم) في دوامة إحدى جداول المادة المظلمة في ذلك الجزء من المجرة.

عُرف هؤلاء العقلاء باسم عظماء المجرة. وما إن انتبه «عظماء المجرة» لما يحدث حتى وضعوا مجموعة متشعبة من الاحتمالات. وقد تطابقت الصورة الناتجة مع أسوأ توقعاتهم.

وضع «عظماء المجرة» العديد من الخطط والأهداف ربما كان بعضها مفهومًا للبشر. وكان أحد اهتماماتهم الرئيسية ينصبُّ على مراقبة سير القوانين الفيزيائية الطبيعية للمجرة. فعل البشر الشيء نفسه أيضًا، لكن تمثل مبررهم للقيام بذلك في محاولة فهم تلك القوانين. أما الاهتمام الرئيسي لدى عظماء المجرة، فكان يتمثل في ضمان ألا تتطلب هذه القوانين تغييرًا. وكان ثمة اهتمامات أخرى أكثر سرية.

لكن كان هناك اهتمام واحد على الأقل واضحًا جليًّا. وهو ما يمكن ترجمته بعبارة «احموا المسالمين. واعزلوا مصادر الخطر. ودمروا المؤذين، بعد الاحتفاظ باحتياطي في مكان آمن.»

كان هذا هو مصدر انزعاج عظماء المجرة. فمن المرجح أن تلجأ الأجناس التي طورت أسلحة معينة إلى اختبار هذه الأسلحة على أجناس أخرى، وهو أمر لا يمكن التغاضي عنه.

بناءً على ذلك توافق «عظماء المجرة» بإجماع الآراء (ذلك أن هذا هو نوع التوافق الوحيد الذي يعرفونه) على توجيه تعليمات إلى واحد من أحدث الأجناس التابعة لهم وأكثرها نفعًا، وهم تساعيو الأطراف. ضمت هذه التعليمات شقين. الأول هو إعداد رسالة لاسلكية موجَّهة إلى كوكب الأرض بآلاف اللهجات واللغات المستخدمة في البث الإلكتروني على سطح الكوكب حتى يتسنى للخبراء من «تُساعيي الأطراف» تعلُّم تلك اللغات واللهجات واستخدامها في التواصل مع البشر. تلخص مضمون هذه الرسالة ببساطة في عبارة: «كُفُّوا وتَوَقَّفوا.» (كان «تساعيو الأطراف» بارعين في اللغات على وجه التحديد. وهو أمر غريب كليةً بين الأجناس التابعة لعظماء المجرة. إذ إنهم لم يشجعوا الأجناس التابعة لهم للتحدث بضعهم مع بعض.)

أما الشق الثاني من تعليمات «عظماء المجرة» فكان يُلزم «تساعيي الأطراف» بالاستمرار في مراقبة كوكب الأرض عن كثب وتكثيف هذه المراقبة.

ربما ظن أي مراقب خارجي أنه من الغريب أن يعهد «عظماء المجرة» بمثل هذه المسئولية الكبيرة لفصيلة هي في نهاية الأمر حديثة العهد نسبيًّا بخدمتهم. غير أن «عظماء المجرة» عهدوا إلى «تساعيي الأطراف» بمهام أخرى على مدار بضعة آلاف عام مضت منذ انضمامهم إلى قائمة الأجناس التابعة، ولقد لاحظ «عظماء المجرة» أن «تساعيي الأطراف»

يتميزون بالمثابرة وحب الاستطلاع والدقة في إنجاز المهام الموكلة إليهم. وهي صفات يقدرها عظماء المجرة. ولم يخطر ببالهم أن «تساعيي الأطراف» قد يتسمون بصفات أخرى كخفة الظل على سبيل المثال.

الفصل الثالث

مغامرة في فك الشفرة

كانت عطلة الصيف التي تفصل نهاية عام رانجيت الأول في الجامعة عن بداية عامه الثاني تبلغ قرابة الشهرين. ما زال معظم أعضاء هيئة التدريس بالجامعة يعتبرون هذا التغيير في الجدول الزمني للدراسة تجربة جديدة تمامًا. فحتى وقت قريب لم تكن الجامعة تسمح بعطلة الصيف مطلقًا على أساس أن سريلانكا لا تشهد تغيرًا في فصول السنة على الإطلاق بسبب قربها من خط الاستواء. لكن احتجاج الطلاب طوال بضع سنوات — فضلًا عن إدراك الجامعة لحاجة الشباب في هذه السن إلى الانقطاع عن العلم بين حين وآخر — دفع الجامعة إلى تجربة النظم المعمول بها لدى الجامعات الغربية.

لم تُثبت هذه التجربة نجاحًا في نظر رانجيت. هذا لأن جاميني كان بعيدًا؛ ولذا لم يكن أمامه أحد يشاركه الاستمتاع بالعطلة، فضلًا عن أن أخبار العالم ظلت سيئة كما هي.

ومما زاد الأمر سوءًا أن الأوضاع بدت مبشرة فترة ما. كان من المقرر عقد اجتماع للقوى العظمى من أجل نزع فتيل عدد من الحروب الطاحنة في العالم. بدا هذا الإعلان كأنه تطور مبشِّر، لكن اختيار مقر انعقاد الاجتماع لم يجرِ كما كان مرجوًّا. اقترحت روسيا عقد الاجتماع في كييف عاصمة أوكرانيا، غير أنه أثناء التصويت خسرت كييف بصوتين مقابل صوت واحد. قدمت الصين اقتراحًا بعقد الاجتماع في مدينة هو تشي مينه في فيتنام لكنها خسرت هي الأخرى بالفارق نفسه. وهكذا كان حال الاقتراح الأمريكي المتمثل في مدينة فانكوفر بكندا. وهو ما أدى إلى مغادرة ممثلي الصين لمقر الأمم المتحدة محتدِّين ومصرحين بأن قوى الغرب ليست مهتمة حقيقةً بالسلام العالمي.

كان المفوَّضون الأمريكيون والروس قد توقعوا حدوث ذلك، وأعدوا خطة للتعامل معه. وفي بيانات مشتركة ندد الأمريكيون والروس بإخفاق الصين في إخضاع غرورها

القومي لمتطلبات السلام، وأعلنوا عزمهم على أن ينحُّوا منازعاتهم — التي طالما صرحوا بها والتي لا سبيل إلى تسويتها — جانبًا حتى يتسنى لهم مواصلة الاجتماع من دون مشاركة الصين.

وقع الاختيار على مدينة ستوكهولم الخلابة عاصمة السويد التي يشار إليها باسم فينيسيا الشمال. وكادت مساعيهم أن تنجح. فقد اتفقوا على الضرورة الملحَّة لوضع نهاية عاجلة للصراع القائم بين الإسرائيليين والفلسطينيين وبين الأقليات المسلمة والمسيحية في يوغسلافيا وبين الإكوادور وكولومبيا وبين أي دولتين تشنان حربًا — معلَنةً أم غير معلنة — إحداهما على الأخرى في أي مكان في العالم. كان هناك العديد من الدول المتناحرة، ولم يكن هناك أدنى شك في أن إطلاق عدد من الصواريخ في المكان المناسب ربما يكفل إنهاء القتال. واتفق الأمريكيون والروس على أن أداء هذه المهمة هو واجب أساسي أُلقي على عاتقهم باعتبار أنهم أكبر قوتين في العالم.

لكنهم أخفقوا في الاتفاق على أمر واحد. وهو تحديد الدولة التي ستُوَجَّه إليها الصواريخ من بين الدولتين المتناحرتين.

قرر رانجيت سوبرامانيان أن يبذل قصارى جهده في تجاهل هذا الأمر برمته. إذ كان من شأنه أن يفسد عليه عطلته التي كانت في نظره وقتًا مفضلًا لا يرتبط بخطط معينة؛ مما يعني أن بوسعه القيام بأي شيء يرغب فيه تقريبًا، وبالفعل حدد رانجيت ما سيقوم به. لكنه عندما دخل على الدكتور كريستوفر داباري في مكتبه، أبدى أستاذ الرياضيات استياءه. إذ قال: «إذا كنت لم أسمح لك باستخدام كلمة المرور الخاصة بي أثناء العام الدراسي، فمن أين أتتك هذه الفكرة الجنونية بأني قد أسمح لك باستخدامها وأنا في الكويت؟»

نظر إليه رانجيت في دهشة. وتساءل: «الكويت؟»

قال داباري موضحًا: «أنا متعاقد على تدريس دورات صيفية كل عام لأبناء شيوخ العرب الأثرياء مقابل أجر أعلى مما أتلقاه وأنا أكرر عليكم الحقائق الرياضية المبسطة مرارًا وتكرارًا علَّكم تستوعبونها.»

حينئذٍ اكتفى رانجيت — الذي كان يفكر بسرعة — بقوله: «أرجو المعذرة. لم أكن أعرف بأمر سفرك. أتمنى لك رحلة سعيدة»، ثم خرج من المكتب متوجهًا إلى أقرب كمبيوتر. إذا لم يكن الدكتور داباري اللعين مستعدًّا للتخلي عن كلمة المرور الخاصة به

طواعية، فلا بد من وجود سبيل آخر. ثمة نوع من الفرص يتاح على وجه التحديد عندما يسعى أحد المدرسين إلى كسب المال على مسافة ألفي كيلومتر وعلى الفور اختمرت في عقل رانجيت خطة لاقتناص هذه الفرصة.

كانت الخطوة الأولى في الخطة سهلة. فكل عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة لديه سيرة ذاتية موجزة محفوظة في أحد الملفات. استغرق رانجيت دقيقة في استخراج ملف الدكتور داباري. وبعد عشر دقائق أخرى كان رانجيت يبتعد عن المكان وقد طوى في جيبه ورقة مطبوعة فيها بداية خصبة لكل البيانات الأولية التي يحتاج إليها مثل تاريخ ميلاد الدكتور داباري، ورقم تليفونه الداخلي، وعنوان بريده الإلكتروني، ورقم جواز سفره، واسم زوجته، وأسماء والديه ووالدي زوجته، بل واسم جده لأبيه إذ إنه شغل منصب عمدة إحدى المدن الصغيرة في الجنوب ذات مرة. هذا بالإضافة إلى اسم كلبه — ميلي — وعنوان منزله على شاطئ مدينة أبوفيلي. لم تكن هذه كل المعلومات المطلوبة. ومن المؤكد أنها ليست كافية. لكنها تكفي بلا شك للبدء.

كان السؤال المطروح: أين يمكن أن يجد مكانًا لتشغيل البرامج اللازمة فيه؟

لا شك أن أي جهاز كمبيوتر من الأجهزة التي اعتاد استخدامها لأداء واجباته في الجامعة لن يفي بالغرض. هذا لأنها كانت مكشوفة أمام الجميع. كان رانجيت واثقًا أنه عندما ينتهي من برمجة الكمبيوتر لتنفيذ المهمة التي هو بصددها فسوف يحتاج الجهاز وقتًا طويلًا لإجراء جميع التوافيق والتباديل المطلوبة. فأراد أن ينأى بنفسه عن تساؤلات المارة عما يحدث على جهاز الكمبيوتر.

لكنه يعرف مكانًا مثاليًّا! ذلك المكان الذي اكتشفه هو وجاميني في كلية القانون المحلي التي لم يكتمل بناؤها!

غير أنه تلقى صدمة عندما وصل إلى هناك. دخل رانجيت من الطريق الخلفي الذي اعتاد أن يسلكه هو وجاميني، وشعر بسعادة عندما رأى أن جهازَي الكمبيوتر لا يزالان في مكانهما، وأنهما أضاءا في الحال عندما ضغط زر التشغيل. لكن أذنه التقطت أصوات موسيقى بعيدة — تلك الموسيقى النشاز التي شاعت هذه السنة والتي لم تنل إعجابه هو وجاميني — وعندما اختلس النظر داخل قاعة الاستقبال، رأى موظفة الاستقبال الحالية. كانت سيدة مسنة ممتلئة القوام إلى حد ما. كانت تعد لنفسها كوبًا من الشاي تحتسيه أثناء تصفح «مجلة» خاصة تُباع في السوبرماركت.

كانت موظفة الاستقبال على ما يبدو مرهفة السمع. إذ نظرت على الفور إلى المكان الذي يختبئ فيه رانجيت. وصاحت: «مرحبًا، هل هناك أحد؟»

ولبعض الوقت فكر رانجيت أنه سيضطر للبحث عن مكان مثالي آخر لتنفيذ خطته، لكن اتضح أن موظفة الاستقبال لا تعتبر التحقق من هوية رواد المكان من بين مسئولياتها. قالت موظفة الاستقبال إنها تُدعى السيدة وانياراتشي. (وأجابها رانجيت مختلقًا لنفسه اسم سوميل بانداراناجا). عبَّرت عن سعادتها بأن تكون بصحبة أحد داخل المكتبة لأنها تشعر بالوحشة في بعض الأحيان. وبالطبع تساءلت هل السيد بانداراناجا درس الأديان المقارنة كتخصص فرعي على الأقل؟ وأكد لها رانجيت أنه فعل ذلك، وكان هذا كل ما احتاجت إليه. لوَّحت له السيدة وانياراتشي في مودة، وعادت مرة أخرى إلى مجلة النميمة التي كانت تقرؤها، وأصبح رانجيت حرًّا داخل المكتبة.

لم يتغير شيء على الإطلاق. فما زال جهازا الكمبيوتر جاهزين للعمل، ولم يستغرق رانجيت وقتًا طويلًا في تثبيت برنامجه وإدخال البيانات التي جمعها. وبينما يهم رانجيت بمغادرة المكان قالت السيدة — التي كانت تقف وترتدي معطفها الواقي من المطر — بنبرة متكاسلة: «أطفأتَ كل شيء، أليس كذلك؟»

طمأنها رانجيت قائلًا: «نعم، بالتأكيد.» والواقع أنه لم يفعل، لكن الكمبيوتر سيتوقف عن التشغيل تلقائيًّا عندما يجد كلمة المرور التي كان يبحث عنها رانجيت أو عندما يخلص إلى أنه لا يمكن استخراج كلمة المرور من البيانات التي أُدخلت إليه. وهو ما سيعرفه رانجيت في الصباح.

* * *

في صباح اليوم التالي، وكما توقع، لم يحصل رانجيت على نتيجة.

لم تكن هناك معلومات كافية يستطيع البرنامج من خلالها أداء المهمة. حينئذٍ كان رانجيت قد حصل على المزيد من المعلومات بعد أن قضى ساعة من الليل — ارتدى خلالها الملابس الرثة لجامعي القمامة — في جمع كل المخلفات التي وضعها أهل منزل الدكتور داباري ليحملها جامعو القمامة الحقيقيون. لم يكن معظم ما حصل عليه رانجيت عديم الفائدة فحسب، بل كان كريه الرائحة أيضًا، لكنه وجد العديد من الأوراق مثل كشوف حساب من متاجر وموردي خدمات مختلفين، وعروض لرحلات وتأجير سيارات وتسهيلات قروض لدى بنوك إلكترونية، وأفضل من هذا كله مجموعة خطابات شخصية. ولسوء الحظ كان معظم هذه الخطابات مكتوبًا باللغة الألمانية باعتبارها لغة الدولة التي درس فيها الدكتور داباري بعض مقررات الدراسات العليا، وهي لغة تتساوى في إبهامها

لدى رانجيت مع لغة جماعات إينويت أو تشوكتاو. لكن من بين الخطابات المكتوبة باللغة الإنجليزية أو السنهالية استخلص رانجيت رقم رخصة قيادة داباري، وطوله الدقيق بالسنتيمتر، ورقم التعريف الشخصي الخاص ببطاقة ماكينة الصراف الآلي. (ألن يكون من العدل أن يأخذ رانجيت نحو ألف روبية مقابل المشكلات التي كان يسببها له أستاذ الرياضيات؟ كلَّا، قرر رانجيت أن عملًا كهذا لن يكون من العدل. هذا الأمر مخالف للقانون. ولكن كان التفكير فيه ممتعًا.)

بالطبع كان الكمبيوتر قد انتهى من التباديل الممكن تجربتها منذ وقت طويل؛ ولذا توقف عن العمل. كتب رانجيت جميع البيانات الجديدة، وضغط زر الإدخال، ثم غادر مرة أخرى. صحيح أنه كان يعزل نفسه عن عالم الواقع. لكن من الواضح أن عالم الواقع ليس لديه الكثير ليقدمه إلى فتًى تاميلي بلا أصدقاء وبلا أب مؤقتًا على الأقل.

لكن عندما وصل رانجيت إلى غرفته لينال قسطًا من النوم تأخر عن موعده كثيرًا، وجد في انتظاره شيئًا أشاع السرور في نفسه باقي اليوم. كان هذا خطابًا من جاميني وعليه ختم بريد لندن.

> **عزيزي رانجيت:**
>
> وصلت سالمًا ولكن منهك القوى تمامًا. استغرقت الرحلة تسع ساعات — شاملة تغيير الطائرة مرتين — لكن عندما وصلت إلى لندن لم يكن قد مر سوى أربع ساعات ونصف نظرًا إلى فارق التوقيت، وهذا يعني أن أمامي ثماني ساعات أخرى تقريبًا قبل أن أتمكن من الخلود إلى النوم، وكنت مرهقًا جدًّا. أفتقدك كثيرًا.

استغرق جاميني وقتًا طويلًا قبل أن يكتب عبارته الأخيرة السارة، لكن ها هي هناك بالفعل. قضى رانجيت وقتًا طويلًا في قراءة تلك العبارة ثلاثًا أو أربع مرات قبل أن ينتقل إلى باقي الخطاب الذي كان حافلًا بالأخبار لكنه لم يكن شخصيًّا إلى حد بعيد. المقررات الدراسية شيقة لكن ربما تحتاج إلى جهد أكبر مما كان يود جاميني. وبطبيعة الحال فإن الطعام في كلية لندن بغيض، لكن هناك الكثير من مطاعم الوجبات الهندية الجاهزة في كل مكان بعضها يتميز بإضافة الكاري إلى الطعام. لم يكن السكن الجامعي أفضل حالًا من الطعام أيضًا، لكن جاميني ليس مضطرًّا إلى البقاء فيه إلى الأبد. فما إن يحصل على الضوء الأخضر من محاميِّي والده في لندن سيوقع عقد إيجار لما يسميه مالك

العقار «شقة فاخرة» تفصلها عن معظم قاعات دروسه خمس دقائق سيرًا على الأقدام. فكر رانجيت — وهو ينظر حوله بلا استمتاع في أرجاء غرفته الموحشة — في أن أشياء كهذه لا تحدث للمرء إلا عندما يحالفه كثير من الحظ ويكون والده ثريًّا. أخبر جاميني رانجيت أنه سيشعر بسعادة غامرة إذا ذهب إلى هناك؛ لأن الكلية تبعد نحو عشر دقائق عن مجمع المسارح والمطاعم في ميدان ليستر سكوير. وأضاف أنه وجد متسعًا من الوقت لمشاهدة عرض لمسرحية «تمسكنَتْ حتى تمكنَتْ» ومسرحيتين موسيقيتين.

وهكذا فإن جاميني باندارا — على الرغم من بُعده مسافة تسعة آلاف كيلومتر — يقضي وقتًا ممتعًا.

تنهَّد رانجيت، وقضى دقيقة شعر خلالها بالسعادة — أو على الأقل قال لنفسه إنه سعيد — لأن صديقه الغائب في أحسن حال، ثم تسلل إلى فراشه الموحش، وراح في النوم.

قضى رانجيت وقتًا طويلًا قبل أن يتمكن من حل الشفرة — في الواقع قضى أحد عشر يومًا كان يقتطع جزءًا طويلًا من كل يوم فيها في البحث عن بيانات إضافية محتملة أو في ابتكار سبل جديدة يقوم الكمبيوتر عن طريقها بدمج هذه البيانات وتوفيقها. لكنه دخل ذات صباح — متوقعًا ألا يحصل على شيء — فإذا بسعادة غامرة تملأ نفسه وهو يرى شاشة الكمبيوتر تحمل عبارة «جرى تحديد كلمة مرور الدكتور داباري.» اتضح أن كلمة المرور هي شعار جامعة كولومبو — Buddhih Sarvatra Bhrajate — ومعناه «الحكمة تسطع في كل مكان» يتخلله تاريخ ميلاد زوجته مقسومًا إلى جزأين وسط العبارة:

Buddhih.4-14.Sarvatra.1984.Bhrajate

حينئذٍ بات عالَم الوثائق الرياضية مفتوحًا على مصراعيه أمام رانجيت!

الفصل الرابع

أربعون يومًا من هطول البيانات

على مدار الأسابيع الستة المتبقية قبل بدء العام الدراسي الجديد وجد رانجيت نفسه للمرة الأولى في حياته غارقًا في شلالات من المعلومات الدقيقة التي طالما تاق إليها.

في البداية كانت هناك المجلات الخاصة بنظرية الأعداد. ومن بينها مجلتان رئيسيتان باللغة الإنجليزية ومجلة أو اثنتان باللغات الفرنسية والألمانية بل والصينية أيضًا (لكن رانجيت كان قد قرر ألا يلقي بالًا لأي مادة تحتاج إلى ترجمة.) هذا فضلًا عن الأعداد الهائلة من الكتب — الأعداد الهائلة جدًّا! صارت جميعها في متناول يده الآن بفضل نظام إعارة الكتب بين المكتبات! من بين الكتب التي بدت مشوِّقة — وإن لم تكن مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بموضوع بحثه — كتاب «من فيرما إلى مينكوفسكي» لشارلو وأوبولكا، و«مبادئ نظرية الأعداد» لأندريه ويل، الذي لم يكن — بحسب الكتابات النقدية التي أُعِدَّت حوله — يتناول مبادئ النظرية وإنما كان كتابًا متقدمًا للغاية حتى لشخص مثل رانجيت. ومن بين الكتب التي بدت أقل نفعًا — لأن ظاهرها يوحي بأنها تخاطب جمهورًا من القراء ليس على قدر اطلاع رانجيت — «أحجية فيرما» لسيمون سينج، و«دعوة إلى رياضيات فيرما–وايلز» لإيف إيليجورا، و«الصيغ المقياسية ونظرية فيرما الأخيرة» لكورنيل وسيلفرمان وستيفنز. كانت القائمة طويلة وتلك قائمة الكتب وحدها! فماذا عن الأبحاث، مئات أو ربما آلاف الأبحاث التي كُتبت حول واحدة من أشهر المسائل الرياضية التي نُشرت في كل مكان: في مجلة «نيتشر» في إنجلترا، ومجلة «ساينس» في أمريكا، وفي المجلات الرياضية التي تصدر عن جامعات مغمورة في أماكن مثل نيبال وتشيلي ودوقية لوكسمبورج التي ربما لا يكترث لأمرها أحد على الإطلاق.

على نحو محزن قليلًا استمر رانجيت في اكتشاف بضعة أمور غريبة كان يود أن يتحدث إلى أبيه بشأنها. بدا الأمر وكأن هناك تقليدًا قويًّا لتضمين عناصر نظرية الأعداد

في الكتابات الهندية التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي وربما قبل ذلك، وليس أدل على هذا مما جاء في كتابات براهماجوبتا وفاراهاميهيرا وبينجالا وأيضًا باسكارا في كتابه الشهير «ليلافاتي». كل هذا بالإضافة إلى تلك الشخصية العربية المؤثِّرة أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام الذي يشتهر بين من سمعوا عنه من قبل — والذين لم يكن من بينهم رانجيت سوبرامانيان — باسم عمر الخيام صاحب القصائد الشعرية المعروفة باسم «الرباعيات».

لم يكن أيٌّ من تلك المعلومات على وجه التحديد مفيدًا في سعي رانجيت الدءوب لحل نظرية فيرما. حتى مبرهنة براهماجوبتا الشهيرة لم تفده في شيء؛ لأنه لم يكن يعنيه في شيء أن رسم خط عمودي معين في نوع محدد من رباعيات الأضلاع سوف يقسم الضلع المقابل إلى نصفين متساويين في الطول. غير أنه عندما ورد أمام رانجيت ذكر مثلث باسكال وحساب الجذور مرتبطًا باسم الخيام للمرة الرابعة أو الخامسة جلس وكتب بريدًا إلكترونيًّا إلى والده يخبره بما توصل إليه من اكتشافات. ثم جلس بعدها فترة وإصبعه مستعد للضغط على زر الإرسال قبل أن يتنهد ويضغط زر الإلغاء. إذا أراد جانيش سوبرامانيان أن يبقى على اتصال بابنه فمن باب أولى أن تأتي المبادرة منه وليس من ابنه.

بعد مرور أربعة أسابيع كان رانجيت قد قرأ جزءًا من السبعة عشر كتابًا ونحو مائة وثمانين بحثًا من قائمة المراجع. لكنه لم يخرج بفائدة. تمنى رانجيت أن يصادف فكرة شاردة توضح له جميع الأمور الأخرى. لكن ذلك لم يحدث. وجد رانجيت نفسه مدفوعًا إلى عدة طرق كانت مسدودة على اختلافها، وهو ما حدث مرارًا وتكرارًا لأن الكثيرين من مؤلفي الكتب المتخصصين في الرياضيات كانوا يتبعون نفس الأدلة الموثقة التي كان يتبعها. أعاد رانجيت النظر خمسًا أو ست مرات في الأسس الأولية نسبيًّا لآرثر فيفريش، وفي أعمال صوفي جيرما المتعلقة بالأعداد الأولية الفردية، ونظرية كومر للأعداد المثالية، وبالطبع نظرية أويلر، ونظريات كل علماء الرياضيات الآخرين الذين ساروا في تمهل وبراءة نحو شرك فيرما المغري والفتاك ولم يستطيعوا الخلاص منه أبدًا.

لم تكن الخطة تؤتي ثمارها المرجوة. فقبل بدء العام الدراسي الجديد بأقل من أسبوع واجه رانجيت حقيقة أنه كان يحاول العمل على العديد من المحاور في آنٍ واحد. كان الأمر شبيهًا تمامًا بمتلازمة «جي إس إس إم» التي حذره جاميني منها.

لذلك قرر رانجيت أن يُبَسِّط هجومه على نظرية فيرما. ولأننا نتحدث عن رانجيت سوبرامانيان فإن تبسيط الهجوم يعني شن هجوم مباشر على برهان وايلز المقيت والمطول؛ ذلك البرهان الذي تجرأت قلة من الرياضيين البارزين في العالم على القول إنهم قد استوعبوه.

كزَّ رانجيت على أسنانه، وشرع في العمل.

كانت الخطوات الأولى سهلة. لكنه توغل بعد ذلك في سلسلة الاستنتاجات الرتيبة التي قام بها وايلز، وهنا ظهرت الصعوبة، أو على الأقل — ما دمنا نتحدث عن رانجيت سوبرامانيان — ظهرت الحاجة إلى مزيد من التركيز في كل سطر من سطور البرهان. هذا لأن وايلز بدأ عندئذٍ يتناول المعادلات الخاصة بالمنحنيات في المستوى س-ص والمنحنيات الناقصة والحلول العديدة للمعادلة المعيارية. وكان ذلك عندما استطاع وايلز — للمرة الأولى — إثبات صحة ما يسمى بفرضية «تانياما-شيمورا-فاي» التي تقول إن أي مجموعة غير محدودة من المنحنيات الناقصة هي معيارية. ومع أن جيرهارد فراي وكينيث ريبيت برهنا على أن المنحنى الناقص لا يمكن أن يكون معياريًّا، استطاع وايلز إثبات أن نفس المنحنى لا بد وأن يكون معياريًّا …

ها هي ذي! وجدها! ها هي نقطة التناقض المؤكدة!

التناقض هو كنز الرياضيات الذي يوجد — في بعض الأحيان! — في نهاية طريق رياضي طويل. إنه الشيء الذي كرَّس علماء الرياضيات حياتهم للوصول إليه عن طيب خاطر؛ لأنه إذا كانت الاستنتاجات المنطقية التي خرجتَ بها من معادلتك الأولى تنتهي بنتيجتين تناقض كل منهما الأخرى، فلا بد أن معادلتك الأولى نفسها خاطئة!

وهكذا ثبت — أو ثبت إلى حدٍّ ما — أن فيرما كان محقًّا. فالعدد التربيعي هو أقصى أس تنطبق عليه النظرية. ولا يمكن أن يكون مجموع عددين مكعبين عددًا مكعبًا آخر، وهكذا الحال مع جميع الأسس الأعلى رتبة. لكن رانجيت لم يكن قريبًا من إيجاد برهانه الأقل تعقيدًا الذي يثبت ما ذكره فيرما عرَضًا منذ زمن طويل.

لم يكن رانجيت يدري أن أحدًا يلتقط صورته حينئذٍ.

كانت الكائنات التي تتولى مهمة التقاط الصور نوعًا من الأجناس التي تتبع عظماء المجرة. عُرفوا باسم «المخزنين في الآلات»، وبالطبع لم يرهم رانجيت قط. كانوا يتعمدون الاختفاء. أيضًا لم تكن رؤيتهم ممكنة بوجه عام، على الرغم من أن بعض البشر شاهدوا عددًا قليلًا منهم عندما كان يحدث تداخل نادر ومعين بين ضوء الشمس وضوء القمر والوهج

المقابل. وعند الإبلاغ عن هذه المشاهدات كان البشر يشيرون إليها على أنها أطباق طائرة، ومن ثم كانت تضاف إلى القائمة الطويلة من الخدع والأقوال المغلوطة والأكاذيب المحضة التي جعلت عدم اكتراث أي عالم جدير بالاحترام لها على الإطلاق أمرًا شبه مؤكد.

أما ما كان يفعله المخزنون في الآلات على كوكب الأرض في ذلك الوقت فهو استباق لإحدى رغبات «عظماء المجرة» الذين كانت رغباتهم ومطالبهم محل اهتمام دائم لدى المخزنين في الآلات. لم يأمر «عظماء المجرة» بمثل هذا العمل، لكن المخزنين في الآلات كان مسموحًا لهم إعمال عقولهم في بعض الحالات النادرة. السمة الخاصة التي ميزت «المخزنين في الآلات» هي أنهم دمَّروا كوكبهم بصورة تفوق ما فعلته كائنات «واحد فاصل خمسة» حتى إن الحياة على سطح الكوكب باتت من المستحيلات. تعاملت كائنات «واحد فاصل خمسة» مع هذه المشكلة بأن زودوا أجسادهم الهزيلة بعدد لا حصر له من الأطراف الصناعية. بينما سلك المخزنون في الآلات مسلكًا آخر. إذ هجروا كوكبهم المادي، بل وهجروا كل شيء مادي. ثم أعادوا تشكيل أنفسهم في صورة تشبه برامج الكمبيوتر، وتركوا أجسادهم الواهنة العليلة تتمتع بمَزِيَّة الموت ليواصلوا الحياة في العالم الافتراضي. (ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر في هذا الكوكب الفاسد بوادر لعودة الحياة من جديد. فلم تكن كل مياهه السائلة آنذاك سامة، مثلًا، لكنه ظل مكانًا منفِّرًا لأي كائن حي.)

وماذا عن حياة «المخزنين في الآلات» بعد ذلك؟

عجبًا، لقد حولوا أنفسهم إلى كائنات نافعة. ففي بعض الأحيان، عندما يرغب «عظماء المجرة» في نقل مقدار معين من الأشياء أو الكائنات من مجموعة نجمية إلى أخرى، يُكَلَّف المخزنون في الآلات بإتمام عملية النقل هذه. وعندما اكتشف «المخزنون في الآلات» تلك الموجات الصغرى الأولى وبعدها النبضات النووية القادمة من كوكب الأرض أدركوا أن «عظماء المجرة» سيكترثون لهذا الأمر. لم ينتظروا تلقي الأوامر. وإنما بدءوا معاينة الكوكب وكل ما على سطحه في الحال، ونقل ما يتوصلون إليه من معلومات أولًا بأول إلى تلك الزاوية من المجرة حيث يسبح «عظماء المجرة» في جداول الطاقة المظلمة.

بالطبع، لم يكن المخزنون في الآلات على علم تام بما سينتهي إليه الجنس البشري من جرَّاء الأنشطة المختلفة التي يقومون بها. ومن ثمَّ، كانوا في حاجة إلى فهم لغات البشر. لكن ذلك لم يحدث. آثر «عظماء المجرة» أن تجهل الأجناس التابعة لهم جميع اللغات سوى لغتهم؛ لأنه إذا استطاعت هذه الأجناس الحديث بحرية بعضها إلى بعض، فمن يدري ماذا سيقولون؟

ربما أصيب رانجيت بالذهول إن تناهى إلى علمه أن صورته التُقِطت عبر الفضاء الواقع بين النجوم على هذا النحو. لكن هذا ما حدث حقًّا. وهكذا كان حال جميع الأشخاص — بل وجميع الأشياء تقريبًا — على سطح الأرض؛ لأن «المخزنين في الآلات» كانوا يتحلَّون بالمثابرة، وإن لم يتمتعوا بالقدرة على القيام بكل شيء.

تمنى «المخزنون في الآلات» أن يقدِّر «عظماء المجرة» هذه المثابرة، أو ألا يضيقوا بها ذرعًا على الأقل.

عندما استيقظ رانجيت على صوت المذياع في أول أيام الفصل الدراسي الجديد هبَّ من فراشه مسرعًا ليطفئه. كانت المحاضرة الأولى — «أساسيات علم الفلك: جغرافية المجموعة الشمسية» — وثيقة الصلة إلى حد بعيد بآخر آماله في أن يدرس شيئًا مشوقًا بالجامعة خلال السنوات الثلاث المقبلة. كان هذا ما جعله يشعر بشيء من السعادة. وبينما كان يغادر المبنى، سلمه الحارس خطابًا — من لندن؛ أي من جاميني — وشعر رانجيت بالابتهاج إلى حد ما.

قرأ رانجيت الخطاب وهو يتناول إفطاره. ولم يستغرق وقتًا طويلًا في قراءته. هذا لأن الخطاب كان موجزًا عن سابقه، وكان مخصصًا بالكامل لوصف «الشقة الفاخرة» التي يسكنها جاميني:

> تدْخُل من الشارع وتصعد الدَّرَج. وبذلك تجد نفسك في غرفة الجلوس (يسميها البريطانيون «غرفة الاستقبال»). بجوار هذه الغرفة يوجد مطبخ صغير جدًّا، وهو كل ما تجده في هذا الطابق. هناك دَرَج منفصل يهبط من غرفة الاستقبال متجهًا إلى الخلف حيث توجد غرفة شاغرة تطل على بضعة أمتار مربعة من أرض طينية يُفترض أنها حديقة. أظن أنني سأسميها غرفة الضيوف، لكنني لا أنوي استضافة أحد للمبيت فيها. (إلا إذا كنت تريد، يا صديقي، المجيء يومًا ما لقضاء عطلة أسبوعية!) عودةً إلى الحديث عن طابق الاستقبال، يوجد درج آخر يقودك للأعلى حيث غرفة النوم والحمام. وليس من المريح لأي شخص المبيت في غرفة الضيوف في حالة إذا ما أراد قضاء حاجته أثناء الليل. لنعد إلى المطبخ. حيث تجد أي شيء تريده في مطبخ عصري ولكن بأحجام ضئيلة للغاية؛ ففيه ثلاجة بالغة الصغر وموقد بالغ الصغر وحوض بالغ الصغر وأصغر غسالة ملابس رأيتها على الإطلاق. قلتُ إن حجم الغسالة يتسع بالكاد

لزوج من الجوارب، لكن مادج قالت إن هذا ممكن في حالة غسل كل جورب على حدة.

على أي حال هذا المكان ملك لي على ما هو عليه! حتى وإن كان جميع الأثاث به من أرخص ما يكون. عليَّ أن أسرع الآن لأن مجموعة منا ستذهب لمشاهدة عرض لمسرحية ستوبارد الجديدة، ونرغب في تناول العشاء قبل ذلك.

ابتسم رانجيت على مضض عندما فكر في أن جاميني يغسل ملابسه بنفسه بعد أن كان غسل الملابس عنده يتلخص في أخذها إلى المنزل وإعطائها للخدم الذين يعيدونها إليه في الصباح التالي بعد الانتهاء من تنظيفها وكيِّها وطيِّها.

لكن ذلك لم يمنعه من أن يتساءل عمَّن تكون مادج هذه.

وهكذا وصل رانجيت إلى محاضرته الأولى ونفسه مهيأة لما ستتلقى من الإحباط … وعلى نحو رائع ومثير للدهشة لم تجرِ الأمور كما كان يتوقع رانجيت على الإطلاق!

الفصل الخامس

من عطارد إلى سحابةِ أُورت

لم يكن المكان الذي تُدَرَّس فيه مادة أساسيات علم الفلك قاعة محاضرات عادية. وإنما كانت واحدة من القاعات المصمَّمة على شكل مسارح مصغرة بها صفوف دائرية من المقاعد تتسع لمائة طالب. كانت جميع المقاعد تقريبًا ممتلئة نزولًا إلى المستوى الذي ضم منصة وكرسيًّا ومحاضرًا لم يبدُ أكبر سنًّا من رانجيت نفسه. كان يُدعى يوريس فورهولست. كان من الواضح أنه ينتمي لطائفة البرجر، وكان من الواضح أيضًا أنه وقع عليه الاختيار لمغادرة الجزيرة لإتمام دراساته العليا.

أثارت الكليات التي التحق بها فورهولست إعجاب رانجيت. كانت أسماؤها محل تقدير علماء الفلك. نال الدكتور فورهولست درجة الماجيستير من جامعة هاواي في مدينة هيلو حيث تلقى تدريبه على تليسكوبات كيك القديمة الضخمة، ثم انتقل لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كالتيك، وعمل إلى جانب ذلك في مختبر الدفع النفاث في باسادينا. وفي مختبر الدفع النفاث، كان واحدًا من أعضاء الفريق الذي أطلق مركبة الفضاء فاراواي التي مرت بجوار بلوتو داخل حزام كايبر — أو بقايا حزام كايبر — مثلما ذكر فورهولست لأنه كان مؤمنًا بالرأي الذي اتفق عليه علماء الفلك قديمًا والذي يستثني بلوتو من مجموعة الكواكب الفعلية، وهكذا لا يعتبره سوى واحد من عدة ملايين من كرات الثلج في حزام كايبر. (أخبر فورهولست الطلاب أن فاراواي كادت تقطع الطريق كاملًا عبر حزام كايبر، وأنها تتجه الآن نحو أقرب أطراف سحابةِ أُورت.)

استطرد فورهولست في تفسير كل تلك الأشياء الغريبة (على الأقل لرانجيت)، وهو ما استحوذ على إعجاب الفتى.

وعندما أوشك الدرس على الانتهاء زفَّ فورهولست إليهم أخبارًا سارة. إذ أعلن أن جميع الطلاب في القاعة سيحظون بإمكانية إلقاء نظرة عبر أفضل تليسكوبات سريلانكا

في المرصد الواقع أعلى جبل بيدوروتالاجالا. قال فورهولست: «إنه تليسكوب رائع حقًّا يبلغ طوله مترين.» ثم أضاف: «كان هدية من حكومة اليابان كبديل لتليسكوب أصغر كانت قد أهدتنا إياه فيما مضى.» انطلقت أصوات تصفيق الطلاب، لكن ذلك لم يكن شيئًا مقارنة بما فعلوه عندما قال: «وبالمناسبة كلمة المرور الخاصة بي هي "Faraway". ومسموح لكم جميعًا باستخدامها للوصول إلى أي مواد خاصة بعلم الفلك على شبكة الويب.» عندها انطلقت أصوات هتاف فعلية كان من أكثرها دويًّا تلك التي أطلقها الفتى السنهالي الجالس إلى جوار رانجيت. عندما نظر فورهولست إلى ساعة الحائط، وقال إنه سيخصص الدقائق العشر المتبقية للأسئلة، كان رانجيت من أوائل الطلاب الذين رفعوا أيديهم. قال فورهولست وهو ينظر إلى اللوحة التي تحمل الاسم على مقعد رانجيت قائلًا: «نعم ... رانجيت؟»

وقف رانجيت. وقال: «أتساءل إذا كنت قد سمعت عن بيرسي مولزويرث من قبل.»

رفع فورهولست يده فوق عينه لينظر بوضوح إلى رانجيت، وتساءل: «مولزويرث؟ هل أنت من ترينكومالي؟» أومأ رانجيت برأسه إيجابًا. فقال فورهولست: «نعم، إنه مدفون هناك، أليس كذلك؟ أجل سمعتُ عنه. هل بحثت من قبل عن فوهة البركان التي اكتشفها على سطح القمر؟ هيا انطلق. سوف تمكنك كلمة المرور Faraway من الوصول إلى صفحة مختبر الدفع النفاث.»

وكان هذا ما فعله رانجيت على وجه التحديد فور انتهاء المحاضرة. إذ سرعان ما حدد موقع مختبر الدفع النفاث على شبكة الويب مستخدمًا أحد أجهزة الكمبيوتر الموجودة في الردهة، وحمَّل صورة رائعة لفوهة القمر المسمَّاة باسم مولزويرث.

كانت فوهة رائعة حقًّا بلغ عرضها قرابة المائتي كيلومتر. ومع أنها تكاد تبدو مستوية، فإن باطنها كان مرقَّطًا بعدد كبير من فوهات تكونت بفعل نيازك حقيقية ومن بينها فوهة ذات قبة مركزية رائعة الشكل. تذكر رانجيت زياراته إلى قبر مولزويرث في ترينكومالي مع أبيه. كم سيكون رائعًا أن يخبر والده بأنه شاهد فوهة القمر بنفسه. لكن ذلك بدا مستحيلًا.

لم تكن بقية مقررات رانجيت الدراسية مشوقة على الإطلاق مثل مادة أساسيات علم الفلك. تقدم رانجيت لدراسة علم الإنسان لأنه توقع أنه سيكون من السهل اجتياز هذه المادة دون أن يشغل نفسه بها كثيرًا. ومع تقدمه في الدراسة وجد أن المادة يسيرة بالفعل

على الرغم من الحقيقة التي لا يمكن إغفالها وهي أنها رتيبة للغاية. تقدم رانجيت أيضًا لدراسة علم النفس لأنه أراد معرفة المزيد عن متلازمة «جي إس إس إم». لكن أستاذ علم النفس أخبره في أول محاضرة أنه لا يؤمن بهذه المتلازمة — بغض النظر عما قد يقوله بعض الأساتذة الآخرين. (قال له مفسرًا: «لأنه إن كان الانشغال بأكثر من عمل في آنٍ واحد يصيبكم ببلادة الذهن، فكيف سيتمكن أحدكم من التخرج يومًا؟») وأخيرًا درس رانجيت الفلسفة؛ لأنها بدت من المواد التي يمكن النجاح فيها دون الحاجة إلى الكثير من المذاكرة.

لكنه كان مخطئًا بشأن الفلسفة. إذ كان البروفسور دي سيلفا من هواة الاختبارات المفاجئة كل أسبوع تقريبًا. ربما كان يمكن لرانجيت أن يتغاضى عن هذا الأمر، لكنه سرعان ما علم أيضًا أن البروفسور من النوع الذي يُلزم طلابه بحفظ التواريخ.

حاول رانجيت أن يهتم بالفلسفة لبعض الوقت. ورأى أن دراسة أفلاطون وأرسطو لم تكن مضيعة للوقت تمامًا. لكن الأمور زادت سوءًا عندما وصل البروفسور دي سيلفا إلى العصور الوسطى حيث الحديث عن بيتر أبيلارد وتوماس أكويناس وغيرهم من الفلاسفة. لم يكترث رانجيت البتة للفرق بين نظرية المعرفة وما وراء الطبيعة أو ما إن كان هناك إله للكون أم لا أو ما هي «الحقيقة» تحديدًا. لذا فإن جذوة اهتمامه بالفلسفة اشتعلت قليلًا، ثم خبت بعد ذلك.

لكن المثير للدهشة أن متعة استكشاف عوالم الشمس الأخرى ازدادت شيئًا فشيئًا. لا سيما في المحاضرة الثانية عندما تطرق الدكتور فورهولست إلى الحديث عن احتمالات زيارة بعض الكواكب بالفعل؛ أو على الأقل كوكب واحد أو اثنين من بين الكواكب الأقل خطرًا.

ألقى فورهولست نظرة سريعة على قائمة الكواكب. عطارد، لا؛ فمن الصعب أن ترغبوا في الذهاب إلى هناك لأنه كوكب شديد الجفاف والحرارة على الرغم من ظهور بعض المياه — أو الجليد بالأحرى — عند أحد قطبيه. يبدو كوكب الزهرة أسوأ؛ إذ إنه محاط بغلاف من ثاني أكسيد الكربون الذي يحتجز الحرارة بداخله. قال فورهولست: «هو نفس الغلاف الذي يسبب الاحتباس الحراري هنا على كوكب الأرض الذي أتمنى أن نهجره يومًا ما. أو نهجر على الأقل أسوأ المناطق فيه.» أضاف فورهولست أن «أسوأ المناطق» هذه على كوكب الزهرة أدت إلى ارتفاع درجة حرارة سطحه إلى الحد الذي ينصهر معه الرصاص.

كان الكوكب التالي في قائمة الكواكب المستثناة هو كوكب الأرض «الذي لسنا في حاجة إلى استيطانه أكثر من هذا» قالها فورهولست مازحًا، وأضاف: «لأنه من الواضح أن شخصًا — أو شيئًا — استوطن الكوكب بالفعل منذ زمن بعيد.» لم يعطِ فورهولست الطلاب فرصة للرد وإنما استطرد على الفور: «لذلك دعونا نلقِ نظرة على كوكب المريخ. هل نود الذهاب إلى المريخ؟ لنطرح السؤال الأكثر تشويقًا، هل ثمة حياة على المريخ؟ دار الجدال حول هذه المسألة سنوات طويلة.» ذكر فورهولست أن عالم الفلك الأمريكي بيرسيفال لويل لم يعتقد في وجود حياة على سطح المريخ فحسب، وإنما قال إنها كانت حياة متمدنة للغاية استُخدمت فيها تقنيات متطورة ساعدت في إنشاء تلك الشبكة الهائلة من القنوات التي لاحظها عالم الفلك جيوفاني سكياباريلي على سطحه. أثبتت التليسكوبات المتطورة — بمساعدة النقيب الراحل بيرسي مولسورث من ترينكومالي — خطأ هذه الفكرة عندما ثبت أن «قنوات» سكياباريلي لم تكن سوى علامات عشوائية خدعته عيناه فظنها خطوطًا مستقيمة. بعد ذلك وضعت البعثات الثلاث الأولى من برنامج مارينر حدًّا لهذا الجدل عن طريق إرسالها صورًا لسطح الكوكب الذي كان يابسًا وباردًا وبه فوهات بركانية. أنهى الدكتور فورهولست حديثه قائلًا: «لكن صورًا أشد وضوحًا لسطح المريخ منذ ذلك الحين أظهرت وجود دلائل على مياه متدفقة فعلًا. بالطبع لم تعد هذه المياه تتدفق الآن، لكن مياهًا حقيقية تدفقت بالقطع على سطح الكوكب في وقت ما في الماضي. لذلك عاود الأمل مؤيدي فكرة وجود حياة على المريخ مرة أخرى.» ثم أضاف: «لكن عاد الرأي الأول إلى الظهور بعدها مرة أخرى. فأيهما صحيح إذن؟» ألقى الدكتور فورهولست نظرة خاطفة على جميع الطلاب، ثم ابتسم. وقال: «أعتقد أن السبيل الوحيد للإجابة عن هذا السؤال هو أن نرسل أشخاصًا إلى المريخ، ويفضل أن يكون معهم الكثير من معدات التنقيب.»

وتوقف فورهولست قليلًا. ثم قال: «أظن أن سؤالكم التالي سيكون: «عن أي شيء سينقبون؟» لكن قبل أن أجيب عن هذا السؤال هل يعرف أحد منكم مكانًا في المجموعة الشمسية لم نُشِر إليه حتى الآن؟»

ساد الصمت هنيهة بينما مائة طالب يعدُّون على أصابعهم — عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ — إلى أن رفعت فتاة في الصف الأمامي صوتها متسائلة: «هل تقصد القمر يا دكتور فورهولست؟»

ألقى فورهولست نظرة على قائمة الأسماء لمعرفة اسمها، ثم أثنى عليها. قائلًا: «أحسنتِ روشيني. لكن قبل أن ننتقل إلى الحديث عن القمر دعوني أعرض عليكم بعض الصور لمكان ذهبت إليه من قبل يُدعى هاواي.»

استدار إلى شاشة العرض خلفه التي بدأت تعرض لقطة أُخذت أثناء الليل لجانب تل مظلم يمتد حتى يصل إلى البحر. كان المنحدر مرقَّطًا بكتل من النيران الحمراء كأنه معسكر لأحد الجيوش، وعندما تصل هذه الكتل إلى الشاطئ يحدث انفجار مدوٍّ كأنها ألعاب نارية فضلًا عن تطاير شهب نارية فوق سطح المياه.

قال فورهولست: «إنها هاواي. تلك الجزيرة الكبيرة. يثور بركان كيلويا، وما ترونه هو حمم البركان تتدفق إلى البحر. وبينما تتدفق هذه الحمم، تهدأ حرارة الجزء الخارجي لكل مجرى صغير من هذه الحمم، وهكذا تتشكل قناة من الأحجار المتصلدة تتدفق بداخلها الحمم السائلة. وقد يحدث في بعض الأحيان أن تخترق الحمم القناة. ثم تشاهدون أيضًا هذه القطع المتفرقة من الحمم الملتهبة وهي تتوهج.» أتاح فورهولست وقتًا للطلاب يتساءلون فيه عن السبب الذي يجعلهم يتحدثون عن هاواي في حين أن موضوعهم كان يدور حول القمر. ثم ضغط جهاز التحكم مرة أخرى لتعرض الشاشة صورة لدكتور فورهولست نفسه إلى جوار فتاة حسناء ترتدي رداءً ضيقًا قصيرًا. كانا يقفان أمام مدخل مكان يبدو ككهف مكسو بالحشائش وسط غابة استوائية مطيرة.

قال فورهولست لطلابه: «إنها آني شكودا التي تظهر معي في الصورة. كانت المشرفة على رسالة الماجيستير الخاصة بي في هيلو؛ ولا تظنوا بي الظنون لأنها تزوجت شخصًا آخر بعد التقاط هذه الصورة بنحو شهر. كنا حينئذٍ على وشك الدخول إلى ما يسميه الأمريكيون قناة حمم ثيرستون. وإن كنت أفضل الاسم الهاوايي وهو ناهوكو لأن الرجل الذي يدعى ثيرستون والذي اشتق منه الاسم لا علاقة له بالقناة. فهو لم يكن سوى ناشر صحفي أطلق حملة لإنشاء منتزه فولكينوز الوطني. على أي حال يمكن تلخيص ما حدث في أنه منذ أربعمائة أو خمسمائة عام ثار بركان كيلويا؛ أو ربما البركان الأقدم منه عهدًا وهو مونا لوا. انطلقت من البركان حمم تشكلت منها قنوات. وعندما توقفت الحمم عن التدفق، نفدت المادة السائلة الموجودة داخل القنوات. لكن هذه القنوات استمرت كقنوات ضخمة من الصخور. وبمرور الوقت اكتست هذه القنوات بالطين والأوساخ وغيرها من المواد الأخرى، لكنها لا تزال مكانها هناك.» توقف فورهولست، وأخذ ينظر إلى صفوف الطلاب. ثم تساءل: «أيمكن لأحد منكم أن يخمن علاقة ذلك بالقمر؟» رفع عشرون طالبًا

أيديهم في الحال. فأشار فورهولست إلى الطالب الذي يجلس بجوار رانجيت. «تفضل، جود، أليس كذلك؟»

وقف الفتى متحمسًا. وقال: «كانت توجد براكين على سطح القمر أيضًا.»

أومأ البروفسور. وقال: «بكل تأكيد. لكن ليس منذ زمن قريب لأن حجم القمر ضئيل جدًّا؛ ولذا فقد هدأت حرارته منذ زمن بعيد. لكن ما زلنا نستطيع رؤية المواقع التي وجدت بها براكين هائلة حيث لا تزال تدفقات الحمم البازلتية تغطي مئات الكيلومترات المربعة، وهناك الكثير من النتوءات على سطح القمر — على الأسطح المستوية أو داخل إحدى الفوهات — التي يرجح أن تكون بركانية في الأصل. وإذا كانت هناك تدفقات ونتوءات فلا بد من وجود حمم؛ وإذا كانت هناك حمم فلا بد من وجود ماذا؟»

أجاب عدد من الطلاب في الحال: «قنوات حمم!» كان رانجيت من المجيبين.

وافقهم فورهولست: «بالضبط، قنوات الحمم. على كوكب الأرض، نادرًا ما يزيد قطر قنوات مثل ناهوكو عن مترين، لكن الأمر يختلف على سطح القمر. فبسبب الجاذبية الضئيلة على سطح القمر قد يزداد حجم هذه القنوات بمقدار عشرة أضعاف؛ قد يزداد حجمها ليصبح في حجم القناة التي تربط بين إنجلترا وفرنسا. وهذه القنوات موجودة هناك تنتظر وصول بعض البشر ليحفروا واحدة منها، ويحكموا سد ثغراتها تمامًا، ويملئوها بالهواء ... ثم يؤجروا أماكن للنوم بها للمهاجرين من كوكب الأرض.» نظر فورهولست إلى ضوء المؤقِّت أعلى الشاشة الذي تحول من اللون الأخضر إلى الأصفر ثم بدأ يومض باللون الأحمر. وقال: «وتلك نهاية محاضرة اليوم.»

لكن الواقع أن المحاضرة لم تكن قد انتهت بعد لأن العديد من الطلاب ما زالوا يرفعون أيديهم. ألقى الدكتور فورهولست نظرة يرثى لها على ضوء المؤقِّت الذي استقر على اللون الأحمر، ولكنه استسلم لهم. وقال: «حسنًا. سؤال واحد. ما هو؟»

خفض الكثير من الطلاب أياديهم، والتفتوا متحمسين إلى فتًى سبق أن رآه رانجيت بصحبة جود الذي يجلس إلى جواره. تحدث الفتى على الفور كأنه كان يتحين فرصته. وقال: «دكتور فورهولست، يود بعضنا أن يعرف رأيك في أمر ما. فما تقوله دائمًا يعطي انطباعًا أنك تعتقد في وجود حياة في المجرة بعيدًا عن كوكب الأرض. أتعتقد أن هذا الأمر صحيح؟»

نظر فورهولست إلى الفتى نظرة ملؤها الدهشة. وقال: «مهلًا أيها الفِتيان! كيف لي أن أعرف أنه ليس من بين أقاربكم من يعمل مراسلًا صحفيًّا؟ إذا أخبرتكم بما ترغبون

في سماعه، فكيف سيجري تداول الخبر: هل سيكون العنوان «عالم فلك في الجامعة يدعي أن أجناسًا غريبة لا حصر لها ستتنافس مع البشر»؟»

أصر الفتى على موقفه. وقال: «أتعتقد في ذلك؟»

تنهد فورهولست. وقال: «حسنًا. إنه سؤال منطقي، وسأعطيك جوابًا منطقيًّا. ليس لديَّ سبب علمي يجعلني لا أومن بأن هناك عددًا — ربما عددًا كبيرًا — من الكواكب التي تصلح للحياة داخل مجرتنا، ولا أي سبب علمي يبرر عدم قيام حضارات متقدمة علميًّا على بعض هذه الكواكب. تلك هي الحقيقة. ولم أنكرها من قبل قط.» ثم أضاف: «بالطبع، أنا لا أتحدث عن كائناتكم الخارقة الغريبة التي تقرءون عنها في المجلات المصورة والتي تريد استعبادنا نحن البشر أو ربما إبادتنا كليةً. مثل ... ماذا يُطلق عليهم؟ أعداء سوبرمان الذين أسرهم والده قبل انفجار كوكبهم ووضعهم داخل سجن عائم في الفضاء يشبه كتلة مكعبة الشكل ليقع أمر ما وينجو الجميع؟»

علا صوت من الصف الخلفي قائلًا: «أتقصد الجنرال زود؟» وقال صوت آخر: «والفتاة إيرنا.» ثم أضاف عدد من الطلاب: «ونون أيضًا!»

ابتسم البروفيسور ابتسامة عريضة لهم جميعًا. وقال: «أنا سعيد لأن الكثيرين منكم ملمُّون إلى هذا الحد بالأعمال الكلاسيكية. على أي حال ثقوا فيما سأقوله لكم. ليس هناك وجود لهذه الكائنات. ولن تعزم كائنات فضائية بشعة على أن تبيدنا، والآن دعونا نخرج من هنا قبل أن يستدعوا لنا شرطة الحرم الجامعي.»

مع أن دكتور يوريس فورهولست لم يسمع من قبل عن «عظماء المجرة» أو أيٍّ من الأجناس التابعة لهم — ومن المرجح أن إجابته كانت ستختلف تمامًا لو أنه سمع عنهم — فإن ما قاله كان صحيحًا حرفيًّا. فلن تعزم كائنات فضائية على إبادة البشر. فالكائنات الفضائية الوحيدة المهتمة بفعل هذا قد عقدت العزم بالفعل، وانتقلت إلى أمور أكثر تشويقًا.

لم يكن «عظماء المجرة» مهتمين بالحفاظ على منطقتهم خالية من الأجناس المعادية من منطلق أفكار تتعلق بالعيش في سلام ووئام. فالغاية التي أرادوها — وحققوها — هي أن يحيوا حياة لا يصرفهم فيها شيء عن اهتماماتهم الرئيسية. كان بعض هذه الاهتمامات يتعلق بخططهم لصنع بيئة مجرِّية مثالية؛ تلك الخطط التي تمنوا تحقيقها في غضون عشرة أو عشرين مليار سنة أخرى. كانت لديهم أيضًا اهتمامات أخرى تتشابه مع ما يسميه البشر تقدير الجَمال.

وجد «عظماء المجرة» أن الكثير من الأشياء «جميل» ومن بينها ما يسميه البشر الترقيم، والنوويات، وعلم الكون، ونظرية الأوتار (وغيرها من النظريات)، وعلاقة السببية، وغير ذلك من المجالات الأخرى. قد يقضي «عظماء المجرة» قرونًا — أو آلاف السنين إن شاءوا — في تأمل التغيرات الطيفية الوفيرة التي تحدث أثناء فقد بعض الذرات المفردة — واحدة تلو الأخرى — لإلكتروناتها المدارية، وذلك من منطلق سعيهم للاستمتاع بمظاهر الطبيعة الأساسية. أو ربما يدرسون توزيع الأعداد الأولية التي تزيد عن ١٠^٥٠، أو التطور البطيء لأحد النجوم من مجرد خيط رفيع من الغاز والجزيئات المتناثرة من بدء عملية احتراق نووي وصولًا إلى حالته النهائية نجمًا صغيرًا أبيض باردًا أو سحابة من الخيوط الرفيعة والجزيئات.

ولكن كانت لديهم اهتمامات أخرى. من بينها — على سبيل المثال — مشروعهم الخاص بزيادة مقدار العناصر الثقيلة نسبة إلى الهيدروجين الأولي في التركيب الكيميائي للمجرة. (كان لديهم سبب وجيه لتنفيذ هذا البرنامج، لكنه ليس بالسبب الذي يمكن للبشر المعاصرين فهم أبعاده.) إضافة إلى ذلك كان استيعاب اهتماماتهم الأخرى أكثر صعوبة مقارنة باهتمامات البشر. لكنهم اعتبروا أن قمع الشعوب التي من المحتمل أن تمثل خطرًا عليهم أمرًا يستحق التنفيذ.

وهكذا اقتضت البيانات الخاصة بكوكب الأرض اتخاذ إجراء ما. وأمرهم بالكف والتوقف الذي بُثَّ لاسلكيًّا إلى كوكب البشر لا تزال أمامه سنوات قبل الوصول إلى هدفه وفقًا لحركة الضوء البطيئة. لن يكون ذلك كافيًا. بل إنه لن يشكل فارقًا على الإطلاق؛ لأن المطلوب في حقيقة الأمر هو اتخاذ إجراء عاجل. فتلك المخلوقات الفقارية ذات القدمين المعتدة بنفسها لا تمتلك تكنولوجيا الانشطار والاندماج النووي إلى الحد الذي يمكِّنها من إنتاج أسلحة مثيرة للقلاقل فحسب، وإنما لديها بالفعل صناعة أسلحة تنتشر في الكوكب بأكمله ويمكنهم الاعتماد عليها. كان الموقف أكثر خطورة مما ظن عظماء المجرة، وهم لا يتساهلون في التعامل مع ما يثير قلقهم.

عقد «عظماء المجرة» العزم على القضاء على مصدر القلق هذا تحديدًا.

يوجد العديد من وسائل الاتصال المتاحة لدى «عظماء المجرة» عندما يرغبون في نقل أمر ما إلى أحد الأجناس التابعة لهم. وكان من بينها — على سبيل المثال — الراديو البسيط الذي يتميز بالكفاءة لكنه بطيء إلى أبعد الحدود. لا يمكن لأي إشارة كهرومغناطيسية — ضوءًا كانت أو رادارًا أو أي نوع آخر — أن تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الضوء التي توصل إليها أينشتاين ورمز لها بالرمز (c) وهي السرعة القصوى المطلقة وتساوي

نحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية. ابتكر «عظماء المجرة» آلات أسرع — متسللين عبر ثغرات النسبية — بمعدل أربع أو خمس مرات على أكثر تقدير.

غير أن «عظماء المجرة» أنفسهم — أو أي جزء صغير يمكن فصله منهم — لم يعانوا من مثل هذه العوائق نظرًا إلى كونهم كائنات غير باريونية عظيمة الشأن. ولأسباب تتعلق بهندسة الزمكان ذي الأبعاد العشرة، فإن انتقالهم كان يتكون من عدد من الدورات؛ من (أ) إلى (ب)، ومن (ب) إلى (ج)، وربما ينطلقون من (ج) إلى الجهة التي يقصدونها مباشرة. ومع ذلك فإن وقت الانتقال لكل دورة دائمًا ما يكون صفرًا سواء أكان الانتقال عبر قطر أحد البروتونات أم كان من قلب المجرة إلى أبعد ذراع حلزونية فيها.

وهكذا اتخذ «عظماء المجرة» الخطوة المزعجة المتمثلة في فصل مجموعة صغيرة منهم لتنقل الأمر إلى كائنات «واحد فاصل خمسة»؛ وهكذا فإن كائنات «واحد فاصل خمسة» تتلقى أوامر الانطلاق في نفس الوقت الذي يقرر فيه «عظماء المجرة» إصدارها لهم. ولما كانت كائنات «واحد فاصل خمسة» قد توقعت القرار مقدَّمًا، فقد كانوا على أهبة الاستعداد عندما وصلتهم الأوامر.

لم ترَ كائنات «واحد فاصل خمسة» سببًا للتأخير. فأسطول الغزو الهائل الذي يمتلكونه جاهز للانطلاق تمامًا. وقد أطلقوه.

وبالطبع، كانت كائنات «واحد فاصل خمسة» كائنات مادية تمامًا؛ ولذا فإنها لم تكن بمنأى عن الخضوع لقاعدة سرعة الضوء. فربما ينقضي عمر جيل من البشر تقريبًا قبل أن يصل الأسطول إلى وجهته ويبيد الجنس البشري البغيض. لكنه أصبح في طريقه بالفعل.

الفصل السادس

عودة إلى الأرض

شهدت أوضاع رانجيت سوبرامانيان تغيرًا نحو الأفضل؛ ذلك إن تجاهلنا أن جاميني لا يزال على بعد تسعة آلاف كيلومتر، وأن والد رانجيت ربما كان بعيدًا بنفس القدر هو الآخر. كانت الأحداث تتصاعد مجددًا في العراق حيث يحرس قاطعو طرق مسيحيون مفتولو العضلات ببنادقهم الآلية جانبًا من أحد الكباري لا يريدون أن يعبره الإسلاميون؛ بينما يحرس إسلاميون مسلحون على نفس الدرجة من القوة الجانب الآخر من الكوبري ليحولوا دون تلويث المسيحيين جانبهم من النهر.

كان هناك الكثير من هذه الأحداث، لكنها بلا شك لم تكن بالأحداث التي تمنح رانجيت شعورًا مؤقتًا بالسعادة.

غير أن الأشياء التي تُشعره بالسعادة موجودة بالفعل. فهو لم يكن يستمتع بدراسة أساسيات علم الفلك فحسب، وإنما كان يبلي فيها بلاءً حسنًا. حتى إن أسوأ الدرجات التي حصل عليها في اختباراته كانت تقترب من تسعين درجة، وربما قِيس ودُّ أستاذه له (مثلما كان واضحًا من عبارات المديح التي أغدقها على أسئلة رانجيت ومناقشاته) بأعلى من ذلك. بالطبع، وجد الدكتور فورهولست طرقًا مختلفة للإشادة بجميع الطلاب تقريبًا في فصله. واعتبر رانجيت أن ذلك لم يكن من منطلق تساهله أو توانيه. فالأرجح أنه ما من أحد ينضم إلى فرقته دون أن تستهويه فكرة ذهاب البشر لزيارة بعض تلك العوالم الغريبة الأخرى في وقت ما وبصورة ما. وعندما حصل رانجيت على الدرجة النهائية للمرة الثالثة على التوالي في أحد الاختبارات جال بخاطره للمرة الأولى أنه يمتلك مقومات الطالب الذي قد يصبح محل فخر والده.

وعلى سبيل التجربة حاول رانجيت أن يأخذ دروسه الأخرى على محمل الجد قليلًا. راجع رانجيت قائمة الكتب التي حددها أستاذ الفلسفة لمن يرغب في الحصول على درجات

إضافية، واختار من بينها كتابًا بدا عنوانه مشوقًا. لكنه عندما أخذ الكتاب الشهير «لفياثان» للفيلسوف توماس هوبز معه إلى غرفته لم يعد الكتاب مشوقًا كما ظنه في البداية. هل كان هوبز يقول إن العقل البشري يشبه الآلة؟ لم يكن رانجيت متأكدًا من ذلك. فضلًا عن أنه لم يستطع استيعاب الفرق بين مفهومَي الإثابة الملزمة والإثابة غير الملزمة. ومع أنه استوعب تمامًا ما قاله توماس هوبز عندما أثنى على «الدولة المسيحية» باعتبارها أسمى أشكال الدول، فلم تكن تلك فكرة تروق الفتى اللاأدري المتشدد ابن كبير كهنة أحد المعابد الهندية. ما من شيء في كتاب هوبز بدا وثيق الصلة بحياة أي شخص يعرفه رانجيت. أعاد رانجيت الكتاب عابسًا إلى المكتبة، ثم توجه إلى غرفته لا يرغب في شيء سوى ساعة قيلولة هادئة.

وجد رانجيت خطابين في انتظاره. كان أحدهما داخل مظروف أصفر مختوم بختم الجامعة الذهبي. ظن رانجيت أن هذا الخطاب في الأغلب إخطار من المسئولين عن الحسابات المصرفية للطلاب يُعلمونه فيه بأن والده قد أرسل إيجار سكنه لمدة ثلاثة أشهر أخرى. لكن الخطاب الآخر كان من لندن ما يعني أنه من جاميني. لذا، فتحه رانجيت على الفور.

ظن رانجيت أن تلقيه أخبارًا من جاميني سيضفي بهجة على هذا اليوم الكئيب، لكن خاب أمله فور قراءة الخطاب. لم يضف الخطاب أية بهجة. كان الخطاب مقتضبًا، ولم يشر في أي موضع إلى أن جاميني يفتقد رانجيت. كان الخطاب يتركز حول حضور عرض لواحدة من أقل مسرحيات شكسبير الكوميدية متعة في مكان يسمى «باربيكان». ذكر جاميني أنه لسبب ما طلب المخرج من جميع شخصيات العمل ارتداء ملابس بيضاء مجردة من التفاصيل، ولذا لم يستطع هو أو مادج تمييز الشخصية التي تتحدث في كثير من الأحيان.

تنبَّه رانجيت وهو يمد يده لالتقاط الخطاب الوارد من الجامعة إلى أن تلك هي المرة الثالثة — وربما الرابعة — التي يذكر فيها جاميني اسم مادج هذه. كان يفكر فيما قد يعنيه هذا الأمر، وهو يُخرج خطابًا بنفس لون المظروف الأصفر، وعندها انصرف عن التفكير في الخطأ الذي يحتمل أن يكون جاميني واقعًا فيه. كان اسم عميد شئون الطلبة مطبوعًا على الورقة التي كُتب عليها الخطاب، وورد فيه:

> الرجاء الحضور إلى مكتب العميد في الساعة الثانية ظهرًا يوم الثلاثاء المقبل.
> ثمة ادعاء بأنك استوليت على كلمة المرور الخاصة بأحد أعضاء هيئة التدريس

> خلال السنة الدراسية الماضية. عليك إحضار أي مستندات أو أوراق أخرى تعتبرها ذات صلة بهذه التهمة.

وكان الخطاب موقعًا باسم عميد شئون الطلبة.

عرف رانجيت أن السيدة الجالسة في مكتب استقبال العميد تاميلية الأصل من اللوحة التي طُبِع عليها اسمها، وهو ما بث في نفسه شيئًا من الطمأنينة، لكنها كانت في سن والده. أطلت من عينيها نظرة فاترة. وأبلغته: «نحن في انتظارك. يمكنك الدخول إلى مكتب العميد.»

لم تُتح لرانجيت فرصة زيارة مكتب عميد شئون الطلبة من قبل. ومع ذلك فقد عرف كيف يبدو الرجل — لأن ملف أعضاء هيئة التدريس على الصفحة الرئيسية لموقع الجامعة يعرض صورًا شخصية لهم — وعرف أيضًا أن الرجل المسن الذي يقرأ الجريدة على المكتب الماهوجاني الكبير لم يكن العميد قطعًا. غير أن الرجل وضع جريدته وقام من مكانه، صحيح أن وجهه لم تعْلُه ابتسامة واضحة، لكن بالقطع لم تطل منه نظرة الجلاد التي توقعها رانجيت. دعاه قائلًا: «تَقدَّم سيد سوبرامانيان. تفضل بالجلوس. أنا الدكتور دينزيل دافودبوي رئيس قسم الرياضيات، ولأنه من الواضح أن للمسائل الرياضية دورًا مهمًّا هنا، فقد طلب مني العميد أن أجري هذه المقابلة نيابة عنه.»

لم يكن ذلك سؤالًا، ولم يدرِ رانجيت أي جواب سيكون ملائمًا. فاكتفى بمواصلة النظر إلى أستاذ الرياضيات بينما يرتسم على وجهه تعبير يوحي بالاهتمام الشديد لكن دون إقرار بالذنب.

بدا أن دكتور دافودبوي لم يبالِ بذلك. وأردف قائلًا: «أولًا، ثمة سؤالان رسميان لا بد أن أطرحهما عليك. هل استخدمت كلمة المرور الخاصة بدكتور داباري للاستيلاء على أموال ليست من حقك؟»

أجاب رانجيت على الفور: «بالقطع، لا يا سيدي!»

سأل دكتور دافودبوي: «أو لتغيير درجاتك في مادة الرياضيات؟»

غضب رانجيت هذه المرة. وأجاب: «كلَّا! أعني لا يا سيدي، ما كنت لأفعل شيئًا كهذا!»

أومأ دكتور دافودبوي كأنه توقع كلتا الإجابتين. ثم قال: «يمكنني أن أخبرك بأنه ما من دليل يؤكد تورطك في أيٍّ من التهمتين. وأخيرًا، كيف حصلت بالضبط على كلمة المرور؟»

رأى رانجيت أنه لا يبدو أن هناك داعيًا لمحاولة إخفاء أي شيء. وأملًا في تفهُّم حسن نواياه، فقد بدأ الاعتراف باكتشافه أن أستاذه سيكون خارج البلاد لمدة طويلة، وانتهى بعودته إلى كمبيوتر المكتبة عندما وجد الحل على الشاشة.

وعندما انتهى رانجيت، حدق دافودبوي في وجهه هنيهة ساد خلالها الصمت. ثم قال: «أتدري يا سوبرامانيان، قد يكون لك مستقبل في علم التشفير. سيكون ذلك أفضل من قضاء حياتك في محاولة إثبات النظرية الأخيرة لفيرما.»

نظر دافودبوي إلى رانجيت كأنما ينتظر ردًّا. لكن رانجيت لم يُحِرْ جوابًا ما جعل دافودبوي يستطرد: «لست الوحيد الذي يفعل ذلك. فعندما كنت في مثل سنك — وكأي دارس متخصص في الرياضيات في العالم — أثارت النظرية الأخيرة اهتمامي. إنها مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟ لكن بعدها — عندما تقدم بي السن قليلًا — توقفت عن التفكير فيها لأنه ... أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ لأن ثمة احتمالًا كبيرًا جدًّا ألا يكون فيرما قد عثر على البرهان الذي ادعى وجوده.»

ولما لم تكن لدى رانجيت رغبة في أن يستدرجه دافودبوي للحديث عن هذه النقطة، فقد ظل مصغيًا بأدب ولم ينطق بشيء. أضاف دافودبوي: «أقصد فكر في الأمر على النحو التالي. أظن أنك تعلم أن فيرما قضى معظم حياته — إلى أن وافته المنيَّة — محاولًا إثبات صحة نظريته على القيم المرفوعة إلى الأسس ثلاثة وأربعة وخمسة. فكِّرْ في هذا الأمر. هل هناك مغزى على الإطلاق من وراء ذلك؟ أقصد إن كان الرجل قد وجد بالفعل برهانًا عامًّا يثبت صحة القاعدة فيما يتعلق بجميع الأسس الأعلى من الأس التربيعي، فلماذا بذل جهدًا في إثبات بضعة أمثلة متفرقة؟»

كزَّ رانجيت على أسنانه. فقد سبق أن طرح على نفسه هذا السؤال مرارًا وتكرارًا خلال الليالي الحالكة والأيام الموحشة. غير أنه لم يجد جوابًا مُرضيًا أيضًا. أجاب رانجيت بالجواب الذي لم يكن مُرضيًا تمامًا والذي دائمًا ما كان يحاول إقناع نفسه به: «من يدري؟ كيف يمكن لشخص مثلك أو مثلي أن يخمن السبب الذي من أجله سلك عقل كعقل فيرما هذا المسلك أو ذاك؟»

نظر إليه أستاذ الرياضيات وتعبيرات وجهه تنم عن شيء من القبول وشيء من التقدير في الوقت نفسه. ثم تنهد وبسط يديه. وقال: «سوبرامانيان، دعني أطرح عليك نظرية مختلفة لما حدث. لنفترض أنه في عام — أيَّ عام كان هذا، ١٦٣٧؟ — في عام ١٦٣٧ انتهى فيرما من وضع ما اعتبره برهانًا. ولنفترض أنه في وقت متأخر من هذه الليلة

— عندما كان يقرأ في مكتبته استعدادًا للنوم — لم يتمالك نفسه وفي نوبة حماس مفرط خطَّ هذه الملحوظة على عجل في كتابه.» توقف دافودبوي هنيهة، ونظر إلى رانجيت نظرة لا يمكن وصفها إلا بأنها نظرة تهكم. على الرغم من أنه عندما استطرد في حديثه كانت لهجته ملائمة لزميل جدير بالتقدير وليست لطالب من المفترض أنه يخضع للتأديب. «لنفترض أنه في وقت لاحق راجع فيرما برهانه للتأكد من صحته، فوجد به خطأً فادحًا. لن تكون تلك المرة الأولى، أليس كذلك؟ لأن هذا الأمر حدث من قبل مع «براهين» أخرى لفيرما اعترف لاحقًا بخطئها، أليس كذلك؟» ولحسن الحظ أنه لم ينتظر ردًّا من رانجيت، وإنما واصل حديثه. فأردف: «لذلك سعى إلى تصحيح برهانه بأي صورة ممكنة. لكن مع الأسف باءت محاولته بالفشل. حاول فيرما أن يستدرك شيئًا من خطئه، ثم حاول بعد ذلك تنفيذ المهمة الأكثر محدودية المتمثلة في إثبات صحة البرهان على حالات مبسطة مثل (p) يساوي ثلاثة، وهو ما نجح فيه؛ وكذلك (p) يساوي أربعة؛ وهو ما نجح فيه أيضًا. لكنه لم يحصل مطلقًا على برهان للحالة التي يكون فيها (p) مساويًا خمسة وإن كان على يقين من وجود البرهان. وقد كان محقًّا في هذا أيضًا؛ لأن شخصًا آخر أثبت ذلك بعد وفاة فيرما. وطوال هذا الوقت كان ما كتبه فيرما في كتاب ديوفانتس قابعًا على أحد رفوف مكتبته. في الأغلب كان فيرما سيعود إلى ما كتبه ويمحو هذا التخمين الخاطئ إذا تذكر في أي وقت أنه كتب ذلك. لكن ما نسبة احتمال رؤية أي شخص لما كتب فيرما؟ بعدئذٍ توفي فيرما؛ وبينما يتصفح أحد الأشخاص كُتبه رأى ما كتب ... ولم يدرِ أن العالم الفذَّ قد غيَّر رأيه.»

لم تتبدل تعبيرات وجه رانجيت. وعلق قائلًا: «تلك نظرية معقولة تمامًا. لكنني لا أظن أن ذلك ما حدث.»

ضحك دافودبوي. وقال: «حسنًا سوبرامانيان. دعنا نتوقف هنا. لا تكرر ما فعلته مجددًا.» ثم قلَّب بين الأوراق الموضوعة أمامه، وأومأ برأسه، وأغلق الملف. وتابع قوله: «الآن يمكنك العودة إلى محاضراتك.»

«حسنًا، سيدي.» قالها رانجيت وتلكأ بعض الوقت بعد حمل حقيبته، ثم تساءل: «لكن هل سأتعرض للفصل من الجامعة؟»

بدا أستاذ الرياضيات مندهشًا. وتساءل: «تتعرض للفصل؟ كلَّا، لا شيء من هذا القبيل. إنها المرة الأولى التي تخرق فيها القانون، كما تعرف. نحن لا نفصل الطلاب لأسباب كهذه ما لم يكن الأمر أشد سوءًا من الاستيلاء على كلمة مرور؛ وعلى كل حال

تلقى العميد بعض خطابات التأييد التي تثني عليك كثيرًا.» وأعاد دافودبوي فتح ملف رانجيت مرة أخرى، وقلَّب بين الأوراق. ثم قال: «حسنًا. ها هي الخطابات. أحدها من والدك. إنه واثق تمامًا من أنك تتمتع بشخصية جيدة. لا شك أن رأي الأب في ابنه الوحيد قد لا يكون في حد ذاته ذا أهمية كبيرة، لكن ها هو خطاب آخر. يكاد يشبه خطاب والدك في الإشادة بك لكنه من شخص لا أظن أنه على علاقة وطيدة بك غير أنه يحظى بالكثير من التقدير في الجامعة. إنه محامي الجامعة السيد داتوسينا باندارا.»

حينئذٍ صار لدى رانجيت لغز آخر يمعن في التفكير فيه. فمن كان يتوقع أن يجهد والد جاميني نفسه لإنقاذ صديق ابنه؟

الفصل السابع

الوصول إلى هناك

كانت السنة الدراسية تقترب من نهايتها ببطء. وكانت المحاضرات التي يقضيها رانجيت في دراسة علم الفلك تمر بسرعة ملحوظة في حين تنقضي ساعات الأسبوع الأخرى ببطء شديد.

ولفترة قصيرة راود رانجيت الأمل في العثور على بقعة مشرقة؛ وإن كانت مشرقة إلى حد ما. عندما تذكر المحاضرة التي دارت حول ما أُطْلِق عليه الخطة الشمسية المائية للبحر الميت المطل على إسرائيل، عاد مرة أخرى إلى سلسلة المحاضرات. لكنه وجد أن المُحاضر يتحدث حينئذٍ عن الملوحة المتزايدة لعدد كبير من الآبار المطلة على المحيطات في مختلف أنحاء العالم، وتحدث بعدها عن أن عددًا من أكبر الأنهار في العالم لم تعد تَصُب في البحر، أي بحر؛ إذ نُزِحَت مياهها من أجل الزراعة وتنظيف المراحيض بالمياه الدافقة وري حدائق المنازل في المدن أولًا. كان هذا القدر من التثبيط كافيًا لرانجيت. فتوقف عند هذا الحد.

فكر رانجيت لحظةً في أن يأخذ — أو على الأقل يتظاهر بأخذ — دراسته على محمل الجد. إذ يمكن اعتبار الدراسة لعبة مثلًا، بل ولعبة يسهل الفوز فيها إلى حد بعيد. لم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين الدراسة وبين هذا التعطش الهائل للتعلم الذي ميز تكريس نفسه في سن مبكرة لحل نظرية فيرما. كل ما كان يتعين على رانجيت فعله حينئذٍ أن يخمن الأسئلة التي ربما يطرحها مدرسوه في كل اختبار وأن يبحث عن إجاباتها. لم يكن تخمين رانجيت في محله دائمًا، لكنه ما كان في حاجة إلى ذلك إذا أراد الحصول على درجة اجتياز الاختبار فحسب.

وبالطبع، لا شيء من هذا ينطبق على مادة أساسيات علم الفلك.

نجح الدكتور فورهولست في أن يجعل من كل محاضرة مصدرًا للمتعة. مثلما حدث عندما تحدثوا عن فكرة استصلاح الكواكب؛ أي تهيئة أسطح الكواكب بما يتيح حياة البشر عليها. إذا فكرتم في استصلاح الكواكب، فكيف يمكنكم الوصول إلى هناك لعمل ذلك؟

كان رانجيت سيجيب: «بالسفن الصاروخية.» وبينما شرع بالفعل في رفع يده للإجابة عن السؤال، اعترضه المدرس بسؤال آخر. وجه الدكتور فورهولست سؤاله إلى جميع الطلاب — وتحديدًا المجموعة التي كانت ترفع أياديها مثل رانجيت: «ستقولون «بالسفن الصاروخية»، أليس كذلك؟ حسنًا. دعونا نفكر في الأمر قليلًا. لنفترض أننا نود البدء باستصلاح المريخ، لكن كل ما يتوفر لدينا لهذا العمل هو أقل مقدار ممكن من معدات الحفر الثقيلة. لنقل على سبيل المثال جرافة عكسية ضخمة جدًّا. وبلدوزر. وشاحنتين قلابتين متوسطتَي الحجم. ووقودًا يكفي لتشغيل كل هذه المعدات مدة ستة أشهر أو نحو ذلك. فتلك فترة كافية لبدء العمل على أي حال.» توقف فورهولست وعينه على طالب رفع يده للتوِّ في الصف الثاني. وقال: «تفضل، جاناكا أليس كذلك؟»

وقف الفتى الذي يدعى جاناكا متحمسًا. وقال: «لكن الدكتور فورهولست، هناك خطة متكاملة لاستخراج الوقود من مصادر موجودة على كوكب المريخ بالفعل!»

ابتسم له البروفسور. وقال: «أنت محق تمامًا، يا جاناكا. على سبيل المثال، إذا كانت هناك حقًّا كمية كبيرة من الميثان أسفل الأرض الجليدية لكوكب المريخ — مثلما يعتقد الكثيرون — فيمكننا حرق هذا الميثان من أجل الحصول على الوقود على افتراض أننا سنجد بعض الأكسجين لإتمام عملية الحرق. ولكي نقوم بذلك سنحتاج بالطبع إلى الكثير من المعدات الثقيلة التي ستحتاج إلى كميات كبيرة من الوقود إلى أن تعمل معدات استخراج الوقود.» ابتسم فورهولست إلى الفتى ابتسامة ودية. وقال: «وهكذا يا جاناكا أعتقد أنك إذا أردت استصلاح سطح أيٍّ من الكواكب في المستقبل القريب، فستحتاج في الغالب إلى نقل الوقود إلى هذا الكوكب. دعنا إذن نفكر في الأمر.»

التفت فورهولست إلى السبورة البيضاء وبدأ يكتب. وقال بصوت عالٍ: «لننقل ستة أو ثمانية أطنان من الوقود كبداية. ثم تأتي آلات الحفر نفسها ... ماذا تظنون عشرين أو ثلاثين طنًّا أخرى على الأقل؟ ولكي ننقل شحنة حمولتها ثمانية وعشرون طنًّا كهذه من مدار أرضي منخفض إلى المريخ، فسنحتاج إلى وضعها في إحدى سفن الفضاء. لا أدري كم ستزن كتلة السفينة، لكن لنقل إن السفينة نفسها تستهلك خمسين أو ستين

طنًّا إضافة إلى الوقود الذي سيعمل على انطلاقها من المدار الأرضي المنخفض إلى المريخ.»
تراجع فورهولست ليلقي نظرة على الأرقام المكتوبة على السبورة وقطب جبينه. ثم التفت برأسه إلى الطلاب وقال: «يؤسفني أن لدينا مشكلة. لن تبدأ كل هذه الأشياء رحلتها في مدار أرضي منخفض، أليس كذلك؟ قبل أن تتجه السفينة نحو المريخ سنحتاج إلى إدخالها في مدار أرضي منخفض. وللأسف سيكون ذلك مكلفًا للغاية.»

توقف فورهولست وهو ينظر بأسًى إلى طلابه. كان ينتظر خروج بعضهم بحل لهذه المعضلة، وهو ما فعلته إحدى الفتيات بعد قليل. إذ قالت: «ذلك لأنها لا بد من أن تتخلص من الجاذبية الأرضية تمامًا، أليس كذلك الدكتور فورهولست؟»

ابتسم لها فورهولست ابتسامة عريضة. وقال وهو ينظر إلى المؤقِّت الذي تحول لتوِّه إلى اللون الأصفر: «تمامًا روشيني. وهكذا نرى أن الخطوة الأولى هي المعضلة الكبرى. أهناك ما يمكننا فعله لتيسير هذه الخطوة؟ هذا ما سنحاول اكتشافه في المرة القادمة. لكن إذا كنتم لا تطيقون انتظار الإجابة، فعليكم باستخدام محركات البحث.»

وبينما يهم الجميع بالوقوف، قال فورهولست: «ثمة أمر آخر. أنتم مدعوون جميعًا لحضور حفل انتهاء الفصل الدراسي في منزلي. لا ترتدوا شيئًا سوى الملابس التي تحضرون بها إلى الجامعة، ولا تحضروا معكم أي هدايا إنما يكفي حضوركم. لكن لا بد أن تحضروا. فإذا لم تفعلوا، فستغضب والدتي.»

من بين الأمور التي أعجبت رانجيت كثيرًا في أستاذ علم الفلك — بعيدًا عن مثل هذه المفاجآت المذهلة وغير المتوقعة كحفلات انتهاء الفصل الدراسي — أن الدكتور فورهولست لم يكن يقضي الكثير من الوقت في اتباع طرق التدريس التقليدية. فعندما يخبر فورهولست الطلاب — في نهاية كل محاضرة — بموضوع المحاضرة التالية يكون على يقين من أن المائة طالب شديدي الولع بفكرة السفر إلى الفضاء سوف يبحثون في هذا الموضوع قبل موعد المحاضرة التالية بوقت طويل. (أما القلة التي لم تبدأ الدراسة بهذا القدر من الحماس — وهم هؤلاء الذين توهموا أنهم سيدرسون مادة سهلة يحصلون فيها على أعلى تقدير دون جهد — إما توقفوا عن دراسة علم الفلك أو أصيبوا بعدوى الحماسة من أصدقائهم.) وهكذا كان الدكتور فورهولست يُمسك في كل محاضرة بزمام المحاضرة التي تليها.

غير أن رانجيت لم يتمكن هذه المرة من إجراء بحثه على الفور. كانت لديه التزامات أخرى. فعليه أن ينتهي أولًا من محاضرة الفلسفة الرتيبة التي تستغرق ساعة وخمسين

دقيقة. ثم يعقبها وجبة الغداء التي تتكون من ساندويتش مثير للاشمئزاز وتشكيلة من العصائر الفاترة رديئة النوعية التي يزدردها رانجيت على عجل ليلحق بحافلة الساعة الثانية التي تقلُّه إلى المكتبة.

خارج حجرة الطعام كان الطالب الجالس إلى جوار رانجيت في محاضرة أساسيات علم الفلك واقفًا مع بعض أصدقائه يحمل له بعض الأخبار. «ألم تسمع ما وعد به الدكتور فورهولست من أجل المحاضرة القادمة؟ كنت أخبر أصدقائي للتوِّ عن هذه الأخبار. إنه مشروع أرتسوتانوف. يقول فورهولست إنه يمكننا بناء المشروع هنا! في سريلانكا! لأن البنك الدولي أعلن لتوِّه أنه تلقى طلبًا بتمويل دراسة لبناء محطة طرفية في سريلانكا!»

همَّ رانجيت بالسؤال عن معنى كل هذا عندما قال أحد الطلاب: «لكنك قلت إن هذا الأمر قد لا يفلح يا جود.»

ارتسمت ملامح الأسى على وجه جود فجأة. وأقر قائلًا: «أجل، هذا صحيح. إنهم هؤلاء الملاعين من الأمريكيين والروس والصينيين الذي يمتلكون كل النفوذ؛ والمال أيضًا. من المرجح أنهم سيعرقلون تحقيق هذا الأمر؛ لأنه ما إن يجري تشغيل مصعد أرتسوتانوف حتى يكون بوسع أي دولة ضئيلة الشأن في العالم امتلاك برنامج فضاء خاص بها. حتى نحن في سريلانكا! لكنهم يعتبرون هذا الأمر حكرًا عليهم! ألا تتفقون معي؟»

عندما استبد الجوع بمجموعة الطلبة السنهاليين اعتبر رانجيت ذلك مخرجًا من المأزق الذي وجد نفسه فيه؛ لأنه لم يكن لديه رد على السؤال؛ بل لم تكن لديه فكرة عما كان يتحدث عنه جود من الأساس. وفي المكتبة — حيث محركات البحث — أخذ رانجيت ينهل من المعلومات بسرعة فائقة. وكلما زادت معرفته زادت مشاركته لما كان يشعر به جود من إثارة. أهذه هي الخطوة الأولى الصعبة للخروج من سطح الأرض إلى مدار أرضي منخفض؟ مع وجود مصعد الفضاء أرتسوتانوف، لن يكون هذا مشكلة على الإطلاق!

صحيح أن دراسات الجدوى ما زالت بعيدة كل البعد عن وجود عربة حقيقية يقفز المرء بداخلها ويُسحَب بسرعة عالية إلى مدار أرضي منخفض دون الحاجة إلى ملايين اللترات من وقود الدفع السائل المتفجر. لكنه أمر وارد الحدوث. ربما يحدث ذلك عاجلًا أو آجلًا، وقد يصبح رانجيت سوبرامانيان عندئذٍ واحدًا من المحظوظين الذين يدورون حول القمر، ويتجولون بين أقمار كوكب المشتري، وربما يتنزهون في صحاري المريخ القاحلة.

وحسبما أوضحت محركات البحث لرانجيت فإنه في عام ١٨٩٥ ألقى قسطنطين تسيولكوفسكي — أول روسي يفكر في السفر إلى الفضاء — نظرة على برج إيفيل وبعدها

اختمرت الفكرة في ذهنه. فقال إن من بين السبل الجيدة لإدخال إحدى سفن الفضاء إلى المدار بناء برج عالي الارتفاع مزود بمصعد مدمج بداخله ورفع السفينة إلى قمة البرج قبل تشغيلها وتركها تجول في الفضاء.

غير أنه في عام ١٩٦٠ قرأ مهندس من لينينجراد يُدعى يوري أرتسوتانوف كتاب قسطنطين تسيولكوفسكي، وسرعان ما أدرك أن هذه الخطة لن تنجح. كان ذلك درسًا تعلمه قدماء المصريين منذ زمن بعيد — وكذلك شعب المايا — بعد مرور بضعة آلاف من السنين في الجانب الآخر من العالم. والدرس هو أن هناك حدًّا أقصى للارتفاع عند بناء برج أو هرم، وأنه يتحدد بواسطة الانضغاط.

في البناء المرتكز على الانضغاط — وهو أي بناء يبدأ من الأرض إلى أعلى — لا بد أن يدعم كل طابق وزن جميع الطوابق التي تعلوه. ومعنى ذلك أننا سنحتاج إلى مئات الكيلومترات من الطوابق حتى نصل إلى مدار أرضي منخفض، وليست هناك على الإطلاق مادة بناء تدعم هذا الوزن دون أن تتعرض للانهيار.

كانت فكرة أرتسوتانوف تقوم على إدراك أن الانضغاط ليس سوى واحد من الطرق الممكنة لتشييد أحد المباني. وتوجد بالمثل طريقة أخرى يمكن تطبيقها وهي التوتر.

البناء المرتكز على التوتر — الذي يتكون من كابلات متصلة بجسم دائر على سبيل المثال — فكرة جيدة من الناحية النظرية، وإن كان تطبيقها صعبًا عمليًّا إذا نظرنا إليها من منظور مهندس ليس لديه سوى الأدوات التي كانت متاحة في منتصف القرن العشرين لتصنيع الكابلات. لكن، حسبما زعم أرتسوتانوف، من قال إن المواد المتطورة لتصنيع الكابلات التي ربما تظهر بعد بضعة عقود لن تصلح لهذا الغرض؟

عندما سنحت لرانجيت فرصة الخلود إلى النوم أخيرًا في تلك الليلة كانت الابتسامة تعلو وجهه — وظلت هكذا حتى أثناء نومه — لأنه للمرة الأولى منذ وقت طويل وجد شيئًا يستحق ابتسامته حقًّا.

* * *

في الصباح التالي كانت البسمة لا تزال تعلو وجهه وهو يتناول طعام الإفطار ويحصي الساعات المتبقية (التي كادت تصل إلى مائة وأربعين ساعة) على موعد محاضرة أساسيات علم الفلك القادمة. لم يخالج رانجيت أدنى شك في أن محاضرات علم الفلك هي أكثر البقع المشرقة في عامه الدراسي …

وما دام الأمر كذلك، لِمَ لا يغير رانجيت تخصصه العام من الرياضيات إلى علم الفلك؟

توقف رانجيت عن مضغ الطعام ليمعن النظر في هذا الأمر، لكنه لم يصل إلى نتيجة حاسمة. فثمة شيء في عقله لن يدعه يتخذ قرارًا رسميًّا بالشعور باليأس تجاه علم الرياضيات. وهذا يعني إلى حد بعيد — سواء أكان ذلك صوابًا أم خطأً — أنه يئِس من حل نظرية فيرما.

من ناحية أخرى، كان تخصص رانجيت في الرياضيات دون دراسة أي مقررات خاصة بعلم الرياضيات أمرًا غريبًا تمامًا مثلما ذكرت المرشدة الأكاديمية في المحاضرة الوحيدة التي حضرها رانجيت لها.

فطن رانجيت إلى حل لتلك المشكلة، وها هي فترة الصباح بالكامل شاغرة أمامه لتنفيذ ما فكر فيه. ما إن وصلت المرشدة إلى مكتبها حتى تبعها رانجيت ليحسم أمره في هذا الشأن، وبحلول الظهيرة كان رانجيت قد سجل اسمه رسميًّا وعلى نحو متأخر ضمن الدارسين لمادة أساسيات الإحصاء. ولماذا الإحصاء؟ حسنًا، إنها فرع من فروع الرياضيات على أي حال. لكن ماذا عن الانضمام إلى صفوف الدارسين متأخرًا هكذا، كيف سينجح ذلك؟ أكد رانجيت لها أنه لا توجد لديه مشكلة في ذلك؛ فلا توجد مادة من مواد الرياضيات في الجامعة يعجز رانجيت عن فهمها في وقت قصير على أية حال. وهكذا فإنه بحلول وقت الغداء كان رانجيت قد توصل إلى حل إحدى مشكلاته على الأقل، على الرغم من أنها في رأيه لم تكن على قدر من الأهمية يجعلها تستحق الحل. وبوجه عام بدأ رانجيت غداءه الممل وهو يشعر بابتهاج شديد.

بعدئذٍ ساءت الأوضاع.

ترك بعض الحمقى صوت الراديو عاليًا على الأخبار بدلًا من همس الموسيقى الذي كان طلبة الجامعة يرغبون في سماعه أثناء تناول وجباتهم. ولم يدرِ أحد كيف يطفئ الراديو.

لا بد أن الأخبار الرئيسية في هذا اليوم هي نفس الأخبار التي لا يرغب رانجيت في سماعها؛ لأن جميع أخبار العالم تكاد تكون كذلك.

ومع هذا أنصت رانجيت باهتمام؛ فالأخبار تذاع بالفعل. كانت الأخبار سيئة كما توقع، فما زالت كل الحروب الصغرى تزداد حدة إلى جانب تهديدات بشن حروب جديدة كالمعتاد دائمًا. بعدها انتقلت الأخبار لإذاعة الأخبار المحلية في كولومبو. لم تكن مثل

هذه الأخبار محل اهتمام رانجيت إلى أن لفتت إحدى الكلمات انتباهه. كانت الكلمة هي «ترينكومالي».

أعار رانجيت الأخبار أذنًا صاغية. يبدو أن رجلًا من ترينكومالي أُوقِف لأنه لم يفسح الطريق بشاحنته القديمة أمام سيارة شرطة كانت تطلق صافرة الإنذار. (الواقع أن الشرطي الذي كان يستقل السيارة كان متوجهًا إلى أحد الأماكن لتناول الغداء). وعندما أوقف الشرطي شاحنة الرجل إلى جانب الطريق، وألقى نظرة عليها كالمتبع في هذه الحالات. وجد حمولة من مِحْمَصات الخبز الكهربائية والخلاطات وغيرها من الأجهزة المنزلية الصغيرة دون أن يتلقى تفسيرًا واضحًا من الرجل حول كيفية وصول هذه الأجهزة لحوزته.

ما إن سمع رانجيت قارئ النشرة الإخبارية يذكر اسم المتهم حتى توقف عن تناول الطعام وملعقة الأرز في الطريق إلى فمه. كان الاسم هو كيرثيس كاناكاراتنام.

ساءت حالة رانجيت عن ذي قبل. لم يستطع تذكر الموضع الذي سمع به هذا الاسم. بدا الاسم مألوفًا إلى حد ما، لكن من أين؟ المدرسة؟ معبد والده؟ ربما يكون من أي مكان، حاول رانجيت قدر المستطاع لكنه لم يتذكر صاحب الاسم. وفي الأخبار التي أذيعت لاحقًا — بعد الغداء بوقت طويل وبعد أن كفَّ رانجيت عن التفكير في صاحب الاسم — ذُكر أن المتهم ترك وراءه زوجة وأربعة أطفال صغار.

قال رانجيت لنفسه إن الأمر لا يعنيه في شيء. لكنه أخفق في إقناع نفسه بذلك؛ لأنه إذا لم يكن يعرف من هو كيرثيس كاناكاراتنام هذا تحديدًا، فكيف له أن يعرف أنه ليس صديقًا تعرف عليه في فترة ما؟

ولهذا السبب أجرى رانجيت اتصالًا هاتفيًّا بالشرطة. اتصل رانجيت برقم مقر الشرطة الرئيسي من هاتف في مكان قلَّما يذهب إليه في الحرم الجامعي. أجابته امرأة يبدو أنها ليست صغيرة في السن وليست من النوع الذي يفصح عن المعلومات أيضًا. سجين يُدعى كيرثيس كاناكاراتنام؟ نعم، ربما. يوجد عدد كبير من الأشخاص المحتجزين في سجون كولومبو، وهؤلاء لا يذكرون أسماءهم الصحيحة دائمًا. أيمكن للمتصل أن يذكر المزيد من المعلومات عن هذا الشخص؟ أسماء عدد من رفاقه على سبيل المثال؟ وهل للمتصل نفسه علاقة به؟ أو ربما يكون شريكه في عمل ما؟ أو …

وضع رانجيت سماعة الهاتف بهدوء وغادر المكان. لم يفكر رانجيت حقيقةً أن فرقة تابعة لشرطة كولومبو ربما تتجه بسرعة إلى رواق المبنى في أي لحظة. لكنه لم يكن

متأكدًا تمامًا أن ذلك لن يحدث، ولم يرَ سببًا للبقاء في المكان ومعرفة ما سيسفر عنه هذا الاتصال.

عندما عاد رانجيت إلى سكنه تلك الليلة وجد بانتظاره أفضل شيء بعد وجود جاميني الفعلي معه وهو خطاب إلكتروني من لندن. (كانت هناك أيضًا رسالة بأن والد رانجيت اتصل، ويرغب في أن يعاود رانجيت الاتصال به — فكر رانجيت أن تلك أخبار سارة للغاية؛ إذ يبدو أن والده لديه رغبة في الحديث إليه مرة أخرى … ومع ذلك فإن خطاب جاميني هو الذي حظي باهتمام رانجيت أولًا.)

من الواضح أن جاميني يقضي وقتًا رائعًا في لندن. كتب جاميني أنه ذهب سيرًا على الأقدام بالأمس إلى حرم جامعة لندن؛ لأن مادج أخبرته أنها تود أن تريه شيئًا. كان الأمر ممتعًا — على افتراض أنك تحب النظر إلى الجثث — لأننا شاهدنا الجثة المحنطة والمحفوظة بالشمع لفيلسوف مذهب النفعية البريطاني جيرمي بنثام الذي مر على وفاته مائتا عام. قال جاميني إن الجثمان موجود هناك دائمًا، لكنه موضوع داخل صندوق خشبي مغلق يعرف باسم «أوتو آيكون». أسدى أحد طلاب الدراسات العليا بالجامعة خدمة خاصة لمادج — التي كان مفتونًا بها — بأن فتح لها الصندوق. واستطرد جاميني قائلًا إن بنثام كان من المفكرين السابقين لعصورهم أوائل القرن التاسع عشر حتى إنه كتب ذات مرة دعوى مُعَدَّة بعناية يطالب فيها بالتجاوز — أو ببعض التجاوز على أي حال — عن المثليِّين. أضاف جاميني أن بنثام كان ثوريًّا، لكنه اتسم بالحذر أيضًا. فلم ينشر الدعوى. وإنما احتفظ بها في مكان آمن، وظلت هكذا طوال قرن ونصف من الزمان حتى نشرها أحد الأشخاص عام ١٩٧٨.

هنا كان رانجيت قد ملَّ الحديث عن جيرمي بنثام، وتملَّكه شيء من الفضول لمعرفة السبب الذي يجعل جاميني يخبره بكل هذا. ربما لأن بنثام واحد من أوائل الشخصيات البارزة التي تتعاطف مع المثليِّين في كتاباتها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يريد جاميني من رانجيت أن يفهمه بشأن هذا الموضوع؟ بالقطع لم يكن سبب ذلك أن أيًّا من الفتيَين يعتبر نفسه مثليًّا؛ لأنهما ليسا كذلك بالتأكيد.

وجد رانجيت أن التفكير في هذا الأمر يثير حيرته واستأنف قراءة الخطاب. فلم يتبقَّ الكثير على أي حال. قضت مجموعة من رفاق جاميني في الجامعة — لم يكن بينهم اسم مادج هذه، لكن رانجيت كان شبه واثق من وجودها معهم — يومًا كاملًا في مدينة ستراتفورد أبون إفون. وحملت نهاية الخطاب الخبر الهام الذي ورد كفكرة عابرة

تذكرها جاميني قبل إنهاء خطابه: «اسمع يا رانجيت، لديَّ بعض المقررات التي أحتاج إلى دراستها في الصيف، لكن والدي يريدني أن أعود إلى المنزل بضعة أيام هذا الصيف حتى يتسنى لي رؤية جدتي مرة قبل أن تفارق الحياة. يقول إن حالتها الصحية متدهورة. لذلك سأعود إلى سريلانكا فترة قصيرة. أين ستكون؟ لا أدري إن كنت سأجد وقتًا للذهاب إلى ترينكو ... لكن أيمكننا أن نلتقي في مكان ما؟»

أليست هذه أخبار مهمة؟ بلى، إنها كذلك. السبب الوحيد الذي جعل رانجيت يتريث في ابتهاجه أن عليه معاودة الاتصال بوالده.

ما إن دق الجرس حتى رفع العجوز سماعة الهاتف. كان صوته مبتهجًا وهو يقول في عطف وسرور: «آه، رانجيت، لِمَ تُخفي الأسرار عن والدك؟ إنك لَمْ تخبرني أن جاميني باندارا سافر إلى إنجلترا!»

قلَّب رانجيت عينيه في ضيق على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد بجواره. فإذا لم يكن قد أخبر والده عن سفر جاميني فهذا لثقته في أن عيون والده في المكان سيفعلون. الأمر الوحيد الذي تعجب له رانجيت هو أنهم استغرقوا وقتًا طويلًا في نقل الخبر. فكر جاميني للحظة هل يخبر والده أن جاميني سوف يعود عما قريب، لكنه قرر أن يترك هذه المهمة لمن يعملون لحساب والده في السكن الطلابي. أجاب رانجيت بحذر: «نعم، إنه يرتاد إحدى الكليات هناك. كلية لندن للاقتصاد. يعتقد والده أنها أفضل كلية في العالم حسبما أظن.»

وافقه والده الرأي قائلًا: «وأنا واثق من أنها كذلك بالفعل، على الأقل في دراسات معينة. أعلم أنك تفتقده يا رانجيت، لكن لا بد أن أصرح بأن هذا الأمر أفادني كثيرًا في حل مشكلة كبرى كنت أواجهها. فلن ينزعج أحد من صداقتك مع فتًى سنهالي ما دامت تفصل بينكما تلك المسافة.»

لم يدرِ رانجيت ما يقول، فتعقَّل في الأمر، ولم يحر جوابًا. وواصل والده الحديث. فقال: «المهم في الأمر أني افتقدتك كثيرًا يا رانجيت. أيمكنك أن تسامحني، يا رانجيت؟»

لم يكن رانجيت في حاجة إلى أن يفكر في رد على هذا السؤال. فأجاب في الحال: «إنني أحبك يا أبي، وليس هناك شيء أسامحك عليه. إنني أَتَفَهَّم اضطرارك لما فعلت.»

قال والده: «إذن سوف تأتي لقضاء عطلة الصيف هنا في ترينكو؟»

أكد رانجيت أن هذا هو أكثر شيء قد يرغب فيه، لكنه بدأ يشعر بعدم الارتياح. اتخذ الحوار منحًى مربكًا. وسُرَّ رانجيت عندما تذكر السؤال الذي ربما يستطيع والده الإجابة

عنه. «أبي؟ هناك رجل من ترينكو أُلقي القبض عليه هنا في كولومبو، ويدعى كيرثيس كاناكاراتنام، أظن أني أعرف هذا الرجل. أتعرف من هو؟»

تنهد جانيش سوبرامانيان بحرارة، ولم يستطع رانجيت أن يتبين أكان ذلك بسبب وقع السؤال عليه، أم لأن تغيير الموضوع صادف هوًى في نفسه هو الآخر. «نعم بالطبع. كيرثيس. ألا تذكره يا رانجيت؟ المستأجر لديَّ؟ الرجل الذي لديه عدة أطفال صغار وزوجة في حالة صحية سيئة؟ كان يعمل سائق حافلات لدى أحد الفنادق المطلة على الشاطئ. اعتاد والده القيام بأعمال متنوعة حول المعبد إلى أن وافته المنية ...»

قال رانجيت وقد تذكره فعلًا: «الآن تذكرت.» كان الرجل الذي يتحدثان عنه قصيرًا أسود البشرة مثل رانجيت. عاش هو وأسرته في منزل صغير تابع لأملاك جانيش سوبرامانيان، وكان المنزل يشتمل على ثلاث حجرات يسكنها زوجان وأربعة أطفال صغار، ولم يكن مزودًا بالمرافق الصحية. كان أوضح الصور التي استحضرتها ذاكرة رانجيت عن هذه الأسرة هي صورة الأم وهي تغسل ملابس أطفالها في وعاء كبير من القصدير وقد اكتسى وجهها بتعبيرات القنوط ... بينما ينتحب الأطفال عند قدميها ممعنين في تغطية ثيابهم وأجسادهم بالأوساخ.

وعندما أنهى رانجيت مكالمته استعد للنوم وقد خالجه شعور بالرضا. إذ بدأت الأمور تسير على ما يرام. فقد تصالح مع والده. وسيلتقي بجاميني على الأقل لفترة وجيزة. إضافة إلى أنه وجد حلًّا للغز الخاص بهوية كيرثيس كاناكاراتنام هذا، ولن يفكر في الرجل مرة أخرى أبدًا حسب ظنه.

لم تكن مادة الإحصاء مُمِلَّة مثلما ظن رانجيت. لكنها لم تكن مصدر متعة أيضًا. كان رانجيت على دراية جيدة — قبل الالتحاق بصف الإحصاء بوقت طويل — بالفرق بين المتوسط والوسيط والمنوال، وكان على دراية أيضًا بمعنى الانحراف المعياري، ولم يستغرق وقتًا طويلًا في التعرف على كيفية رسم أي نوع من المخططات الإحصائية تطلبه أستاذة المادة. لكن ما أثار دهشة رانجيت أن الأستاذة كانت تتسم بخفة الظل، وفي الأوقات التي لا تتحدث فيها عن مخطط الساق والأوراق وغيرها من المخططات الإحصائية، كان الاستماع إليها — في بعض الأحيان — متعة كما هي الحال مع يوريس فورهولست نفسه.

لكن رانجيت عدل عن رأيه هذا عندما فكر في الأمر مرة أخرى. إذ رأى فيه شيئًا من المبالغة. كانت مدَرِّسة الإحصاء دمثة لكنها كانت تفتقر إلى مادة تعليمية كمادة أساسيات

علم الفلك. وما اشتمله علم الفلك من موضوعات مثل مصعد الفضاء وغير ذلك من الأشياء المذهلة.

لم يكن مصعد أرتسوتانوف المتعة الوحيدة في المادة. ماذا عن شيء مثل حلقة لوفستروم (الذي سأل عنها أحد الطلاب ذات يوم في محاضرة علم الفلك)؟ فمعها لن تحتاج إلى وضع قمر صناعي ضخم في مدار حول الأرض؛ لأنها تستقر على سطح الأرض لتُقذَف منه كبسولات الفضاء إلى المدار.

عندئذٍ بدأ الدكتور فورهولست يكبح طلابه عن إطلاق العنان لخيالهم. فقال في إيجاز: «الاحتكاك. لا تنسوا الاحتكاك. تذكروا ما حدث لكثير من سفن الفضاء قديمًا عند عودتها إلى الغلاف الجوي للأرض. إذا استخدمتم حلقة لوفستروم فستحتاجون إلى زيادة سرعة كبسولة الفضاء بحيث تصل سرعة الإفلات من الجاذبية الأرضية إلى سبعة أميال في الثانية — وهو ما حدثتكم عنه في اليوم السابق — قبل إطلاق الكبسولة، وحينئذٍ سوف تحترق على الفور بفعل الاحتكاك الهوائي.»

توقف فورهولست وأخذ ينظر إلى طلابه وهو طلق المحيا كعادته، لكن عيناه كانتا تلمعان قليلًا ما جعل رانجيت يتوقع مفاجأة وشيكة. قال المدرس في مودة: «وهكذا، هل توصل أيٌّ منكم أيها الفضائيون الصغار إلى نوع وسيلة الدفع التي ستعتمد عليها سفينتكم؟»

لم يفكر رانجيت في إجابة سوى الوقود الممزوج بمادة مؤكسدة الذي عادةً ما يستخدم لهذا الغرض. لكنه ظل صامتًا لأنه أدرك أن الدكتور فورهولست يفكر في شيء آخر ما دام قد طرح عليهم هذا السؤال.

أدرك الطالب الذي يشارك رانجيت المقعد نفس الشيء، لكن رد فعله جاء مختلفًا. فرفع يده. وقال: «أنت لا تتحدث عن الصاروخ الكيميائي، أليس كذلك يا دكتور فورهولست؟ إذن فيمَ تفكر؟ ربما في صاروخ يعمل بالطاقة النووية، أليس كذلك؟»

قال المدرس: «تخمين جيد، لكن ليس هذا ما أفكر فيه، لا أظن أن الصاروخ الذي يعمل بالطاقة النووية هو أفضل الخيارات الممكنة؛ على الأقل ليست الطاقة النووية التي تعنيها. توجد نماذج كثيرة لصواريخ دُفِعَت إلى الفضاء عن طريق تفجير قنابل ذرية الواحدة تلو الأخرى. يمكننا الحديث عن ذلك إذا أردتم، لكن أمامنا خيارين أفضل بكثير للانتقال من مدار أرضي منخفض إلى المريخ. وكلاهما مصمَّم بحيث يستخدم مع مصعد

فضاء يرفعه إلى مدار أرضي منخفض؛ لأن كليهما ضعيف إلى حد لا يقوى معه على رفع أي شيء عن سطح الأرض وإلى الفضاء. أحد هذين الخيارين هو الشراع الشمسي. والآخر هو الصاروخ الكهربائي.»

بعد مرور عشر دقائق كان الدكتور فورهولست قد انتهى من عرض أسباب موجزة ومقنعة لتلافي الاستعانة بالانفجارات النووية كعوامل دفع للصواريخ، ومنها الحاجة إلى دروع عالية التحمل لحماية رواد الفضاء من الإشعاعات الفتاكة، وعلى أي حال من سيرغب في إطلاق بضع مئات من القنابل الذرية في الفضاء؟ أقر فورهولست أن الشُّرُع الشمسية تحظى بالعديد من المزايا، لكنها بطيئة للغاية، ولا تتمتع بقدرة كبيرة على المناورة. غير أن الصاروخ الكهربائي لا يتطلب مخزونًا من الوقود ولا تنتج عنه مواد ضارة، وإن كان يستغرق وقتًا طويلًا جدًّا حتى تزداد سرعته. ومن أين نحصل على الكهرباء؟ قال فورهولست إنها قد تُستمد من مفاعل طاقة نووية على متن السفينة، وإنه يمكن الحصول عليها أيضًا بنفس السهولة من الطاقة الشمسية في الفضاء حيث لا مكان لِلَيْل أو طقس غائم، مما يجعل الشمس مشرقة دائمًا. «وفيمَ ستُستخدم هذه الكهرباء؟ سوف تستخدم في تأيين سائل التشغيل — غاز الزينون على سبيل المثال — لينطلق الغاز من فوهات الصاروخ بسرعة فائقة، وهكذا ينطلق الصاروخ.»

توقف فورهولست لالتقاط أنفاسه. ثم قال: «حسنًا، لن تزداد سرعة الصاروخ الكهربائي في وقت وجيز.» لكنه قد يستمر في الإسراع إلى ما لا نهاية، وكلما طالت مدة التسارع زادت سرعة الصاروخ. يمكنك الاستمرار في زيادة السرعة حتى تقطع نصف الطريق. ثم تبدأ في تقليل السرعة حتى تصل إلى وجهتك. أيدرك أحدكم ما يعنيه هذا؟

منح فورهولست طلابه بضع دقائق للتفكير في الإجابة، لكن لم يتوصل أحدهم إلى شيء. فقال: «معناه أنه كلما بَعُدَت الرحلة، زادت السرعة التي ستحصلون عليها. لن تحتاجوا إلى صاروخ كهربائي للذهاب إلى القمر. فتلك رحلة قصيرة؛ ولن تملكوا معها الوقت اللازم للانطلاق بسرعة كبيرة. غير أنه سوف يكون مثاليًّا في حالة الذهاب إلى المريخ. أما عند الذهاب إلى الكواكب الخارجية — مثل أورانوس أو نبتون — فلن تستغرق الرحلة وقتًا أطول من وقت الذهاب إلى المريخ! وإذا فكرتم في الذهاب إلى مكان أبعد — كسحابةِ أُورت على سبيل المثال — فستزداد السرعة تدريجيًّا مع زيادة التسارع حتى إن هذه الرحلة البعيدة جدًّا تصير ممكنة!»

عندها توقف فورهولست وقد علت وجهه ابتسامة عريضة. ثم قال: «حسنًا، لا أود أن أسرف في الثناء على الصاروخ الكهربائي؛ لأن به عيبًا خطيرًا. وهو أننا لا نمتلك واحدًا.»

ووضع فورهولست حدًّا لهمهمات الإحباط التي سرت بين الطلاب. إذ قال: «حسنًا، إنه ممكن من حيث المبدأ. لكنه لم يدخل حيز التنفيذ بعدُ؛ لأنكم إذا أردتم بدء الرحلة من على سطح الأرض فلن يعمل الصاروخ. إذ يحتاج إلى شيء يرفعه إلى مدار أرضي منخفض أولًا ليستعرض مهاراته بعد ذلك. سيحتاج الصاروخ إلى شيء كمصعد أرتسوتانوف الفضائي، وكما تعلمون لا يوجد مصعد كهذا في أي مكان.»

ابتسم فورهولست لطلابه ابتسامة ممزوجة بالأسى. ولكن بشَّرهم قائلًا: «حسنًا، سوف نمتلك واحدًا في يوم من الأيام. وستكون لدينا أعداد هائلة من الصواريخ الكهربائية، وأنا واثق أن بعضًا منكم سيذهبون إلى كل هذه الأماكن الغريبة والمذهلة. لكن ليس الآن؛ فهذه الصواريخ ليست موجودة بعد.»

عندما نفكر في الأمر فإن هذا صحيح إلى حد بعيد، على الأقل فيما يتعلق بالمساحة الضئيلة من الفضاء القريبة من الأرض، مع أن الأمر لن يستمر هكذا وقتًا طويلًا.

الواقع أنه على مسافة بعيدة قليلًا كان ١٥٤ صاروخًا من هذه الصواريخ الكهربائية تتجه مباشرة نحو كوكب الأرض دون أن تفكر الكائنات التي كانت على متنها في أنها أشياء غريبة على الإطلاق.

كانت هذه الكائنات هي «واحد فاصل خمسة»، وكانوا معتادين (هم أو أسلافهم) على الانتقال من نجم إلى آخر على متن سفن فضاء كهذه منذ أجيال عديدة. وكان هذا من أجل أداء المهمة نفسها غالبًا. والواقع أن كائنات «واحد فاصل خمسة» احتلت مكانة فريدة بين الأجناس التابعة لعقلاء المجرة.

هم في الأساس قتلة مأجورون يعملون لحساب «عظماء المجرة».

قد تبدو كائنات «واحد فاصل خمسة» غير أهلٍ لمثل هذا العمل من وجهة نظر المشاهد العادي. فعندما يتجردون من دروعهم وأطرافهم الصناعية فإن حجم الواحد منهم لا يتعدى حجم قِطٍّ برِّي. مع أنه لم يكن واردًا أن يراهم المشاهد العادي على هذه الحال. كانت كتلة الأجهزة الوقائية اللازمة لبقاء كائنات «واحد فاصل خمسة» تصل إلى نصف كتلة جسد الواحد منهم (من هنا أُطلق عليهم اسم «واحد فاصل خمسة»)، ولم يكن هناك غنًى عن أي جزء صغير من هذه الأجهزة. استُخدم بعض هذه الأجهزة

لوقاية الكائنات العليلة الموجودة داخلها من الإشعاع — سواء من التسريبات المتأينة من مفاعلات الطاقة النووية التابعة لهم، أو من مخلفات حروبهم النووية العديدة التي خاضوا غمارها منذ زمن بعيد. أو حتى لوقايتهم من الأشعة فوق البنفسجية الفتاكة التي تنبعث من نجمهم والتي لم تعد تحجبها طبقة الأوزون في كوكبهم لأن ما كانوا يقومون به من أنشطة في السابق أسفر عن اختفاء طبقة الأوزون. استُخدم بعض المعالِجات الكيميائية في التخلص من السموم المنتشرة في الهواء الذي يتنفسونه أو في الطعام والماء اللذين يتناولونهما. وبعضها حال دون إصابتهم بالجنون بسبب الجلبة التي لا يمكن تحملها والتي غمرت عالَمهم بالكامل (الذي قام بتركيب أجهزة كاتمة وحاجبة للصوت مدعومة بأجهزة لتخفيف حدة التردد). بينما ساعدت معالِجات أخرى في التخفيف من حدة الومضات والأضواء الساطعة المثيرة للجنون والناجمة عن أنشطتهم الصناعية.

كانت هناك بضعة أماكن معزولة على سطح الكوكب يمكن لكائنات «واحد فاصل خمسة» أن يتجردوا فيها من دروعهم ويظلوا على قيد الحياة. وهذه الأماكن هي غرف التزاوج وغرف التناسل، بالإضافة إلى بضعة أماكن متفرقة تُجرى فيها العمليات الطبية والجراحية. لم يكن هناك عدد كبير منها. ولم تكن هذه الأماكن نادرة الوجود فحسب، بل كانت مكلِّفة أيضًا، وذلك بسبب حجم الدمار والخراب الهائل في هذا العالَم المنكوب.

وما دام الأمر كذلك، فربما يتعجب المرء من أن أجناسًا على هذا القدر من التقدم التكنولوجي ككائنات «واحد فاصل خمسة» لم تُقْدِم على بناء أسطول خاص بها من سفن الفضاء وبدء حياة جديدة على كوكب لم يطله التلوث بعد في مكان آخر في الفضاء.

والواقع أنهم فعلوا ذلك ... ذات مرة.

غير أن النجاح لم يحالف مشروعهم. صُمِّمت السفن، وبُنِيَت، ووقع الاختيار على كوكب يصلح للحياة. لكن «عظماء المجرة» تدَخلوا. أثبت هذا المشروع فشلًا ذريعًا حتى إن كائنات «واحد فاصل خمسة» لم تفكر أبدًا في تجربته مرة أخرى على الرغم من مرور عدة آلاف من السنين.

الفصل الثامن

الصيف

بوجه عام كانت السنة الدراسية مصدر إحباط لرانجيت سوبرامانيان، لكن الصيف بدأ بداية جيدة. لنضرب المثل بدرجاته. عندما أُعْلِنت نتيجة العام الدراسي، لم يندهش رانجيت من تقدير مقبول الذي حصل عليه في الفلسفة (لم يلقِ بالًا للتقدير الذي حصل عليه في مادة علم النفس لأنه أسقطها بسبب شعوره بالملل منها)، ولم يندهش كثيرًا بسبب حصوله على تقدير امتياز في علم الفلك، وإن لم يمنعه ذلك من الشعور بالسعادة. أما حصوله على تقدير امتياز في الإحصاء فكان لغزًا تامًّا. ولم يجد رانجيت تفسيرًا لذلك سوى أن هذا التقدير هو نتيجة قراءته للكتب المتقدمة التي اختارها لنفسه عندما لم يكن يستطيع فهم المزيد من الرسوم الصندوقية أو رسومات التوزيعات التكرارية. وقد أسعفته المكتبة بما فيها من كتب متقدمة تتناول مثل هذه الموضوعات مثل طرق التحليل العشوائي والتحليل البيزي.

ولعلَّ أسوأ ما في نهاية الفصل الدراسي هو انتهاء المقرر الدراسي لعلم الفلك أيضًا. ولكن على الأقل ثمة تنويه عن الحفل الذي سيقام في منزل الدكتور فورهولست.

أخذ رانجيت يعيد التفكير في الأمر وهو يسير من الحافلة إلى العنوان المشار إليه في الدعوة. أولًا كان الحي راقيًا، ومن ثم لم يكن مألوفًا لرانجيت؛ لأنه كان يتفاداه هو وجاميني أثناء تجولهما في المدينة. (فقد كانت أسرة جاميني تسكن هذا الحي أيضًا.) فضلًا عن ذلك لم يكن منزل فورهولست أكبر من أي منزل تسكنه أسرة واحدة فحسب، وإنما كان أيضًا محاطًا بشرفات مزودة بأعمدة غير ضرورية على الإطلاق، فضلًا عن حديقة تحظى بعناية فائقة.

أخذ رانجيت نفسًا عميقًا قبل أن يدفع البوابة ويصعد الدرجتين المؤديتين إلى الشرفة. كان أول شيء لاحظه رانجيت في الداخل هو الهواء البارد الذي يهب من مراوح السقف.

وهو ما لاقى الترحيب في ظل ارتفاع الحرارة في كولومبو. وما كان باعثًا على الترحيب أكثر هو رؤية يوريس فورهولست نفسه، واقفًا إلى جوار سيدة ضخمة على نحو لافت إلى النظر مثل المنزل الذي يعيشان فيه. حيَّاه يوريس بغمزة عين وإيماءة. ثم قال وهو يقوده إلى المكان الذي تقف فيه السيدة: «رانجيت، نحن مسرورون كثيرًا لمجيئك. أود أن أعرِّفك بوالدتي ميفراو بيتريكس فورهولست.»

ولأن رانجيت لم يكن متأكدًا من التصرف المناسب عند الترحيب بسيدة — ذات بشرة فاتحة للغاية — تفوقه في الطول بثلاثة أو أربعة سنتيمترات على الأقل وتفوقه وزنًا بعدة كيلوجرامات، انحنى انحناءة بسيطة غير واثق من التحية المناسبة. لم تكتفِ السيدة ميفراو فورهولست بذلك. فسحبت يده وأمسكت بها. وقالت: «عزيزي رانجيت، كم أنا سعيدة بلقائك. لا يختص ابني طلبةً بعينهم بحبه، لكن إن فعل ذلك — وأرجو ألا يعرف أني أخبرتك بهذا — فأنا على يقين أنك واحد من هؤلاء الطلبة. تشرفت بلقاء والدك من قبل. إنه رجل رائع. عملنا معًا في إحدى اللجان المشرفة على الهدنة قديمًا عندما كنا في حاجة إلى هذا النوع من اللجان.»

نظر رانجيت إلى الدكتور فورهولست نظرة سريعة علَّه يستدل منه على ما يُفترض أن يقوله ردًّا على هذه السيدة الحسناء التي تفوح منها رائحة عطرة. ولم يأته العون في هذا الصدد. كان البروفسور يمازح ثلاثة أو أربعة من الضيوف الذين وصلوا لتوهم، لكن السيدة فورهولست مدت يد العون لرانجيت عندما أدركت ما هو فيه من حرج. فقالت له ناصحة إياه: «لا تُضع وقتك مع أرملة عجوز. هناك الكثير من الفتيات الحسناوات في الداخل، فضلًا عن الطعام والشراب. بل إن هناك بعض المشروبات الرياضية الأمريكية المروعة التي اعتاد يوريس تناولها أثناء إقامته في كاليفورنيا، وإن كنت لا أنصح بها.» ربتت السيدة على يد رانجيت مرة أخيرة ثم أفلتتها. قائلة: «لا بد أن ترافقنا على العشاء في أحد الأيام بعد عودة يوريس من نيويورك. سوف يكون محبَطًا. غالبًا ما يكون هذا حاله بعد محاولة الحصول على موافقة الأمم المتحدة لاتخاذ إجراء بشأن مصعد أرتسوتانوف.» ثم أضافت بعد أن استدارت للضيوف القادمين: «لكن بالطبع لا يمكن إلقاء اللوم عليهم بالكامل، أليس كذلك؟ كل ما في الأمر أن البشر لم يتعلموا بعدُ كيفية التعاون بعضهم مع بعض بأسلوب مناسب.»

لاحظ رانجيت عند دخوله بهو المنزل الواسع أن هناك بعض الفتيات الحسناوات حقًّا، وإن كن معظمهن مشغولات بالفعل مع شاب أو أكثر. تبادل رانجيت الإيماءات مع ثلاثة

أو أربعة من زملائه في الصف، لكن أكثر ما جذب انتباهه في تلك اللحظة هو المنزل نفسه. كان المنزل بعيدًا كل البعد عن بيت والده المتواضع في ترينكومالي. فالأرضية مصقولة بالجصِّ الأبيض، وفي الجدران أبواب مفتوحة تؤدي إلى الحديقة الواسعة بما فيها من أشجار النخيل والفرانجيباني وحوض السباحة الخلاب. كان رانجيت قد تناول غداءه على سبيل الحيطة قبل القدوم إلى الحفل؛ لذا لم يكن يرى حاجة إلى تلك الكميات الهائلة من الطعام التي أعدها آل فورهولست. ولم يلقِ رانجيت بالًا للمشروبات الرياضية الأمريكية التي تحدثت عنها السيدة فورهولست، لكنه سَعِد بالعثور على كمية من مشروبات الكولا التقليدية. وعندما بحث عن فتَّاحة، ظهر أمامه خادم في الحال، وأخذ الزجاجة من يده بسرعة، ونزع عنها الغطاء، ثم سكب ما فيها من مياه غازية في كأس طويلة تحتوي على قطع من الثلج لا يدري رانجيت من أين جاء به.

ابتعد الخادم تاركًا رانجيت لدهشته إلى أن أتاه من الجانب الآخر صوت أنثوي يقول: «كدتَ تُفقده وظيفته. إذا فتح الضيوف زجاجات الكولا بأنفسهم، فلن يجد الخادم المسئول عن المشروبات عملًا يقوم به. كيف حالك يا رانجيت؟»

عندما استدار رانجيت تذكَّر فتاة البرجر التي كانت تدرس علم الاجتماع معه في عامه الدراسي الأول البائس؛ إنها ماري ... مارثا ... كلا، أردفت الفتاة قائلة: «مايرا دو سويزا. التقينا في صف علم الاجتماع العام الماضي، ومن دواعي سروري أن أراك مجددًا. سمعت أنك كنت تعمل على نظرية فيرما. كيف تسير الأمور؟»

لم يتوقع رانجيت أن يُسأل سؤالًا كهذا، خصوصًا من فتاة جميلة كهذه الفتاة. لم يعطها ردًّا محددًا. وإنما قال: «أخشى القول بأنها تسير ببطء إلى حد ما. لم أكن أعرف أنك تهتمين بنظرية فيرما.»

اصطبغت وجنتا الفتاة بشيء من الخجل. وقالت: «حسنًا، أظن أن عليَّ الاعتراف بأنك من أثرت اهتمامي بها. بعد أن سمعنا أنك استوليت على كلمة المرور الخاصة بأستاذ الرياضيات ... هل أنت مندهش لسماع هذا؟ لا شك أن جميع طلابه سمعوا بذلك. أعتقد أنه لو لم يكن الفصل الدراسي قد انتهى حينئذٍ، لظهرت إحدى الحركات التي تؤيد انتخابك رائدًا للصف.» ابتسمت له ابتسامة ودودة. وأضافت: «على أي حال، لم أجد بدًّا من التساؤل عن هذا الهوس الذي يتملَّكك ... هل أبالغ عندما أستخدم كلمة «هوس»؟»

هز رانجيت كتفيه لأنه تأقلم منذ وقت طويل مع هذا التوصيف الفني لَمَسْعَاه الذي لم يحالفه النجاح إلى الآن. واستطردت مايرا: «حسنًا، لنقل إني لم أجد بدًّا من التساؤل عن

سبب اهتمامك الشديد بمحاولة العثور على برهان لنظرية فيرما. بالقطع لم يكن برهان وايلز هو البرهان الذي تحدث عنه فيرما، أليس كذلك؟ لأن كل خطوة استعان بها وايلز هي نتاج أعمال قام بها أشخاص آخرون بعد وفاة فيرما بوقت طويل، ومن غير المعقول أن فيرما كان يعرف ... أوه، رانجيت، حاذر لمشروبك!»

نظر رانجيت فرأى ما كانت تتحدث عنه مايرا. لقد أذهله المنحى الذي اتخذه الحوار حتى إنه ترك كأس الكولا تميل من يده بشدة. عدل وضع الكوب، وأخذ منه رشفة سريعة ليستعيد بها تركيزه. ثم سألها متخطيًا مرحلة الاكتراث لكياسته في الحديث معها: «ما الذي تعرفينه عن برهان وايلز؟»

لم يبدُ أن مايرا دو سويزا تبالي بأسلوبه. وأجابته: «الواقع أني لا أعرف الكثير. لا أعرف سوى قدر يكفي لتكوين فكرة بشأن الموضوع الذي يدور حوله البرهان. ومن المؤكد أن هذا القدر لا يتساوى مع ما يعرفه عالم رياضيات متخصص. أتعرف الدكتور ويلكينسون؟ من منتدى الرياضيات في جامعة دريكسيل؟ أظن أنه خرج بأفضل وأبسط تفسير يوضح حقيقة برهان وايلز.»

انعقد لسان رانجيت لأن تحليل الدكتور ويلكينسون هذا قد نال استحسانه هو الآخر عندما بدأ سعيه نحو فهم برهان وايلز.

أدرك رانجيت أنه يجدر به الحديث لأن مايرا كانت تنظر إليه في تساؤل. فقال: «هل تقصدين أن بإمكانكِ فهم تحليل ويلكينسون؟»

أجابته برقة: «بالطبع، يمكنني ذلك. فقد كان واضحًا للغاية. كل ما كان عليَّ فعله هو قراءة تفسيره ... حسنًا»، ثم اعترفت: «خمس مرات في الواقع. وكان عليَّ العودة كثيرًا إلى كتب المراجع. ليس لديَّ شك في أنه فاتني الكثير، لكني أظن أني فزت بفهم تقريبي.» نظرت إليه في صمت هنيهة قبل أن تسأل: «أتعرف ماذا سأفعل لو أني مكانك؟»

قال رانجيت بلهجة صادقة: «ليست لديَّ أدنى فكرة.»

«حسنًا، لن أهدر وقتي وجهدي على أيٍّ من أجزاء برهان وايلز. سأنظر إلى ما فعله علماء الرياضيات الآخرون في الثلاثين أو الأربعين عامًا التي أعقبت وفاة فيرما. كما تعلم. أعني الأعمال التي ربما يكون فيرما قد سمع بعض التوقعات بشأنها. أو ربما يكون قد استخدمها بنفسه. و...» وفجأةً غيَّرت مايرا موضوع الحوار فقالت وهي تنظر إلى الجانب الأيمن من المكان الذي يقف فيه رانجيت: «وها هو عزيزي براين هاريجان الذي طال غيابه وقد أحضر لي الشامبانيا التي تأخرت كثيرًا.»

كان براين هاريجان واحدًا من هؤلاء الأمريكيين البدناء، وقد جاء بصحبة فتاة جميلة في العشرين من عمرها تقريبًا. نظر براين إلى رانجيت نظرة خاطفة. ثم تحدث إلى مايرا دو سويزا وكأن رانجيت لا يقف بينهما: «عذرًا يا عزيزتي، لكني كنت أتحدث مع … ديفيكا؟ قضت وقتًا طويلًا من حياتها في هذا المنزل، وقد وعدَتْني أن تجول بي في المكان. هذا المنزل يحظى بمزايا تصميم رائعة … هل لاحظتِ الأرضيات المغطاة بالجص؟ لذا إن كنت لا تمانعين …»

قالت مايرا: «يمكنك الذهاب. فقط أعطني الشمبانيا إن كانت لا تزال باردة، ثم اذهب.» ذهب براين ويده في يد الفتاة التي لم تنبس ببنت شفة لرانجيت أو مايرا دو سويزا.

أفضل شيء في رحيل براين هاريجان أن رانجيت أصبح وحيدًا برفقة فتاة مذهلة ومحيرة وغريبة تمامًا. (وإن كان رانجيت على يقين أنها ليست صغيرة السن إلى هذا الحد. خمَّن رانجيت أنها تكبره بعامين أو ثلاثة أعوام على الأقل. وربما أكثر من ذلك.) ولم ينظر رانجيت إلى حواره مع الفتاة على أنه حدث رومانسي. فخبرته في المواعدة بين فتًى وفتاة تكاد تكون معدومة لا تؤهله للتفكير هكذا، وعلى أي حال هناك موضوع براين هاريجان هذا الذي اعتاد مخاطبتها بقوله: «عزيزتي». وعندما استشعرت دو سويزا بما يجول في خاطر رانجيت، أكملت له الصورة التي كونها عن براين هاريجان. اتضح أنه ليس أمريكيًّا. وإنما كندي. وأنه يعمل لحساب إحدى سلاسل الفنادق التي تنتشر في كافة أنحاء العالم والتي تخطط في الوقت الراهن لإقامة فندق فخم على أحد شواطئ ترينكومالي. لكنها لم تخبره أي شيء عن المعلومة المحددة التي تثير فضوله. ولذا فكَّر بينه وبين نفسه أنه لا دخل له بمعرفة ما إن كانت هناك علاقة بين مايرا وهاريجان أم لا.

وعندما انتبه رانجيت عند ذكر ترينكومالي بدا الإحراج على وجه دو سويزا. وقالت: «أرجو المعذرة. لم أكن أعرف. إنها موطنك. هل تعرف الفندق الذي أخبرني عنه براين؟»

ذكر رانجيت أن كل ما يعرفه عن الفنادق السياحية في ترينكو هو أنها باهظة الثمن للغاية. لكن بعدها سألته عن معبد والده الذي بدا أنها تعرف عنه الكثير ما أثار دهشة رانجيت للمرة الثانية. كانت تعرف أن المعبد بُني على مكان يسمى تل شيفا المقدس وأنه — أو على الأقل المعبد الكبير الذي نهبه البرتغاليون عام ١٦٢٤ — كان واحدًا من أكثر دور العبادة ثراءً في جنوب شرق آسيا بما يحتويه من كميات هائلة من الذهب والحرير والمجوهرات وكل الأشياء الأخرى التي جمعها الرهبان طوال تاريخه الذي امتد ألف

عام. وكانت تعرف عن ذلك اليوم العصيب من عام ١٦٢٤ عندما وجه القائد البرتغالي كونستانتين دو سا دو مينزيس أمرًا لكبير كهنة المعبد بأن يجرد المعبد من كل شيء ذي قيمة، وأن يسلم الكنوز إلى السفن البرتغالية في الميناء؛ لأنه إذا لم يفعل فسوف يوجه دو سا مدفع سفينته إلى المعبد. وهكذا لم يكن أمام كبير الكهنة خيار آخر. ففعل ما أمر به ... وبعدها قصف دو سا المعبد وحوَّله إلى كومة من الأنقاض.

قال رانجيت عندما توقفت: «مدهش. إنك تعرفين الكثير عن هذه الحِقبة، أليس كذلك؟»

بدا عليها الحرج. ثم قالت: «أظن ذلك، لكني أعتقد أن ما أعرفه يختلف إلى حدٍّ ما عما تعرفه أنت. الواقع أن أسلافي كانوا من المشاركين في عملية النهب.»

لم يجد رانجيت جوابًا أفضل من: «هكذا إذن.» تجول الاثنان في الحديقة بما فيها من أشجار الفرانجيباني والزنجبيل المزهرة، وجلسا متجاورين أسفل مجموعة من أشجار النخيل. ومن مكانهما استطاعا رؤية حوض السباحة الواسع في منزل فورهولست حيث يلعب بعض زملاء رانجيت — الذين حصلوا على ملابس السباحة من منزل فورهولست — الكرة الطائرة المائية. ملأ أحد الخدم كأسَي مايرا ورانجيت بالشمبانيا والكولا مرة أخرى. وألقى بعض الضيوف التحية على مايرا دو سويزا أثناء سيرهم بجوارهما، وألقى واحد أو اثنان التحية على رانجيت. ولم يبدُ على مايرا أنها تريد إنهاء الحوار مع رانجيت. كان هذا حال رانجيت أيضًا. وهو ما أثار دهشته قليلًا؛ لأنه نادرًا ما كان يرغب في إطالة أي حوار مع إحدى الفتيات.

عرف رانجيت أن مايرا زارت جميع الأماكن على جزيرة سريلانكا مع والديها، وأنها أحبت كل شِبر فيها. وقد بدت عليها الدهشة حين علمت أن رانجيت نادرًا ما كان يبتعد عن ترينكومالي، باستثناء إقامته الحالية في كولومبو واشتراكه في بضع الرحلات المدرسية. سألت: «لكن ألم تذهب إلى مدينة كاندي من قبل؟ ألم ترَ كيف يتسلقون الأشجار للحصول على نبيذ النخيل وتصنيع شراب التودي منه؟» وأجابها رانجيت بالنفي على كلا السؤالين. كلا، لم يذهب.

وفي هذه اللحظة مرت السيدة فورهولست بجوارهما؛ إذ كانت تتفقد المكان للتأكد من أن ضيوفها لا يحتاجون شيئًا. نظرت إليهما بإمعان، وقالت: «تبدوان على ما يرام. أهناك شيء يمكنني إحضاره لكما؟»

قالت دو سويزا: «شكرًا يا خالة بيا. إنه حفل رائع.» وعندما ابتعدت السيدة فورهولست، أجابت مايرا عن السؤال الذي أطل من عينَي رانجيت. وقالت: «حسنًا.

جميعنا نحن البرجر يعرف بعضنا بعضًا، وفي الواقع الخالة بيا واحدة من أقاربنا. وعندما كنت صغيرة كنت أقضي هنا قدرًا من الوقت كالذي أقضيه في منزلنا، وكان يوريس بمنزلة أخي الأكبر الذي لم أحظَ به قط في الواقع. فكان يحرص على ألا أتعرض للغرق عندما يصطحبني إلى الشاطئ، وكان يعيدني إلى البيت عندما يحين وقت قيلولتي.» لاحظت مايرا علامات الدهشة على وجه رانجيت. فقالت: «أهناك خطب ما؟»

قال رانجيت بلهجة اعتذارية: «أنا متحير قليلًا. فأنت تسمينها بيا، بينما أعتقد أن اسمها ... ما هو؟ ... ميفراو.»

كانت مايرا على قدر من الكياسة منعها من المبالغة في ابتسامتها. وهي تقول: «ميفراو تعني «سيدة» باللغة الهولندية. أما هي فاسمها بيتريكس.» ثم ألقت نظرة على ساعتها، وبدا عليها الاهتمام. فأردفت قائلة: «لا أقصد إبعادك عن أصدقائك. أواثق أنك لا ترغب في السباحة؟ فآل فورهولست يقتنون مجموعة مختارة من ملابس السباحة في غرف تغيير الملابس ...»

لم يكن لدى رانجيت شك في أنه لا يرغب في ذلك. ولم يستطع أن يحدد كم من الوقت مضى منذ بدأ حديثهما. كان واضحًا أن مايرا دو سويزا ليست في عجلة من أمرها لإنهاء الحوار، لكن تكفَّل براين هاريجان الذي كاد يُنسى بهذا في وقت لاحق. وذكرهما بوجوده عندما أطل براين بنظره عليهما ثم دخل حديقة النخيل الصغيرة التي كانا يجلسان فيها. وبدا حانقًا. وهو يقول لمايرا: «بحثت عنكِ في كل مكان.»

وقفت مايرا وابتسمت له. ثم قالت: «بدا لي أنك لم تكن وحيدًا.»

– «تقصدين الفتاة التي كانت تريني المكان؟ لقد أفادتني كثيرًا. إنه منزل قديم واسع. يبلغ سمك جدرانه نحو متر، ومع وجود كل هذه الرمال والمرجان والجص، فيمَ يحتاجون إلى تكييف الهواء إذن؟ لكن أنسيتِ أن لدينا حجزًا على العشاء؟»

كانت مايرا قد نسيت بالفعل، واعتذرت عن ذلك، ثم قالت لرانجيت إنها استمتعت بحديثها معه كثيرًا، وذهبت.

لم يغادر رانجيت الحفل. لكن من الواضح أنه لم يعد ممتعًا كما كان. فكر رانجيت في السباحة لكنه طرد الفكرة من عقله، وقضى قليلًا من الوقت بصحبة مجموعة من الطلاب تجمعوا حول يوريس فورهولست وكانوا يتحدثون في الأمور التي تحدثوا عنها داخل الصف من قبل، ثم جلس مع عدد من الضيوف كانوا يشاهدون ويحللون برامج الأخبار على شاشة تليفزيون في خيمة بجوار سور الحديقة. بالطبع، لم تكن الأخبار

مسلية. ففي كوريا، أطلق بعض الكوريين الشماليين المزعجين — عمدًا على ما يبدو — مجموعة من الكلاب الشرسة وربما المصابة بالسعار قرب الحدود بين الشمال والجنوب. لم يتعرض أحد للعض. إذ لقي ثلاثة من الكلاب حتفهم عندما وطئ أحدهم لغمًا أرضيًّا، أما البقية فسرعان ما أصيبوا بالمدافع الرشاشة لوحدة عسكرية تابعة لجمهورية كوريا الجنوبية، واتفق الجميع على أنه لا بد من اتخاذ إجراء ضد كوريا الشمالية.

في الواقع، وجد رانجيت سهولة أثارت دهشته في الحديث مع هؤلاء الغرباء حول الشأن العالمي المحفوف بالمخاطر، والحاجة إلى إنشاء مصاعد فضاء تبعث الأمل في نفوس الأشخاص العاديين بشأن السفر إلى الفضاء، ومودة آل فورهولست، وموضوعات أخرى كثيرة. انتهت تلك الحوارات عندما بدأ عدد الضيوف في التناقص. واعتبر رانجيت ذلك إشارة إلى ضرورة انصرافه هو الآخر.

قضى رانجيت وقتًا ممتعًا في الحفل خصوصًا في الجزء الأول منه، ولم يكن لديه شك في أن لقاءه بمايرا دو سويزا هو السبب وراء استمتاعه بالحفل.

وفي طريق العودة إلى السكن الجامعي، وجد نفسه يفكر في تلك الشخصية الرائعة التي تتمتع بها مايرا دو سويزا، وبالطبع لم يفكر في الأمر من منظور علاقة بين شاب وفتاة. وتساءل في نفسه عن أفضل طريقة للتخلص من براين هاريجان.

رغم ذلك شعر رانجيت بالسعادة عندما عاد إلى ترينكومالي لقضاء الصيف. ظن جانيش سوبرامانيان أن ابنه سيقضي وقته في التفكير مجددًا في لغز فيرما المحير. وكان محقًّا جزئيًّا فحسب. فلم ينسَ رانجيت نظرية فيرما. فقد ظلت تخطر بباله في غير وقتها، وزاد هذا عن أي وقت آخر منذ أن جددت مايرا دو سويزا ذكرياته. لكن عندما كانت النظرية تخطر ببال رانجيت، كان يفعل كل ما في وسعه ليكف عن التفكير فيها. وكان يعرف عندما يخفق في ذلك.

على أي حال كانت هناك أشياء أخرى تشغل تفكير رانجيت. أخبره أحد الرهبان أنه يمكن لطلبة الجامعة الذين يقضون عطلة الصيف الحصول على وظائف سهلة وبأجر مناسب حيث يُرَمَّم أحد الفنادق السياحية القديمة في ترينكومالي. تحقق رانجيت من الأمر. ووجد وظائف متاحة. وحصل على إحداها، وللمرة الأولى في سنوات عمره الثماني عشرة يصبح رانجيت قادرًا على التكفل بنفقاته.

لم تكن الوظيفة صعبة على الإطلاق مثلما وعده صاحب العمل. كان اسم هذه الوظيفة «مساعد توريد». ومهامها هي: أولًا، إعداد بيان بمحتويات كل شحنة تصل إلى

المكان؛ ثانيًا، الإسراع بإخبار رئيس العمال في الحال إذا حاولت إحدى الشاحنات مغادرة المكان وبها بعض البضائع؛ ثالثًا، تفقُّد جميع أكوام مواد البناء بسرعة فور الوصول إلى مكان العمل كل صباح للتأكد من عدم اختفاء شيء منها أثناء الليل. ووُجِّهت أوامر إلى أفراد الأمن الخاص الذين استأجرهم الفندق بمساعدة رانجيت حيثما كانت هناك ضرورة لذلك. وتحفز أفراد الأمن بشدة لإتقان العمل المنوط بهم بعد أن علموا أن أي خسائر ناتجة عن عمليات السرقة ستخصم من رواتبهم.

وكان لرانجيت أيضًا أربعة مساعدين شخصيين صغار لكنهم مفعمون بالنشاط.

لم يكن هؤلاء الأربعة مدرجين في كشف رواتب الشركة القائمة على بناء الفندق، ولم يكونوا هم أو والدتهم جزءًا من خطة رانجيت لهذا الصيف. والواقع أن رانجيت تعرف عليهم في أحد الأيام عندما أعطاه جانيش سوبرامانيان كيسين من الطعام قال الطاهي إنه سيفسد إذا لم يُؤكل بسرعة. قال جانيش: «خذ هذا الطعام إلى السيدة كاناكاراتنام. زوجة كيرثيس كاناكاراتنام، كما تعرف. هل تذكر كيرثيس؟ ذلك الرجل الذي ألقي القبض عليه في كولومبو بتهمة حيازة بضائع مسروقة؟» تذكره رانجيت فأومأ برأسه. استطرد الأب: «للأسف تمر الأسرة بأوقات عصيبة. سمحتُ لهم باستخدام منزل الضيوف القديم الذي أمتلكه. بالطبع تذكر مكانه، أليس كذلك؟ اذهب وأعطهم هذه الأشياء بالنيابة عني.»

لم يعترض رانجيت. ولم يجد صعوبة في العثور على المكان أيضًا. كان أحد رفاق رانجيت في اللعب — ابن مهندس السكة الحديد الذي كان يقوم ببعض الأعمال من أجل المعبد — يعيش هناك عندما كان رانجيت صغيرًا؛ ولذا تذكر رانجيت المنزل جيدًا.

لم يتغير المنزل عما كان عليه كثيرًا. فالحديقة الصغيرة التي كانت تعتني بها زوجة رجل السكة الحديد في الفناء الأمامي صار جزء منها الآن يستخدم لزراعة الخضروات بينما نمت الحشائش من جديد في الجزء الآخر. فكر رانجيت أن المبنى يحتاج إلى طلاء جديد. ومع ذلك فإنه كان أصغر مما تذكر رانجيت إذ ضم ثلاث حجرات صغيرة وحمامًا منفصلًا في الفناء الخلفي ومضخة مياه بعيدة عن المنزل.

لكن المنزل كان خاليًا. فكر رانجيت إن كان من اللياقة دخول المنزل في ظل عدم وجود أحد بالداخل، لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع ترك الطعام على الأرض. طرق رانجيت الباب الذي لم يكن موصدًا وألقى التحية، ثم دخل.

كانت أول حجرة رآها رانجيت هي المطبخ وفيه موقد يعمل بغاز البروبان، وحوض بلا صنابير لكنه مزود بماسورة لصرف المياه وإبريق ماء بلاستيكي كبير يكاد يكون

فارغًا، وطاولة وكراسي؛ ولا شيء آخر. وبجوار المطبخ وجد رانجيت حجرة أصغر، من الواضح أنها غرفة نوم أحد الأشخاص لأن بها أريكة ووسائد وكومة من الملاءات المطوية على أحد طرفَي الأريكة. ثم تأتي الحجرة الثالثة الأشد اتساعًا والأشد ازدحامًا أيضًا؛ ففيها مهدان وسريران نقالان وثلاثة أو أربع خِزانات وكرسيان …

ثمة شيء آخر.

هناك شيء يجعل المنزل مختلفًا عما كان عليه عندما كان يحضر إليه في صغره. رأى رانجيت أنه في زاوية غرفة الأطفال يوجد أثر لشيء ما على الحائط، وعندما دقق النظر رأى أنه ملصق ديني يكاد يكون ممحوًّا وأنه مكتوب باللغة السنسكريتية.

هكذا، اقتضت طبيعة الحال! تلك هي الزاوية الشمالية الشرقية للمنزل، وكانت في يوم من الأيام زاوية البوجا في هذا المنزل؛ وهو مكان مقدس ومخصص للعبادة والصلاة وتحرص جميع الأسر الهندوسية التي تخشى الآلهة على وجوده في بيتها. لكن ماذا حل به الآن؟ أين تمثال شيفا أو غيره من تماثيل الآلهة الأخرى؟ أين وعاء البخور، أو الإناء المخصص لحمل الزهور وتقديمها، أو أي من اللوازم الأخرى لإقامة طقوس العبادة؟ لم يكن هناك شيء من هذا! مرت سنوات عديدة دون أن يفكر رانجيت في نفسه من منظور ديني، لكنه شعر بشيء من النفور عندما نظر إلى كومة ملابس الأطفال المغسولة وغير المطوية في المكان الطاهر المقدس الذي كان من قبل مخصصًا لطقوس البوجا. فهذا ليس أسلوب حياة لائقًا لأي أسرة هندوسية ملتزمة سواء أكانت تؤمن بوجود إله أم لا.

عندما سمع رانجيت أصواتًا تقترب من الخارج، وخرج لتقديم نفسه، زاد شكه في كون هذه الأسرة أسرة هندوسية ملتزمة. فعائل الأسرة — زوجة كيرثيس كاناكاراتنام — لا ترتدي الثياب التي يفترض أن يرتديها نساء الهندوس. وإنما ترتدي ثياب عمل خاصة بالرجال وحذاءً رجاليًّا برقبة طويلة أيضًا، وكانت تجر عربة أطفال بها وعاءان كبيران من البلاستيك مملوءان بالماء وطفلة صغيرة وبعض الأشياء الأخرى. رأى رانجيت ثلاثة أطفال آخرين إحداهم طفلة تبلغ من العمر عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا وتحمل الطفلة الصغرى على ظهرها، بالإضافة إلى فتًى يحمل على كتفه في شجاعة حقيبة قنب تحتوي شيئًا ما. تحدث رانجيت إلى الجميع قائلًا: «مرحبًا. أنا رانجيت سوبرامانيان؛ ابن جانيش سوبرامانيان، أرسلني أبي ببعض الأشياء لكم. وقد وضعتها على الطاولة في الداخل. لا بد أنك السيدة كاناكاراتنام.»

لم تنكر المرأة هذه التهمة. تركت زوجة كاناكاراتنام يد العربة، وألقت نظرة على الطفلة النائمة بها لتتأكد أنها لا تزال نائمة. ثم مدت يدها لمصافحة رانجيت. وقالت: «أنا

زوجة كاناكاراتنام، شكرًا لك. يجود والدك علينا كثيرًا. أيمكنني أن أقدم لك بعض الماء؟ ليس لدينا ثلج، لكن لا بد أنك تشعر بالظمأ بعد حمل هذه الأشياء إلى هنا.»

كان رانجيت ظمآن بالفعل فشرب الكأس التي ملأتها له من أحد الوعاءين شاكرًا إياها. (أوضحَتْ أنهم يضطرون لجلب مياه الشرب من مكان آخر. فموجة تسونامي التي ضربت البلاد منذ زمن بعيد غمرت مياه البئر بالملح القادم من الخليج، ولم تعد المياه إلى حالها قط. صحيح أنها مناسبة لغسل الملابس وبعض أنواع الطهي، لكنها لا تصلح للشرب.)

لاحظ رانجيت أن السيدة كاناكاراتنام في العقد الرابع من عمرها، وبدا أنها تتمتع بصحة جيدة، ولم تكن قبيحة الشكل أو حمقاء، لكن يبدو أنها على خلاف حاد مع عالم أدار ظهره لها. ومن الأمور الأخرى التي عرفها رانجيت أنها لم تكن تحب أن يناديها أحد باسم السيدة كاناكاراتنام. أخبرت رانجيت أنها هي وزوجها لم يرغبا في البقاء في هذا اللامكان الاستوائي الذي يسمى سريلانكا. وإنهما كانا يرغبان في العيش في بؤرة الأحداث — ربما في أمريكا على سبيل المثال. لكنهما اضطرا للاستقرار في بلد آخر لأن السفارة الأمريكية رفضت طلبهما الحصول على تأشيرات السفر. هاجر الزوجان إلى بلد مختلف كلية — وهو بولندا — لكن لم يرُقهما هذا المكان أيضًا. وقالت بلهجة أقرب إلى التحدي: «ولذا فعلنا أقصى ما نستطيع. فحصلنا على أسماء أمريكية. ولم يكن زوجي يوافق على أن أناديه باسم كيرثيس. فاسمه صار جورج واسمي دوروثي. أو دوت اختصارًا.»

قال رانجيت: «اسم جميل.» والواقع أنه لم يكن لديه رأي معين حول هذا الاسم. لكنه أراد أن يخفف نبرة العداء التي شابت صوتها.

وعلى ما يبدو أنه نجح في ذلك؛ لأنها بدأت تتحدث حديثًا عذبًا، موضحة أنهما سمَّيَا الأطفال بأسماء مماثلة، حين رُزقوا بهم. من الواضح أن دوت كاناكاراتنام ظلت طوال فترة تضع مولودًا كل عامين. فالابنة الكبرى تيفاني كانت في الحادية عشرة من عمرها، يليها الولد الوحيد هارولد ذو الأعوام التسعة، ثم روزي وبيتسي في السابعة والخامسة من عمريهما. وبأسلوب ارتجالي تمامًا قالت إن زوجها في السجن الآن؛ قالت هذا بأسلوب جعل رانجيت يظن أن من الأفضل ألا يصدر حكمًا حينئذٍ.

وعندما أتيحت لرانجيت فرصة إصدار حكم، رأى أنهم أطفال لطفاء إلى حد بعيد، وأنهم يتَّسمون بالود في بعض الأحيان وبالتطاول المُسلِّي في أحيان أخرى، ويشقون طريقهم بجهد جهيد، وإن كان ممتعًا، نحو النمو والنضوج. ومن جانبه تعلق رانجيت

بالأطفال كثيرًا. حتى إنه قبل مغادرة منزل كاناكاراتنام عرض أن يصطحبهم إلى الشاطئ في يوم عطلته القادم.

كان هذا قبل يوم العطلة بثماني وأربعين ساعة. وقضى رانجيت جزءًا طويلًا من هذا الوقت يفكر هل سيستطيع تحمل المسئوليات المصاحبة لهذا العرض. على سبيل المثال، ماذا سيفعل إذا أراد أحد الأطفال قضاء حاجته؟

وفي يوم العطلة تولت تيفاني هذه المسئولية دون طلب من أحد. فعندما أرادت روزي أن تتبول، وجهتها تيفاني نحو الأمواج المتكسرة على الشاطئ حيث تتولى المياه الكثيرة القادمة من خليج البنغال تنظيف المكان. وعندما أراد هارولد أن يتغوط، وجهته تيفاني بيدها إلى أحد الحمامات المتنقلة الخاصة بعمال البناء دون أن تشغل بال رانجيت بهذا الأمر على الإطلاق. ومن وقت لآخر كانوا يلهون بالمياه معًا في الأماكن الضحلة؛ يتقدمهم رانجيت كأنه ذكر الإوز وهم صغاره. وفي الغداء تناولوا الساندويتشات التي حصلوا عليها من مقصف العمال. (من الواضح أن العمال لم يمانعوا في ذلك. هذا لأنهم أحبوا الأطفال أيضًا.) وفي ساعات النهار التي تشتد فيها الحرارة كان الأطفال يأخذون سنة من النوم أسفل أشجار النخيل، وعندما تعلن تيفاني عن وقت للراحة، كانوا يجلسون ويستمعون إلى رانجيت وهو يخبرهم بالقصص الرائعة حول المريخ والقمر وأقمار جوفيان الهائلة.

لا شك أن الأوضاع لم تكن هادئة هكذا في المناطق الأخرى من العالم.

في أفنية المدارس الإسرائيلية كانت فتيات فلسطينيات يبلغن من العمر عشرة أعوام يفجِّرن أنفسهن والمحيطين بهن كافة. وفي باريس عبَّر أربعة رجال أشدَّاء من شمال أفريقيا عن مشاعرهم تجاه السياسات الفرنسية عن طريق قتل اثنين من حراس برج إيفيل وإلقاء أحد عشر سائحًا من أعلى البرج. وكانت فينيسيا في إيطاليا وبلجراد في صربيا تشهدان أحداثًا كهذه، بينما ريكيافيك في أيسلندا تشهد أحداثًا أسوأ ... وسيطر القلق على هذه القلة من قادة العالم الذين كانت بلادهم بمنأى عن العنف وهم يحاولون إيجاد مخرج للتعامل مع هذه الأحداث.

لكن رانجيت لم يكن يكترث كثيرًا ...

حسنًا، كلا. كان يكترث كثيرًا لهذه الأمور عندما يفكر فيها فحسب، لكنه بذل قصارى جهده كي لا يفكر فيها.

وهو في ذلك يشبه الحمقى الطائشين في قصة «حفلة الموت الأحمر التنكرية» للكاتب إدجار آلان بو. فعالَمه بائس كعالمهم. لكن في غضون ذلك كانت الشمس دافئة، وفرح الأطفال كثيرًا عندما علَّمهم رانجيت كيفية الإمساك بالسلاحف النجمية وإجراء سباق فيما

بينها، وأيضًا عندما حكى لهم بعض القصص. استمتع الصغار بسماع قصص رانجيت مثلما استمتع هو بإخبارهم إياها.

من الغريب أنه في الوقت نفسه كان بعض — أو كل (إذ نادرًا ما يمكن التحديد) — عظماء المجرة يحاولون تعليم فصيلة مختلفة تمامًا من الكائنات الحية درسًا يكاد يكون مشابهًا.

بالطبع لم تكن هذه الكائنات الأخرى سلاحف، مع أن أجسامها كانت مغطاة بأصداف صلبة مثل السلاحف، ومعدلات ذكائها منخفضة كالسلاحف أيضًا. كان «عظماء المجرة» يعلِّمونهم كيفية استخدام الآلات.

كان هذا واحدًا من بين عدد لا حصر له من الاهتمامات التي يفرضها «عظماء المجرة» على أنفسهم. ربما يفكر أحد البشر في ذلك على أنه محاولة لرفع كفاءة الكائنات الحية في المجرة.

قامت فكرتهم على أنه إذا تعلمت الأصداف الصلبة استخدام رافعة وخطاف وحَجَر، فربما تخطو هذه الكائنات أولى خطواتها نحو الذكاء. وإذا نجح هذا فربما يصلون إلى ما هو أبعد من ذلك في ظل الإشراف الدقيق من جانب عظماء المجرة. وربما يصلون إلى أفضل التقنيات دون المرور بما قد يشتت انتباههم من أمور لا داعي لها مثل الاستعباد والاستغلال والحروب.

قد يستغرق هذا البرنامج وقتًا طويلًا جدًّا. لكن «عظماء المجرة» لديهم الكثير من الوقت، وقد ظنوا أن الفكرة جديرة بالمحاولة. فكَّر «عظماء المجرة» أن الأمر ربما يستحق العناء إذا تمكنت فصيلة واحدة فقط — في التاريخ المستقبلي للكون — من الوصول إلى أقصى مراحل التطور حيث نقل المادة واستعمار الفضاء دون تعلُّم فن القتال أثناء حدوث هذا التطور. من المؤكد أن «عظماء المجرة» كانوا يتسمون بالذكاء والقوة. لكنهم في بعض الأحيان كانوا يتسمون بالسذاجة أيضًا.

الفصل التاسع

أيام الخمول

خالج رانجيت شعور ببعض الرضا عن عطلة الصيف بوجه عام. فالوظيفة التي يعمل فيها سهلة، ويبدو أن أحدًا لم يكن يمانع في اصطحابه للأطفال الأربعة إلى العمل. لكنه كان ينزعج من الاعتناء بالصغار، مع إصرار دوت على ذلك في الأيام التي تضطر فيها للابتعاد تمامًا عن المنزل. وهو ما كان يتكرر كثيرًا. في بعض الأحيان يكون ذلك بسبب حاجتها إلى البحث عن عمل، على الرغم من أن الحظ لم يحالفها كثيرًا في هذا الشأن. وفي معظم الأحيان كانت تضطر لبيع بعض من مقتنياتهم لتتمكن من توفير الطعام والكساء لأطفالها.

لاحظ رانجيت أن غياب دوت عن المنزل صار أكثر تكرارًا. وظن أنه ربما أصبح موضع ثقتها. ولكنه لم يكترث لذلك. من الواضح أن الأطفال مبهورون بقصصه وحيله الرياضية سواء أكان ذلك من باب التشويق أم من باب التأدب معه فحسب. لم تذهب السنوات التي قضاها رانجيت في التفكير في نظرية الأعداد سدًى كليةً. لقد تعلَّم مع زملائه طرقًا للتلاعب بالأرقام لم يسمع بها رجل الشارع العادي من قبل.

على سبيل المثال، كانت هناك طريقة تسمى «طريقة الضرب الروسية». في البداية فكَّر رانجيت أن تيفاني وحدها هي التي قطعت شوطًا كبيرًا في تعلُّم الضرب في المدرسة. فقال للبقية: «لا تخجلوا إذا كنتم لا تعرفون كيفية ضرب عددين. فقديمًا كان هناك الكثيرون من الكبار — خاصةً في أماكن مثل روسيا — لا يعرفون كيفية فعل ذلك أيضًا. لذا ابتكروا حيلة. وأطلقوا عليها «طريقة الضرب الروسية»، وهي كالآتي. أولًا، نكتب العددين أحدهما بجوار الآخر هكذا. لنقل إنكم تودون ضرب واحد وعشرين في سبعة وثلاثين.»

أخرج رانجيت من جيبه مفكرة صغيرة كان قد عزم على إحضارها من قبل وكتب فيها بسرعة، ثم عرض الصفحة أمامهم:

٢١ ٣٧

«الآن، هل تعرفون مضاعفة أحد الأعداد؟ رائع. ضاعفوا إذن العدد الأيمن وهو واحد وعشرون، واقسموا العدد الأيسر على اثنين واكتبوا الناتج أسفل الأعداد الأولى؛ وهكذا تحصلون على ...»

٢١ ٣٧

٤٢ ١٨

«يتبقى واحد بعد قسمة العدد الأيسر على اثنين، لكن لا تُلقوا له بالًا. أهملوا هذا الواحد المتبقي فحسب. ثم كرروا نفس عملية القسمة والمضاعفة على الأعداد التالية وعلى الأعداد التي تليها حتى تحصلوا على الرقم واحد في العمود الأيسر.»

٢١ ٣٧

٤٢ ١٨

٨٤ ٩

١٦٨ ٤

٣٣٦ ٢

٦٧٢ ١

«وحيثما كان الرقم في العمود الأيسر زوجيًّا، احذفوا السطر بأكمله.»

٢١ ٣٧

٨٤ ٩

٦٧٢ ١

«ثم اجمعوا الأرقام الموجودة في العمود الأيمن.»

٢١	٣٧
٨٤	٩
٦٧٢	١
٧٧٧	

وكتب رانجيت: «٢١ × ٣٧ = ٧٧٧»، وقال: «وتلك هي الإجابة!»

ترقب رانجيت رد فعل من الأطفال. والواقع أنه تلقى أربعة ردود أفعال مختلفة. إذ صفَّقت بيتسي الصغيرة في إشادة بنجاح رانجيت. وبدت روزي سعيدة لكن متحيرة، بينما اكفهرَّ وجه هارولد، وسألت تيفاني بأدب ما إذا كانت تستطيع استعارة القلم والورقة من رانجيت. أمعن رانجيت النظر فيما تكتب:

٣٧
× ٢١
———
٣٧
٧٤
———
٧٧٧

قالت تيفاني: «نعم، هذا صحيح. أعطني عددين آخرين من فضلك يا رانجيت.»

أعطاها رانجيت مسألة سهلة — ثمانية في تسعة — ثم مسألة أكثر سهولة، وإذا بهارولد يطلب فرصته هو الآخر. وحصل عليها، وبدا أنه سيكون سعيدًا بإجراء طريقة الضرب الروسية على المزيد من الأعداد البسيطة، لكن الفتاتان الصغريان بدأتا تعترضان. أرجأ رانجيت فكرة إخبارهم بالسبب الذي يجعل ضرب الأعداد على الطريقة الروسية مثالًا للحساب الثنائي إلى وقت آخر. قال رانجيت وهو سعيد للغاية بنجاح هجمته الأولى على نظرية الأعداد مع الأطفال: «كان هذا أمرًا ممتعًا. دعونا الآن نصطاد المزيد من السلاحف.»

وصل جاميني باندارا إلى سريلانكا في الوقت المحدد تمامًا، لكنه تحدث بلهجة اعتذارية عندما اتصل برانجيت. فوقته مشغول أكثر مما كان يظن. ولن يتمكن من زيارة

ترينكومالي في هذا الوقت تحديدًا؛ لذلك هل يمانع رانجيت في القدوم إلى كولومبو من أجل هذه الزيارة بدلًا من ذلك؟

الواقع أن رانجيت شعر بالضيق، ولم يفلح في إخفاء مشاعره. فقال: «حسنًا، لا أدري إن كنت أستطيع ترك العمل.» لكن جاميني أقنعه أن يفعل، ولم يكن لدى كبير العمال في موقع البناء أي مانع في تغيب رانجيت عن العمل لأي أجل يشاء (لأن صهرَ كبير العمال سيرحب بأن يحل محل رانجيت ويحصل على راتبه أيضًا أثناء غيابه). بذل جانيش سوبرامانيان قصارى جهده في مساعدته. كان رانجيت يخشى انزعاج والده إزاء عودة ظهور جاميني مرة أخرى في الصورة. لكن ذلك لم يحدث. من الواضح أن زيارة قصيرة — خاصة تلك التي تحدث على مسافة بعيدة جدًّا — لن تسبب مشكلة. يسَّرَ جانيش الأمر على ابنه قدر المستطاع. قال جانيش بلهجة مستنكرة: «الحافلة؟ لن تستقل الحافلة بكل تأكيد. فهناك شاحنة مخصصة لي ولا أستخدمها. خذها يا رانجيت. واحتفظ بها إلى ما تشاء. فربما تكون شارة المعبد على أبواب الشاحنة رادعًا لبعض المؤذين عن تفريغ إطاراتها من الهواء.»

وهكذا وصل رانجيت إلى كولومبو ومعه حقيبة في مؤخرة الشاحنة تحتوي على ملابس تكفيه عدة أيام. تحير رانجيت لأن جاميني أخبره أنه سيقيم في فندق بدلًا من الإقامة في منزل والده. وتفهَّم سر اختيار جاميني لهذا الفندق تحديدًا — ففيه حانة زارها الفَتَيان عدة مرات خلال استكشافهما للمدينة — لكنه تعجب من أن والد جاميني سمح له بالابتعاد عنه ولو لليلة واحدة.

عندما طلب رانجيت من موظف الاستقبال أن يُعلم جاميني بحضوره، هز الموظف رأسه مشيرًا إلى الحانة. وهناك وجد جاميني لكن ليس بمفرده. فعن يمينه ويساره جلست فتاتان وأمامهم على الطاولة زجاجة خمر تكاد تكون فارغة.

وقف الثلاثة لتحية رانجيت. كانت الفتاة شقراء الشعر تدعى برو، أما الأخرى — واسمها ماجي — فكان شعرها كلون أحمر شفاه غريب جدًّا لدرجة أنه ما من جينات بشرية كانت لتنتجه أبدًا. قال جاميني بعد أن انتهى من تعريف رانجيت بهما: «قابلتهما على متن الطائرة. هما أمريكيتان. إنهما تدرسان في لندن، على حد قولهما، لكن الكلية التي تذهبان إليها هي كلية الفنون؛ وهي الكلية التي لا تتعلم فيها شيئًا سوى الظهور بمظهر لائق. آه!»

كانت صيحته المتأوهة الأخيرة بسبب أن ماجي — الفتاة ذات الشعر الأحمر العجيب — قرصت أذنه بأصابعها. ثم أردفت مخاطبة رانجيت: «لا تلقِ بالًا لهذا الأفَّاك. فأنا

وبرو ندرس في كامبرويل. وهي كلية للفنون يكلفك فيها الأساتذة بمهام شاقة. وجاميني لن يتحمل هناك أسبوعًا واحدًا.»

مدَّ رانجيت يده. فصافحته الفتاتان بحرارة واحدة تلو الأخرى. وقال: «أنا رانجيت سوبرامانيان.»

تحدثت الفتاة التي تدعى ماجي. وأخبرته قائلة: «نحن نعرف من تكون. أخبرنا جاميني بكل ما يمكن معرفته عنك. فأنت شخص قصير القامة ذو اسم طويل، وتقضي كل وقتك في حل مسألة رياضية واحدة. قال جاميني إنه إذا تمكن أي شخص من حل هذه المسألة، فستكون أنت هذا الشخص.»

لم يدرِ رانجيت — الذي لا يزال يعاني الشعور بالذنب بين الحين والحين لتجاهله نظرية فيرما — بمَ يرد على ذلك. ونظر إلى جاميني طلبًا للمساعدة، لكن الواقع أن تعبيرات وجه جاميني شابها شيء من الندم. وقال جاميني بلهجة تنم عن ندم أكبر مما كان يرتسم على وجهه: «اسمع يا رانجيت، من الأفضل أن أخبرك الآن بما لديَّ من أخبار سيئة. عندما كتبت لك كنت آمل أننا سنستطيع قضاء بضعة أيام على الأقل معًا.» ثم هز رأسه. وقال: «لكن ذلك لن يحدث. فأنا وأبي لدينا التزامات كثيرة سنبدؤها من الغد. إنها التزامات عائلية كما تعرف.»

كان رانجيت يعلم ما يقصده جاميني، وتذكر تلك الأيام التي سبقت رحيل جاميني إلى لندن. بدت خيبة الأمل على وجه رانجيت. وأردف قائلًا: «لديَّ أسبوع إجازة وسيارة وكل شيء.»

هز جاميني كتفيه ممعنًا في رفضه. وقال: «لن يفيد ذلك في شيء. لقد كان يريدني أن أتناول معه العشاء الليلة، لكني رفضت تمامًا.» وحدق جاميني في وجه رانجيت هنيهة، ثم ابتسم. وقال: «لكني سعيد برؤيتك! فلتعانقني!»

في البداية أراد رانجيت معانقة جاميني فقط كي لا يسبب له حرجًا أمام الفتاتين، لكن مع التقاء جسد جاميني المشوق الدافئ بجسد رانجيت بادله العناق بمشاعر حب حقيقية. قال جاميني: «على أي حال، أنت لم تشرب شيئًا بعد. أيمكنكِ أن تتولي هذا الأمر نيابة عني يا برو؟»

ولمعرفة رانجيت أن الفتاتين تدرسان شيئًا ذا علاقة بالفن، حاول رانجيت فتح حوار معهما. فسأل ماجي قائلًا: «تودين أن تصبحي فنانة إذن؟»

نظرت إليه نظرة مرتابة. وأجابت: «ماذا، وأتضور جوعًا؟ مستحيل! أنا على يقين من أنني سأتجه لتدريس الفنون في إحدى كليات المجتمع القريبة من ترينتون أو نيو جيرسي حيث تعيش أسرتي. أو في المكان الذي يعمل فيه زوجي عندما أتزوج.»

تحدثت برو ذات الشعر الأشقر. وقالت: «أوه، أتمنى أن أصبح فنانة يا رانجيت. مع أني لن أستطيع تحقيق ذلك. فلست أحظى بأي موهبة فنية، ولا أرغب في العودة إلى أسرتي في مدينة شاكير هايتس. أتمنى أن أعمل خبيرة مزادات في مكان مثل دار ساذبيز. هناك يتسنى لي الحصول على عائد جيد، والتعامل مع أشخاص رائعين، فضلًا عن أني سأكون قريبة من الفن حتى وإن لم أشارك في إبداعه.»

أعطت ماجي رانجيت مشروب العَرَق والكولا وهي تضحك وتقول: «إنه احتمال معدوم.»

مدت برو إحدى قدميها بالقرب من قدمي جاميني، وركلت ماجي بها. ثم قالت: «أيتها الحمقاء. لا أعني أنني سأبدأ هكذا على الفور. يمكنني البدء كمتدربة، وربما يكون أول ما يكلفونني به الحصول على الأرقام من شارات المزايدة التي يرفعها المزايدون في الجزء الخلفي من القاعة حيث لا ينظر منادي المزاد الفعلي. رانجيت؟ ألا تحب العَرَق والكولا؟»

لم يجد رانجيت ردًّا مناسبًا لسؤالها. فالواقع أنه أحبه كثيرًا عندما كان يستكشف المدينة مع جاميني، لكنه لم يذق هذا المشروب تحديدًا منذ أن سافر جاميني. غير أنه عندما شرب منه ووجده حلو المذاق. والمشروب التالي كان كذلك أيضًا.

مع أن الأمسية لم تكن مثلما توقع رانجيت، فإنها لم تكن سيئة على الإطلاق. وفي لحظة ما قامت الفتاة التي تدعى برو من مكانها بجوار جاميني، وجلست إلى جوار رانجيت. وعلى الفور انتبه رانجيت إلى ثلاثة أشياء. فالفتاة كانت ودودة ورقيقة وتفوح منها رائحة عطرة. لم تكن رائحتها عطرة مثل مايرا دو سويزا أو بيتريكس فورهولست، لكنها كانت رائحة طيبة.

ولم يكن رانجيت ساذجًا، فقد كان يعرف أن الرائحة التي تفوح من النساء هي في الأساس منتج يشترينه من أي صيدلية. وبغض النظر عن هذا. فإن رائحة برو عطرة، فضلًا عن أنها تتمتع بميزات أخرى أيضًا، ومن بينها أنها لم تكن تجد غضاضة في أن تمسها ذراع رانجيت إضافة إلى أن حديثها كان مسلِّيًا. وبوجه عام رأى رانجيت أنه كان يقضي وقتًا ممتعًا.

لكن مع مُضِيِّ الوقت أدرك رانجيت أن هناك عددًا من الأسئلة يدور في عقله بلا جواب. وعندما ذهبت الفتاتان إلى حمام السيدات، وجد فرصة لطرح بعض هذه الأسئلة. وكبداية سأل جاميني هل تعرَّف عليهما في لندن. بدا جاميني مندهشًا. وقال: «لم أرَ أيًّا منهما إلا عندما ظهرتا على متن الطائرة من دُبَي، وسنحت لنا فرصة الحديث.»

«حسنًا، فهمت»، قالها رانجيت مع أنه لم يكن مقتنعًا. ولمزيد من التوضيح سأله رانجيت: «وماذا عن صديقتك مادج؟»

نظر إليه جاميني نظرة طويلة ضاحكة. وقال: «أتعرف ما هي مشكلتك، يا رانجيت؟ أنت تقلق كثيرًا. مادج في برشلونة الآن، وأظن أنها مع الشخص الذي يرسل إليها رسائل كثيرة بين ساعة وأخرى أيًّا كان هذا الشخص. تناول مشروبًا آخر.»

تناول رانجيت مشروبًا آخر. في الحقيقة أن كليهما تناول مشروب آخر، وكذا فعلت الفتاتان عندما عادتا. لكنه لم يكن كسابقه تمامًا. فرانجيت لم ينهِ مشروبه، وكذا معظم الباقين. بعدئذٍ همست ماجي بشيء في أذن جاميني. فقال لها: «أوه، حسنًا»، ثم قال لرانجيت: «أخشى أن الوقت قد تأخر. لقد سعدت برؤيتك مجددًا، لكني سأذهب أنا وأبي في الصباح لرؤية جدتي. لذا، يتعين علينا الذهاب الآن.» وقف جاميني وهو يبتسم. ثم قال: «ألن تعانقنا؟»

رضخ رانجيت وعانق جاميني وماجي أيضًا. في حين أضاف جاميني وهما يهمان بالانصراف: «لا تلقِ بالًا للفاتورة. سيحولونها إلى حساب والدي. هلمِّي عزيزتي.» وبينما شق جاميني وماجي طريقهما وسط الطاولات إلى الباب، فَهِم رانجيت ما كان يعنيه استخدام جاميني صيغة الجمع.

وهكذا بقي رانجيت بمفرده مع الفتاة التي تُدعى برو.

كان رانجيت يفتقر إلى الخبرة حول ما يُفترض قوله في مثل هذه الظروف. لكنه شاهد أفلامًا أمريكية كثيرة عرف من خلالها ما يمكن أن يقول. فقال لها بأسلوب مهذب: «أتودين تناول مشروب آخر؟»

هزت الفتاة رأسها وهي تبتسم. ثم أشارت إلى الكوب الممتلئ أمامها. وقالت: «لم أكد أتناول شيئًا من مشروبي الأخير. على أي حال، أظن أنه لا داعي لطلب مشروب آخر، ألا تظن ذلك؟»

وافقها رانجيت الرأي، لكن أفكاره بشأن الخطوة التالية كانت تنضب. ففي الأفلام وفي مثل هذه اللحظة ربما يطلب الرجل من المرأة أن ترقص معه. لكن ذلك الخيار ليس متاحًا هنا في حانة هذا الفندق، وعلى أي حال فإن رانجيت لا يعرف كيف يراقص فتاة.

أنقذته برو. فقالت: «لقد كانت سهرة لطيفة للغاية رانجيت سوبرامانيان، لكن عليَّ الانصراف لأني سأزور معالم المدينة غدًا. أتظن أن النادل سيطلب لي سيارة أجرة؟»

بدت الدهشة على وجه رانجيت. فسألها: «ألا تنزلين في هذا الفندق؟»

– «حجزنا مكانًا للمبيت قبل مغادرة لندن، ونزلنا في المكان الذي اختير لنا. إنه يبعد عن هنا خمس دقائق بالسيارة.»

هنا فكر رانجيت فيما يمكن أن يفعل، ووضع فكرته موضع التنفيذ بالفعل. وسعدت برو باستقلال شاحنة المعبد — حتى وإن كان رانجيت ثملًا قليلًا أثناء القيادة — وكانت متشوقة للاستماع لرانجيت وهو يتحدث عن مكانة والده في المعبد إضافة إلى موجز مختصر عن التاريخ الطويل والحافل لمعبد تيرو كونيسفارام. حتى إنها دعته إلى كوب من القهوة ليفيق من سُكْره عندما وصلا إلى الفندق الذي تنزل فيه.

اختارت وكالة السفر في لندن للفتاتين فندقًا للشباب، وكان في بهو الفندق عدد كبير من الشباب الذين يحدثون جلبة لا يمكن معها إجراء حوار، وهو ما جعل برو تدعوه إلى غرفتها. وتجاذبا أطراف الحديث، وجلسا أحدهما بجوار الآخر في ألفة، وأحدث هذا التقارب أثره. ففي غضون ساعة أقام رانجيت علاقة مع فتاة للمرة الأولى في حياته. وقد استمتع كثيرًا بهذه التجربة. وكذا كانت برو، على نحو جعلهما يكرران الأمر مرتين أخريين قبل أن يناما.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وزادت حرارتها عندما استيقظ رانجيت وبرو على صوت مفتاح يوضع في رتاج الباب. دخلت ماجي، ويبدو أنها لم تندهش لرؤية رانجيت وبرو معًا في أحد فراشَي الغرفة. سألها رانجيت عن جاميني، فقالت إنه رحل منذ وقت طويل، إذ هب من الفراش، وارتدى ملابسه مسرعًا عندما اتصل موظف الاستقبال ليخبره أن والده ينتظره في بهو الفندق. قالت ماجي وهي توجه لبرو نظرة متسائلة: «على أي حال من المفترض أننا سنتناول الغداء مع ابن عم المدرس الذي يعلمكِ الرسم والذي يعمل في السفارة، وها هي العاشرة والربع.»

اعتبر رانجيت — الذي كان يرتدي ملابسه بأسرع ما يمكن — أن ذلك تلميح بضرورة رحيله. لكنه لم يكن يعرف كيف يستأذن برو في الرحيل، ولم تساعده هي بشيء هذه المرة. قبَّلته برو قبلة وداع حارة. لكنه عندما عرض عليهما في تردد أن يصطحبهما لرؤية معالم المدينة إن أرادتا، لم تجد برو فرصة لذلك وسط التزاماتها في هذا اليوم، أو في أي يوم آخر في واقع الأمر.

فهم رانجيت الرسالة بوضوح. وقبَّلها ثانية لكن بحرارة أقل بكثير هذه المرة، ولوح بيده مودعًا ماجي، ثم انصرف.

وعندما عاد رانجيت إلى الشاحنة، أخذ يفكر. فلديه شاحنة، وهو حر طليق مدة أسبوع على الأقل. لكن لا شيء يبقيه في كولومبو ولا شيء يجذب انتباهه في أي مكان آخر في سريلانكا. لذلك هز كتفيه وأدار المحرك، وبدأ رحلة العودة الطويلة إلى ترينكو.

بعد مرور ساعة كان رانجيت خارج حدود مدينة كولومبو يفكر فيما سيقول والده عندما يعيد الشاحنة بسرعة هكذا. وإن كان معظم تفكيره منصبًا على الفتاة التي تدعى برو والتي لم يعرف لقب عائلتها. ما الداعي لتصرفها هذا — أو ما الداعي لتصرفاتها العديدة والمختلفة على نحو يناقض بعضه بعضًا — أثناء علاقتهما العابرة التي كانت مهمة للغاية على الأقل في نظر رانجيت؟ كان رانجيت قد قطع من الطريق مسافة ثلاثين كيلومتر تقريبًا عندما توصل إلى إجابة مُرضية.

لم تكن كلمة «مُرضية» أنسب الكلمات التي يمكن استخدامها. كان رانجيت متأكدًا إلى حد بعيد أن لديه تفسيرًا، لكن هذا التفسير لم يرقه على الإطلاق. ففحوى استنتاجه أن تصرفات برو كانت متعلقة بلون بشرته. فإقامة علاقة مع شخص آسيوي قصير القامة أسود البشرة — ماذا يسمي الناس من الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها برو شخصًا بهذه المواصفات؟ أوه، حسنًا. «عبد.» إنهم يستخدمون الكلمة للتحقير ووصف شاب شرقي ماكر. ربما تكون تجربة إقامة علاقة مع شخص كهذا ممتعة ما دام لا يعرف بها أحد سوى فتاة أخرى تفعل الأمر نفسه. لكنه ليس أمرًا مقبولًا عندما يكون هناك احتمال بأن يعرف به أشخاص قد يحدثون به أشخاصًا آخرين إلى أن يصل الخبر في النهاية إلى لندن أو شاكير هايتس؛ أيًّا كانت شاكير هايتس تلك.

وهكذا سادت الكآبة أفكار رانجيت طوال ساعة مقبلة أو نحو ذلك. لكنها لم تستمر على هذه الحال. فأيًّا كان ما فكرت فيه برو، فقد استمتع رانجيت كثيرًا باستحضار ما كان يصدر عنها من حركات حال تفكيرها هذا. أقر رانجيت أنها واحدة من أمتع التجارب التي خاضها في حياته. وعلى ما يبدو أنها تجربة لن تتكرر مع هذه الفتاة مرة أخرى، لكن أليست هناك نساء أخريات في العالم؟ أليس من بينهن من لا تكترث للون بشرته؟

مثل مايرا دو سويزا على سبيل المثال؟

دارت هذه الفكرة الجديدة والمشوقة في عقل رانجيت. وعلى سبيل التجربة هيأ رانجيت مخيلته لمهمة جديدة، وهي استحضار ذكرياته في تلك الليلة التي قضاها مع برو، ولكن مع استبدال برو بمايرا بها.

لم يفكر رانجيت في مايرا على هذا النحو تحديدًا من قبل، لكنه لم يجد صعوبة في الأمر. استمتع رانجيت بهذه الفكرة كثيرًا إلى أن خطر بباله مع الأسف ما كان من أمر رجل الفنادق الكندي الذي يدعى براين هاريجان. فهذا الجزء لم يكن ممتعًا البتة.

توقف رانجيت على مضض عن التفكير في هذه التجربة، وواصل القيادة وهو يبذل قصارى جهده ألا يفكر في شيء على الإطلاق.

كانت الشمس تميل نحو الغروب عندما وصل رانجيت إلى ترينكومالي. فكَّر في العودة إلى غرفته الموحشة، لكنه أراد شخصًا يتحدث إليه — بالطبع ليس عن برو التي لا يعرف اسمها بالكامل — وإنما عن أي شيء آخر. وغامر بالذهاب إلى منزل كاناكاراتنام حيث نال بُغيته.

كان الجميع داخل المنزل. ومع أن الباب كان مغلقًا فقد استطاع رانجيت سماع صوت دوت كاناكاراتنام، لكنه لم يسمع صوت أحد غيرها. وعندما فتحت تيفاني الباب ودعته إلى الدخول رأى أمها تجلس أمام المائدة وتتحدث في هاتف خلوي. (لم يكن رانجيت يعلم أن لديها واحدًا.) وعندما رأته دوت عند مدخل البيت، قالت بضع كلمات سريعة في الهاتف ثم أغلقته. امتزجت النظرة التي علت وجهها بشيء أوقع القلق في نفس رانجيت؛ أهو غضب؟ أم حزن؟ لم يدرِ رانجيت. قالت دوت: «لقد عدتَ مبكرًا يا رانجيت. ظننا أنك ستقضي وقتًا أطول مع صديقك.»

أجاب رانجيت في شيء من الحزن: «هذا ما ظننتُه أيضًا، لكن ذلك لم يحدث. وإن كنت قضيت وقتًا ممتعًا.» لم يكن رانجيت ينوي إخبارهم عن ماهية هذه المتعة، وإنما أراد أن يحدثهم أكثر عن روعة المكان في كولومبو، لكنه توقف أمام التعبيرات التي ارتسمت على وجوه الأطفال. وتساءل: «أهناك خطب ما؟»

أجابت دوت نيابة عن الأسرة بأكملها. وقالت: «إنه جورج. زوجي. لقد فرَّ من السجن.»

فاقت هذه الأخبار في وقعها أي شيء كان سيقوله رانجيت. وألح لمعرفة التفاصيل. فعرف أن جورج كاناكاراتنام — لسبب مُبهم لم تفصح عنه الشرطة — كان يُرَحَّل إلى سجن آخر. عندها وقع حادث سيارة. لقي فيه الحارس والسائق مصرعهما. بينما نجا كاناكاراتنام، وفر بعيدًا.

تدخَّل هارولد عندما توقفت والدته لالتقاط أنفاسها قائلًا: «كانت شرطة ترينكو هنا طوال اليوم. قالوا إن والدي ربما يكون قد فر على متن قارب. فقد كان هناك جسر يمر فوق نهر كبير على طول الطريق.»

قالت روزي بلهجة منتصرة أثارت حيرة رانجيت: «لكن لم تكن هناك أي دماء.» وسبب هذه الحيرة أنه خُيِّل لرانجيت أنه في حالة موت الرجلين فلا بد من وجود بعض الدماء في موقع الحادث.

أوضحت تيفاني الأمر. وقالت: «هي تقصد أنه لم تكن هناك دماء داخل الحافلة إلا حول المقاعد الأمامية. وهو ما يجعلنا نرجح أن والدنا لم يصب بسوء.»

ردت دوت على نظرة رانجيت بنظرة عداء. وقالت: «أنت تفكر في جورج على أنه شخص معتاد الإجرام، بينما هم يرونه أبًا لهم. ومن الطبيعي أن يكنوا مشاعر الحب له.» ثم أضافت في لهجة ودودة: «هل أحضر لك كوبًا من الشاي؟ نود أن تخبرنا عن رحلتك.»

استجاب رانجيت لدعوتها، وجلس أمام المائدة. لكن لم تتح له الفرصة لإخبارهم بما حدث؛ لأن تيفاني لوحت بيدها. وعندما تحدثت لم يكن حديثها موجهًا لرانجيت وإنما لأمها. فتساءلت: «أينبغي علينا أن نخبره بشأن الخطاب الآن؟»

نظرت دوت إلى رانجيت نظرة ملؤها الأسى. وقالت: «أوه، أنا آسفة. فقد وقعت أمور كثيرة جعلتني أنسى.» وبحَثَت دوت بين كومة الأوراق الموضوعة فوق المائدة هنيهة ثم أخرجت من بينها مظروفًا وأعطته لرانجيت. وأردفت تقول: «أحضره أحد الرهبان. ظل في غرفة البريد أسبوعًا لأنه لم يخبرهم أحد عن مكان إقامتك.»

وأضافت تيفاني: «وفي صباح اليوم عندما توصلوا لمكانك، حاولوا توصيله إلى غرفتك، لكنك لم تكن هناك. فأخبرتهم أمي أن بوسعهم ترك الخطاب هنا، وأننا سنحرص على تسليمك إياه.»

بدت علامات الخجل على وجه دوت. وقالت: «نعم، فعلتُ ذلك. فالشرطة كانت هنا، ولم أكن أرغب في شيء سوى رحيلهم جميعًا ...»

وتوقفت دوت عندما انتبهت إلى أن رانجيت لا يستمع لحديثها. كان الخطاب يحمل عنوان المرسِل، وهو الفندق المطل على الشاطئ والقريب من موقع البناء. وكذلك كانت الورقة الموضوعة بداخله والتي كُتب فيها:

عزيزي رانجيت،

سأقضي بضعة أيام هنا. أهناك فرصة لأن نلتقي لتناول كوب من الشاي أو شيء من هذا القبيل؟

كان الخطاب موقعًا باسم مايرا دو سويزا.

لم ينتظر رانجيت تناول الشاي مع آل كاناكاراتنام. وقال وهو في طريقه للخروج من المنزل: «أراكم لاحقًا.»

لم يستغرق الطريق إلى الفندق أكثر من عشرين دقيقة. وهناك عاونته موظفة الاستقبال الشابة قدر استطاعتها، لكن أهم ما في الأمر أنها قالت له في النهاية: «أوه، لكن السيدة مايرا دو سويزا والسيد براين هاريجان غادرا الفندق بالأمس. وأظن أنهما عادا إلى كولومبو.»

وعندما عاد رانجيت إلى الشاحنة اعترف بمدى أسفه لأنه فاته مقابلتها ومدى استيائه من فكرة ارتحالها هي والكندي معًا. وقاد الشاحنة ببطء في طريق العودة وقد استولت عليه الكآبة. توقف رانجيت عندما وصل إلى المنعطف الذي يقود إلى منزل كاناكاراتنام، ثم سلك الاتجاه الآخر. كان نجاح زوج دوت في الفرار من سجن فيدرالي أمرًا مشوقًا نوعًا ما. وكان رانجيت يتطلع إلى إخبار الأطفال عن رحلته أيضًا. أو بالأحرى إخبارهم ببعض منها.

لكن ليس الآن. فهو لا يود الحديث مع أي شخص عن أي شيء.

عاد رانجيت إلى عمله في اليوم التالي. لم يَسعد صهر كبير العمال كثيرًا برؤيته، لكن عندما مر لاصطحاب أبناء كاناكاراتنام، كانوا سعداء للغاية وهو ما هوَّن عليه الأمر. وعندما حان موعد القصة، استهوى الأطفال الاستماع إلى كيف قاوم ملوك كاندي الغزاة الأوروبيين طوال سنوات (مثلما قرأ رانجيت على جهاز الكمبيوتر في الصباح الباكر)، وكان واضحًا أنهم لا يريدون الحديث عن أبيهم الهارب.

وكذلك كان حال الأم لعدة أيام على الأقل، وعندما ذهب رانجيت لاصطحاب الأطفال ذات صباح، لم يذهبوا معه.

كانت دوت كاناكاراتنام تجلس أمام المائدة وقد وضعت الملابس وأدوات المنزل في حقائب، وكذلك عبأ الأطفال الأربعة بعض الأمتعة الخاصة بهم. وعندما رأت دوت نظرة التساؤل تطل من عينَي رانجيت، ابتسمت له ابتسامة عريضة. وقالت: «لديَّ أخبار سارة

يا رانجيت! عثر بعض أصدقائي القدامى على وظيفة لي! إنها هنا في ترينكو لكن بالقرب من المرفأ. لست على علم بطبيعة العمل تحديدًا، لكنهم يقولون إني سأتلقى راتبًا جيدًا، وسنحصل على سكن أيضًا!»

نظرت إلى رانجيت نظرة مترقبة. فقال محاولًا الرد عليها بما تود سماعه: «إنه لأمر رائع.» وتساءل رانجيت في نفسه كيف أنها لا تعرف طبيعة العمل الذي ستقدم عليه، لكنه انتبه إلى حالة اليأس التي كانت عليها، فلم يُضيِّق عليها. وإنما قال: «ومتى ستبدئين العمل؟»

أجابت: «سوف أبدأ على الفور. لكن بقي أمر واحد يا رانجيت. ألا تزال شاحنة أبيك معك؟ فتكلفة سيارات الأجرة باهظة جدًّا. هل يمكنك أن تُقِلَّنا إلى المرفأ؟»

الفصل العاشر

حياة جديدة لآل كاناكاراتنام

كان والد رانجيت قد طلب منه الاحتفاظ بالشاحنة للذهاب بها إلى العمل؛ لذا فبوسعه أن يقلَّ آل كاناكاراتنام. على الأقل يستطيع فعل ذلك بعد أن يخبر كبير العمال أن صهره قد يحل محله في العمل فترة أطول. وعندما عاد إلى منزل دوت وجد كل شيء جاهزًا. وفي غضون عشرين دقيقة كان الأطفال يجلسون في المقعد الخلفي من الشاحنة وقد تعالت صيحات فرحهم، في حين جلست دوت بجوار رانجيت وأخذت تحدق النظر في المرفأ وهم يقتربون منه.

لم يرَ رانجيت هذا المرفأ كثيرًا منذ أن حل السلام على سريلانكا. والحقيقة أن بالمرفأ أشياء تُذَكِّر بالعالم الخارجي الذي يسوده العنف. فعلى الجانب البعيد من المرفأ استطاع رانجيت أن يرى غواصتين نوويتين — يرجح أن تكونا تابعتين للهند — تشبهان أسماك القرش في شكلهما، وغير ذلك الكثير! بالطبع كانت توجد سفن للصيد، لكنها ليست من النوع الذي يتسع لأربعة أو خمسة رجال والتي ترسو على كل شاطئ حول الجزيرة. بل هي سفن قد تبحر من اليابسة وتقطع في المياه العميقة مائة كيلومتر أو أكثر للوصول إلى أسراب الأسماك التي تدر على أصحابها أرباحًا وفيرة. وكانت توجد أيضًا شاحنات من جميع الأنواع والأحجام إما تفرغ حاوياتها أو شحناتها أو يُجرى تحميلها بشحنات جديدة. دهش رانجيت عندما رأى عددًا كبيرًا من السفن من نوع مختلف تمامًا؛ فكانت مطلية باللون الأبيض الناصع تتوجها قوارب النجاة المعلقة في الروافع المخصصة لإنزالها، وعلى جانبيها صفوف من النوافذ الدائرية. يا للعجب، عادت سفن الركاب مرة أخرى! ولم يتمالك رانجيت نفسه فأوقف السيارة بجانب الطريق ليتمكن الأطفال من إلقاء نظرة. وتوقع أن يسمع صيحات دهشة من الأطفال، وتعجب عندما لم يسمع سوى همساتهم المتواصلة بعضهم إلى بعض.

غير أن دوت لم تكن لتقبل بأي تأخير. فوَجَّهت أمرها للأطفال قائلة: «اهدءوا.» ثم قالت لرانجيت: «أود أن أصل إلى هناك بأسرع ما يمكن. أترى متجر الهدايا التذكارية القريب من مرسى تلك السفن البيضاء؟ أظن أن هذا هو المكان.»

كان المكان كشكًا صغيرًا ورديئًا إلى حد ما، ولم يكن مزدحمًا أيضًا. فبضعة سيَّاح مسنين يرتدون شورتات ذات ألوان زاهية وقمصان هاواي غير أصلية كانوا يتأملون البطاقات البريدية المصورة وتماثيل الأفيال البلاستيكية دون اكتراث حقيقي. لكنه المكان الذي أصرت دوت كاناكاراتنام على الذهاب إليه هي وأطفالها وكل ما معهم من أمتعة. فطمأنت رانجيت. وقالت: «نعم، هذا هو المكان. سوف يأتي أصدقاؤنا إلينا، والآن يمكنك الذهاب يا رانجيت.» ثم أحاطته فجأة بذراعيها، وأضافت: «سوف يفتقدك الأطفال، وأنا أيضًا!» عانقه الأطفال واحدًا تلو الآخر، وبينما يقود السيارة مبتعدًا لاحظ أن جميع الأطفال يبكون.

وبالطبع، لم يبكِ رانجيت. هذا لأنه رجل ناضج. ولأن الناس كانوا ينظرون إليه على كل حال.

لم يكن رانجيت في عجلة من أمره للعودة إلى العمل على الشاطئ بعد أن خلا المكان من أطفال صغار كانوا يروحون عنه. كانت توجد أربعة أو خمسة مطاعم صغيرة ومتاجر للوجبات السريعة بالقرب من الميناء لخدمة ركاب سفن الرحلات. أوقف رانجيت السيارة بجوار أفضل متجر فيها لتناول كوب من الشاي، وجلس بعض الوقت يفكر كيف أن الأطفال الصغار يأسرون القلب على جناح السرعة.

وفكر أنه من الغريب أن تعرف دوت بعض التفاصيل مثل حصولها على سكن مع الوظيفة — على سبيل المثال — في حين أنها لا تعرف طبيعة الوظيفة نفسها. وأخذ يتساءل هل تخفي دوت عنه شيئًا.

غير أنه لم يجد صعوبة في العدول عن التفكير هكذا. فأي سبب يجعل هذه المرأة تخفي أسرارًا عنه؟ وعندما غادر المتجر ألقى نظرة خاطفة على المكان الذي تركهم فيه.

لقد ذهبوا.

تمنى رانجيت في نفسه حظًّا موفقًا لهم، وقاد سيارته في تؤدة على طول الطريق المتاخم للخليج. ومر بجوار سفينة صغيرة تفوح منها رائحة عبقة إذ كانت معبأة بقرفة للتصدير بجوار سفينة حاويات قادمة من سنغافورة كانت حينئذٍ تفرغ شحنتها من السيارات وأجهزة الكمبيوتر والأجهزة المنزلية صينية الصنع. بعدها رأى رانجيت مجموعة

سفن الرحلات التي بدت عن كثب أكثر اتساخًا بكثير مما بدت عليه أول الأمر. كان عدد قليل من الركاب الذين لا يبدو عليهم الاهتمام بالرحلات البرية إلى صخرة سوامي أو إلى معبد والده يتسكعون حول السياج الحديدي على سطح المركب. ومن بينهم طفلة صغيرة كانت تلوح بيدها نحوه في ابتهاج ...

كلا! إنها ليست أي طفلة. إنها بيتسي كاناكاراتنام! وكانت أختها الكبرى تيفاني تركض مسرعة نحوها على ما يبدو من أجل توبيخها وعلى بعد بضعة أمتار كان الولد الوحيد في الأسرة ممسكًا بيد رجل أسود قصير القامة ممتلئ الجسم.

أيمكن أن يكون هذا هو كيرثيس كاناكاراتنام؟ إنه هو بكل تأكيد. فتيفاني تنادي على الرجل وتجر أختها الصغرى نحوه.

أومأ الرجل برأسه مبديًا الاهتمام. ثم التفت ناحية رانجيت الذي كان يطل برأسه من نافذة الشاحنة في الأسفل. وأشار إليه وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

لم يكن من الصعب فهم ما يحاول الرجل قوله؛ فقد كان يلوح لرانجيت أن يصعد على متن السفينة مشيرًا إلى مكان غير بعيد لإيقاف السيارة ثم مشيرًا إلى نفسه وإلى الممر الذي يصل بين السفينة والمرسى. لم يتردد رانجيت. اتجه إلى مكان إيقاف السيارة، وأوقف المحرك، ثم أغلق بابها بحدة، وهرول صاعدًا الممر.

وأثناء صعوده لاحظ أن السفينة ليست بالتأكيد واحدة من السفن الضخمة التي تتسع لحمل خمسة آلاف طن والتي تجوب جزر اليونان والكاريبي. بل كانت أقل حجمًا وأكثر اتساخًا وبها الكثير من الصدوع في طبقة الطلاء تشير إلى حاجتها إلى طبقة طلاء جديدة. وفي نهاية الممر كان رجل ضخم أسود اللحية يرتدي الزي الرسمي لطاقم السفينة ويقف أمام قارئ بطاقات الهوية وبوابة صغيرة. إلا أنه بجوار الرجل وقف من ظن رانجيت أنه جورج كاناكاراتنام، وهمس إلى الرجل بشيء، ثم تحدث مرحِّبًا برانجيت: «تقدم! إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بك يا سيد سوبرامانيان. فالأولاد يقولون عنك الكثير! تفضل من هنا، سوف ننزل لأخبر دوت شيئًا، ويمكنك أن تشاهد الغرفة الرائعة التي ينزل فيها الأطفال، وهي ملك لهم بكل ما فيها! إنني أتلقى راتبًا مناسبًا، ويبدو أنهم سيعثرون على عمل من أجل دوت أيضًا. لم يبتسم لنا الحظ من قبل هكذا!»

قال رانجيت: «حسنًا، أظن أنك كنت محظوظًا للغاية ...»

لم يكن الرجل ليفتح الباب أمام مقاطعات رانجيت خاصة وأنه قد يشير إلى هروبه من السجن. فاستطرد: «بالتأكيد. وسوف أتلقى راتبًا مجزيًا أيضًا! سوف نهبط هذا الدرج الآن ...»

هبطا الدرج بالفعل وسارا عبر ممر آخر، وهبطا درجًا آخر دون أن يتوقف كيرثيس (أو جورج) كاناكاراتنام عن الحديث حول حسن حظ أسرته وحول مدى حب الأطفال لرانجيت سوبرامانيان. مرَّا أمام سبعة أو ثمانية أبواب جميعها من النوع الذي ينغلق على نحو لا رجعة فيه في حالات الطوارئ ومعظمها مكتوب عليه «ممنوع الدخول». إلى أن وصلا في النهاية إلى باب من نوع مختلف تمامًا حيث توقف كاناكاراتنام أمامه وقرع الباب. فَتَح الباب رجل ضخم ذو لحية. فقال كاناكاراتنام لرانجيت: «إنه صومالي. كلهم يبدون هكذا إلى حد بعيد.»

ثم أومأ للرجل ذي اللحية الذي رد عليه بإيماءة أخرى. وبعدها قال كاناكاراتنام بلهجة مختلفة تمامًا: «الآن اجلس. سوف تبقى هنا يومًا أو يومين. لا تحدث جلبة أو تحاول الهرب؛ لأنك إن أقدمت على ذلك فسوف يقتلك.»

وأشار إلى الرجل الصومالي. بدا أنه فهم الكثير مما كان يجري؛ إذ ضرب بيده على سكين عريض النصل موضوع داخل حزامه.

سأل كاناكاراتنام: «هل فهمت كل هذا؟ لا تحدث ضجيجًا ولا تحاول الهرب، سوف تظل هنا إلى أن يخبرك أحد أنه يمكنك الرحيل. لذا لا تكن سببًا في إثارة المشكلات وسوف تكتشف أنها رحلة مثيرة ... بعد أن نستولي على السفينة.»

الفصل الحادي عشر

حياة قرصان

مر وقت أطول قليلًا من الوقت الذي ذكره كاناكاراتنام قبل إطلاق سراح رانجيت. كان هذا الوقت طويلًا بحيث قُدِّم لرانجيت الطعام عدة مرات، والواقع أن الطعام كان جيدًا لأن المطبخ على أي حال كان على متن سفينة رحلات. غط رانجيت في النوم مرتين على الأقل على فراش خشن موضوع بجوار الحائط. وترك الصومالي رانجيت وحيدًا عدة مرات لكن بعد التأكد من غلق الباب بإحكام خلفه. زاره كاناكاراتنام مرتين كي يبدو اجتماعيًّا. وكان راغبًا بشدة في توضيح ما يحدث لرانجيت. في اليوم الثاني هاجم القراصنة — هكذا كان يسميهم كاناكاراتنام نفسه — منصة ربان السفينة وجردوا من لم يكونوا معهم من طاقم السفينة من السلاح وأعلنوا أن السفينة ستغير اتجاهها إلى ميناء بوساسو في الصومال. وقبل إطلاق سراح رانجيت استولى القراصنة على جميع الأشياء القيمة من الحجرة المنيعة التي تُحفظ فيها الودائع بالإضافة إلى كل ما يسهل حمله من الغرف الخاصة بالركاب الذين قيل لهم إنهم سيعودون إلى ديارهم قريبًا دون أن يصابوا بأذى شريطة أن تدفع عائلاتهم أو أصدقاؤهم مبلغ الفدية المناسب. (قال كاناكاراتنام لرانجيت: «سوف تندهش مما قد يدفعه بعض الناس لإطلاق سراح جداتهم.») وهناك أيضًا السفينة نفسها. فإذا ذهب القراصنة بها بأمان إلى الميناء المنشود في الصومال فإن عملية طلاء وبعض الأوراق المتقنة التزييف يمكن أن تجعلها أكثر الغنائم قيمة على الإطلاق.

إنه نشاط مُجْدٍ تمامًا. أوضح كاناكاراتنام أن هذا العمل يشبه إلى حد بعيد أي مشروع تجاري آخر. منذ بداية القرن الحادي والعشرين، أصبحت القرصنة نشاطًا كبيرًا قائمًا بذاته وفيه دور وساطة معروفة على استعداد لجمع الفدية وتوصيلها إلى من يطلبونها في مقابل ضمان عودة الرهائن سالمين. أخبر كاناكاراتنام رانجيت وهو يشعر بالرضا: «في الواقع، كان القبض عليَّ متلبسًا بتلك السلع المسروقة أفضل شيء حدث لي

على الإطلاق. فرفيقي في الزنزانة في باتيكالوا كان من المفترض أن يشترك في هذه العملية، لكنه انشغل بعمل آخر. إلا أنه أخبرني بكافة التفاصيل، وعندما لاحت لي فرصة الهروب كنت أعرف وجهتي تحديدًا.»

حتى نشاط القرصنة المجدي له سلبياته في بعض الأحيان. كان رانجيت متأكدًا من أن إحدى سلبيات القرصنة هي ما يفعله القراصنة بطاقم السفينة الذين يقاومونهم بضراوة. (سأل رانجيت كاناكاراتنام عن هذا لكنه لم يتلقَّ جوابًا. وهو ما اعتبره رانجيت ردًّا كافيًا في حد ذاته.)

عندما أخبر كاناكاراتنام رانجيت أن عملية السطو قد تمت، وأن بوسعه الخروج من زنزانته، شاهد رانجيت حدثًا مقيتًا. كان السبب فيه ربان السفينة الذي يتحلى بإحساس مفرط بالواجب. أبى الربان أن يسلم القراصنة مفاتيح الحجرة المنيعة. ولا شك أنهم وجدوا حلًّا لهذه المشكلة على الفور. إذ أطلقوا النار عليه، وسلموا قيادة السفينة إلى ضابط أول كان أكثر منه تعاونًا؛ إذ سحب المفاتيح من جيب الرجل المتوفى، وسلمهم إياها.

لم يسبق لرانجيت أن كان على متن سفينة ركاب من قبل. وعلى الرغم من الأحداث السيئة فإن هذه الرحلة تضمنت جميع الأنواع الغريبة من وسائل الراحة. فكان يوجد حوض سباحة على سطح السفينة (وإن كان غير صالح للاستخدام تمامًا في حالة وجود نشاط موجي ملحوظ وهو ما كان يحدث على نحو شبه دائم). أيضًا كان المطبخ يعد وجبات جيدة إلى حد بعيد حتى وإن تكدس الركاب الفعليون في يأس في أحد جوانب غرفة الطعام يراقبهم القراصنة بمدافعهم الآلية. أغلق القراصنة الكازينو لكن ذلك لم يكن مهمًّا؛ لأن جميع الركاب كانوا قد جُرِّدوا من أموالهم وبطاقاتهم الائتمانية التي يستخدمونها في لعب القمار. وأُغلقت الحانات أيضًا، ولم يكن هناك عرض ليلي في مسرح الحانة. إلا أنه كانت هناك أفلام مسجلة تعرض على شاشات التليفزيون في جميع الغرف الخاصة، وكان الطقس معتدلًا.

كان الطقس معتدلًا للغاية على حد قول كاناكاراتنام. إذ قال: «أُفَضِّل وجود المزيد من السحب. فأنت لا تدري كم عينًا تشاهدنا هناك في الأعلى.» وعندما بدت الدهشة على رانجيت أوضح كاناكاراتنام قائلًا: «إنها الأقمار الصناعية. إنهم قد لا يعيرون مركبًا صدئًا كهذا اهتمامًا كبيرًا، لكن لا يمكننا الجزم بهذا.» ثم أضاف مذكرًا نفسه بالتزام لا بد من الوفاء به: «تيفاني تبحث عنك. فهي تسأل هل ستساعدها في الاعتناء بالأطفال على سطح السفينة المشمس.»

قال رانجيت موافقًا: «ولم لا؟» والواقع أنه كان متشوقًا لرؤية رفاقه الأربعة في اللعب مرة أخرى. صحيح أنه كان بائسًا، لكنه بذل ما في وسعه لإخفاء مشاعره. وعندما خرج من بيت الدرج إلى ضوء النهار الدافئ الساطع على سطح السفينة المشمس، لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة خاطفة على السماء.

لا شك أن رانجيت لم يرَ أيًّا من تلك العيون في السماء. ولم يكن يتوقع رؤية شيء، لكنه لم يجد بدًّا من التساؤل عن العيون التي ربما تحدق إليهم في تلك اللحظة …

وبالطبع لم تكن لديه أدنى فكرة عن أن بعضها لم تكن عيونًا بشرية على الإطلاق.

وجد رانجيت نحو عشرين طفلًا بين ركاب السفينة تتراوح أعمارهم بين السادسة أو السابعة وحتى الرابعة عشرة. كان معظمهم يتحدثون لغة إنجليزية سليمة إلى حد ما، وطلبت منه تيفاني أن يروي لهم بعض الحكايات لتُمحى من ذاكرتهم صورة جثة ربان السفينة التي ظلت مكشوفة طوال اليوم بجوار الساحة المخصصة للعبة دفع الأقراص.

وبدا أنه طلب صعب التنفيذ. إذ لم يكفَّ طفلان في العاشرة من عمريهما عن البكاء مطلقًا فضلًا عن أن معظم الأطفال الآخرين لم يرفعوا أعينهم عن القرصان الذي كان يحمل المدفع قائمًا على حراسة سطح المركب. وربما زاد رانجيت نفسه من مشقة تلك المهمة لأنه بدلًا من أن يعرفهم على ضرب الأرقام على الطريقة الروسية البسيطة ذات النتيجة المؤكدة مرة أخرى، قرر أن يعرفهم كيفية العد على أصابعهم أو ما يعرف بنظام العد الثنائي.

لم يكن ذلك عملًا ناجحًا. إذ بدا واضحًا أن أحدًا من الأطفال لم يسمع بالأعداد الثنائية من قبل. وعندما أخبرهم رانجيت أنهم إذا أرادوا التعبير عن امتلاكهم أحد الأشياء باستخدام النظام الثنائي فما عليهم سوى كتابة رقم الواحد المعروف، لكن إن كان لديهم اثنان فعليهم أن يكتبوها على الصورة واحد-صفر، وثلاثة على الصورة واحد-واحد، كان عدم الفهم واضحًا على الأطفال.

واصل رانجيت مهمته بعزم. فقال رافعًا كلتا يديه: «الآن نصل إلى الجزء الخاص بالعد على أصابعكم. عليكم أن تفترضوا أن كل إصبع من أصابعكم يمثل عددًا … أجل يا تيفاني، أعرف ماذا ستسألين. أجل سوف نعد الإبهام على أنه إصبع.» (لم تقل تيفاني شيئًا لكنها أومأت في ابتهاج.) وأردف رانجيت: «لا بد أن يكون كل عدد إما واحدًا أو صفرًا لأنهما الرقمان الوحيدان المستخدمان في الحساب الثنائي. عندما تقبضون أصابعكم»؛

وقبض راحتيه وأضاف: «فإن كل إصبع يمثل صفرًا. لذلك انظروا معي هنا.» ووضع قبضتي يده على سطح الطاولة أمامه. واستطرد قائلًا: «في العد الثنائي تمثل هذه الأصابع العشرة مقبوضة العدد صفر صفر صفر صفر صفر صفر صفر صفر صفر صفر. وهي طريقة أخرى نقول من خلالها إن الصفر هو العدد الذي تمثله الأصفار العشرة كلها، بغض النظر عن عدد الأصفار التي تكتبونها، فهو ليس سوى صفر في النهاية. لكن انظروا إلى هذا.»

بسط رانجيت جميع أصابع يديه. وقال: «الآن كل هذه الأصابع تمثل الرقم واحد، والعدد الثنائي الذي أعرضه هو واحد واحد واحد واحد واحد واحد واحد واحد واحد واحد. ومعنى ذلك أنكم إذا أردتم التعبير عنه باستخدام المكافئ العشري، فستكتبون الرقم واحد لآخر رقم واحد في السطر واثنان للعدد المجاور له. ثم أربعة للعدد المجاور لهذا الأخير — أي إنكم تضاعفون العدد في كل مرة حتى تصلوا إلى خمسمائة واثني عشر لآخر واحد في نهاية اليد اليسرى. وهكذا تكونون قد كتبتم ...»

كتب رانجيت المسألة باستخدام قلم شمع على قصاصة من الورق:

١

٢

٤

٨

١٦

٣٢

٦٤

١٢٨

٢٥٦

+ ٥١٢

«وإذا جمعتم كل هذه الأرقام فستحصلون على …»

$\overline{}$

١٠٢٣

«وهكذا تكونون قد عددتم على أصابعكم حتى ألف وثلاثة وعشرين!»

توقف رانجيت ليلقي نظرة على جمهوره. لكنه لم يجد رد الفعل الذي تمناه. إذ ارتفع عدد الباكين إلى أربعة أو خمسة أطفال، بينما تنوعت ردود الفعل على الوجوه الأخرى ما بين ارتباك عادي وحيرة ممزوجة بالامتعاض.

وبعد وقت بدأت الأسئلة.

– «هل تعني …»

– «تمهل لحظة يا رانجيت، هل تود أن تقول …»

وأخيرًا، وكمكافأة لرانجيت، قالت تيفاني: «أوه، دعني أرى إن كنتُ قد فهمتها على نحو صحيح. لنقل إننا نعد سَمكًا. وعليه فإن العدد واحدًا في طرف اليد اليمنى يعني أن هناك مجموعة من السمك بها سمكة واحدة، وأن العدد واحدًا المجاور لها يعني وجود مجموعة أخرى فيها سمكتان، ومجموعات بها أربع سمكات وثماني سمكات، وهكذا حتى نصل إلى المجموعة — التي يمثلها الرقم واحد في الطرف الآخر — التي تحتوي على خمسمائة واثنتي عشرة سمكة. وعندما نضيف كل المجموعات بعضها إلى بعض سنحصل على ألف وثلاث وعشرين سمكة. أليس كذلك؟»

قال رانجيت في سرور رغمًا عنه: «بلى.» كان مسرورًا على الرغم من أن الأطفال الوحيدين الذين استجابوا له هم أبناء دوت وكيرثيس كاناكاراتنام وأن الوحيدة التي استوعبت ما قاله كانت تيفاني لا شك.

لم يبدِ كاناكاراتنام اهتمامًا بردود الفعل المحبطة التي تلقاها رانجيت. وعندما انضم إليه لتناول الغداء — الذي اشتمل على نوعين من الحساء وثلاثة أنواع مختلفة من السلاطة وستة أطباق رئيسية على الأقل — قال في لهجة توحي بالرضا: «لقد أسديت لنفسك معروفًا اليوم.» لم يوضح كاناكاراتنام طبيعة هذا المعروف، لكن رانجيت — الذي ألقى نظرة سريعة على جثة القبطان الراحل الممددة والمليئة بالثقوب — كان يعلم جيدًا ما يرمي إليه.

وعندما عاد كاناكاراتنام بعد مضي ساعة، أوضح ما كان يقصده. فقال: «عليك أن تستمر في إظهار تعاونك معنا أمام أصدقائي. فنحن نواجه بعض المشكلات. إليك ما

ستفعله. نحتاج بعض البيانات الشخصية عن كل راكب — للمساعدة في تحديد قيمة الفدية — ومعظم من معنا لا يتحدثون أي لغة يفهمها الركاب. إذن، يمكنك حقًّا أن تساعدنا في ذلك؟»

كانت نبرة صوت كاناكاراتنام تحمل تساؤلًا، لكن حقيقة الموقف الذي لاقاه رانجيت أوضحت أنه لم يكن كذلك. كان واضحًا أن أفضل ما يمكنه فعله للبقاء على قيد الحياة هو أن يكون ذا نفع للقراصنة، وهو ما جعله يقضي بضع ساعات في كل يوم من اليومين التاليين يطرح أسئلة على الأزواج المسنين — الذين كانوا مرتاعين في بعض الأحيان وعدائيين في كثير من الأحيان الأخرى — حول حساباتهم في البنوك ومعاشاتهم وأملاكهم العقارية وربما أقاربهم الأثرياء.

استمر ذلك يومين إلى أن وقعت المشكلة.

لم يكن الليل قد انجلى عندما استيقظ رانجيت على تغير في مستوى الضجيج على متن السفينة. فصوت محركات السفينة الهادئ لم يعد كما كان، وإنما صار أكثر سرعة واضطرابًا! سمع رانجيت أصواتًا أعلى من ذلك وهي صيحات كانت تتعالى جيئة وذهابًا من الممر أمام غرفته. وعندما أطل ببصره شاهد أفرادًا من الطاقم الرئيسي يهرولون بأقصى سرعتهم نحو منافذ الخروج. وكل منهم يحمل حقيبتين أو ثلاث حقائب — يبدو أنها مسروقة من الغرف الخاصة بالركاب — كان رانجيت على يقين أنها مملوءة بمقتنيات الركاب النفيسة. كان معظم الصياح يصدر من أحد القراصنة الذي كان يستحث أفراد الطاقم على الإسراع. بدت ملامح الغضب والقلق على وجوه القراصنة. وبدا أفراد الطاقم الأسرى مذعورين للغاية.

ومرة أخرى بدا لرانجيت أنها ستكون فكرة جيدة أن يساعد بشيء. فعاد مقتفيًا خطى حاملي الحقائب حتى وصل إلى أحد بيوت الدرج في السفينة حيث كان أفراد آخرون من الطاقم يلقون بالحقائب المسروقة إلى المكان الذي يقف فيه رانجيت في الأسفل. وبينما يهم رانجيت بالتقاط حقيبتين لحملهما إذ سمع صوتًا طفوليًّا ينادي باسمه، وعندما نظر إلى الأعلى وجد دوت كاناكاراتنام وأطفالها ينزلون الدرج باتجاهه. كانوا جميعًا — بمن فيهم الصغيرة بيتسي — يحملون نصيبًا من الغنيمة، وكان لدى تيفاني الكثير من المعلومات. فقبل ساعة أو ساعتين شاهد أحد القراصنة شيئًا يشبه أضواء سفينة على مسافة بعيدة من مؤخرة السفينة. قالت له تيفاني في حماسة: «لكن لم يظهر شيء على شاشة الرادار؛ أتعرف ما يعنيه ذلك؟»

لم يكن رانجيت يعرف، لكنه استطاع الخروج بتخمين مناسب. فقال: «سفينة حربية مزودة بتقنية التخفي من الرادار؟»

«تمامًا! هناك مدمرة أو شيء من هذا القبيل يتتبعنا! ومعنى ذلك أننا لن نستطيع التوجه إلى الصومال؛ لذا سوف نرسو بالسفينة في مكان ما — أعتقد في الهند أو باكستان — ثم نختفي وسط الغابات. إنهم في منصة ربان السفينة في الأعلى يشغلون الرادار محاولين الاتفاق مع إحدى العصابات المحلية لمساعدتنا.»

سألها رانجيت: «ولمَ قد ترغب عصابة محلية من المجرمين في ذلك ما داموا يستطيعون انتزاع الغنيمة منا؟»

لكن الطفلة لم تحر جوابًا، واكتفت دوت بقولها: «هيا بنا. دعونا ننزل بعض هذه الأشياء إلى مكان المغادرة.»

وبانتقال جميع الأشياء القيمة إلى المخرج «ب» على سطح السفينة لم يعد أمام القراصنة عمل مفيد يقومون به. فاستقروا على أحد أسطح السفينة الخارجية، وأخذوا يتفحصون الأفق في قلق علَّهم يرون أثرًا لتلك السفينة التي تتعقبهم والتي لا يستطيع الرادار رصدها أو يراقبون الأفق أمامهم في قلق أشد ربما تقع أعينهم على مكان تجنح إليه السفينة.

والواقع أنه لم يكن هناك شيء يُرى سوى المياه. إذا كانت هناك سفينة أخرى أو قطعة من اليابسة في أي مكان بالقرب منهم، فإنهما لم يظهرا أمام رانجيت. عندما سئم رانجيت من اللهو قرب الظهيرة نزل إلى الأسفل للبحث عن طعام يأكله، ثم عاد إلى فراشه حيث غط في النوم في غضون دقائق …

لكنه استيقظ مرة أخرى عندما سمع صوت صرير معدني عنيف وشعر بحركة اهتزاز وارتداد جعلته يسقط على الأرض، فأدرك أنهم قد وصلوا.

بعدئذٍ استقرت السفينة على الرغم من أنها مالت ست درجات عن الخط العمودي. ونظر رانجيت حوله ليتأكد أنه ما من شيء يأخذه معه، فلم يجد شيئًا، ثم سلك طريقه نحو باب الخروج متشبثًا بسياجات الأمان المحيطة بسطح السفينة. كانت جميع المسروقات تقريبًا خارج السفينة تتلاعب بها الأمواج الصغيرة القادمة من البحر خلفهم. كما كان حال معظم الأفراد سواء من القراصنة أو الركاب أو أفراد الطاقم الأسرى. كان بعض القراصنة يأمرون أفراد الطاقم والركاب بلا شفقة أن يحملوا الحقائب المبللة بعيدًا عن علامة ارتفاع مياه المد.

ألقى رانجيت نظرة حوله فلم يجد أناسًا على الشاطئ، ثم نزل إلى المياه الضحلة الدافئة.

وطئ البشر ذلك الشاطئ من قبل. فقد تركوا علامات جلية على وجودهم. هذا الشاطئ هو واحد من شواطئ المحيط الهندي المهجورة التي استخدمت من قبل في تفكيك السفن بتكلفة منخفضة (وعلى نحو يفتقد إلى الأمان أيضًا). فالمكان بأكمله تنبعث منه رائحة الزيت والصدأ. وفي كل مكان أيضًا أعلى وأسفل سطح المياه كانت توجد أجزاء من هياكل السفن القديمة أو قطع من أثاث السفن — كراسٍ وأسرَّة ومناضد — قديمة ومتهالكة للغاية حتى إنها لا تستحق النقل إلى مكان آخر. لم يرَ رانجيت أثرًا للرجال المساكين الذين تولوا مهام تقطيع هياكل السفن وفصل الأجزاء التي قد تدر ربحًا من المحركات أو السواري، لكنه كان على يقين أنهم موجودون … هؤلاء الرجال الذين لقوا حتفهم على هذا الشاطئ في كثير من الأحيان بسبب المواد السامة التي قد تجعل هذا العمل مكلفًا جدًّا في أي مكان تُراعى فيه احتياطات الأمان بصورة أفضل. لم يستطع رانجيت أن يخمن كم يبلغ مقدار تلك السموم والمواد المسرطنة المحتجزة التي ربما تظل آثارها في الرمال والمياه المحيطة به.

أدرك رانجيت أن أفضل طريقة لمواجهة تلك المشكلة هي مغادرة ذلك الشاطئ بأسرع ما يمكن.

غير أنه لا توجد وسيلة مناسبة لذلك. فضلًا عن أنه لم يرَ أي دليل على مساعدة العصابات المحلية لهم. حسنًا، ربما كان هناك شيء من هذا القبيل؛ إذ لمح رانجيت شيئًا غير واضح المعالم مختفيًا إلى حدٍّ ما خلف الأيكة، لكنه عندما ألقى نظرة ثانية لم يجد شيئًا.

كانت دوت كاناكاراتنام تبذل قصارى جهدها وهي تخوض الماء وراء رانجيت لتظل ممسكة بأيدي الصغار الأربعة معًا ودون أن تتخلى عن حقائبها من الغنيمة. واستسلمت دوت في نهاية الأمر، ودفعت إحدى الحقائب لرانجيت. وقالت: «خذ هذه. إنها ملابس جورج. احتفظ بها حتى يظهر؛ عليَّ أن أُخرج هؤلاء الأطفال من الماء.»

ولم تنتظر دوت موافقة رانجيت. وإنما تحركت بخطًى متثاقلة وبرفقتها الأطفال وسط الرمال الساخنة حتى وصلت إلى علامة ارتفاع مياه المد حيث وقفت تنظر في جميع الاتجاهات بحثًا عن زوجها. وعلى حين غرة صار رانجيت هدفًا لأحد القراصنة الذي كان يلوح بمدفعه في وجه مجموعة من أفراد الطاقم الأسرى، ولكنه كان يصيح في رانجيت

بكل وضوح. ورانجيت بدوره لم يكن متأكدًا من طبيعة الأمر الذي يوجهه إليه الرجل، وإن ظن أنه في الأغلب لن يكون أمرًا يرغب في تنفيذه. لذا هز رانجيت رأسه موافقًا على ما يطلبه القرصان، ثم استدار، وأخذ يجري بأقصى سرعته حول مؤخرة السفينة المستقرة على الشاطئ. ولم يتوقف إلا بعد أن توارى عن نظر القرصان …

عندها سمع صوتًا كنعاب البوم يأتي من بعيد.

كان صوتًا مخيفًا، ليس موسيقيًّا تمامًا وإنما يُذكِّر بالموسيقى الخلفية لأحد أفلام الرعب كأن جثث الموتى بدأت تَنسِلُ من أجداثها. ولم يكن رانجيت الوحيد الذي سمع هذا الصوت. فعلى الشاطئ استقر واحد من القراصنة كان قد ألقى بنفسه فوق الرمال وهو يلهث من الجهد الذي بذله للوصول إلى هناك، ونظر حوله متعجبًا. وهكذا فعل قرصان آخر واثنان من طاقم السفينة جميعهم إما جالسون أو واقفون يحاولون رؤية المصدر الذي ينبعث منه الصوت.

وفجأة رأى رانجيت صفًّا من الطائرات البعيدة تتحرك باتجاههم من جهة البحر. رأى اثنتي عشرة طائرة هليكوبتر على الأقل، كل طائرة فيها مزودة بمراوح دائرية غريبة الشكل تتحرك جميعها مع كل تغيير في مسار الطائرات حتى تظل موجهة نحو الأشخاص الموجودين على الشاطئ … ثم ارتفع الصوت …

وظل يرتفع أكثر وأكثر.

لم يستطع رانجيت أن ينسى ذلك اليوم الذي قضاه على الشاطئ طوال حياته المديدة. صحيح أنه عاش بعده أيامًا أسوأ لكن تلك اللحظات المروعة والمهينة التي قضاها تحت القصف السمعي الصادر من طائرات الهليكوبتر كانت ذات وقع أليم على أي شخص. لم يتعرض رانجيت من قبل قط للأسلحة غير المميتة التي تستعين بها قوات الهجوم الحديثة. ولم يدرِ رانجيت ما قد يصيب المخ بسبب هذا الصوت. وإنما شعر بأسوأ التأثيرات في بطنه حيث ارتخاء الأمعاء وكثرة التقيؤ وشدة الألم المصاحب للشعور بالغثيان.

ولم يكن الهجوم غير مميت تمامًا. فقد نجح اثنان على الأقل من القراصنة في مقاومة الألم الذي أَلَمَّ بجسديهما لوقت قاما خلاله بتوجيه بضع طلقات من بنادقهما الآلية صوب الطائرات الهليكوبتر. (ولسوء حظ رانجيت أن كيرثيس كاناكاراتنام كان أحد هذين القرصانين.) وكانت تلك غلطة. فكل طائرة احتوت على بابين مفتوحين يحتل أحدَهما جندي مسلح بمدفع آلي بينما يحتل المدخل الثاني جندي مسلح بقاذفة قنابل، ولم يستمر إطلاق القرصانين النار من سلاحيهما أكثر من دقيقة.

أما هؤلاء الآخرون الذين كانوا يشاهدون ما يجري من السماء …

فقد أثار هذا الحادث حيرتهم، حتى هؤلاء الذين كان يطلق عليهم اسم «تساعيو الأطراف».

لم تكن تلك المرة الأولى التي يشاهد فيها «تساعيو الأطراف» هجومًا بشريًّا باستخدام المدافع. كان «تساعيو الأطراف» الجنس التابع الوحيد الذي شجعه «عظماء المجرة» على الإلمام بلغات عديدة، وكانت مهمتهم الأساسية هي إخبار أسيادهم بما يقوله هؤلاء البشر بعضهم لبعض، لكنك لا تستطيع التجسس على البشر فترة طويلة دون مواجهة أحداث العنف. ظن «تساعيو الأطراف» أنهم يعرفون ما سيحدث هذه المرة. فعندما شاهدوا إحدى السفن مزودة بأسلحة كيميائية متفجرة تتسلل ببطء لملاحقة سفينة أخرى يبدو أنها ليست مسلحة، افترضوا أن النتيجة ستكون بحرًا آخر من دماء البشر. حتى إنهم تساءلوا هل يستحق ذلك بقاءهم في المكان لرؤية مشهد آخر من مشاهد الإبادة الجماعية للبشر.

وما أثار دهشتهم أن عددًا قليلًا للغاية من البشر الذين كانوا على الشاطئ هم الذين قُتلوا بعد أن اخترقت أجسامَهم الأسلحة المقذوفة من الطائرات.

تعرف «تساعيو الأطراف» على الأسلحة التي زُوِّدت بها طائرات الهليكوبتر — السلاح الذي يعمل بالهواء المضغوط، والمدفع الذي يطلق قذائف هوائية، وكل الأسلحة الأخرى — لأنهم رأوها قبل ذلك. وهناك عدد قليل من الأسلحة المستخدمة من قبل البشر لم تستخدمه الأجناس الأخرى في أماكن وأزمنة أخرى في المجرة. أدرك «تساعيو الأطراف» جيدًا — من خلال تعرفهم على تاريخ الفصائل الأخرى التي استخدمت أسلحة مماثلة في الماضي البعيد داخل المجرة — مدى بشاعة وخطورة تأثير تلك الأسلحة على جسد كائن حي أعزل.

اللغز الذي أثار حيرة «تساعيي الأطراف» هو: لماذا فضل هؤلاء البدائيون استخدام هذه الأسلحة على أسلحتهم العادية التي يصاحب انطلاقها عملية انفجار؟

عندما انتهت المواجهة على السطح اختلف صناع القرار من «تساعيي الأطراف» عدة دقائق قبل أن يقرروا هل سيخبرون «عظماء المجرة» بما شاهدوه أم لا.

وفي النهاية اتخذوا قرارًا بإخبارهم. فأبلغوهم بما حدث تفصيلًا تاركين لـ «عظماء المجرة» استخلاص ما يودون استخلاصه منه، مع أن «تساعيي الأطراف» حاولوا منح أنفسهم مساحة ضئيلة من الحرية اتضحت في العنوان الذي اختاروه للتقرير وهو: «نموذج لصراع عجيب.»

الفصل الثاني عشر

المحاكمة

لم يرَ رانجيت الكثير من إراقة الدماء الفعلية؛ لأنه كان مشغولًا كلية بمشكلاته المقززة على نحو مهين. ففضلًا عن أنه شعر كأن قطيعًا من الخنازير الهائجة تفر فرارًا جماعيًّا عبر جهازه الهضمي، فإن الموجات دون الصوتية أصابته بحالة من التغوط اللاإرادي بكثرة. وهو الأمر الذي لم يفعل شيئًا مثله منذ طفولته المبكرة حتى إنه نسي كم يكون الأمر مقيتًا ومثيرًا للاشمئزاز.

تمكن رانجيت من خلع ملابسه الدنسة، وعاد مترنحًا إلى الأمواج الدافئة الصغيرة، وراح يستخدم ملابسه التي لم تتسخ تمامًا في تنظيف نفسه قدر ما استطاع. ثم خطرت بباله فكرة. فاستولى على حقيبة ملابس جورج كاناكاراتنام التي أعطته دوت إياها. لم يكن في الحقيبة حذاء، ورأى رانجيت ألا يرتدي لباسًا داخليًّا يخص رجلًا آخر، لكن الحقيبة تضمنت كل الأشياء الأخرى؛ فكانت تحتوي على بنطلون وسترات من الصوف وجوارب صوفية ثقيلة تمنى رانجيت أن تقي قدميه من نتوءات الحصى على الشاطئ. ثم خرج من مخبئه ليدرس الموقف.

بدا الوضع سيئًا، ورائحة المكان أسوأ. فطائرات الهليكوبتر هبطت واصطفَّت في صفوف منظمة، وخرج منها مائة جندي مسلح على الأقل ظنهم رانجيت هنودًا أو باكستانيين، لكنه لم يستطع الجزم في هذا الشأن، فهو لم يتعرف على أحد الفريقين عن قرب من قبل. وأيًّا كان هؤلاء الجنود فقد أتقنوا فصل من كانوا على متن سفينة الرحلات آنفًا إلى أربع مجموعات. تألفت مجموعتان من الركاب السابقين — مجموعة للرجال وأخرى للنساء — انتهى بهما الحال إلى مناطق سُيَّجت في عجالة ببعض الملاءات على طول الشاطئ. ووقف ستة جنود لتقديم المناشف والأغطية للركاب الذين انتهوا من تنظيف أنفسهم قدر ما استطاعوا. ولاحظ رانجيت أن الجنود الذين يساعدون الإناث من

الركاب هم إناث أيضًا، لكن مع ارتداء الملابس العسكرية وحمل الأسلحة لم يكن هناك فرق بين الذكور والإناث من الجنود.

وعلى بعد عشرات الأمتار من الشاطئ كان عشرون أو ثلاثون رجلًا وامرأة — دون حراسة — يبذلون ما في وسعهم لتنظيف أنفسهم أيضًا. ولم يكن هناك من يقدم إليهم المناشف، وإن كان ما يحتاجونه من أغراض متاحًا أمامهم على الشاطئ. أدرك رانجيت أنهم الناجون من طاقم السفينة بعد أن تعرف على عدد قليل منهم، وعلى أي حال لم يكن من الصعب أن يتعرف رانجيت عليهم من خلال نظرات النشوة الممزوجة بالراحة والمطلة من تلك الوجوه التي أُنقذ أصحابها في اللحظات الأخيرة.

ثمة مجموعة أخرى. لم يكن مسموحًا لأفرادها بتنظيف أنفسهم أو تغيير ملابسهم. فكانوا ممددين على وجوههم — أصابعهم متشابكة فوق رءوسهم — ويقف على حراستهم ثلاثة أو أربعة جنود على أهبة الاستعداد لاستخدام أسلحتهم.

لم يكن هناك أدنى شك في هوية هؤلاء الأشخاص. تفحَّص رانجيت الأجساد المنبطحة أرضًا، لكن حتى إن كان بينهم أحد من أسرة كاناكاراتنام، فإنه لن يستطيع التعرف عليه من ظهره. ولم يكن أحد من هؤلاء الأشخاص صغير الجسم بما يكفي لأن يظنه رانجيت واحدًا من الأطفال.

أثار رانجيت انتباه أحد الجنود الذين يقومون على حراسة هذه المجموعة، فصاح مخاطبًا إياه بشيء لم يفهمه وهو يلوح بمدفعه بجدية تجاه رانجيت.

بدا لرانجيت أن سيره في المكان بمفرده أثار شكوك الجنود. فنادى على الجندي بقوله: «حسنًا» — متمنِّيًا في نفسه أن لو كان يعرف ما وافق عليه لتوِّه — ثم نظر حوله يدرس الخيارات المتاحة أمامه.

من الصعب تحديد المجموعة التي ينتمي إليها رانجيت في الواقع. لكن ليس هناك شك في أن الركاب السابقين يعامَلون أفضل معاملة، وهو ما جعله يلوح للجندي بتحية هادئة، وسار متمهلًا نحو من كانوا ينتظرون الملابس النظيفة في صف الرجال، وانضم إلى الصف وهو يومئ في لطف إلى الرجل المسن الذي يتقدمه.

لم يرد الرجل إيماءة رانجيت بأخرى. وإنما قطب جبينه هنيهة، ثم فتح فمه، وصاح مناديًا الجنود. وعندما أتى اثنان منهما عدْوًا، كان الرجل يصيح: «هذا ليس من الركاب! إنه واحد منهم! فهو من سألني عما قد يدفعه أبنائي فدية لي!»

بعدها بدقيقة كان رانجيت ممددًا على وجهه ويداه فوق رأسه بين اثنين من أكبر القراصنة جسمًا وأسوئهم رائحة؛ إذ لم تتح لهم فرصة تنظيف أنفسهم.

ظل رانجيت ممددًا على الأرض ساعات.

ولم تخلُ تلك الساعات من الأحداث تمامًا؛ ففي الساعة الأولى منها تعلَّم رانجيت درسين مهمين. أولهما ألا يحاول رفع رأسه للبحث عن آل كاناكاراتنام؛ لأنه عندما فعل ذلك ضُرِب بعصا فوق أذنه اليسرى مباشرة في حين صاح من كان يمسك بالعصا قائلًا: «لا تتحرك!» كان ألم الضربة يشبه صاعقة البرق. أما الدرس الثاني فهو ألا يحاول الهمس إلى جيرانه للحصول على معلومات. فهذا الفعل جلب عليه ركلة قوية في أدنى ضلع من جانبه الأيمن. كان ألم الركلة لا يوصف، ولا شك أن الراكل هو أحد الجنود لأنه كان ينتعل حذاءً عسكريًّا مدعومًا بالصلب.

وبعد نحو ساعتين — عندما ارتفعت الشمس الاستوائية في كبد السماء وبدأ رانجيت يشعر كأنه يحترق حيًّا — وقع أمر ما. وصلت مجموعة جديدة من طائرات الهليكوبتر كانت أكبر في الحجم وأفضل بكثير في الشكل من المجموعة الأولى، وفي الحال صعد إلى متنها جميع الركاب — وجميع مقتنياتهم المستردة — لنقلهم إلى مكان لا شك أنه سيكون أفضل من هذا المكان الذي هم فيه. وبعد نحو ساعة سُمِع صوت محركات ثقيلة من بين الأشجار، وشقت شاحنتان مسطحتان طريقهما فوق الرمال لنقل أفراد الطاقم الناجين. وبعد وقت طويل حان دور القراصنة البائسين — الذين سفعت الشمس أجسادهم ومعهم رانجيت — للانتقال في طائرات هليكوبتر كبيرة الحجم لكنها لا تبدو مريحة على الإطلاق. لم يكن المسئول عن نقلهم بحاجة إلى تعريف لما كان من تطريزات معدنية كثيرة على بزته العسكرية وقبعته، ولأسباب أخرى منها أنه حضر بمفرده في طائرة هليكوبتر، وأنه قبل أن ينزل منها أعد الجنود على الفور كرسيًّا وطاولة — أو بالأحرى صندوقًا مقلوبًا — ليجلس عليه وهو يدير المحاكمة.

أُمِر القراصنة — واحدًا تلو الآخر — بالوقوف والإجابة عن أسئلة الضابط. لم يستطع رانجيت سماع الأسئلة أو الإجابات، لكن الأحكام كانت تُعْلَن بوضوح بحيث يسمعها الجميع. «السجن المركزي في راولبندي»، قالها الضابط للمعتقَل الأول، ومرة أخرى قال: «السجن المركزي في راولبندي.» للمعتقَل الثاني والثالث.

وجاء وقت استدعاء رانجيت أمام الضابط. فاستغل الدقائق القليلة التي فصلت بين وقوفه وبين مواجهة الضابط في إلقاء نظرة سريعة على من تبقى من القراصنة علَّه يرى الأطفال، لكنه ما كان ليتعرف عليهم لو أنهم هناك.

بعدها صار رانجيت أمام الضابط، ولم يجرؤ على النظر بعيدًا. كان استجوابه موجزًا. أنصت الضابط إلى جندي آخر همس إليه بشيء في أذنه، ثم توجه إلى رانجيت. ولحسن حظه أن سأله باللغة الإنجليزية: «ما اسمك؟»

«أنا رانجيت سوبرامانيان، ابن جانيش سوبرامانيان كبير كهنة معبد تيرو في ترينكومالي بسريلانكا. لست واحدًا من القراصنة ...»

قاطعه الضابط. وقال له: «تمهَّل»، ثم تحدث بصوت خفيض إلى مساعده الذي أجابه بصوت خفيض أيضًا. وفكر الضابط فيما سمعه هنيهة. ثم مال إلى الأمام حتى اقتربت رأسه من رانجيت، واشتمَّه بعمق.

بعدها أومأ برأسه، وهكذا اجتاز رانجيت اختبار الرائحة، ويمكنه مرافقتهم في رحلتهم. قال الضابط: «استجواب. ضعه في طائرتي. التالي!»

الفصل الثالث عشر

مكان مناسب للاستجواب

ظل رانجيت في قبضة المحققين أكثر من عامين، وإن كان أغلب التحقيق الفعلي جرى في الأشهر الستة الأولى فحسب. غير أنه لم يشعر بالراحة في أي وقت من الأوقات.

أول مرة راود الشك فيها رانجيت أنه معتقل عندما عُصِبت عيناه، وكُمِّم فمه، وقُيِّدت يداه إلى مقعد داخل الطائرة الهليكوبتر التي كان يستقلها الضابط قبل أن تقلع بهم. لم يدرِ إلى أين اتجهت به الطائرة، لكنها استغرقت أقل من ساعة للوصول إلى وجهتها. بعدها تلقى رانجيت — وهو لا يزال معصوب العينين — مساعدة عند هبوط الدرج الذي يقود إلى سطح ممهد، ثم اقتيد مسافة عشرين أو ثلاثين مترًا إلى درج آخر يقود إلى سطح طائرة أخرى. وهناك قُيِّد ثانيةً إلى مقعده قبل أن تُقلع الطائرة الجديدة.

غير أنها لم تكن طائرة هليكوبتر. فقد شعر رانجيت باصطدام الطائرة المتكرر بسطح المدرج مع زيادة سرعتها، ثم بانتقالها المفاجئ إلى رحلة طيران حرة بلا اصطدامات. لم تكن الرحلة قصيرة، ولا شك أنها لم تكن مؤنسة. استطاع رانجيت أن يسمع طاقم الطائرة يتحدثون بعضهم إلى بعض، لكنه لم يدرِ بأي لغة يتحدثون، وعندما حاول النداء عليهم ليخبرهم أنه يود الذهاب إلى الحمام، لم يكن الرد الذي تلقاه مجرد كلمات. وإنما صفعة قوية مفاجئة على جانب وجهه لم يكن على استعداد لها.

غير أنهم سمحوا له في النهاية بدخول حمام الطائرة الضيق معصوب العينين وتاركًا الباب مفتوحًا. فضلًا عن أنهم قدموا إليه الطعام، فبسطوا صينية الطعام على مقعده، ووضعوا عليها شيئًا، وأمره أحدهم قائلًا: «تناول هذا!» أدرك رانجيت من ملمس الطعام أنه ساندويتش؛ ربما جبن من نوع غير معروف، ولأنه لم يكن قد تناول شيئًا منذ نحو عشرين ساعة، فقد التهم الطعام الذي قُدِّم إليه. وجازف رانجيت بطلب ماء، فتلقى صفعة ثانية على جانب رأسه.

لم يدرِ رانجيت كم استغرقت الرحلة من وقت؛ لأنه نام نومًا مضطربًا، ولم يستيقظ إلا على ارتجاج الطائرة المضطرب ليعرف أنهم يهبطون على مدرج طائرات أسوأ بكثير من المدرج الأول. لم تُرْفَع العصابة عن عينيه. وإنما ساعده أحدهم في الخروج من الطائرة وركوب شاحنة ظلت تتحرك بهم أكثر من ساعة.

انتهى به الحال منقادًا — وهو لا يزال معصوب العينين — إلى ردهة في أحد المباني ومنها إلى غرفة حيث أجلسه معتقِلوه. بعدئذٍ تحدث إليه أحدهم بلهجة إنجليزية وبصوت أجش: «ابسط يديك أمامك. كلَّا، راحتيك لأعلى!» وعندما فعل ذلك ضُرِب على راحتيه بشيء ما في قسوة بالغة.

كان الألم شديدًا. ولم يستطع رانجيت كبت صرخته. ثم قال له نفس الشخص: «قُل الحقيقة. ما اسمك؟»

كان هذا أول سؤال طُرِح على رانجيت تحت التهديد، وهو أكثر سؤال طُرح عليه أيضًا. لم يُرِد المحققون تصديق الحقيقة البسيطة التي تقول إنه رانجيت سوبرامانيان الذي خاطر بارتداء ملابس تخص شخصًا آخر اسمه — كما يظهر في البطاقة المخيطة في الملابس — كيرثيس كاناكاراتنام. وكل مرة ينطق فيها رانجيت بالحقيقة، كانوا يعاقبونه على كذبه.

لكن العقاب اختلف من محقق لآخر. فعندما تصدر الأسئلة عن ذلك الرجل القصير البدين الذي تفوح منه رائحة العرق والذي يدعى برونو، يكون سلاحه المفضل لانتزاع الحقيقة قطعة من كابل كهربائي بسُمْك أربعة أو خمسة سنتيمترات تصيب بألم حاد أينما استُخدمت. وفي أحيان أخرى كان برونو يوجِّه صفعة قوية براحة يده على بطن رانجيت العاري؛ لم تكن هذه الصفعة مؤلمة فحسب، وإنما دفعت رانجيت لأن يسأل نفسه في كل مرة هل تمزقت زائدته الدودية أو طحاله. غير أنه كانت هناك ميزة في الأسلوب الذي ينتهجه برونو في التعذيب. تمثلت في خلوه من انتزاع الأظافر وكسر العظام وفقء العينين؛ خُيِّل لرانجيت أنهم لا يفعلون شيئًا من شأنه أن يخلف أثرًا دائمًا، فعقد الآمال على أنهم ينوون إطلاق سراحه في نهاية الأمر.

غير أن آماله لم تستمر طويلًا. إذ تبددت ذات يوم عندما ألقى برونو السلك الكهربائي ساخطًا في جانب من الغرفة، وانتزع هراوة خشبية قصيرة من إحدى الطاولات، وداوم على ضرب رانجيت بها على وجهه. وهو ما تسبب في إحداث كدمة حول عينه وتحطيم إحدى أسنانه الأمامية وضياع أمله الضئيل في أنهم سيطلقون سراحه في النهاية.

كان الرجل الثاني الذي يشارك في تعذيب رانجيت رجلًا مسنًّا لم يذكر اسمه قط، لكن إحدى عينيه كانت نصف مغمضة دائمًا. (أطلق عليه رانجيت في نفسه اسم «سكوينتي».) قلما كان الرجل يترك أثرًا للتعذيب على جسد رانجيت، وكان حديثه مطَمئنًا على نحو يدعو إلى الدهشة. في اليوم الأول الذي التقى فيه رانجيت — وهو ممدد على ظهره يحمله مساعدان مفتولا العضلات — أمسك سكوينتي بقطعة مربعة من القماش. وحذَّر رانجيت بأسلوب رقيق: «ما سنفعله بك الآن سيجعلك تظن أنك ستلقى حتفك. لكن ذلك لن يحدث. ولن أسمح بذلك. كل ما عليك هو التزام الحقيقة في الرد على أسئلتي.» ثم بسط قطعة القماش على وجه رانجيت وصب فوقها ماءً باردًا من إبريق معدني.

لم يذق رانجيت تجربة كهذه قط. فالنتيجة لم تكن ألمًا قدر ما كانت فزعًا قاسيًا موهمًا بالعجز. لم يخفق رانجيت في سماع سكوينتي عندما وعده بأنه لن يموت من هذه التجربة بل وفهمه أيضًا، لكن كانت لجسده مفاهيمه الخاصة به. إذ شعر أنه يغرق غرقًا سيودي بحياته، وأراد وضع حد لهذه العملية في الحال. صاح رانجيت أو حاول أن يصيح: «النجدة! كفى! أوقفوني!» وكان كل ما صدر عنه أصوات مختنقة ممزوجة بفقاقيع المياه لا تمت للغة الإنجليزية بصلة …

انقطع تقطر الماء المسكوب، وسُحِبَت قطعة القماش من على وجه رانجيت، ورُفِع ليتخذ وضع الجلوس. ثم سأله سكوينتي بلهجة مهذبة: «ما اسمك؟»

حاول رانجيت الكف عن السعال فترة طويلة قبل أن تخرج الكلمات من فمه. ثم قال: «أنا رانجيت سوبر…» لكنه لم يكن قد انتهى من ذكر اسمه حتى ارتطم كتفاه بالأرض بقوة، ووُضعت قطعة القماش على وجهه ثانية، وبدأ صب الماء المروع مرة أخرى.

استطاع رانجيت أن يمسك أنفاسه أربع مرات أخرى قبل أن يشعر بأن قلبه يتوقف وأن المقاومة باتت مستحيلة؛ فالتقط أنفاسه، واستطاع أن يقول: «أنا أي شخص تريدونني أن أكون. فقط توقفوا!»

قال سكوينتي مشجعًا رانجيت: «جيد. أنت تبلي بلاءً حسنًا كيرثيس كاناكاراتنام. أخبرني الآن، ما الدولة التي تعمل لحسابها؟»

لا شك أنه كانت هناك وسائل أخرى عديدة لحث رانجيت على التعاون، لكن أيًّا منها لم يفلح في انتزاع اعتراف صادق منه؛ فهو لم يرتكب جرمًا ليعترف به.

وهذا الأمر أثار حنق المحققين. فتذمر الرجل الذي أطلق عليه رانجيت اسم سكوينتي. وقال: «أنت تجعلنا نبدو أشرارًا يا رانجيت أو يا كيرثيس أو أيًّا كنت. استمع إليَّ، ستسهل الأمر على نفسك إن توقفت عن إنكار أنك كيرثيس كاناكاراتنام.»

حاول رانجيت أن يعمل بنصيحته. ثم سَهُل الأمر قليلًا.

الفصل الرابع عشر

تسليم لصاحب أعلى عرض

كانت أحداث كثيرة تقع خارج جدران المعتقل الذي وضع فيه رانجيت، غير أنه لم يكن يعلم أي شيء عنها. فالكاتدرائيات تتعرض للتفجيرات، وقطارات السكك الحديدية تخرج عن مساراتها، ونظم التهوية في بنايات المكاتب الإدارية ملوثة بالغبار المشع. وماذا عن عمليات الاغتيال؟ أوه، أجل كان هناك الكثير منها سواء بذبح الضحية أو إلقائها من طابق علوي أو إطلاق النار عليها من مسدس أو بندقية أو مدفع رشاش، وفي كثير من الأحيان يكون القتل بالسمِّ الذي يستخدم في بعض الحالات بدهاء واسع. ناهيك عن إلقاء بيانو فوق رأس الضحية في إحدى المرات، والوقوف على صدر الضحية مرة أخرى بحيث يظل قابعًا في قاع حوض الاستحمام بينما صنابير المياه تملأ الحوض بالماء الفاتر. وبالطبع هناك أيضًا الحروب. ربما تسببت أكثر هذه الحروب الحديثة ضراوة في إحياء صراع قديم؛ إذ هدد عدوان سني على مقاطعة كردية ببدء جولة أخرى من الفوضى العارمة التي ميزت عراق ما بعد الاحتلال.

غير أن هناك بعض الأنباء السارَّة. ففي ظل الإشراف الدقيق لأربعة من الدول الاسكندنافية الخمس — استُبْعِدت أيسلندا من المجموعة بسبب اضطراب شأنها الداخلي — هدأت وطأة عدد كبير من الحروب المريرة، وإن كان هدوءًا قصير الأمد. بل إن ميانمار — البلد الذي كان يُعرف في الغالب باسم بورما (عدا بين المجموعة الحاكمة المتشددة فيها) — أطلقت سراح كل معتقليها السياسيين دون سابق إعلان، ودَعَت دبلوماسيين أجانب للرقابة على انتخاباتها التالية. وأخيرًا جاد البنك الدولي بعد طول مماطلة بمنحة مبدئية لا بأس بها بقيمة مليار دولار لبناء مصعد فضاء أرتسوتانوف الفعلي، وكان هذا النبأ من شأنه أن يُسعد رانجيت كثيرًا لو علم به. صحيح أن منحة البنك الدولي كانت أبعد ما تكون عن تحقيق المشروع الفعلي بحيث يقفز المرء داخل عربات تتحرك على طول

الكابلات ويُنْقَل إلى مدار أرضي منخفض بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة. لكنها أول خطوة فعلية.

لم تكن تلك هي الأنباء الوحيدة التي لا يعلم عنها رانجيت شيئًا والتي لها تأثير كبير على حياته. فعلى سبيل المثال لم تكن لديه فكرة عن سبب إحضاره إلى هذا المكان وتعذيبه فيه. وعندما توقف التعذيب، لم يعرف رانجيت سببًا لذلك أيضًا. ولم يكن رانجيت قد سمع من قبل قط عن التسليم الاستثنائي أو القرار الخطير الذي أعلنه لوردات القانون في بريطانيا منذ عقود.

وبالطبع كان معذبو رانجيت قادرين على أن يمدوه ببعض المعلومات لو أرادوا هذا. لكنهم لم يريدوه.

لم يرَ رانجيت برونو — الرجل الذي كان يصفعه على بطنه ويضربه بالسلك الكهربائي — مرة ثانية بعد أول يوم مر عليه دون تعذيب. غير أنه كان يرى سكوينتي كثيرًا ولكن فقط بعد أن انتزع سكوينتي منه وعدًا أنه سيكف عن طرح الأسئلة حول سبب تعذيبهم له، وهل سيطلقون سراحه في أي وقت، وأي سؤال آخر يود إجابة عنه. أمدَّ سكوينتي رانجيت بقدر ضئيل للغاية من المعلومات. («برونو؟ لقد نال ترقية، وانتقل إلى الطابق العلوي. إنه لا يعرف كيف يتعامل مع معتَقَل ما لم يؤذه، وعلى ما يبدو أننا لن نؤذيك بعد الآن.»)

ذكر رانجيت نفسه أنه لا ينبغي الاستخفاف بحقيقة كهذه. فذلك تطور هائل بعد كل ما اعتاد عليه في الفترة السابقة من ضرب مبرح وتعذيب بالماء. لكنه تحول إلى ملل قاتل خاصة بعد توقف سكوينتي عن زيارة رانجيت الذي لم يستطع حفظ وعده بالكف عن طرح الأسئلة المحظورة. لم يُحْرَم رانجيت من رفقة البشر تمامًا. فثمة رجل أعرج يُحضِر له طعامه، ثم يأخذ ما يتبقى من فضلات، لكن الحديث معه لم يكن مجديًا. لا شك أن الرجل يتحدث لغة ما، لكن يبدو أنها ليست باللغة التي يفهمها رانجيت.

لم يتذكر رانجيت المرة الأولى التي بدأ فيها حواراته الأحادية المطولة مع أصدقائه. أو بالأحرى مع أصدقائه الغائبين؛ ذلك أن أيًّا منهم لم يكن حاضرًا معه بالفعل في زنزانته.

لا شك أن أحدهم لم يسمع ما قاله رانجيت له. كان الحديث سيكون مشوقًا لو استطاعت مايرا دو سويزا أو برو المجهولة اللقب مثلًا سماعه. وربما أقل تشويقًا في حالة جاميني باندارا؛ لأنه بعد انتهاء رانجيت من الحديث عن حياته الرتيبة، فإنه لن

يجد ما يقوله لصديق العمر الغائب سوى أنه كان يجدر به تخصيص قدر أكبر من وقته له ووقت أقل للفتاة الأمريكية التي لن تراه مرة أخرى أبدًا.

كان بعض أفضل أصدقاء رانجيت الغائبين هم أناس لم يتعرف إليهم معرفة شخصية. على سبيل المثال، كان هناك الراحل بول فولفسكيل. وهو واحد من ملوك المال الألمان في عالم الصناعة في القرن التاسع عشر، رفضت محبوبته عرضه بالزواج منها. ونتيجة لذلك اعتبر فولفسكيل أن حياته — على كل ما كان يتمتع به من ثروة ونفوذ — لم تعد تستحق العيش، فاتخذ بكل عقلانية قرارًا بالانتحار. لكن قراره لم يوضع موضع التنفيذ. فبينما كان فولفسكيل يتحين اللحظة المناسبة للانتحار، إذا به يختار كتابًا ليقرأه.

كان الكتاب من تأليف رجل يُدعى إرنست كومر، ويتحدث فيه عن النظرية الأخيرة لفيرما. وما يثير الدهشة أن فولفسكيل حضر بضع محاضرات لكومر حول نظرية الأعداد، فدفعه الفضول إلى قراءة المقال الجديد …

وعلى الفور وقع فولفسكيل في شَرَك النظرية — شأنه في ذلك شأن الكثيرين من هواة علم الرياضيات الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده. ونسي ما كان من أمر الانتحار؛ إذ بات مشغولًا تمامًا بفهم الغموض الذي يكتنف المعادلة أ^{٢} + ب^{٢} = ج^{٢}، والمفارقة التي تقول إنه حال تكعيب هذه القيم لن يتساوى طرفا المعادلة أبدًا.

وكانت هناك أيضًا صوفي جيرما التي توفيت منذ زمن بعيد والتي قضت سنوات شبابها في الفترة المروعة التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية. والسبب الذي دفع الشابة صوفي للاشتغال بعلم الرياضيات ليس واضحًا. لكن هذا ما حدث.

لا شك أن تحقيق طموح كهذا لم يكن يسيرًا على أنثى. وكما قالت إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ذات مرة، فإن صوفي جيرما أيضًا طاردتها لعنة كونها فتاة وليست فتًى؛ لذا فقد كان كل شيء حاولت تحقيقه أكثر صعوبة بكثير بالنسبة إليها منه بالنسبة إلى زملائها من الفتية.

عندما ملَّ رانجيت الحديث مع أصدقائه الخياليين، بدأ شيء مما قالته مايرا دو سويزا له يلح على تفكيره.

ما هذا الشيء؟ شيء يتعلق بالبحث عما كانت الأدوات التي أُتيحت للرياضيين الآخرين وقت أن دوَّن فيرما برهانه اللعين الذي تباهى به في هامش كتابه؟

أي أدوات تلك؟

تذكر رانجيت أنه سمع بأن صوفي جيرما كانت الأولى بين علماء الرياضيات من الجنسين في إحراز تقدم فيما يتعلق ببرهان فيرما. أي تقدم هذا الذي أحرزته إذن؟

بالطبع لم يكن لدى رانجيت وسيلة للبحث عن إجابة لهذا السؤال. فعندما كان رانجيت في الجامعة ولديه كلمة المرور لم يكن عليه سوى الضغط على بضعة مفاتيح على الكمبيوتر، وسيظهر أمامه كل ما يتعلق بحياة هذه المرأة.

لكنه لا يملك جهاز كمبيوتر. كل ما يملكه الآن ذاكرته، ولم يكن على يقين أنها تكفي للمهمة التي هو بصددها.

تذكر رانجيت «عدد صوفي جيرما الأولي»؛ أي عدد أولي مثل (أ) إذا ضُرب في اثنين ثم جُمع على ١ كما في ٢أ + ١ فإن الناتج يكون أيضًا عددًا أوليًّا. كان العدد ثلاثة أقل أعداد صوفي جيرما الأولية: ٣ × ٢ + ١ = ٧، والعدد سبعة عدد أولي. (معظم أعداد صوفي جيرما الأولية أكبر من ذلك بكثير؛ ولذا قلَّما تكون مشوقة على الإطلاق.) شعر رانجيت بسعادة غامرة أنه تذكر هذه المعلومات، لكنه على كثرة تفكيره لم يجد طريقة يقوده عدد صوفي جيرما الأولي من خلالها إلى حل نظرية فيرما.

كان ثمة شيء آخر. فبعد جهد شاق وضعت صوفي نظرية خاصة بها.

إذا كانت (س) و(ص) و(ع) أعدادًا صحيحة، وكان س° + ص° = ع°، فلا بد أن تقبل (س) و(ص) و(ع) القسمة على خمسة.

وكأي تقدم آخر نجح رانجيت في التوصل إليه نحو حل نظرية فيرما، كانت هذه الخطوة مخيبة لآماله. فالمعادلة لا تعني شيئًا. إذ إنه من المفترض أن تثبت نظرية فيرما أن المعادلة س° + ص° = ع° ليست موجودة من الأساس، وهكذا فإنه لا جدوى منها على الإطلاق …

أم تراها مجدية؟ بمعنى أن نتجاهل نظرية صوفي جيرما عديمة الجدوى نفسها، لكن كيف توصلَت إليها؟

أوَليس هذا ما أشارت به مايرا على رانجيت أثناء حفل الدكتور فورهولست وقت أن كان بمقدوره الذهاب إلى الحفلات؟

هناك شخص آخر (أو نوع من الأشخاص، أو حتى شيء) لم يسبق لرانجيت التعامل الشخصي معه قط — أو لم يتعامل معه بعد — لكنه يستطيع إمداده ببيانات مفيدة للغاية. وربما آن الأوان أن نقضي قليلًا من الوقت معه (أو معهم، أو ربما حتى معها).

الفصل الخامس عشر

التعرف على واحد (أو أكثر) من عظماء المجرة

النقطة الأولى التي لا بد من حسمها فيما يتعلق بهذا الفرد من «عظماء المجرة» هي ما إذا كان في الواقع عاقلًا مذكرًا، أم شخصًا في الأساس، أم كيانًا غير عاقل (وليس جزءًا صغيرًا من هذا الكيان).

ليس ثمة إجابة سهلة عن أيٍّ من هذه الأسئلة. لذا، فإن ما سنفعله الآن هو أننا سنتجاهل الحقائق ونرضى بالإجابات التي لا مشكلة لدينا في التعامل معها، بخلاف كونها خطأً بيِّنًا. أولًا، سنقول إن هذا الشخص هو شخص بالفعل على الرغم من أنه جزء من هذا «الشخص» الأكبر الذي يمثل عظماء المجرة مجتمعين.

«عظماء المجرة» موجودون في كل مكان بدءًا من أطراف المجرة التي تتحرك بسرعة متزايدة وحتى مركزها الساكن نسبيًّا وفي كل مكان بينهما تقريبًا. كم يبلغ عدد عظماء المجرة؟ ليس لهذا السؤال معنًى هو الآخر. فثمة أعداد هائلة منهم، لكن أهم ما في الأمر أن تلك الأعداد الهائلة هي كيان واحد أيضًا؛ لأن كل فرد من «عظماء المجرة» يندمج في الحال مع واحد منهم أو معهم جميعًا متى أراد.

كما لاحظت فإننا قد حددنا نوع الضمير المستخدم للإشارة إلى «عظماء المجرة» بصورة عشوائية. ولا ينبغي أن يحملك ذلك على الاعتقاد أنهم يمارسون العلاقة الحميمة بالصورة التي نفهمها نحن البشر. فهم لا يفعلون. غاية ما في الأمر أننا لا نستطيع مواصلة الحديث عنهم قائلين «هو» لغير العاقل أو «هو» للعاقل أو «هم» متى أردنا الإشارة إليهم؛ لذلك وضعنا حلًّا لهذه المعضلة وجعلناه مفردًا عاقلًا.

لقد منحنا أنفسنا للتوِّ حرية كبيرة إلى حد ما. ولنمنح أنفسنا حرية أخرى بأن نحدد اسمًا لهذا المفرد العاقل. سوف نسميه «بيل». (ليس بيل وإنما «بيل» بعلامة تنصيص.

إنها حرية كبرى أتحناها لأنفسنا، وعلينا أن نعترف بإدراكنا ذلك من خلال استخدامنا لعلامتَي التنصيص.)

ما الأمور الأخرى التي قد يفيدنا التعرف عليها بشأن «عظماء المجرة» في هذا الوقت؟

على سبيل المثال، هل من المفيد أن نعرف حجمهم؟ أو على الأقل كيف يقيسون المسافات، خصوصًا وأن عقدة واحدة من عقد «عظماء المجرة» قد تفصلها آلاف أو مليارات السنين الضوئية عن عقدة أخرى؟

لنفترض أن الإجابة عن هذه الأسئلة ستكون مفيدة حقًّا، لكن علينا أن نتذكر أيضًا أن الإجابة ستكون معقدة كما هي حال جميع الأسئلة المتعلقة بعظماء المجرة. لنبدأ بحقيقة أن عظماء المجرة لا تروقهم وحدات القياس العشوائية التي يستخدمها البشر. إذا تتبعت هذه الوحدات، فستجدها مبنية دائمًا على بعض القيم البشرية مثل المسافة بين أنملة إصبع الإنسان وإبطه، أو جزء محسوب من المسافة بين أحد القطبين إلى خط الاستواء على الكوكب الذي صادف أن شغله البشر. أما قياسات عظماء المجرة فهي دائمًا على مقياس بلانك الذي هو في الواقع متناهي الصغر. فطول وحدة بلانك الواحدة تساوي ١٫٦١٦ × ١٠^−٣٥^ مترًا. وأيسر طريقة لإدراك مدى صغر هذه القيمة أن نتذكر أنها صغيرة جدًّا إلى حد يستحيل معه قياس شيء أصغر.

(لماذا يستحيل؟ لأنك لا تسطيع قياس أي شيء لا تراه، ولا يمكن رؤية أي شيء دون استخدام تلك الجزيئات الحاملة للضوء التي يطلق عليها فوتونات. وأي فوتون قوي إلى حد إضاءة إحدى مسافات مقياس بلانك سيكون قويًّا جدًّا لدرجة يتحول معها إلى ثقب أسود في الحال. تُستخدم كلمة «مستحيل» في بعض الأحيان على سبيل التحدي. لكنها حقيقة في حالتنا هذه.)

لذلك فإنه لقياس أي شيء في أيٍّ من الأبعاد الثلاثة — سواء أكان هذا الشيء محيط إلكترون أو قطر الكون نفسه — يحسب «عظماء المجرة» عدد مسافات بلانك على خط يمتد من نقطة (أ) إلى نقطة (ب).

ودائمًا ما تكون النتيجة عددًا هائلًا، لكن لا بأس به مع عظماء المجرة. وهم في حد ذاتهم أعداد هائلة إذا نظرنا إليهم من جانب معين.

وبعد أن وجدنا وسائل للتعرف على الأقل على هذا الكائن المستعصي على الفهم، دعونا نعود إلى الكائن الأكثر بساطة؛ وهو رانجيت سوبرامانيان.

عندما كان رانجيت صغيرًا، حثه والده المسكوني المتشدد على قراءة بعض الكتب الغربية، أحدها — لكاتب يدعى جيمس برانش كابيل — كان يدور حول طبيعة الكتابة والكتَّاب. (إذ ظن جانيش سوبرامانيان لفترة أن ابنه سيحترف مهنة الكتابة.) ذكر كابيل أن من يرغب في الاشتغال بالكتابة يحاول أن يقول للعالم: «عقلي مثقل بالكلمات، ولا بد أن أفرغ ما فيه من كلمات، وإلا فسألقى حتفي.»

ومن المدهش أن هذا كاد يكون حال رانجيت في ذلك الوقت.

منذ أيام الآن ورانجيت يلتمس المساعدة، ويصيح في الممرات الخالية قائلًا — وإن لم يكن هناك من يسمعه — إن لديه شيئًا لا بد من تبليغه لإحدى المجلات في الحال. لكن أحدًا لم يجبه بشيء. حتى الرجل الأعرج المسن كان يكتفي آنذاك بوضع طعام رانجيت داخل الباب، ثم يعرج إلى الخارج بأسرع ما يمكن.

لذلك عندما سمع رانجيت خطى الرجل المسن تقترب عبر الممرات الخالية أبدى قليلًا من الاهتمام، عدا أنه سمع هذه المرة — إلى جانب خطوات ذلك الأعرج — وقع أقدام لشخص لا يعرج على الإطلاق. وبعد دقيقة فُتح باب زنزانة رانجيت. وأمام الباب وقف الرجل المسن لكنه كان متنحيًا خطوة أو خطوتين خلف رجل آخر؛ رجل علت تعبيرات الصدمة والفزع قسمات وجهه الذي تعرف عليه رانجيت جيدًا مثلما تعرف على صاحبه. قال جاميني باندارا في دهشة: «يا إلهي! رانجيت، أهذا أنت حقًّا؟»

من بين كل الأسئلة التي كان يمكن أن يطرحها رانجيت على هذا الزائر الذي لم يكن يتوقع حضوره، اختار رانجيت السؤال الأبسط. «ماذا تفعل هنا يا جاميني؟»

أجابه جاميني: «ماذا تظنني فاعل؟ سوف أُخرجك من هنا، وإذا ظننت أن الأمر يسير تكون أكثر جنونًا مما تبدو عليه. بعدها سنذهب إلى طبيب أسنان، ماذا حدث لسِنِّك الأمامية؟ أو لا، أظن أنك بحاجة إلى الذهاب إلى طبيب أولًا، ماذا هناك؟»

كان رانجيت واقفًا يرتجف من فرط الشعور بالإثارة والبهجة. ثم أردف قائلًا: «لا أحتاج إلى رؤية الطبيب! إذا كنت تستطيع إخراجي من هنا، فخذني إلى جهاز كمبيوتر!»

بدا جاميني متحيرًا. وقال: «كمبيوتر؟ هذا أمر بسيط، لكن علينا أن نطمئن أنك بخير أولًا ...»

صاح رانجيت: «تبًّا، يا جاميني! ألا تفهم ما أقول؟ أظن أنني وصلت إلى البرهان! أحتاج إلى جهاز كمبيوتر، أحتاج إليه الآن! ألديك فكرة كم أنا مرتاع أن أنسى شيئًا من البرهان قبل أن أستطيع الحكم على صحته؟»

التقى رانجيت بالطبيب. وحصل على الكمبيوتر في الوقت نفسه أيضًا، لكن بعد أن قاده جاميني إلى خارج المعتقل حيث كانت في انتظارهما طائرة هليكوبتر على استعداد للإقلاع. وأثناء صعود رانجيت الطائرة شاهد رجلين يقفان على مقربة أحدهما سكوينتي الذي بدا مذهولًا ومرتبكًا لكنه لم يلوح له بإيماءة الوداع. ثم اتجهت الطائرة نزولًا مدة عشرين دقيقة بين الجبال الشاهقة التي اكتست بطبقات الجليد. وفي الطائرة لم يتمالك رانجيت نفسه عن توجيه الأسئلة إلى جاميني، لكن هذه المرة لم تكن لدى جاميني رغبة في الحديث. فقال وهو يشير إلى طيار الهليكوبتر الذي يرتدي زيًّا رسميًّا لم يره رانجيت من قبل: «لاحقًا.»

هبطت الطائرة في مطار فعليٍّ، وعلى بعد أمتار قليلة رأى رانجيت طائرة من طراز بوينج-إيرباص ٢٢٠٠ — أسرع وأفخم طائرة صمَّمتها شركتا بوينج وإيرباص على الإطلاق — وعليها شعار الأمم المتحدة ذو اللون الأزرق الذي يتألف من الكرة الأرضية يحيط بها غصنا الزيتون. وكانت الطائرة من الداخل أكثر فخامة. فبها مقاعد جلدية ذات مسندين. وطاقمها يضم طيَّارًا (يرتدي الزي الرسمي لعقيد في القوات الجوية الأمريكية) ومضيفتين أنيقتين للغاية (ترتديان نفس الزي الرسمي لكنهما تحملان رتبة نقيب، وفوق الملابس الرسمية مآزر بيضاء ناعمة.) سأل الطيار جاميني: «هل ستتوجه إلى المنزل يا سيدي؟» فأومأ له جاميني بالإيجاب، وفي الحال اختفى الطيار داخل قمرة القيادة. قادت إحدى المضيفتين رانجيت إلى مقعد (اكتشف أنه كرسي دوار)، وربطت له حزام الأمان. أخبر جاميني رانجيت والمضيفة تربط له حزام الأمان هو الآخر: «إنها جيني، تعمل طبيبة، ومن الأفضل أن تسمح لها بفحصك ...»

بدأ رانجيت احتجاجه: «الكمبيوتر ...»

رد جاميني قائلًا: «سوف تحصل على الكمبيوتر اللعين يا رانجيت، لكن علينا أن نحلق أولًا. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة.»

في ذلك الوقت عادت المرأتان إلى مقاعدهما القابلة للطي والمستندة إلى أحد الحواجز في الطائرة، وبدأت الطائرة تتحرك. وحالما انطفأت شارة ربط الأحزمة، أخرجت المضيفة الثانية جهاز كمبيوتر محمول من الطاولة المجاورة لمقعد رانجيت وهي تقول: «أنا إيمي. مرحبًا بك!» في حين كانت المضيفة التي تُدعى جيني تقترب ومعها السماعة وجهاز ضغط الدم والعديد من الأدوات الأخرى الجاهزة للاستخدام.

لم يعترض رانجيت. وإنما سمح للطبيبة بفحصه قدر ما أرادت بينما كتب هو ببطء وعلى نحو يعوزه الإتقان مخطوطة تتألف من نحو ست صفحات، وكان يتوقف بين كل

بضعة أسطر ليسأل جاميني هل يمكنه البحث عن عنوان مجلة اسمها «نيتشر». «مقرهم في مكان ما في إنجلترا.» أو كان يتوقف مكفهرَّ الوجه أمام لوحة المفاتيح حتى تسعفه ذاكرته بالسطر التالي. استغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكن عندما جازف جاميني بسؤاله هل يرغب في أي شيء يأكله، طلب منه رانجيت على نحو حاد وقاطع أن يصمت. وقال: «أمهلني عشر دقائق فحسب. أو ربما نصف ساعة على أقصى تقدير. فلا يمكنني التوقف الآن.»

بالطبع لم يستغرق الأمر عشر دقائق. ولا نصف ساعة حتى. فقد مرت أكثر من ساعة قبل أن يرفع نظره، ويتنهد قائلًا لجاميني: «أود التحقق من كل شيء؛ لذا سأحتاج إلى إرسال نسخة إلى منزلك. أخبرني بعنوان بريدك الإلكتروني.»

وعندما كتب العنوان، ضغط أخيرًا على زر الإرسال، ثم استرخى في مقعده.

قال رانجيت: «أشكرك. وأعتذر لأني كنت مزعجًا إلى هذا الحد، لكن الأمر كان في غاية الأهمية لي. فمنذ أن توصلت إلى هذا البرهان — منذ خمسة أو ستة أشهر — وأنا أخشى أشد الخوف أن أنسى جزءًا منه قبل البت في صحته.» توقف رانجيت فجأة وهو يلعق شفتيه. وأردف: «وهناك أمر آخر. فمنذ وقت طويل وأنا أفكر في طعام حقيقي. هل لديك عصير فاكهة طازج من أي نوع على هذه الطائرة؟ أو ربما شطيرة من اللحم، أو بيضتان مخفوقتان؟»

الفصل السادس عشر

العودة إلى الوطن

رفض جاميني الاستماع إلى أي حديث عن وجبات الفطور الأمريكية، وأشار ببساطة إلى مضيفتي الطائرة. فأعدتا وجبة سريلانكية فاخرة تكونت من الأرز وطبق من اللحم والبطاطس غني بالكاري وطبق من الخبز الهندي المحمص؛ وهو ما جعل رانجيت يحدق فيها بذهول. وتساءل وهو يمضغ الطعام: «أخبرني، يا جاميني، من أين لك هذا؟ أليست هذه طائرة أمريكية؟»

هز جاميني — الذي كان يرشف كوبًا من الشاي القادم من الحقول المحيطة بكاندي — رأسه. وقال: «إنها طائرة تابعة للأمم المتحدة صادف أن على متنها طاقمًا أمريكيًّا، لكنها ليست في مهمة تابعة للأمم المتحدة أو أمريكا الآن. كل ما هنالك أننا استعرناها للبحث عنك.»

سأله رانجيت: «ومن أنتم؟»

هز جاميني رأسه مرة أخرى باسمًا. وقال: «لا يمكنني إخبارك، أو ليس الآن على أي حال. يا للأسف. كنت أدرك أن هذا الأمر سيثير اهتمامك، وفي الواقع فكرت في أن أسألك عما إذا كنت ترغب في الانضمام إلينا عندما بدأت رحلتك البحرية القصيرة.»

لم يضع رانجيت ملعقته، وإنما أمسكها بلا حراك وهو ينظر إلى صديقه طويلًا وقد علا وجهه الفتور. وسأله: «هل تقول إنك ذلك الشخص المهم الذي يمكنه استعارة طائرة كهذه لأداء مهامه الخاصة؟»

حينئذٍ ضحك جاميني بصوت مرتفع. وقال: «أنا؟ كلَّا. إنهم لا يفعلون ذلك من أجلي أنا. وإنما لأن أبي طلب منهم ذلك. إذ يحظى بتلك الوظيفة المرموقة.»

«وما طبيعة تلك الوظيفة؟»

«لا يمكنني إخبارك بهذا أيضًا، فلا تسألني عنه. ولا تسأل أيضًا عن البلد الذي خرجت منه لتوِّك. لم يكن العثور عليك صعبًا؛ فبعد أن أمسكنا بتيفاني كاناكاراتنام …» انتبه جاميني إلى رد فعل رانجيت عندما سمع اسم الطفلة فقال: «حسنًا، يمكنني أن أخبرك بهذا الأمر، إلى حد معين على الأقل. استعنت بموقع والدي في بحثي الخاص عنك عن طريق الكمبيوتر. مثلما فعلت أنت عند حصولك على كلمة المرور الخاصة بأستاذ الرياضيات؛ أدخلت أسماء جميع الأشخاص الذين أعتقد أنهم قد يعرفون مكانك مثل مايرا دو سويزا وماجي وبرو وجميع أسماء مدرسيك وكل الرهبان الذين عملوا مع والدك وأفراد أسرة كاناكاراتنام.» أضاف جاميني ردًّا على النظرة التي علت وجه رانجيت: «كلَّا، لم نجد شيئًا يسبب لك شعورًا بالحرج. فقد كنا نبحث عن اجتماعات أو نقاشات اشتركت فيها بعد اليوم الذي اختفيت فيه. لكننا لم نحصل على شيء. لم نحصل على أي معلومات حول كاناكاراتنام وزوجته على الإطلاق، وأعتقد أن هذا يعني أنهما أُعدما على الفور مع باقي القراصنة بعد أول محاكمة لهما. لكنني واصلت إضافة الأسماء، وعندما أدخلت أسماء الأطفال الأربعة عرفنا مكانهم. فقد أُلقي القبض عليهم، لكن سنهم الصغيرة حالت دون محاكمتهم بتهمة القرصنة، فأُخِذُوا إلى بعض أقاربهم بالقرب من كيلونوتشي، وهناك زودتنا تيفاني بوصف للرجال الذين أخذوك. ووصفت لنا طائرات الهليكوبتر والمكان الذي اغتسلتَ فيه على الشاطئ؛ وقد استغرق الأمر بحثًا طويلًا بعد ذلك، لكني حددت مكانك في النهاية. وكان يمكن أن تظل هناك سنوات أخرى.»

«ومن هؤلاء الأشخاص الذين ألقوا القبض عليَّ؟»

قال جاميني: «رانجيت! ها أنت تعاود طرح الأسئلة مجددًا. لا يمكنني أن أخبرك عن هذا سوى باستخدام مصطلحات عامة وبلا تحديد. هل سمعت من قبل عن التسليم الاستثنائي؟ أو ما توصل إليه لوردات القانون بشأن التعذيب؟»

لم يكن رانجيت قد سمع أشياء كهذه من قبل، لكن جاميني زود صديقه بالمعلومات بعد أن استيقظ من نوم عميق استمر ساعات. في الأيام الخوالي الغابرة كانت بعض القوى العظمى — مثل الولايات المتحدة — قد أعلنت رسميًّا معارضتها لاستخدام التعذيب في انتزاع المعلومات. لكنها واصلت إلقاء القبض على معتقلين لديهم معلومات مهمة بلا شك، غير أنهم ما كانوا ليبوحوا بتلك المعلومات طواعيةً أبدًا. لم يكن التعذيب وسيلة يمكن الاعتماد عليها؛ لأنه في مرحلة معينة يكاد جميع المعتقلين يقرون بالمعلومات التي

يرغب من يقومون باستجوابهم في سماعها — سواء أكانت صحيحة أم غير ذلك — حتى يضعوا حدًّا لهذا التعذيب، ولم يكن لدى تلك القوى العظمى بديل أفضل. لذلك فكروا في خطة بسيطة. وهي تسليم هؤلاء المعتقَلين إلى جهاز مخابرات تابع لدولة أخرى لم تتعهد بتجنب استخدام التعذيب كوسيلة في التحقيق لتعيد ما تحصل عليه بعدئذٍ من معلومات إلى الولايات المتحدة أو أي دولة عظمى طلبت منها ذلك. وأنهى جاميني حديثه قائلًا: «وذلك هو التسليم الاستثنائي. وسمي «استثنائي» لأن هذه طبيعته. وهو «تسليم» بمعنى إعادة، أي أنهم يُعيدون ما لقيصر لقيصر مثلما يقول المسيحيون.»

قال رانجيت وهو يفكر في الأمر: «هكذا إذن. وهل ما زال هذا الأمر يحدث الآن؟»

«حسنًا، نوعًا ما. فالقوى العظمى توقفت عن اتباع هذا الأسلوب. إذ انكشف أمره علانية. وعلى أي حال فهذه الدول ليست في حاجة إلى اتباع هذا الأسلوب، فهناك دول كثيرة غير ملتزمة بحظر استخدام التعذيب تختار الأشخاص ذوي السجلات الجنائية التي يشوبها الغموض وتحقق معهم. ومن بين هؤلاء القراصنة مثلًا — الذين هم فئة منبوذة على أي حال — وخاصةً هؤلاء الذين يبدو أنهم يخفون هوياتهم. كما هي حالتك — مثلما تصوروا — بسبب موضوع الاسم هذا. وبعدها يبادلون ما يحصلون عليه من معلومات مع الدول التي تتظاهر بأنها ضد استخدام التعذيب؛ ذلك أن قرار لوردات القانون صدر في هذه الدول. بحث مجلس اللوردات موقف المعلومات التي جرى التوصل إليها عن طريق استخدام التعذيب منذ زمن بعيد، وخلَصوا إلى أنه — لأسباب أخلاقية — لا يمكن الاعتماد على تلك المعلومات أبدًا في الإجراءات القضائية. وعلى النقيض ذكروا أنه ربما يكون من اللائق تمامًا نقل هذه المعلومات إلى الشرطة.» نظر جاميني إلى حيث كانت المضيفتان تدنوان منهما. وقال: «ينبغي علينا ربط أحزمة الأمان الآن؛ أظن أننا نقترب من باندارانايكي. اسمعني فحسب. لن تصدق ما عقدناه من اتفاقات، وما قطعناه من وعود لنطلق سراحك من المكان الذي كنت فيه. لذلك ساعدني على حفظ هذه الوعود. ومهما يكن من أمر لا تخبر أحدًا بأي شيء من شأنه أن يفصح عن هوية أيٍّ من الأشخاص الذين اعتقلوك. وإلا ستوقعني أنا وأبي في مشكلات جسيمة.»

قال رانجيت وهو يعني ما يقول حقًّا: «أعدك بذلك.» ثم أضاف على نحو استفزازي: «قلت إنك تفقدت أمر الفتاتين. كيف حال الجميلة ماجي؟»

نظر إليه جاميني في أسًى. وقال: «الجميلة ماجي بخير. لقد تزوجَت من سيناتور أمريكي منذ بضعة أشهر. والواقع أنها أرسلت إليَّ دعوة للحفل. فذهبتُ إلى محلات هارودز، وابتعت ملعقة أنيقة لتقليب السمك كي أرسلها إليها، لكنني لم أذهب.»

الفصل السابع عشر

الجنة

عند اقتراب الطائرة بوينج-إيرباص ٢٢٠٠ بسرعة من إحدى بوابات المطار، أصدرت الطبيبة جيني حكمها: ما يحتاج إليه رانجيت حقًّا هو الراحة والرعاية التامة وما يكفي من الطعام لاسترجاع الثمانية أو العشرة كيلوجرامات التي فقدها من جسمه بسبب نظامه الغذائي أثناء فترة التسليم الاستثنائي، وأضافت أن قضاء اليومين المقبلين داخل إحدى المستشفيات لن يضره في شيء أيضًا. غير أن المجموعة التي كانت في انتظاره عند البوابة رفضت ذلك. ولم تكن هذه المجموعة تضم سوى شخص واحد هو السيدة بيتريكس فورهولست، وكانت في مزاج لا يسمح بمعارضتها. أوضحت السيدة فورهولست أن المكان الذي سيسترد فيه رانجيت عافيته لن يكون معملًا لا مكان فيه للمشاعر الإنسانية يوفر قدرًا كبيرًا من الرعاية الطبية لكن مع أقل القليل من الحب. كلا، لن يكون كذلك. كان المكان المناسب لرانجيت كي يسترد قوته هو منزل مريح يوفر له العناية. مكان كمنزلها على سبيل المثال.

وهكذا تم الأمر. كانت السيدة فورهولست محقة قطعًا في وعدها بالرعاية الفائقة؛ إذ إنه في اللحظة التي وصل فيها رانجيت كان كل ما في هذا المنزل الأنيق في خدمته. فالغرفة التي أقام فيها رانجيت بلغت في اتساعها واعتدال جوها أقصى ما بلغه خياله في أشد لياليه في السجن سخونة وتصببًا للعرق. إضافة إلى أنه كان يتناول ثلاث وجبات رائعة في اليوم؛ كلَّا، كان يتناول أكثر من ذلك؛ لأنه في كل مرة يغمض عينيه فيها مدة دقيقة يستيقظ ليجد بجوار فراشه ثمرة تفاح أو موز أو أناناس مثلجة. والأفضل من ذلك أنه فاز على المدى الطويل في جداله مع الأطباء الذين طلب منهم جاميني إعادة فحصه. كان عليه أول الأمر أن يقنعهم بأنه طوال فترة اعتقاله كان يتحرك بحرية دون أن يتعرض للأذى، أو على الأقل في جميع الأيام التي لم يكن يُوسَع فيها ضربًا إلى الحد الذي يكون معه المشي

مؤلمًا. لكنه الآن يتمتع بحرية الحركة في هذا المنزل الواسع وحدائقه الأكثر اتساعًا. كان المنزل يضم مسبحًا، ويا لها من متعة أن يسبح على ظهره في تلك المياه الفاترة بينما تمنحه الشمس الدافئة دفئها من السماء وأشجار النخيل تتمايل فوق رأسه. وفوق كل هذا صار بإمكان رانجيت الاطلاع على الأخبار.

لكن لم يكن هذا أمرًا جيدًا تمامًا. فالفترة التي قضاها رانجيت دون وصول إلى الصحف أو التليفزيون لم تُعدَّه لتفاصيل كل ما كان يدور من أحداث على كوكب الأرض مثل جرائم القتل وأحداث الشغب وتفجير السيارات والحروب.

غير أن هذه الأحداث لم تكن أسوأ الأخبار السيئة. بل جاء أسوءها، عندما مر جاميني لزيارة رانجيت سريعًا قبل مغادرة سريلانكا لأمر عاجل (لم يفصح عنه بالطبع). توقف جاميني عند الباب وهو يستعد للرحيل. وقال: «ثمة شيء لم أخبرك به يا رانجيت. وهو يتعلق بوالدك.»

قال رانجيت آسفًا: «صحيح. ينبغي لي الاتصال به في الحال.»

لكن جاميني هز رأسه. وقال: «أتمنى لو كنت تستطيع ذلك. فما حدث أن والدك أصيب بسكتة دماغية. وتوفي على إثرها.»

كان هناك شخص واحد في العالم يود رانجيت التحدث إليه هذه اللحظة، وقبل أن يغادر جاميني منزل فورهولست كان رانجيت يتحدث مع هذا الشخص على الهاتف. إنه الراهب المسن سوراش الذي ابتهجت نفسه عند سماع صوت رانجيت. لا شك أن هذه البهجة تضاءلت عندما تحدث عن موت جانيش سوبرامانيان، لكن الغريب في الأمر أنه لم يبدُ عليه الحزن الشديد أيضًا. قال سوراش: «أجل، يا رانجيت، بذل والدك قصارى جهده في البحث عنك، وأظن أن قواه قد خارت. وعلى كل حال فقد عاد من زيارة قسم الشرطة في إحدى المرات يشكو من شعوره بالتعب، وفي صباح اليوم التالي وجدناه ميتًا على فراشه. وكما تعرف فإنه كان يعاني من مشكلات صحية منذ فترة.»

قال رانجيت في أسف: «الواقع أنني لم أكن أعرف. فهو لم يخبرني بهذا قط.»

– «لم يكن يريد أن يشغل بالك، ولا ينبغي أن تقلق يا رانجيت. فسوف تلقى روحه إكرامًا، فضلًا عن أن جنازته شُيِّعت في موكب مهيب. منذ أن اختفيت وأنا أحرص على تلاوة الصلاة عليه، وأتأكد من وجود الزهور وكرات الأرز في تابوته، وعندما حُرقت جثته حملت الرماد بنفسي إلى البحر. والموت ليس النهاية كما تعلم.»

قال رانجيت تطييبًا لخاطر الراهب أكثر من كونها تطييبًا لخاطره: «أعرف ذلك.»

– «ربما لن يحتاج حتى إلى البعث مرة أخرى. وإذا حدث ذلك، فأنا واثق أنه سيُبْعَث في صورة شخص أو مخلوق شبيه بك. تعالَ لزيارتنا عندما تستطيع السفر يا رانجيت. هل لديك محامٍ؟ فثمة بعض الأملاك لوالدك وستنتقل إليك قطعًا. لكن لا بد من توثيق بعض المستندات.»

شعر رانجيت بالانزعاج. لأنه لا يتعامل مع محامٍ. لكن عندما ذكر الأمر أمام السيدة فورهولست قالت إنه لا توجد مشكلة، ومنذ ذلك الحين صار لدى رانجيت محامٍ يدير له شئونه. ولم يكن هذا المحامي محاميًا عاديًّا، إنما هو شريك في الشركة التي يمتلكها والد جاميني ويدعى نايجل دو سارام. ما كان يقلق رانجيت كثيرًا هو الشعور بالذنب الشديد. فهو لم يعرف بوفاة والده، والسبب أنه لم يكترث للسؤال عنه.

أوه، قطعًا، لقد كان مشغولًا بهموم أخرى لا حصر لها، حسبما حدث نفسه.

لكن إن كان العكس قد حدث، فهل كان والده سينساه؟

إذا لم نضع الخدم في الاعتبار، فإن السيدة فورهولست كانت الزائر الوحيد لرانجيت في الأيام القليلة الأولى، لكنه ذكر بعدها أن أي إجهاد سيسببه له أي زائر لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يضاهي الإجهاد الذي كان يشعر به عندما كان السجانون الأقوياء يضربونه بالهراوات (واضطر الأطباء لموافقته). وبالفعل قُلِّلَت الحواجز المفروضة على رانجيت. ففي الصباح التالي — بينما كان رانجيت يتدرب على بعض الآلات الرياضية الخاصة بآل فورهولست — دخل كبير الخدم صالة التمارين وتنحنح قائلًا: «لديك زائر يا سيدي.»

كان رانجيت شارد الذهن. وسأل كبير الخدم: «هل وردت إليَّ أي رسائل؟»

تنهد كبير الخدم. وقال: «كلا، يا سيدي. إذا جاءتك أي رسائل فستصلك في الحال كما طلبت. يرغب الدكتور دو سارام في رؤيتك. فهل أسمح له بالدخول؟»

وبسرعة ارتدى رانجيت واحدًا من الأرواب الكثيرة الموجودة في منزل فورهولست. ودخل المحامي دو سارام على الفور. لم يبدُ لرانجيت أن الرجل صغير السن — ربما كان يبلغ من العمر خمسين أو ستين عامًا وربما أكثر — وكان واضحًا أنه ماهر فيما يقوم به. لم يكن في حاجة إلى أن يخبره أحد بتركة والد رانجيت. وعلى الرغم من أنه طُلِبَ منه متابعة شئون رانجيت منذ ثمانٍ وأربعين ساعة فقط، فإنه قد أثبت وجود

رانجيت لدى المحكمة المختصة في ترينكومالي، وأصبح على علم تام بقيمة التركة. فقال لرانجيت: «لا تقدر التركة بعشرين مليون روبية تمامًا يا سيد سوبرامانيان، لكنها ليست أقل من ذلك بكثير أيضًا؛ أو ربما تقدر — وفق سعر الصرف الحالي — بعشرة آلاف دولار أمريكي. ويتمثل معظم التركة في عقارين؛ منزل والدك ومنزل أصغر، لكنه شاغر في الوقت الحاضر.»

قال رانجيت: «أعرف ذلك المنزل. أهناك شيء يتعين عليَّ فعله؟»

أجابه دو سارام: «ليس الآن، وإن كان هناك أمر قد ترغب في التفكير فيه. كان الدكتور باندارا يتمنى القيام بذلك نيابة عنك، لكنه مشغول في بعض الشئون شديدة السرية مع الأمم المتحدة.»

قال رانجيت: «أعلم ذلك، لكني لا أعرف الكثير.»

– «بالطبع. الأمر هو أنه يمكنك المطالبة بتعويض ضد هؤلاء الذين حالوا دون عودتك إلى موطنك هذه الفترة الطويلة، لكن ...»

قال رانجيت: «أعرف. ليس من المفترض أن نتحدث عن هؤلاء الأشخاص.»

قال دو سارام وقد بدا عليه الارتياح: «بالضبط. وإن كان هناك طريق آخر يمكن أن نسلكه. يمكنك اتخاذ إجراء ضد شركة خطوط الرحلات البحرية؛ لأنهم سمحوا باستيلاء القراصنة على السفينة التابعة لهم. وبالطبع لن يكون مبلغ التعويض هذا كبيرًا كالمبلغ الآخر إذ يصعب تحديد مسئوليتهم إلى حد ما، فضلًا عن أنهم لا يتمتعون بسيولة مالية كافية ...»

قال رانجيت: «كلَّا، تمهل قليلًا. لقد سُرقت سفينتهم — التي كنت على متنها بسبب غبائي — والآن أقاضيهم لأنهم سمحوا بحدوث شيء كهذا؟ لا يبدو ذلك عدلًا.»

للمرة الأولى ابتسم دو سارام لرانجيت ابتسامة ملؤها المودة. وقال: «توقع الدكتور باندارا أنك ستقول هذا. أظن الآن أن سيارتي جاهزة ...»

وعندها تحديدًا سُمِع صوت طرق على الباب. وكان الطارق كبير الخدم فاس الذي أعلن أن السيارة جاهزة. وقبل أن يقول رانجيت شيئًا، قال له كبير الخدم: «لم ترد إليك أي رسائل يا سيدي.» ثم أضاف: «وإذا سمحت لي — لم أرغب في إزعاجك من قبل — جميعنا يأسف بشدة على وفاة والدك.»

لم يكن ما قاله كبير الخدم سببًا في أن يتذكر رانجيت موت والده. إنه لا يحتاج إلى تذكير. فالشعور بالافتقاد بات جزءًا منه نهارًا أو ليلًا، وهو جرح لم يلتئم.

أسوأ ما في الموت أنه يضع نهاية للتواصل على نحو لا رجعة فيه. ولدى رانجيت قائمة طويلة بأشياء كان من المفترض أن يخبر بها والده، لكنه لم يفعل. الآن وقد ضاعت الفرصة، فإن قلب رانجيت يمتلئ بكل تعبيرات الحب والاحترام التي لم يقلها لوالده.

وبطبيعة الحال لم يكن في الأخبار ما يسرِّي عن رانجيت. فقد اندلعت الحرب بين الإكوادور وكولومبيا، وظهرت خلافات جديدة حول تقسيم مياه النيل، وتقدمت كوريا الشمالية بشكوى لمجلس الأمن متهمة الصين بتحويل مسار السُّحُب الممطرة من حقول الأرز الكورية إلى حقولها.

لم يتغير شيء. كل ما في الأمر أن تعداد سكان العالم قد نقص واحدًا وبلا رجعة.

لكن كان هناك أمر واحد يستطيع رانجيت فعله، أو كان ينبغي عليه القيام به منذ فترة، في اليوم السادس من نزوله ضيفًا على آل فورهولست طلب الحصول على نسخة من تلك الرسالة غير المنظمة التي أرسلها على عجل من الطائرة، وحصل عليها. فدرسها بعين ناقدة متفحصة مدققة مثلما يراجع مدرس مادة الإنشاء ورقة الامتحان النهائي للطلاب المستجدين. سوف يكتشف نوعية الأخطاء التي قد تجرد برهانه من الأهلية. صُعِقَ رانجيت عندما اكتشف وجود بعض الأخطاء؛ اثنان منها عندما وقعت عيناه على البحث أول مرة، تلاها أربعة أخطاء، ثم فقرة أو فقرتان لم تكونا خطأً تمامًا، ولكن يبدو أنهما تفتقران إلى درجة الوضوح المطلوبة.

كانت لرانجيت أعذاره. فكل هذه الأخطاء حدثت بسبب الأسابيع السبعة أو الثمانية الأخيرة عندما تمكَّن أخيرًا من استكمال البرهان في عقله — وهو كل ما كان في استطاعته؛ إذ كان يفتقر إلى الأوراق أو القلم أو الكمبيوتر — وظل يردده على مسامعه خطوة خطوة وقد تملَّكه الرعب أن ينسى بعض الخطوات المهمة.

السؤال الآن هو: ما الذي ينبغي فعله الآن بشأن تلك الأجزاء المغلوطة؟

شغل هذا السؤال بال رانجيت نهار يوم كاملًا وجزءًا طويلًا من الليل. أينبغي عليه إرسال قائمة بالتصحيحات إلى المجلة؟ يبدو أن هذا هو التصرف المنطقي ... لكن اعتداد رانجيت بنفسه حال دون ذلك، لأن «الأخطاء» بسيطة إلى حد ما، ويمكن لأي عالم رياضيات جدير بالاحترام أن يرصدها في الحال، وأن يعرف بسرعة كيف يصححها. ورانجيت لا يحب أن يظهر في موقف استجداء.

لم يرسل رانجيت رسالة أخرى لمجلة «نيتشر»، لكن أثناء محاولته الخلود إلى النوم معظم الليالي التالية كان يعاود التفكير من جديد أكان يتعين عليه إرسال التصحيحات أم لا.

تمنى رانجيت لو أنه يعرف ما تفعله مجلة مثل «نيتشر» بما يرد إليها من وثائق كالتي أرسلها رانجيت لهم. لكنه كان واثقًا أنهم إذا فكروا في نشرها، فستكون الخطوة الأولى إرسال نسخ منها إلى ثلاثة أو أربعة — أو أكثر — من الخبراء في المجال وثيق الصلة بالوثيقة للتأكد أنها تخلو من أي أخطاء فادحة.

كم سيستغرق هذا الأمر من وقت؟

لم يكن رانجيت يعرف ذلك. لكن ما يعرفه الآن أنه استغرق بالفعل وقتًا أطول مما كان يريد.

ولذا فإنه في كل مرة كان كبير الخدم يطرق الباب ليخبر رانجيت بقدوم زائر كانت آماله تبلغ عنان السماء؛ وعندما يعلن كبير الخدم السبب التافه وراء قدوم هذا الزائر، تتحطم تلك الآمال من جديد.

الفصل الثامن عشر

الصُّحْبة

في اليوم السابع من إقامة رانجيت في منزل آل فورهولست أعلن كبير الخدم قدوم زائر جديد هي مايرا دو سويزا. سألته في الحال: «هل أتطفل عليك يا رانجيت؟ الخالة بيتريكس قالت إن بوسعي الاطمئنان عليك ما دمت لا أمنعك من الراحة.»

كان رانجيت يستريح فعلًا، ولا شك أن مايرا دو سويزا تحول دون راحته. ولم يشأ أن يصرح بذلك، وبذل ما في وسعه ليتجاذب أطراف الحديث معها. فسألها: «ما الذي تفعلينه الآن؟ أعني هل ما زلت تدرسين في الجامعة؟»

لم تكن مايرا في الجامعة. لم تذهب إليها منذ صف علم الاجتماع الذي حضراه معًا؛ فهي عائدة لتوها من إحدى دراسات ما بعد الدكتوراه (ما بعد الدكتوراه؟! لم يكن لدى رانجيت أي فكرة عما وصلت إليه مايرا في السلم الأكاديمي) في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في أمريكا، وكالمتوقع سألها: «ماذا تدرسين؟»

أجابت: «حسنًا ... الذكاء الاصطناعي، تقريبًا.»

رأى رانجيت أن يتجاهل كلمة «تقريبًا» المبهمة. فسألها: «وإلى أي مدى وصل الذكاء الاصطناعي؟»

وأخيرًا ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة. وقالت: «إن كنت تقصد إلى أي مدى اقتربنا من الحصول على جهاز كمبيوتر يجري معنا حوارًا عقلانيًّا، فنحن بعيدون كثيرًا. إذا عدت إلى أنواع مشروعات الذكاء الاصطناعي التي حاول من بدءوا العمل في هذا الميدان حلها، فستجد أن الوضع ليس سيئًا تمامًا. هل سمعت من قبل عن رجل يدعى مارفين مينيسكي؟»

فكر رانجيت في السؤال، لكنه لم يجد إجابة له. فأجابها قائلًا: «لا أظن ذلك.»

– «يا للأسف. لقد كان واحدًا من أفضل العقول التي حاولت تعريف التفكير وإيجاد سبل عن طريقها يؤدي الكمبيوتر بعض المهام التي يمكن أن نطلق عليها تفكيرًا. وقد اعتاد أن يذكر قصة أجدها مسلية في بعض الأحيان.» توقفت مايرا كأنها ليست واثقة من اهتمام رانجيت بالقصة. وحين أبدى رانجيت — الذي من شأنه أن يستمتع بالاستماع إليها حتى وإن كانت تعلن عن تأخر مواعيد القطار أو أسعار الأسهم في البورصة — اهتمامه واصلت حديثها. قالت: «حسنًا، في بداية الدراسات الخاصة بالذكاء الاصطناعي اعتَبر مينيسكي — وجميع الروَّاد الآخرين — تمييز الأنماط واحدًا من السمات المميزة للذكاء الاصطناعي. وبعدها صار تمييز الأنماط من الأمور التي تحدث كل يوم. فأجهزة قراءة الباركود في جميع المتاجر الكبرى في العالم تقرأ أسعار أي سلعة من الكود الشريطي الخاص بها. ما الذي حدث إذن؟ لقد أُعِيد تعريف الذكاء الاصطناعي. واسْتُبْعد تمييز الأنماط لأنهم وجدوا حلًّا له، حتى وإن ظلت أجهزة الكمبيوتر غير قادرة على تأليف مزحة أو استنتاج أنك مخمور من مظهرك.»

قال رانجيت: «أيمكنكم إذن في الوقت الحاضر تصنيع كمبيوتر قادر على تأليف مزحة؟»

اعتدلت مايرا في جلستها. وقالت في كآبة: «كم كنت أتمنى ذلك.» ثم تنهدت. وأردفت: «الواقع أن اهتمامي الرئيسي لم يعد ينصبُّ على هذا الأمر. وإنما على التطبيقات. أو الأعضاء الصناعية الذاتية تحديدًا.» تغيرت تعبيرات وجه مايرا وأيضًا موضوع حديثها. وسألت رانجيت فجأة: «رانجيت، لماذا تغطي فمك بيدك طوال الوقت هكذا؟»

كان السؤال شخصيًّا أكثر مما توقع رانجيت منها. لكنه كان مدركًا تمامًا للصورة التي يغطي بها فمه بيده. وواصلت مايرا: «أهو سنُّك المكسور الذي يزعجك؟»

اعترف رانجيت قائلًا: «أعرف كيف أبدو.»

– «حسنًا، وأنا أيضًا يا رانجيت أعرف. أنت تبدو كرجل صادق مهذب وفائق الذكاء لم يذهب لترميم سنه لدى طبيب الأسنان.» ثم هزت رأسها. وقالت: «إنه أبسط شيء في العالم يا رانجيت، ولن تبدو أفضل في الشكل فحسب، وإنما ستمضغ الطعام بصورة أفضل.» ثم وقفت. وقالت: «وعدتُ الخالة بيتريكس ألا أجلس أكثر من عشر دقائق، وقالت إنه يمكنني أن أسألك هل ترغب في السباحة في المحيط على سبيل التغيير. عند شاطئ نيلاويلي. أتعرف مكانه؟ لدينا منزل صغير هناك إذا أردت ...»

أبدى رانجيت اهتمامه. فاستطردت مايرا: «سوف نرتب لهذا الأمر»، ثم فاجأته بعناقها له. وأردفت تقول: «لقد افتقدناك.» ثم تراجعت إلى الخلف ونظرت إليه. وقالت: «ذكر جاميني أنك سألته عن فتاته التي كان يعرفها في الماضي. ألديك سؤال كهذا لي؟»

أجابها: «أها. حسنًا، أجل، أظنك تقصدين ذلك الشاب الكندي.»

ابتسمت مايرا. وقالت: «أجل، أظن أني أقصد ذلك. آخر ما سمعته عنه أنه كان في جزيرة بورا بورا حيث كانوا يبنون فندقًا كبيرًا. لكن مضى وقت طويل على هذا. ولم يعد بيننا اتصال.»

لم يكن رانجيت يدرك أن جاميني ومايرا يعرف أحدهما الآخر ولا أنهما يتبادلان الأحاديث بلا تكلف. ولم يكن ذلك كل ما يجهله. فقد كان عدد زائريه آخذًا في الزيادة، وذلك مع قدوم محامي مكتب الدكتور باندارا ومعه المزيد من المستندات للتوقيع عليها وهو يقول له بلهجة اعتذارية: «لا تظن أن أملاك والدك معقدة تمامًا. فكل ما في الأمر أنك اعتُبِرت مفقودًا، وفسر أحد الأشخاص ذلك على أنك ميت. لذا سنحتاج إلى إيضاح الحقيقة.»

كان هناك أيضًا رجال الشرطة. لم يرفع أحد دعوى قضائية ضد رانجيت نفسه. وهو ما تأكد منه دو سارام قبل أن يسمح بأي تحقيق معه. لكن كانت لديهم أمور عالقة يحتاجون إلى البت فيها بشأن قضية القرصنة، ورانجيت هو الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتهم في ذلك.

بعدها فكر رانجيت في مسألة «الأعضاء الصناعية الذاتية» التي تحدثت عنها مايرا دو سويزا، أيًّا كانت على وجه التحديد. ولم تفده كثيرًا محاولة البحث عن معلومات في هذا الشأن. لكن ما علاقة الذكاء الاصطناعي بالأطراف الصناعية أو سماعات الأذن؟

ساعدت بيتريكس فورهولست رانجيت في ذلك. قالت له: «إنهم لا يتحدثون عن سيقان خشبية أنيقة الشكل يا رانجيت. فالأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. تقوم الفكرة على تصنيع عدد كبير من الروبوتات المتناهية الصغر، يُجرى حقنها داخل مجرى الدم وتُبرمَج على كشف الخلايا السرطانية على سبيل المثال وتدميرها.»

«حسنًا»، قالها رانجيت وهو يتأمل الفكرة، ويُعْجَب بها. إنه المشروع المناسب تمامًا للاستحواذ على اهتمام مايرا دو سويزا. وأردف متسائلًا: «وهل يصنعون تلك الروبوتات المتناهية الصغر الآن؟»

ابتسمت السيدة فورهولست ابتسامة حزينة. وقالت: «لو تمكنوا من تصنيعها قبل سنوات، لما كنت أرملة اليوم. لا يزال الأمر برمته أملًا ليس إلا. إذ لا يتوفر التمويل اللازم

للأبحاث حتى إن مايرا انتظرت تمويل مشروعها طويلًا، وهو ما لم يحدث. هناك أموال طائلة تُنفَق على الأبحاث ما دامت تتعلق بتطوير الأسلحة.»

عندما استطاع رانجيت أخيرًا قبول دعوة مايرا دو سويزا، وفرت له بيتريكس فورهولست سيارة وسائقًا. وعندما قطعا مسافة على طول الطريق المؤدي إلى الشاطئ، بدأ رانجيت يتذكر المعالم الرئيسية. كان هو وجاميني قد زارا هذا الشاطئ أثناء استكشافهما لهذا المكان. لم يتغير المكان كثيرًا. فعلى الشواطئ يوجد عدد كبير من الفتيات الحسناوات اللاتي يرتدين ملابس البحر الكاشفة.

لم يكن رانجيت يعرف شكل منزل دو سويزا إلى أن أشار إليه السائق؛ منزل ذو سقف مائل مغطى بالآجرِّ، وشرفة محاطة بالستائر حول الباب، وأزهار يانعة مزروعة على نحو جذاب. تأكد رانجيت أنه في المكان الصحيح عندما فُتِح الباب، وخرجت مايرا دو سويزا مرتدية ثوبًا خفيفًا فوق ثوب سباحة أنيق كاشف كأي ثوب على الشاطئ.

ثم تسلل الشك إلى نفس رانجيت عندما شاهد فتاة في الخامسة أو السادسة من عمرها واقفة خلف مايرا مباشرة. وأحس رانجيت بأن تحولًا سريعًا ومخيفًا قد حدث.

فتاة في السادسة من عمرها؟

أهي ابنة مايرا؟

هل طال غيابه إلى هذا الحد؟

كلا، ليس كل هذا الوقت. كانت آدا لابروي ابنة أخت مايرا التي تمر بتجربة حمل آخر غير مستقر، ولهذا السبب لم تمانع في تلبية رغبة ابنتها في قضاء أطول وقت ممكن مع خالتها الحبيبة. كانت مايرا نفسها سعيدة بوجود آدا معها خاصةً وأن مُرَبِّيتها جاءت معها لتتأكد من أن الطفلة لا تسبب إزعاجًا. وعندما بدَّل رانجيت ملابسه ووضعت له مايرا كريم الوقاية من الأشعة فوق البنفسجية — وهو ما كان في حد ذاته تجربة من أروع التجارب التي مر بها مؤخرًا — سارا معًا في تؤدة عبر الرمال الساخنة حتى وصلا إلى مياه الخليج الباردة المبهجة.

أفضل ما كان يميز شاطئ سريلانكا — إضافة إلى الصحبة — هو أن عمق المياه كان يزداد رويدًا رويدًا. فقد ابتعد رانجيت عشرات الأمتار عن الشاطئ، ولكنه ما زال واقفًا في ثبات.

لم يذهب رانجيت ومايرا بعيدًا بعد أن وصلت المياه إلى خاصرتيهما، ولم يسبحا قدر ما كانا يلقيان بأنفسهما في ابتهاج وسط المياه. لم يستطع رانجيت أن يقاوم إغراء

استعراض مهاراته في السباحة تحت الماء؛ إذ كان يستطيع السباحة لنحو مائة متر، وهي مسافة أقصر كثيرًا من المسافة التي كان يقطعها عندما كان مراهقًا قرب صخرة سوامي، لكنها كانت كافية لنيل إعجاب مايرا، وهو السبب الذي جعله يُقدِم على هذا الفعل من الأساس.

بعدئذٍ اتضح ذكاء اتفاق مايرا مع المربية. فبعد أن اغتسل رانجيت ومايرا، واستبدلا ملابسهما، قُدِّمت إليهما وجبة غداء شهية. وعندما انتهيا من الغداء، اصطحبت المربية آدا لأخذ قيلولة، في حين ذهبت هي إلى أي مكان قد تذهب إليه عندما لا يكون أمامها عمل تؤديه.

على وجه العموم كانت تلك واحدة من أفضل الأوقات التي قضاها رانجيت هذا اليوم. لكن عندما قالت مايرا إن عليها أداء تدريب السباحة الفعلي مسافة نحو مائتي متر على الأقل — دون أن يذهب معها رانجيت لأنه بحاجة إلى قضاء أقل وقت ممكن في ضوء الشمس الساطع إلى أن تعتاد بشرته على ضوئها مجددًا — كان رانجيت مدركًا أنها ستعود، وهو ما جعله يشعر بالاطمئنان. وطوال العشرين دقيقة الأخيرة أو نحو ذلك أخذ رانجيت يتساءل هل أوضحَ في شيء من الدقة أحد المفاهيم الخاصة بصوفي جيرما.

كاد رانجيت يقنع نفسه بخلو برهانه من الأخطاء عندما استفاقت الصغيرة آدا من قيلولتها. بحثت آدا عن خالتها، لكنها شعرت باطمئنان كبير عندما أشار رانجيت بذراعه في الاتجاه الذي تسبح فيه مايرا.

أحضرت آدا لنفسها عصير فواكه، وجلست تراقب ما يفعله رانجيت.

كان رانجيت يفضل ألا يشاهده أحد أثناء صراعه مع الرياضيات. لكن يبدو أن لآدا قواعدها في المشاهدة. فهي لم تبكِ بسبب بقائها على الشاطئ، بل إنها لم تكن مستاءة لذلك أيضًا. وعندما أحضر لها رانجيت حلوى مثلجة من أحد الباعة المتجولين على الشاطئ، تناولتها على مهل وعيناها مثبتتان على ما يكتب رانجيت في مفكرته. وعندما انتهت هرعت إلى حافة المياه لتزيل آثار اللزوجة عن أصابعها قبل أن تسأل بأدب: «أيمكنني الاطلاع على ما تفعل؟»

حينئذٍ كان رانجيت قد اطمأن كثيرًا إلى استخدامه لقاعدة جيرما. ففتح المفكرة على الطاولة أمامه ولديه فضول لرؤية ما قد تفهمه آدا من قاعدة جيرما.

تأملت آدا سطر الرموز هنيهة ثم قالت: «لا أظن أنني أفهم هذا.»

وافقها رانجيت الرأي: «إنه أمر معقد. ولا أظن أنني أستطيع توضيحه لك الآن أيضًا. لكن …»

ثم توقف وهو يتأمل الفتاة. كانت أصغر بكثير من تيفاني كاناكاراتنام، لكنها تحظى بميزة أنها تلقت تعليمًا أفضل ونشأت في أسرة أكثر رقيًّا. ثم قال: «ربما يمكنني أن أريك شيئًا. أيمكنك العد على أصابعك؟»

أجابت بأسلوب مهذب خالٍ من الاستياء: «بكل تأكيد.» ثم قالت وهي ترفع إصبعًا في كل مرة: «انظر. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة.»

قال رانجيت: «أجل، هذا رائع، لكنك تعدين حتى عشرة. أتريدين أن تعرفي كيف تعدين حتى ألف وثلاثة وعشرين على أصابعك؟»

مع انتهاء رانجيت من شرح كيفية التمثيل الثنائي للأعداد ١٠٢٣ على الأصابع، عادت مايرا من تدريب السباحة، وأخذت تستمع بإنصات مثل آدا.

وعندما انتهى رانجيت من الشرح، نظرت الطفلة إلى خالتها التي كانت تجفف شعرها. وقالت: «إنه أمر رائع، ألا تظنين ذلك خالتي مايرا؟» ثم قالت لرانجيت: «هل تعرف حيلًا أخرى كهذه؟»

تردد رانجيت. فهو لم يعرض الحيلة الأخرى التي يعرفها على تيفاني كاناكاراتنام من قبل قط، لكن مايرا تستمع له الآن.

قال رانجيت: «الواقع أن لديَّ حيلة أخرى»، ثم غادر الجزء المكسو بألواح الخشب من شرفة المنزل ليتمكن من رسم دائرة فوق الرمال:



قال رانجيت: «هذه روبية. مجرد صورة للروبية، لكن دعونا نقل إنها عملة حقيقية. إذا قذفنا هذه العملة في الهواء، فسيكون أمامنا احتمالان؛ إما صورة أو كتابة.»

قالت آدا: «أو يمكن أن تستقر على حافتها إذا سقطت في الرمال.»

نظر رانجيت إلى الطفلة، لكن تعبيرات وجهها كانت توحي بالبراءة. فقال: «ولهذا السبب لن نلقيها على الشاطئ، وإنما سنلقيها على طاولة النرد في نادي القمار. إذا ألقينا عملتين في الهواء ...»



«... فقد تسقط كل عملة منهما على الصورة أو الكتابة. وهو ما يعني وجود أربع نتائج محتملة. وهي: صورة–صورة، أو صورة–كتابة، أو كتابة–صورة، أو كتابة–كتابة. أما إذا كان لدينا ثلاث عملات ...»



«... فسيكون لدينا ثمانية احتمالات: صورة–صورة–صورة، أو صورة–صورة–كتابة، أو صورة ...»

قاطعته مايرا وهي تبتسم وفي صوتها تلميح خفي بالضيق: «رانجيت، تعرف آدا ناتج العدد اثنين مرفوعًا للأس ثلاثة.»

فأجاب رانجيت في هدوء: «لا شك أنها تعرف ذلك. إليك الحيلة إذن. سوف تأخذين هذه العصا وترسمين أي عدد تريدينه من العملات في الصف. لن أنظر. وعندما تنتهين سيكون عليَّ — في غضون عشر ثوانٍ أو أقل — كتابة العدد الصحيح للنتائج المحتملة في حالة قذف هذه العملات في الهواء.» ثم أضاف وهو يرفع إصبعًا: «وللمزيد من التشويق سوف أدعك تخفين أي عدد تريدين من العملات في إحدى نهايتَي الصف حتى لا أستطيع التعرف على عدد العملات الموجودة فيه.»

قالت آدا التي كانت تستمع بإنصات: «يا للدهشة. أيستطيع أن يقوم بهذا خالتي مايرا؟»

أجابتها مايرا بحزم: «كلَّا. إلا إذا اختلس النظر أو تحايل بصورة أخرى.» ثم توجهت إلى رانجيت: «ألن تختلس النظر؟»

– «نعم.»

– «ألن تعرف عدد العملات المعدنية في الصف؟»

زَمَّ رانجيت شفتَيْه. وقال: «لم أذكر شيئًا حول ما سأعرفه ... لكن نعم، لن أفعل.»

قالت مايرا: «هذا مستحيل إذن.» لكن عندما دعاها رانجيت لاختباره، طلبت منه أن يدير وجهه، وجعلت آدا تراقب عينيه لتتأكد أنه لا يستغل أي نافذة في الجوار كمرآة. وبسرعة محت مايرا أثر معظم العملات المعدنية تاركة ثلاثة فحسب. ثم غمزت بعينها لآدا، وألقت منشفتها على الأرض لتغطي اثنتين من العملات الثلاث المتبقية، وغطت أيضًا مسافة متر كامل لا يحتوي على أي عملات على الإطلاق ...



ثم قالت: «لتبدأ الآن.»

استدار رانجيت ببطء — كأن أمامه متسعًا من الوقت — في حين صرخت آدا: «أسرع يا رانجيت، أمامك عشر ثوانٍ فحسب! أو خمس ثوانٍ الآن، أو ربما ثانيتان فحسب ...»

ابتسم رانجيت للطفلة. وقال: «لا تقلقي.» مالَ رانجيت للأمام وللمرة الأولى ألقى نظرة على الصف الذي رُسِمت به الدوائر، وأخذ العصا، ورسم خطًّا طوليًّا مستقيمًا عند إحدى نهايتَي الصف. وبينما يرفع منشفة مايرا قال: «ها هي الإجابة.» وأطلق ضحكة تعبر عن إعجابه بالنتيجة التي توصل إليها قائلًا: «أها. ممتاز جدًّا.» وانتظر رد فعل مايرا على الصورة التي ظهرت فوق الرمال ...

١٠٠٠

حدقت مايرا في ذهول هنيهة، ثم اختفت نظرة الذهول على وجهها. وقالت: «يا إلهي! أجل! إنه الرقم الثنائي للعدد العشري ثمانية! وهي الإجابة الصحيحة أيضًا!»

أومأ رانجيت وهو لا يزال مبتسمًا، ثم التفت إلى آدا التي دلَّت ملامحها على أنها لم تفهم الكثير. أينبغي عليه شرح الترميز الثنائي مرة أخرى ... ١، ١٠، ١١، ١٠٠ للأعداد واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة؟ تردد رانجيت في القيام بذلك.

لكن الطفلة ابتسمت فجأة. وقالت: «لم تذكر أنك ستستخدم النظام الثنائي يا رانجيت، لكنك لم تقل إنك لن تستخدمه أيضًا؛ لذا أظن أن الإجابة صحيحة. إنها حيلة ذكية.»

أصدرت آدا حكمها برزانة كانت تكفي لاحتفاظ رانجيت بابتسامته. وإن كان ردها قد أثار فضوله. فقال لها: «أخبريني يا آدا. هل تعرفين الأرقام الثنائية حقًّا؟»

بدا عليها استياء ممزوج بالسخرية. وأجابت: «بالطبع يا رانجيت! أتعرف خالتي مايرا طلبت من والديَّ أن يسمياني باسم من؟»

ردت مايرا على نظرة الحيرة التي علت وجه رانجيت. وقالت: «أنا السبب في ذلك. فعندما اختلفت أختي مع زوجها بشأن اسم المولود أشرت عليهما باسم آدا. كانت آدا لافليس شخصيتي المفضلة ومثلي الأعلى. وبينما ركَّزت جميع صديقاتي اهتمامهن على نساء مثل الإلهة شيفا أو المرأة الخارقة أو القديسة جان دارك، كانت المرأة الوحيدة التي تمنيت أن أصبح مثلها عندما أكبر هي الكونتيسة آدا لافليس.»

بدأ رانجيت بقوله: «الكونتيسة ...» ثم طقطق إصبعيه. وقال: «بالطبع! أهي مبرمجة الكمبيوتر التي عاشت في القرن التاسع عشر؟ ابنة اللورد بايرون التي كتبت أول برنامج كمبيوتر للآلة الحاسبة الخاصة بعالم الرياضيات تشارلز باباج!»

وافقته مايرا قائلة: «أجل، إنها هي. بالطبع لم تُصَمَّم هذه الآلة قط — لافتقارهم إلى التكنولوجيا آنذاك — لكن البرنامج كان جيدًا. ومن أجلها سميت لغة البرمجة آدا باسمها.»

أصبحت النزهة اليومية على الشاطئ روتينًا ثابتًا، ثم فكر رانجيت في طريقة يضيف بها المتعة إليها. كان دو سارام قد فتح لرانجيت حساب ائتمان مصرفي — اعتمادًا على ما ينتظره من ممتلكات والده — وهو ما يعني أن الأمر لا يقتصر على امتلاكه حسابًا مصرفيًّا فعليًّا به أموال حقيقية يمكنه الإنفاق منها، وإنما لديه بطاقة ائتمان أيضًا. رأى رانجيت المطاعم المطلة على الشاطئ أعلى الخط الشجري، وقرر أن يدعو مايرا لتناول العشاء.

توقف سائق رانجيت عند أحد المطاعم على الطريق، لكن عندما فتح رانجيت الباب ليتحقق من المكان، لم يجد الروائح مشجعة. كان المطعم الثاني أفضل. فدخله بالفعل، وأخذ قائمة الطعام، واشتمَّ الرائحة بإمعان، ثم أخبر الشخص الذي أعطاه قائمة الطعام أنه سيعود مرة أخرى لكنه لم يحدد موعدًا لعودته. أما في المطعم الثالث فقد حصل رانجيت على قائمة الطعام لكنه لم ينظر فيها. فالرائحة الذكية التي انبعثت من المطبخ، وتناول رواد المطعم للشاي والحلوى في تريث جعلا رانجيت يشتمُّ المكان بعمق، ثم يحجز طاولة. وعندما قدم الدعوة الحقيقية لمايرا، بدا عليها التردد هنيهة، ثم قالت: «بالتأكيد، سيكون أمرًا رائعًا.»

ومعنى ذلك أنه ليس أمام رانجيت سوى انقضاء النهار حتى يتسنى له الاستمتاع بتقديم شيء من أجلها.

لم تكن آدا معهما؛ لذلك ذهبا للسباحة معًا في مكان أبعد مما اعتادا عليه، وعندما عادا ارتديا ملابسهما وجلسا يتناولان مشروبًا في الشرفة ويتجاذبان أطراف الحديث. كانت مايرا هي التي تدير معظم الحوار. فقالت وهي تحدق بنظرها على طول الرمال التي كادت تكون شاغرة: «كان المكان هنا مفعمًا بالحياة أكثر من الآن. فعندما كنت صغيرة كان هناك فندقان فاخران على الشاطئ وعدد أكبر من المطاعم.»

نظر إليها رانجيت في دهشة. وقال: «أتفتقدين الأوقات الصاخبة؟»

أجابته: «ليس تمامًا. فأنا أحب المكان هادئًا مثلما هو الآن. لكن والديَّ اعتادا الذهاب للرقص هناك؛ أما الآن فلم يتبقَّ شيء.»

أومأ رانجيت. وقال بحصافة: «تقصدين موجة تسونامي التي ضربت البلاد عام ٢٠٠٤.»

غير أنها هزت رأسها. وقالت: «قبل ذلك بكثير. كان ذلك في عام ١٩٨٤. مع بداية الحرب الأهلية. اندلع عدد من الحروب الأولى هنا في هذا المكان عندما نزل «نمور البحر» إلى اليابسة كي يتمكنوا من شن هجوم على المطار. استولى الجيش على الفنادق كمواقع لإطلاق النار؛ لذلك عمد «النمور» إلى تدمير الفنادق. كان والداي هنا، ولم يستطيعا مبارحة المكان إلى أن هدأت الأمور قليلًا، وأعيد فتح الطرق. ذكرت أمي أن الطلقات الكاشفة كانت تشبه عرضًا للألعاب النارية، وتحدث أصواتًا مدوية مع انطلاقها من زوارق الهجوم واختراقها الفنادق. وقد أطلقوا على هذه العملية اسم «العرض الترفيهي».»

أراد رانجيت أن يبدي رد فعل لما قالته. لكنه لم يعرف كيف. ربما لم يكن يرغب في الرد عليها بالكلمات. فما أراده حقًّا هو إحاطة مايرا بذراعه. اكتفى بما اعتبره خطوة أولى، فوضع يده فوق يدها بينما كانت تستند على ذراع كرسيها.

لم يبدُ أنها تمانع. واستطردت: «كان حطام المباني القديمة لا يزال هناك والعمر يتقدم بي. أتعرف ما الذي أتى عليه في النهاية؟ إنه تسونامي. ولولاه لكان هذا الحطام موجودًا هنا الآن.»

استدارت إليه مايرا وهي تبتسم … وبدت كأنها ترغب في أن يقبلها.

وأراد رانجيت التأكد من صحة ظنه.

واتضح أنه كان مصيبًا. كانت ترغب في ذلك فعلًا. أخذت مايرا بيد رانجيت، وعادا إلى المنزل الشاطئي حيث الأريكة المريحة التي تتسع لشخصين، واكتشف رانجيت أن إقامة علاقة مع امرأة ليس أمرًا ممتعًا في حد ذاته، وإنما يكون أفضل بكثير عندما تكون هذه المرأة شخصًا تحبه وتحترمه وترغب حقًّا في قضاء معظم الوقت بصحبته.

بعدها تناول رانجيت ومايرا العشاء الذي دعاها إليه، وكان هذا أيضًا أمرًا رائعًا. وهكذا فإن هذا اليوم الذي قضاه رانجيت على الشاطئ كان بوجه عام يومًا رائعًا للغاية، وخطط رانجيت ومايرا في الحال لتكراره مرات كثيرة.

غير أن الخطط لم تسر حسبما رسماها؛ لأنه في اليوم التالي مباشرة حدث شيء غيَّر من خططهما.

كانت آدا لابروي برفقتهما في ذلك اليوم وكذلك المربية التي ظلت توجه لمايرا ورانجيت نظرات جانبية تأكد رانجيت من خلالها أن وجهيهما يكشفان عما فعلاه. لكنه كان يومًا عاديًّا تمامًا — إذا تجاهلنا أن مايرا قبَّلت رانجيت لدى وصوله على شفتيه وليس على وجنته كما اعتادا — إلى أن عادا من نزهتهما في الماء، وارتديا ملابسهما، وتناولا مشروبيهما.

عندئذٍ رأت آدا شيئًا. فوضعت يدها فوق عينيها لتحجب عنهما ضوء الشمس، وتساءلت: «أليس هذا هو الرجل الذي يعمل لدى آل فورهولست؟»

وعندما وقف رانجيت ليتحقق من الأمر، وجد كبير الخدم لدى آل فورهولست يتحرك بسرعة لم يعهدها عليه من قبل، ويحمل مجموعة من الأوراق يقبض إحدى يديه بإحكام عليها. وقد بدا متحمسًا. ليس متحمسًا فحسب وإنما شديد التوق لتسليم الأوراق لرانجيت حتى إنه كان لا يزال على بعد خمسة أو ستة أمتار عندما صاح قائلًا: «سيدي! أظن أن هذا ما كنت تنتظره!»

وبالفعل كان يحمل ما ينتظره رانجيت.

لم يكن هذا ما ينتظره رانجيت تحديدًا. فقد كان تحليلًا مسهبًا لبحثه حول نظرية فيرما، أو بالأحرى خمسة تحليلات مختلفة يبدو أن كلًّا منها كُتِب بواسطة شخص مختلف (مجهول الهوية)، وما فعله هؤلاء — في تفصيل مجهد يكاد يفتقر إلى التشويق — هو التحقق من صحة جميع الفقرات الأخيرة التي سبق أن وجد بها رانجيت خطأً أو غموضًا. إضافة إلى ذلك فقد وجدوا ما لا يقل عن إحدى عشرة فقرة أخرى تحتاج إلى تنقيح أيضًا، لكن رانجيت لم يكتشفها أثناء قراءته. كان هناك اثنتان وأربعون ورقة اكتظت كل منها بالكلمات والمعادلات. وعندما ألقى رانجيت نظرة متعجلة على الأوراق واحدة تلو الأخرى، أعطاها لمايرا ونظرة التجهم تزداد حدة على وجهه مع كل ورقة ينظر فيها. حتى قال أخيرًا: «يا إلهي! ما هذا الذي يقولونه؟ أيخبرونني بكل ما لديهم من أسباب لرفض هذا الشيء اللعين؟»

كانت مايرا تعض شفتيها وهي تعيد قراءة الورقة الأخيرة للمرة الرابعة أو الخامسة. ثم ابتسمت فجأة، وأعادت الورقة إلى رانجيت قائلة: «عزيزي» — دون أن يلاحظ أحدهما وسط حالة الانفعال هذه أنها لم تخاطبه بهذه الكلمة قط — «ما آخر كلمة وردت في الرسالة؟»

انتزع رانجيت الورقة من يدها. سألها: «أي كلمة؟ تعنين هنا في الأسفل؟ حيث يقولون «تهانينا»؟»

أجابته بابتسامة عريضة حنونة هي على وجه التحديد أفضل ابتسامة يمكن أن يتمناها من مايرا دو سويزا: «هذا هو ما أعنيه تحديدًا. هل سمعت من قبل عن شخص يتلقى تهنئة على إخفاقه؟ سينشرون بحثك يا رانجيت! يعتقدون أنك فعلتها أخيرًا!»

الفصل التاسع عشر

الشهرة

ما إن عاد رانجيت إلى منزل فورهولست تلك الليلة حتى أعلنت بياتريكس فورهولست. قائلة: «ستدخل عالم الشهرة حالما تنشر المجلة مقالك. الشهرة حقًّا!»

لكنها كانت مخطئة. إذ لم يستغرق الأمر كل هذا الوقت؛ فقبل أيام من بدء آلات الطباعة لدى المجلة في طباعة مئات الآلاف من النسخ التي ستذيع شهرة رانجيت في العالم، كانت الشهرة قد تحققت بالفعل. سرَّب أحد الأشخاص — ربما أحد العاملين في مجلة «نيتشر» أو أحد محققيها — القصة، وهكذا بدأ المراسلون الصحفيون في الاتصال برانجيت. في البداية تلقى اتصالًا من هيئة الإذاعة البريطانية، ثم من شخص في جريدة «نيويورك تايمز»، ثم انهالت عليه الاتصالات من الجميع؛ كلهم يريدون توضيحًا منه لمفتاح حل نظرية فيرما ولماذا استغرق إثبات صحة النظرية كل هذا الوقت.

لم يجد رانجيت صعوبة في الإجابة عن كل هذه الأسئلة. في حين وجد صعوبة بالغة في الرد عندما كان يسأله أحدهم عن شائعة دخوله السجن، لكن دو سارام سهَّل عليه الأمر. وقال: «أخبِرْهم أن محاميك طلب منك ألا تتحدث في هذا الشأن؛ لأن القضية لا تزال منظورة أمام القضاء. وسوف أجعل هذا الأمر صحيحًا عن طريق اتخاذ إجراء نيابة عنك ضد شركة خطوط الرحلات البحرية.»

اعترض رانجيت: «لكنني لا أريد أموالًا منهم.»

قال المحامي: «لا تقلق. فلن تحصل على أي أموال. سوف أتأكد من ذلك، لكن هذا الإجراء سيكون كافيًا لأي شخص لرفض الإجابة عن أي سؤال ... لأن الدكتور باندارا شدد على أن هذا الموضوع برمته غير قابل للنقاش.»

أثمرت هذه الحيلة عن نتيجة جيدة، لكنها لم تؤثر في تقليل عدد الأشخاص الذين يريدون منه أن يجلس بمفرده معهم — أو بالأحرى معهم ومع فريق عملهم المكون من

عدد كبير من فنيي التسجيل — وأن يخبرهم بكل شيء حول شخصية فيرما والسبب الذي جعله يتصرف بأسلوب غريب للغاية هكذا. وعندما لجأ رانجيت إلى دو سارام مرة أخرى لطلب المساعدة أخبره أن الطريقة الوحيدة لتقليل فضولهم هي الحديث علنًا. كان هذا يعني عقد مؤتمر صحفي وإخبار كل من يرغب في سماع القصة بأكملها بها مرة واحدة.

كان دو سارام ورانجيت ومايرا دو سويزا وبيتريكس فورهولست يجلسون بجوار حوض السباحة في منزل فورهولست؛ إذ لم يعد الذهاب إلى منزل دو سويزا إلى الشاطئ مصدرًا لمتعة رانجيت أو مايرا؛ لأن متطفلي الصحافة عرفوا مكانهما هناك؛ ولذا أصبحت مايرا تأتي للسباحة مع رانجيت في حوض السباحة. قال دو سارام وهو يدفع كرسيه ببطء ليستظل بالمظلة الكبيرة المطلة على الحوض: «تحدثت إلى الدكتور باندارا في هذا الشأن. وهو على يقين من أن الجامعة ستوفر لك مكانًا لعقد المؤتمر الصحفي. والواقع أنه ذكر أن هذا الحدث سيكون مصدر فخر للجامعة.»

قال رانجيت منزعجًا: «ماذا سأقول؟»

أجابه دو سارام: «ستخبرهم بما فعلته. هذا باستثناء كل التفاصيل التي يرى الدكتور باندارا ضرورة لعدم الإفصاح عنها بالطبع.» وضع دو سارام كوبه، وابتسم إلى السيدة فورهولست. ثم قال: «كلَّا، لا أريد المزيد من الشاي، شكرًا لكِ. أود العودة إلى المكتب. وسأجد طريق الخروج من هنا بنفسي.»

صافحته السيدة فورهولست، ولم تعترض على رحيله. ثم قالت لرانجيت ومايرا: «في الواقع أظنها فكرة رائعة. وأتشوق إلى سماع هذا الحديث.» ثم التفتت إلى مايرا، وقالت: «عزيزتي، أتتذكرين الغرفة التي اعتدت النوم فيها عندما كان يتأخر والداك؟ إنها لا تزال على حالها بجوار غرفة رانجيت. إذا أردتِ المبيت فيها في أي وقت تشائين فهي لكِ.»

وهكذا عندما ذهب رانجيت إلى النوم تلك الليلة، كان عليه أن يعتبر هذا اليوم يومًا جيدًا. صحيح أن خبرته في الحديث أمام الناس ضئيلة جدًّا، وهو ما جعله يشعر بشيء من القلق. لكن ها هي مايرا تنام بجواره على الوسادة، وبوجه عام يبدو أن الأمور بدأت تسير على ما يرام في النهاية.

كانت القاعة التي خصصتها الجامعة لعقد مؤتمر رانجيت الصحفي واسعة إلى حد بعيد، وكان لا بد من ذلك. فقد امتلأت مقاعدها التي تتسع لأربعة آلاف وثلاثمائة وخمسين شخصًا، ولم يكن جميع الحضور من المراسلين الصحفيين. كان يوجد عدة مئات من المراسلين الصحفيين، لكن يبدو أن نصف أهل سريلانكا قرروا حضور المؤتمر أيضًا.

وبجانب سعداء الحظ الذين حضروا المؤتمر فإن نحو ١٠٠٠ شخص آخر شاهدوا وقائعه على شاشة تليفزيون ذي دائرة مغلقة في قاعة أخرى داخل الحرم الجامعي تاركين عددًا كبيرًا من الأشخاص المهمين للغاية (على حد وصفهم لأنفسهم) يتميزون غيظًا لمشاهدة الحدث على شاشات البث التليفزيونية.

عندما ألقى رانجيت سوبرامانيان نظرة على الحضور من خلال فتحة في الستارة، رأى حشدًا هائلًا من الناس. ولم يقتصر الأمر على عدد الأشخاص داخل القاعة. وإنما تمثل كذلك في هوية هؤلاء الأشخاص؛ فرئيس سريلانكا يجلس في الصف الأمامي. وهناك أيضًا اثنان أو ثلاثة من المرشحين المحتملين للانتخابات القادمة إضافة إلى أسرة فورهولست، ويا للدهشة! ها هو الأستاذ الذي درَّس الرياضيات لرانجيت في السابق والذي لم يكن لديه من الكياسة ما يجعله يشعر بالخزي كما هو متوقع، وإنما بدلًا من ذلك كان يبتسم ويومئ لكل من يجلس في مكان أقل تميزًا عن مكانه.

عندما بدأت الستارة في الارتفاع، نظر الرجل الجالس في المقعد المجاور لرانجيت إليه نظرة مطَمْئنة. قال الدكتور داتوسينا باندارا الذي استقل الطائرة على نحو مفاجئ تاركًا عمله السري لدى الأمم المتحدة من أجل تقديم رانجيت: «ستكون على ما يرام.» ثم أضاف: «كنت أتمنى أن يحضر جاميني، وهو أيضًا كان يتمنى ذلك، لكنه مشغول بالتجنيد في نيبال»، حينئذٍ كانت الستارة قد ارتفعت والأضواء سُلِّطت على رانجيت، فتوجه الدكتور باندارا إلى المنصة دون أن يوضح تحديدًا طبيعة هذا التجنيد الذي لا بد لجاميني أن يذهب إلى نيبال من أجله.

وبعدها بوقت أقل مما توقع رانجيت، وجد نفسه واقفًا أمام المنصة وقد امتلأت القاعة بالتصفيق.

انتظر رانجيت في تروٍّ انقطاع صوت التصفيق. لكن عندما لم ينقطع الصوت تنحنح. وقال: «أشكركم. أشكركم جميعًا.» وعندما هدأ الصوت قليلًا بدأ حديثه:

«الرجل الذي عَرَّفَني — بل عرَّف العالم — على هذه المسألة هو فيرما الذي كان يعمل محاميًا في فرنسا قبل بضعة قرون ...»

وعندما وصل رانجيت إلى الملحوظة الشهيرة في هامش إحدى صفحات كتاب ديوفانتس، هدأ التصفيق، وأرهف الجمهور سمعه. لم يكن الجمهور هادئًا طوال الحوار، وتعالى الضحك عندما ذكر رانجيت أنه كان يمكن تلافي الكثير من المشكلات لو أن هوامش الكتاب الذي يقرؤه فيرما كانت أكثر اتساعًا. وصفق الجمهور مجددًا — بأسلوب منظم

إلى حدٍّ ما — عندما تحدث رانجيت عن كل خطوة كانت تزيد فهمه لما تحدث عنه فيرما. وعندما تحدث عن عمل صوفي جيرما وكيف أنه كان مفتاح حل النظرية صفق الجمهور تصفيقًا حادًّا. وظلوا يصفقون في كل فرصة إلى أن وصل بهم رانجيت إلى اللحظة التي تأكد عندها تمامًا — أو على الأقل تأكد إلى حد بعيد — أنه توصل بالفعل إلى برهان منطقي لنظرية فيرما الأخيرة.

توقف رانجيت، وابتسم وهز رأسه. ثم تساءل: «ألديكم أي فكرة عن مدى صعوبة استظهار برهان رياضي يتألف من خمس صفحات؟ لم يكن لديَّ أي شيء لكتابة البرهان. ولم أستطع تدوينه. كل ما أمكنني القيام به هو مراجعة البرهان مرارًا وتكرارًا مع تكرار كل خطوة بسيطة مئات أو ربما آلاف المرات ... وعندما نجَوْت، كان كل ما أفكر فيه هو الحصول على كمبيوتر وكتابة البرهان في الحال ...»

أنهى رانجيت حديثه بقوله: «وهذا ما فعلته» تاركًا الحضور يصفقون بحدة إلى أن أعياهم التصفيق. وهو ما استغرق وقتًا طويلًا حتى تمكَّن من الحديث مرة أخرى فقال: «وهكذا فإن عليَّ التوجه بالشكر لأعز أصدقائي جاميني باندارا وكذلك والده الدكتور داتوسينا باندارا.» أشار رانجيت ناحية الرجل المسن الذي بدا عليه الوقار وهو ينال حظه من التصفيق. ثم أردف: «وهناك شخصان أدين لهما بالفضل أيضًا. الأول هو أبي الراحل جانيش سوبرامانيان من معبد تيرو كوينسفارام في ترينكومالي. والثانية هي من تختفي وراء الستار هناك، لكنها أول من أشارت عليَّ بأن سر الوصول إلى ما اكتشفه فيرما يكمن في دراسة الخطوات الرياضية التي كانت مستخدمة في تلك الفترة ومحاولة استنتاج الخطوات الأخرى التي من المحتمل أن يكون فيرما قد استنبطها منها. لا أدري ما كنت سأفعل بدونها، ولا أنوي المجازفة بغيابها عني مرة أخرى. لذا تقدمي وخذي بيدي دكتورة مايرا دو سويزا ...»

تقدمت مايرا، ومع أن رانجيت كان لا يزال يتحدث عندما ظهرت فإنه كان من الصعب تمييز ما يقول. فقد قوبلت مايرا بموجة من التصفيق الحاد فاقت ما قوبل به رانجيت نفسه، ربما لأن الجمهور قرأ كل ما كان مكتوبًا على وجه رانجيت عندما تحدث عنها، أو ربما لأنها بالقطع كانت الأكثر جاذبية.

كان رانجيت يود أن يدع تصفيق الجمهور لها يستمر إلى الأبد، لكن مايرا كانت تهز رأسها. وقالت: «شكرًا لكم، لكن دعونا نستمع إلى باقي القصة من رانجيت.» ثم تراجعت إلى الخلف وجلست في مقعد رانجيت تنصت إليه.

استدار رانجيت إلى الجمهور. وقال: «تلك هي النهاية، لكني وعدت بالإجابة عن بعض الأسئلة ...»

وهكذا انتهى المؤتمر الصحفي، وتفادى رانجيت بمهارة جميع الأسئلة التي تتعلق بمكان أو سبب دخوله السجن. ثم عاد إلى منزل فورهولست بصحبة أقل عدد تبقَّى من الضيوف من قاعة الجامعة. وكان من بينهم أول صفين من القاعة، وعدد قليل آخر، وطاقم من الخدم استؤجروا لهذه المناسبة من أجل توزيع المشروبات والوجبات الخفيفة على الحاضرين. (وذلك حتى يتسنى للخدم الفعليين في منزل فورهولست — الذين يعتبر كل واحد منهم نفسه مسئولًا بصفة شخصية عن جزء من هذا الحدث — حضور الحفل كأنهم ضيوف.) جلس رانجيت ومايرا متشابكي الأيدي أحدهما بجانب الآخر تبدو عليهما السعادة البالغة. وهكذا كان حال جميع الضيوف حتى إنهم لم يلتفتوا إلى الشامبانيا التي كان يوزعها الخدم.

كان الدكتور باندارا في طريق العودة إلى نيويورك في طائرته بوينج-إيرباص ٢٢٠٠، لكن قبل رحيله أخذ رانجيت جانبًا ليحادثه على انفراد. وقال له: «لا شك أنك ستحتاج إلى عمل»، فأومأ رانجيت.

وأردف قائلًا: «ذكر جاميني شيئًا عن العمل معه.»

قال داتوسينا باندارا: «أتمنى ذلك، لكن يؤسفني أن هذا لن يتم في الحال. وفي نفس الوقت فقد نما إلى علمي أن الجامعة تستعد لعرض وظيفة عليك ضمن هيئة التدريس بها لتُدَرِّس لعدد من الصفوف المتقدمة وتُجري أبحاثك الخاصة إذا شئت.»

قال رانجيت: «لكنني لست أستاذًا بالجامعة! إنني حتى لم أتخرج بعد!»

قال الدكتور باندارا بأناة: «أستاذ الجامعة ليس سوى شخص تعينه الجامعة في هذا المنصب. ولا تقلق بشأن الشهادات التي تنقصك؛ لأني أتوقع أنك ستُمنح جميع الشهادات التي تتطلع إليها.»

وبطبيعة الحال نقل رانجيت كل هذا الكلام لمايرا. لكن بدا الشك على بيتريكس فورهولست — التي تجلس على الجانب الآخر من مايرا. وقالت: «لست واثقة أنك بحاجة إلى وظيفة. انظر إلى هذه.» مدت يدها بمجموعة من الأوراق المطبوعة التي راجعها سكرتيرها الخاص بعد أن عيَّنَت له مساعدًا يساعده في التعامل مع المراسلات الواردة لرانجيت. «الجميع يرغبون في أن تذهب وتتحدث إليهم، أو أن تُجري حوارًا معهم، أو

يرغبون في أن يقولوا إنك تناولت معهم الجعة أو ارتديت ملابسهم. إنهم على استعداد لأن يدفعوا نظير هذا! إذا كنت سترتدي أحذية الجري الخاصة بهم، فسيدفعون لك الكثير من الدولارات. وإذا أجريت حوارًا مع برنامج «سيكستي مينيتس» 60 Minutes، فسيدفعون لك أيضًا. وستدفع لك جامعة هارفارد إذا ذهبت وتحدثت هناك ... لم يذكروا شيئًا عما سيدفعونه تحديدًا، لكنني أعلم أنهم مقتدرون.»

قالت مايرا وهي تضحك: «على رسلك! دعي المسكين يلتقط أنفاسه.»

لكن مساعد السكرتير كان يلوح للسيدة بورقة أخرى طبعها للتوِّ، فألقت نظرة عليها، وعضت شفتيها، ثم قالت: «حسنًا، لا علاقة لهذه الورقة بالمال، لكني أظن أنك سترغب في رؤيتها يا رانجيت. وأنت أيضًا يا مايرا.»

سألت مايرا: «أنا؟ لماذا أنا؟»

لكن سرعان ما أدركت مايرا السبب عندما أخذ رانجيت — الذي بدا عليه الذهول — الورقة، وأعطاها إياها. كان الخطاب من الراهب المسن في معبد والده السابق، وجاء فيه:

> «كان والدك سيفخر كثيرًا ويبتهج مثلنا جميعًا لأنك ستتزوج. من فضلك لا ترجئ الأمر طويلًا! لا تنتظر قدوم الأشهر المشهورة بسوء الطالع. وابتعد بالطبع عن يومَي السبت والثلاثاء.»

نظرت مايرا إلى رانجيت الذي كان يحدق النظر إليها في ارتباك. ثم تساءل: «هل ذكرتُ أي شيء عن الزواج؟»

اكتسى وجه مايرا بحمرة الخجل. وأجابت: «حسنًا، لقد قلتَ عني كلامًا جميلًا.»

قال رانجيت: «لا أتذكر أني قلت شيئًا كهذا. لا بد أنه عقلي الباطن.» ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «وهذا يثبت أن علقي الباطن أذكي مني. إذن ما رأيك يا مايرا؟ هل توافقين؟»

– «بالطبع أوافق.» قالتها مايرا كأنه أكثر الأسئلة التي أُلقيت على مسامعها من قبل حماقةً. وهكذا انتهى الأمر.

في وقت لاحق عندما دفعهما الفضول إلى مشاهدة لقطات من حديث رانجيت اكتشفا أن ما قاله لم يكن يعني سوى حقيقة بديهية واضحة، وهي أنه لا يتخيل قضاء ما تبقى من حياته دونها ... لكن هذا كان كافيًا، وعلى أي حال كان رانجيت ومايرا في حكم المتزوجين فعليًّا.

هل سار كل شيء على ما يرام لهذين الحبيبين؟

سارت الأمور على ما يرام إلى حد بعيد. السؤال المهم الذي لا بد من حسمه لم يكن يتعلق بهل ينبغي لهما الزواج أم لا؛ إذ لم يكن هناك أدنى شك في ذلك، ولم يتعلق أيضًا بالموعد؛ لأنهما ينويان الزواج في أقرب وقت ممكن. الأسئلة المهمة تتعلق بالمكان وبمن سيُزَوِّجهما. لكن الإجابة عن هذه الأسئلة بدت سهلة أيضًا؛ فآل فورهولست وآل باندارا ومعهم آل دو سويزا يستطيعون الوصول إلى جميع الكنائس في مدينة كولومبو وجميع مكاتب توثيق الزواج أيضًا، وعندما قطعوا شوطًا طويلًا في عملية استبعاد الكنائس الأقل جاذبية في نظرهم، لاحظت مايرا نظرة الشرود في عينَي رانجيت.

وعندما سألته مايرا، لم يبدِ اهتمامًا. وقال: «في الواقع لا شيء؛ لا شيء على الإطلاق.»

ومع إصرار مايرا استسلم رانجيت وأراها رسالة أخرى من الراهب المسن: «كان والدك سيسعد كثيرًا بزواجك في معبده.»

قرأتها مايرا مرتين، ثم ابتسمت. وقالت: «أيًّا ما كان. لا أظن أن مجلس الكنيسة في سريلانكا سيهتمون بذلك. سوف أخبر الجميع.»

بالطبع أدرك «الجميع» على الفور أن رغبات رانجيت ستكون موضع تنفيذ مايرا، وهذا ما حدث. وإذا كان هناك شيء من خيبة الأمل لدى بعض الجماعات في كولومبو، فهناك ابتهاج كبير بين الجماعات الأخرى في ترينكومالي. سرعان ما أدرك الراهب العجوز أن الاحتفال لا بد وأن يكون بسيطًا. وفكر متلهفًا في طقوس الزفاف الرائعة التي كانوا سيقيمونها للعروس — إن كان في استطاعتهم ذلك — وكيف أن وصول العريس إلى المعبد كان سيُزَيَّن بأفضل أنواع الفاكهة والأزهار. بهذه الصورة يكاد الزفاف يكون عرضًا شاملًا؛ أليس كذلك؟ وأي شيء كهذا سيلفت الكثير من الانتباه في الوقت الذي يرغب فيه الاثنان في التواري عن الأنظار. إذن لا داعي لهذه الطقوس، وإن كان الراهب قد تأكد أن المجموعة المرافقة للعروس تحمل القدر اللازم من الحلوى التي ستُقَدَّم إلى العريس.

أفضل ميزة في تبسيط مراسم الزفاف هي إمكانية إتمام الزفاف بسرعة بالغة، ولهذا السبب فإنه في أقل من أسبوع كان العروسان في ترينكومالي، أو بالأحرى كانا متخفيين في ترينكومالي؛ لأنهما حاولا إخفاء وجوههما المعروفة لدى العامة.

ولهذا السبب حضر الحفل عدد قليل من الأفراد، وردد رانجيت الكلمات التي كتبها الراهب العجوز له، وتركت مايرا الراهب يربط حول معصمها الخيط المقدس الذي سيمنع عنهما الأذى، في حين امتلأت جميع أرجاء الغرفة بكثير من الأزهار، وتعالى دوي أصوات الأبواق والطبول. بعدئذٍ انتهى الأمر، وربط بينهما عقد زواج لا انفصام لعراه، وعادا إلى سيارة الشرطة التي ستقطع بهما طريق العودة الطويل إلى منزل فورهولست. دعا لهما

الرهبان وهما يغادران بالعمر المديد، والواقع أن رانجيت ومايرا تملَّكهما يقين أن هذا هو ما ينتظرهما.

غير أن أشخاصًا آخرين — في أماكن بعيدة — كانت لديهم توقعات مختلفة تمامًا.

هؤلاء الأشخاص هم كائنات «واحد فاصل خمسة»؛ القتلة المأجورون الذين يعملون لحساب عظماء المجرة. كانت هذه الكائنات تنفذ أوامر «عظماء المجرة» بإنهاء الفوضى التي شاعت على سطح الكوكب الذي يحتل الموقع الثالث بعدًا عن ذلك النجم الأصفر العديم الأهمية، وكان أسطولهم الحربي يتقدم في طريق رحلته. ولأن سفن الفضاء التي يستقلونها هي أجسام مادية، فإنهم لن يتمكنوا من تخطي سرعة الضوء. ربما يستغرق زمن الانتقال سنوات عديدة تتبعها بضعة أيام من الفناء الفعلي، وبعدها سيكون هذان العروسان — وجميع البشر في كل مكان — في عداد الموتى.

ربما لا يحيا رانجيت ومايرا حياة مديدة في نهاية الأمر.

الفصل العشرون

الزواج

لمَّا تحققت كل أحلام رانجيت من حرية وشهرة وزواج من مايرا دو سويزا، بدا له أن عالمه الخاص آخذ في التحسن. غير أنه هناك وضعًا عامًّا ظل يفرض نفسه على تأملات رانجيت الخاصة، ولم يكن هذا الوضع جيدًا على الإطلاق.

خذ الوضع في كوريا الشمالية مثالًا. أولًا، بدا واضحًا أن البلاد شهدت تحولًا في السلطة. وذلك بعد رحيل عاشق الترف المتغطرس كيم يونج إل.

كان هذا الأمر مدعاةً للأسف بصورة ما. فربما كان كيم غريب الأطوار، لكنه من النوع الذي يحجم دائمًا عن شن هجوم فعلي واسع النطاق على جيرانه. أما الآن فهناك هذا الرجل الجديد الذي يُشار إليه دائمًا باسم «الحاكم المحبوب». إن كان للرجل اسم، فعلى ما يبدو أنه اسم رفيع حتى إن الغرب بمكانته الوضيعة لا يستحق شرف التعرف عليه.

لكن إن كانت هوية الحاكم المحبوب سرًّا لا يمكن الإفصاح عنه، فإن كل ما قام به لا يخفى على أحد. أعلن جنرالات «الحاكم المحبوب أن أحدث أجيالهم من الصواريخ النووية تستطيع بسهولة عبور الامتدادات الشمالية للمحيط الهادي. ومعنى هذا أن بوسعهم توجيه ضربة لأرض الولايات المتحدة الأمريكية تحديدًا، أو على الأقل ألاسكا، وربما الركن الشمالي من ولاية واشنطن. فضلًا عن ذلك تباهى هؤلاء الجنرالات بأن الصواريخ الجديدة جديرة بالاعتماد عليها قطعًا. وهذه التصريحات زادت من قلق الدول المجاورة. حتى إن الدول التي لا تمتلك مخزونًا من الأسلحة النووية تعرضت لضغوط متزايدة من أجل امتلاكها.

ولم تكن بقية مناطق العالم أفضل حالًا. فقارة أفريقيا تقهقرت إلى أسوأ أيامها في القرن العشرين. مرة أخرى شهدت القارة جيوشًا من الجنود الصبية — بعضهم بالكاد

في سنوات المراهقة — يجنَّدون بعد أن قُتِلت عائلاتهم ويحاربون من أجل الحصول على حصص من الماس غير المشروعة تجارته أو حتى العاج الأقل مشروعية …

كان الوضع مُحْبِطًا.

* * *

لكن هناك أمر شغل بال رانجيت عندما فكر فيه، وطُرح هذا الموضوع للمناقشة عندما دخلت السيدة بيتريكس فورهولست عليه أثناء حواره مع المحامي دو سارام لتسأل: «ما الذي تفضلان تناوله على العشاء؟»

هذا هو نفس السؤال الذي لا بد أن يطرحه أحد كل صباح، لكن هذه المرة كان رد الفعل مختلفًا. إذ التفتت مايرا في نظرة متسائلة إلى رانجيت الذي نظر إليها رافعًا حاجبه، ثم تنهد، وتحدث إلى مضيفتهم. وقال: «هذا أمر كنا نتحدث عنه خالتي بيتريكس. نظن أنك ربما ترغبين في استعادة منزلك.»

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها رانجيت نظرة الامتعاض على وجه بيتريكس فورهولست. وردت قائلة: «بُنَيَّ الحبيب، على الإطلاق! نحن سعداء بإقامتكما معنا ما تشاءان. أنتما من العائلة، كما تعرفان. ونحن سعداء بوجودكما هنا، ونتشرف بذلك أيضًا و…»

لكن دو سارام — الذي تفحَّص وجه مايرا — هز رأسه. وقال: «ربما لم نفهم الأمر جيدًا سيدتي. فهما متزوجان. ويريدان منزلًا خاصًّا بهما وليس مكانًا في منزلك، ولهما كل الحق في ذلك. دعونا نتناول كوبًا آخر من الشاي وندرس الخيارات المتاحة. وبالنسبة إلى المكان الذي يمكنكما العيش فيه فلديكما واحد بالفعل يا رانجيت. فمنزل والدك في ترينكومالي أصبح ملكًا لك الآن كما تعلم.»

استدار رانجيت يتفحص وجه مايرا. ورأى رد الفعل الذي توقعه تمامًا. «لا أظن أن مايرا ترغب في العيش في ترينكومالي»، قالها لهما آسفًا؛ لكن مايرا كانت تهز رأسها بالفعل.

قالت مايرا: «ترينكومالي مدينة جميلة. ويسرني أن أعيش فيها، لكن …»

لم تنهِ مايرا جملتها. فتساءل دو سارام في دهشة: «ماذا إذن؟»

أجاب رانجيت بالنيابة عنها. وقال: «كان المنزل رائعًا لعجوز يعيش بمفرده. أما نحن فسنحتاج في الأغلب إلى غسالة ملابس وأخرى للأطباق وجميع الأجهزة المنزلية التي لم يرَ والدي سببًا لامتلاكها، ما رأيك يا مايرا؟ أتودين إدخال تغييرات على منزل والدي؟»

أخذت مايرا نفسًا عميقًا، لكنها تمكنت من حصر ردها في كلمة واحدة: «أجل.»

قال: «بالطبع ترغبين في ذلك. فأنت لن تفضلي هدمه والبدء من لا شيء، أليس كذلك؟ الإجابة لا، أليس كذلك؟ حسنًا. أول شيء نفعله إذن أن نطلب من سوراش أن يجد لنا مهندسًا معماريًّا يرسم مخططات للمنزل الذي لدينا للعمل عليها، فهو يعرف جميع التاميليين في ترينكومالي، وسندعو المهندس هنا مع المخططات لتبدئي معه بوضع الأفكار الابتكارية.» وأضاف: «وسأكون جاهزًا للمساهمة بأفكار كهذه وقت أن تطلبي مني. وفي أثناء ذلك يا مايرا سوف ننتقل إلى أحد الفنادق. ما رأيك في هذا؟»

قطبت السيدة فورهولست جبينها أكثر من أي وقت رآها فيه رانجيت. وقالت: «لا داعي لهذا. لأننا سنسعد للغاية بوجودكما هنا حتى يصير المكان في ترينكومالي جاهزًا.»

نظر رانجيت إلى زوجته، ثم مد يديه. وقال: «حسنًا، لكن لديَّ اقتراح آخر. حبيبتي مايرا؟ ألم أسمعك ذات مرة تقولين شيئًا عن شهر العسل؟»

بدت عليها الدهشة. وردت قائلة: «لم أقل شيئًا كهذا. أعترف بأني أظن أن قضاء شهر عسل سيكون أمرًا رائعًا، لكني لم أتفوه بشيء حول هذا الأمر ...»

وافقها رانجيت بقوله: «ليس منذ أن تزوجنا، لكني أذكر ما قلتِه لي تحديدًا في هذه الغرفة قبل بضع سنوات. أخبرتِني عن كل الأماكن الرائعة التي لم أزرها في سريلانكا. دعينا نزُرها إذن بينما الجميع يهيئون لنا ما تبقى من حياتنا.»

أعلنت مايرا أن أفضل مكان للبدء هو الأسهل، ولهذا فقد بدآ بزيارة المكان المخصص لتفريخ السلاحف في كوسجودا؛ لأن مايرا أحبت هذا المكان في طفولتها، ثم زارا كاندي المدينة العتيقة الكبرى على الجزيرة. لكن بعد أسبوع عندما زارا المدينتين وعادا إلى منزل فورهولست، وأراد من في المنزل معرفة أخبار الرحلة افتقرت إجابتاهما إلى الحماس. فقد تعرف عليهما الناس في كوسجودا، وتبعتهما مجموعات صغيرة في كل مكان طوال اليوم. وساء الوضع أكثر في كاندي. فأخذتهما الشرطة المحلية في جولة حول المدينة داخل إحدى سيارات الشرطة. صحيح أنهما شاهدا كل شيء، لكنهما لم يتمكنا ولو لمرة واحدة من التجول بحرية.

وعلى مائدة العشاء أبدت بيتريكس فورهولست تعاطفًا مع رانجيت وهو يوضح أن التجول بالسيارة أمر لا بأس به، غير أنهما كانا يرغبان بشدة في الاختلاط بالآخرين. تنهدت بيتريكس. وقالت: «لا أدري أهذا ممكن أم لا. أنت أفضل ما قد يراه الناس من

معالم المدينة. المشكلة أننا نفتقر إلى مشاهير العالم هنا في سريلانكا، وتكاد تكون أنت كل ما نملك.»

اعترضت مايرا. وقالت: «ليس تمامًا. فهناك الكاتب ...»

– «صحيح، لكنه نادرًا ما يخرج من منزله. الوضع مختلف على أي حال. إذا كنتما في مكان يعج بنجوم السينما وغيرهم من المشاهير — مثل لوس أنجلوس أو لندن على سبيل المثال — لما احتجتما إلى ارتداء نظارات سوداء، ولن يتعرف عليكما أحد.» ثم تغيرت تعبيرات وجهها. وقالت: «لم لا تفكران في هذا الأمر؟»

وعندما نظر إليها الجميع قالت: «لديكما كل هذه الدعوات من جميع أنحاء العالم، يا رانجيت. لم لا توافقان على عدد منها؟»

غمزها رانجيت بعينه، ثم التفت إلى مايرا. وقال: «ما رأيك؟ أينبغي علينا قضاء شهر عسل حقيقي في أوروبا أم أمريكا أم أي مكان تشائين؟»

نظرت إليه نظرة خاطفة، ثم نظرت حول المائدة وهي تفكر في تمعن. ثم قالت أخيرًا: «أظن أن هذا سيكون رائعًا يا رانجيت. لكن إذا كنا سنفعل ذلك، فلنعجل به.»

رمقها بنظرة متسائلة، لكنه انتقل في الحال إلى الاستفسار عن الدعوات المتاحة لديهما تحديدًا. ولم يفكر رانجيت في سؤالها عن هذا الأمر إلا وهما يستعدان للنوم: «ألا ترغبين في القيام بهذا؟ لأنه إذا لم تكن لديك رغبة ...»

وضعت مايرا إصبعًا على شفتيه، ثم قبَّلته فجأة. وقالت: «كل ما في الأمر أني أفكر أنه إذا كنا سنسافر مسافة طويلة، فمن الأفضل أن يحدث ذلك عما قريب. فربما يكون الأمر أصعب لاحقًا. لم أكن لأخبرك إلا بعد أن تؤكد لي الطبيبة، لكنني لن أراها إلا يوم الجمعة. أنا متأكدة أني حامل.»

الفصل الحادي والعشرون

شهر العسل: الجزء الثاني

بينما كان رانجيت ومايرا في طريقهما إلى لندن — في رحلة طويلة وشاقة مثلما وصفها جاميني قبل سنوات — كان العالم يمضي في طريقه. وكان هذا طريق الموت والخراب لا ريب. اختار الاثنان أن تكون رحلتهما عبر الطريق الأطول — مرورًا بمومباي — حتى يتسنى لرانجيت إلقاء نظرة سريعة على المدينة. لكن طائرتهما تأخرت أربعين دقيقة بسبب دورانها في الجو قبل السماح لها بالهبوط. تجدد القصف المدفعي في وادي كشمير. ولم يكن بوسع أحد أن يتنبأ بما قد يخطط العملاء الباكستانيون السريون لاستهدافه في قلب الأراضي الهندية؛ لذلك قضى الزوجان كل وقتهما في المدينة القديمة داخل غرفتهما في الفندق يشاهدان التليفزيون. ولم يكن يبث أخبارًا سارة هو الآخر على أية حال. فقد تجاسرت وحدات من الجيش الكوري الشمالي بزعامة «الحاكم المحبوب» — تلك الوحدات التي لم تعد تكتفي بهجماتها على طول الحدود مع كوريا الجنوبية — على الدخول في بضع منازعات مع الدولة التي تمدها بالغذاء والتي كادت تكون الصديقة الحقيقية الوحيدة لها في العالم، وهي جمهورية الصين الشعبية. لم يستطع أحد تخمين ما يخططون له، لكن أربع وحدات منفصلة — لا يزيد عدد الجنود في كل منها عن اثني عشر جنديًّا أو نحو ذلك — عبرت إلى الأراضي الصينية حيث لا شيء سوى التلال والصخور، وأقامت معسكرًا.

وبعد ثلاث ساعات كان رانجيت ومايرا يصعدان إلى متن الطائرة المتجهة إلى لندن، لكن ما إن أصبحا في الهواء — حيث حلقت الطائرة بهما فوق ساحل باكستان في طريقها إلى مطار هيثرو في إنجلترا — حتى هدأ القتال في كشمير، وعاد جيش كوريا الشمالية أدراجه إلى ثكناته دون أن يعرف أحد ما كان يخطط له من الأساس.

بعدئذٍ وصلا إلى لندن.

لم تكن هذه الرحلة مدعاة للإحباط تمامًا. إذ انبهر رانجيت بالمعالم الشهيرة للمدينة شأنه في ذلك شأن الملايين من زوارها عبر مئات السنين. زار رانجيت جميع المعالم الشهيرة التي لا بد لأي سائح من زيارتها — مثل كاتدرائية القديس بولس وبرج لندن ومبنى البرلمان وكاتدرائية ويستمينستر أبي — وعددًا كبيرًا من الأماكن التي لم تكن مشهورة حقيقة، وإنما تحظى بأهمية خاصة لدى رانجيت مثل كلية لندن للاقتصاد ومنزل فخم محدد يقع على مسافة بضعة أمتار في شارع أرونديل، ذلك أن جاميني باندارا نزل في كلا المكانين في وقت لم يكن لدى رانجيت فيه أي أمل في زيارتهما. وعندما أقنعته مايرا بالذهاب في نزهة إلى حدائق كيو، نالت الصوبات الزراعية الضخمة إعجابه الشديد. أُعْجِب رانجيت بكل المباني الكبرى والشهيرة في المدينة بلا استثناء تقريبًا. لكن الشيء الذي لم يعجبه هو كل المساحات المفتوحة وغير المسقوفة التي تفصل بين هذه الأماكن والتي لا بد من عبورها للانتقال بين مكان وآخر.

كانت جميع هذه المساحات — بلا استثناء في هذا التوقيت من شهر نوفمبر — قارسة البرودة على نحو لا يطاق.

لم يمر رانجيت طوال حياته بتجربة تصيب النفس بالجمود كهذه التجربة. ربما كابد الشعور بالبرد لأمد قصير في بعض الأحيان على قمة صخرة سوامي عندما كانت الرياح تهب بقوة، أو عندما يكون خارجًا لتوِّه من السباحة وسط الأمواج المتكسرة في الصباح الباكر جدًّا. لكن ليس مثلما يشعر به الآن! فالجو قارس البرودة حتى إن قطرات الثلج التي تساقطت قبل أسبوع — بل وتلك التي تساقطت قبل أسبوعين — لا تزال تُخَلِّف بقاياها ذات اللون القاتم على أطراف الساحات المخصصة لانتظار السيارات وأطراف المروج؛ إذ لم يصل الجو إلى درجة الدفء التي تكفي لإذابة بقايا الثلج هذه.

غير أن متاجر لندن كانت تمتلئ بالملابس المُعَدَّة لإمداد زائريها ممن يعانون البرودة القارسة بالدفء الشديد أو بشيء من الدفء على أي حال. وهكذا فإن الملابس الداخلية الحرارية والقفازات والمعطف ذا الياقة الفرو ساعدت رانجيت على تحمُّل شوارع لندن، في حين تحسنت الأمور لدى مايرا كثيرًا بارتدائها أول معطف من فراء المنك في حياتها.

التقى رانجيت ومايرا بالسيد طارق. وهو الذي دعا رانجيت — باسم جمعية الرياضيات الملكية — للانضمام إلى الجمعية والقدوم إلى لندن ليحدثهم عن إنجازه. (وهو الذي أنشأ مؤسسة تولت التكفل بنفقات رانجيت ومايرا.) كان السيد طارق الديواني رجلًا بدينًا كبير السن مشعَّث الشعر مثل ألبرت أينشتاين ودود القلب لا يبدو في لسانه

أي لكنة سوى اللكنة الخالصة لأوكسفورد وكامبريدج. (وأوضح قائلًا: «حسنًا، أنا على أية حال أمثل الجيل الرابع للعائلة في لندن.») وعندما لاحظ أن رانجيت يكاد يتجمد من البرد معظم الوقت، ضرب جبهته بيده. وعلق قائلًا: «تبًّا! تركتُهم يوفرون لك الرفاهية بدلًا من الراحة. سوف أنقلك إلى مكان آخر.»

نُقِل رانجيت ومايرا إلى فندق حديث البناء في جنوب كينسنجتون، لكنه لم يكن على قدر كبير من الفخامة. وهو ما أثار حيرة مايرا قليلًا إلى أن تحدثت مع الحارس، ثم أخبرت رانجيت وعلى وجهها ابتسامة أن السيد طارق اختار هذا الفندق على وجه التحديد لسببين: أولًا لأنه قريب من عدد من أفضل متاحف المدينة — إن كانا يكترثان لأمر كهذا أثناء إقامتهما في لندن — وثانيًا لأن الفندق دائمًا يكون مشغولًا بشيوخ النفط العرب وحاشيتهم الكبيرة العدد إذ ينزلون في طابق كامل أو اثنين في كل مرة. وتكمن أهمية ذلك في أن شيوخ النفط يكرهون الشعور بالبرد — لدرجة تفوق كراهية رانجيت له — ليس فقط داخل غرفهم الخاصة، وإنما داخل ردهات الفندق وسلالم الحريق بل وفي المصاعد أيضًا. وأكثر ما يكرهه مُلَّاك الفندق هو الإخفاق في تلبية كل ما قد يرغب فيه هؤلاء العرب ذوو الأيادي المبسوطة.

لم يكن رانجيت واحدًا من شيوخ النفط ذوي الأيادي المبسوطة، لكنه استمتع بتبعات هذا البسط في الإنفاق. وعلى مدار الشهرين المقبلين تحسنت حالته المزاجية بوضوح حتى إنه بدأ يفكر في السبب الآخر لاختيار ذلك الفندق، وهو وقوعه على مقربة من منطقة المتاحف. استمتع رانجيت بزيارة متحف التاريخ الطبيعي (على الرغم من برودة الجو هناك)، وهو ما شجعه على القيام برحلة عبر المدينة للوصول إلى المتحف البريطاني الكبير نفسه ليعود إلى المكان الذي أقام فيه جاميني في المدينة والذي كان أكثر فخامة (وأشد برودة)، ويُقِرُّ بعدها أن البلاد الباردة ربما تتمتع ببعض المزايا التي لا تتمتع بها البلاد الحارة.

لم يقتصر الأمر على السياحة فحسب. إذ نالت محاضرة رانجيت في جمعية الرياضيات الملكية قسطًا من التفكير، على أن ما قاله في لندن كاد يكون نفس ما قاله في المؤتمر الصحفي في كولومبو. ألحت مجلتان في طلب زيارة من رانجيت؛ الأولى مجلة «نيتشر» لأنها هي التي نشرت بحثه، والثانية «نيو ساينتيست» لأن القائمين عليها وعدوا باصطحابه إلى أفضل حانة في منطقتهم المطلة على نهر التايمز. أيضًا رتَّب دو سارام من مكانه البعيد في كولومبو لعقد مؤتمرين صحفيين. وعلى الرغم من انتشار صور رانجيت ومايرا

على صفحات الجرائد في جميع أكشاك بيع الصحف وعلى شاشات التليفزيون في بعض الأحيان، أقنعت مايرا رانجيت باختبار ملابسه الداخلية الحرارية عن طريق الوقوف خارج قصر باكينجهام ذات ليلة لمشاهدة تغيير نوبة الحراس. وعندما عادا إلى الفندق، ولم يجد رانجيت بدًّا من الإقرار بأن الصقيع لم يؤثر على أيٍّ من أطرافه بعد هذه التجربة، أشار أيضًا إلى أن جميع الكاميرات التي حملها غيرهم من السائحين كانت موجهة نحو الحراس وليس إليهما. وقال: «إذن هذا صحيح. يمكننا التجول في لندن كيفما نشاء دون أن يلتفت إلينا أحد على الإطلاق. كنت سأفضل هذا المكان حقًّا إذا ابتعد مسافة ألف كيلومتر أو نحو ذلك جهة الجنوب.»

ولأن شيئًا كهذا لم يكن وارد الحدوث، فقد استسلم رانجيت للأمر الواقع بعد بضع ساعات قضاها في ارتداء الملابس الثقيلة من أجل الخروج من ردهة الفندق إلى إحدى سيارات الأجرة ومنها إلى ردهة أخرى في مكان آخر. انتحى رانجيت بالسيد طارق جانبًا. ثم تحدث عبر الهاتف مع دو سارام في كولومبو، وأخبر مايرا مبتسمًا: «سنذهب إلى أمريكا. إلى مكان أظن أنهم يطلقون عليه الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم، أليس كذلك؟ ففيها سيعقدون اجتماعهم السنوي الشهر المقبل، وقد رتَّب دو سارام لذلك. نحن لم ننتهِ من الأمر هنا يا مايرا. سنقوم بكل ما يمكن القيام به هنا، لكن ليس قبل أن يغدو الطقس أكثر دفئًا.» وهكذا تكلفت مؤسسة أخرى من تلك المؤسسات السخية بحجز مكانين لهما على الدرجة الأولى ليغادرا على متن الرحلة التابعة لخطوط دلتا الأمريكية إلى مطار كينيدي في مدينة نيويورك في الساعة الثانية بعد ظهر هذا اليوم.

سافر رانجيت ومايرا، لكن بعد توجيه الكثير من عبارات الشكر الصادقة إلى السيد طارق، وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة كانا يغادران إنجلترا ويقتربان من الساحل الشرقي لأيرلندا.

بدا القلق التام على رانجيت. وسأل مايرا: «ألم نتسرع كثيرًا في قرار السفر؟ ألستِ ...؟» استدلت مايرا على سؤال رانجيت من الشهقة التي انطلقت من فمه، فضحكت، ومدت كأسها إلى المضيف الذي أسرع في تلبية طلبها بإعادة ملء الكأس بعصير البرتقال.

قالت مايرا: «أنا بخير. ويمكننا العودة إلى إنجلترا عندما يصير الطقس أكثر دفئًا واعتدالًا، وليكن في شهر يونيو مثلًا. لكن هل أنت واثق أنك تفعل الصواب الآن بالسفر إلى أمريكا؟»

انتهى رانجيت من فرد القشدة ومربى الفراولة على كعكته، وقضمها بفمه. ثم قال وهو يمضغ الطعام: «بالتأكيد. تحققت من نشرات الأحوال الجوية في نيويورك بنفسي. ودرجة الحرارة الصغرى هناك تسع والعظمى ثماني عشرة. لقد كانت درجة الحرارة تصل إلى أقل من هذا أحيانًا في ترينكومالي.»

وضعت مايرا كأسها وهي لا تدري أتأسف على ما قاله رانجيت أم تضحك. وقالت: «أوه، يا عزيزي. ألم تذهب إلى أمريكا من قبل؟»

شعر رانجيت بالقلق فجأة، واستدار لمواجهتها. قائلًا: «ماذا تعنين؟»

مدت يدها لتربت على يده. وقالت: «كل ما في الأمر أنك لم تلاحظ أنهم تقليديون إلى حدٍّ ما في بعض النواحي. ومن ذلك استخدامهم الأميال بدلًا من الكيلومترات مثلًا. وأيضًا — وأتمنى ألا يزعجك هذا — تمسكهم باستخدام مقياس الحرارة الفهرنهايتي بدلًا من مسايرة باقي دول العالم واستخدام المقياس المئوي، ألست معي في ذلك؟»

الفصل الثاني والعشرون

العالَم الجديد

بخلاف خيبة الأمل الكبرى التي أصابت رانجيت جرَّاء حالة الجو في نيويورك، فإن الأخبار التي استمر بثها على شاشات التليفزيون العديدة التي يعج بها جناحهما في الفندق كانت أشد ترويعًا من المعتاد. على سبيل المثال كانت أمريكا الجنوبية تتمتع بهدوء نسبي — فيما يتعلق بالحرب — لبعض الوقت. لكنها لم تعد كذلك. والآن (حسبما ذكر أحد مضيفي مايرا ورانجيت الأمريكيين) عدَّلت الولايات المتحدة معظم جرائم المخدرات من الجنايات إلى الجنح كحد أقصى. وهو ما أدى إلى إلغاء التجريم القانوني على كل المخزون التجاري تقريبًا لدى تجار المخدرات الكولومبيين. وهذا التعديل للقانون من شأنه أن يمَكِّن أي مدمن أمريكي من الحصول على ما يحتاج إليه لإشباع حاجته من الإدمان بسعر زهيد من أي صيدلية محلية ودون تدخُّل من أفراد العصابات، ومعناه على أرض الواقع توقف أفراد العصابات عن ممارسة نشاطهم. (أسفر هذا القرار أيضًا عن أنه أصبح من العبث لأي تاجر مخدرات في دولة مجاورة أن يوزع عينات مجانية على الفتية الذين يبلغون من العمر اثني عشر عامًا. إذ لم يعد ذلك كفيلًا بتوفير زبائنه من المدمنين في المستقبل؛ لأنه لا أحد من هؤلاء المدمنين المستقبليين — إن وُجِدوا من الأساس — سيشتري منه بأي حال. وهكذا فإن تعداد المدمنين الأمريكيين سيتضاءل رويدًا كل عام بوفاة المدمنين الطاعنين في السن أو إقلاعهم عن الإدمان وإحلال بضعة مدمنين جدد محلهم.)

هذا هو الجانب الجيد في إلغاء التجريم القانوني لتعاطي المخدرات. ولكن هناك جانب سيئ أيضًا.

تمثَّل الجانب السيئ — أو أشد الجوانب السيئة سوءًا — في أن الجهات المحتكرة لتجارة المخدرات — التي حُرِمَت أرباح زراعتها لنبات الكوكا — بدأت تنظر بعين اللهفة إلى النفط الذي يُصَدِّره جيرانهم في فنزويلا. فتجارة النفط تدر أموالًا أكثر من تجارة

المخدرات! وهكذا كانت مجموعات مسلحة من معاقل تجارة المخدرات الكولومبية تتسلل إلى حقول النفط التابعة للدولة المجاورة. كان الجيش الفنزويلي الصغير نسبيًّا (الذي يَسْهُل شراؤه بالمال تمامًا) يتظاهر بالمقاومة — في بعض الأحيان — لكن الحافز القوي كان قد بلغ أشده على الصعيد الكولومبي، ومن ثم كادت جميع الانتصارات تكون هناك.

جاءت كل تلك الأخبار لا شك إضافة إلى السلسلة الأخيرة من الأعمال الهوجاء القليلة التي شابها طابع العنف من جانب كوريا الشمالية بزعامة «الحاكم المحبوب»، وتجدد العنف في المناطق التي كانت تتكون منها دولة يوغسلافيا من قبل والتي لم يعد هناك سبيل إلى التصالح بينها، وأيضًا القتال العنيف المتزايد في المناطق التي كان يتألف منها الاتحاد السوفييتي من قبل، وكذلك الشرق الأوسط …

كان الوضع سيئًا تمامًا. لكن ما عوَّض رانجيت قليلًا هو مدينة نيويورك نفسها التي لم تكن تشبه ترينكومالي أو حتى كولومبو في شيء، بل إنها لم تكن تشبه لندن كثيرًا. قال رانجيت لزوجته حال وقوفهما في النافذة الزجاجية لجناح الفندق في الطابق السادس والستين: «المكان شاهق الارتفاع. من كان يتخيل النوم على ارتفاع كهذا؟» لكن ظهرت أمامهما ضمن المنظر العام للمدينة اثنتا عشرة بناية أو أكثر أعلى ارتفاعًا، وعندما سارا في شوارع المدينة، نادرًا ما كانت الشمس تظهر؛ لأن الجدران الخرسانية المرتفعة كانت تحجب ضوءها إلا عندما تكون فوق الرأس مباشرة.

قالت مايرا: «لكن يوجد هذا المنتزه الرائع»، وأشارت — وهي تحدق في البحيرة — إلى المباني العملاقة التي اصطفَّت على الجانب البعيد من المنتزه وإلى الأسطح البعيدة لحديقة حيوان منتزه سنترال بارك.

رد رانجيت، وبالطبع كان يبدو عليه قدر من التذمر، قائلًا: «أوه، لست أبدي تذمرًا.» فعلى الرغم من أن مكتب الدكتور داتوسينا باندارا داخل مبنى الأمم المتحدة يقع في الجانب الآخر من المدينة مباشرة، فإن الدكتور نفسه كان في مهمة لم يشأ أحد أن يُطلع رانجيت عليها. لكن المكتب وفَّر لهما فتاة رافقتهما إلى قمة مبنى إمباير ستيت، ودعتهما لتناول يخنة المحار الفاخرة في محطة السكة الحديد المركزية الكبرى، وكانت على استعداد لحجز تذاكر لهما لمشاهدة أي عرض في شارع برودواي. لم يتحمس رانجيت — الذي اقتصرت خبرته الحياتية فيما يتعلق بالعروض المسرحية على مشاهدتها على الشاشات المسطحة — لهذا العرض، لكن مايرا سعدت به كثيرًا. وهو ما أسعد رانجيت بدوره، فضلًا عن هذا فقد اكتشف رانجيت متحف التاريخ الطبيعي الأمريكي على بعد بضع بنايات فقط،

كان المتحف رائعًا في حد ذاته كمثال على تلك المتعة الجديدة في حياة رانجيت المتمثلة في اهتمامه بالآثار، وكان خلابًا أيضًا بالقبة الفلكية الرائعة التي تشغل حيزه الشمالي. «القبة الفلكية» ليست هي الكلمة المناسبة؛ فالواقع أن هذا البنيان الذي يقع في جنوب سنترال بارك هو أكثر من هذا بكثير. قال رانجيت — أكثر من مرة — وهو يتنزه وسط المعروضات الخلابة: «كم أتمنى لو كان يوريس معنا الآن.»

وبعد مرور فترة طويلة كانت كافية لأن يتوقف رانجيت عن التفكير في ظهور يوريس، ظهر الشخص الذي لم يكن مجيئه متوقعًا على الإطلاق والذي بوسعه أن يجعل من هذه الزيارة السارة حدثًا لا يُنسى. عندما فتح رانجيت باب الجناح الذي ينزل فيه هو ومايرا إثر طرقة على الباب — وهو يظن أنه لن يجد أمامه سوى خادمة الفندق تحمل بين يديها مناشف نظيفة — فإذا بجاميني باندارا واقفًا تعلو وجهه ابتسامة ويحمل في إحدى يديه أزهارًا يانعة لمايرا وفي الأخرى زجاجة عَرَق سريلانكي عالي الجودة لكليهما. تلك هي المرة الأولى التي يجتمع فيها ثلاثتهم منذ زواج مايرا ورانجيت، وعندئذٍ انهمرت الأسئلة كثيرة ومتلاحقة. كيف كانت إنجلترا؟ ما رأيهما في أمريكا؟ كيف كانت حياتهما في سريلانكا تلك الأيام؟ وبينما كان رانجيت وجاميني يصبان مشروب العَرَق للمرة الثالثة، إذا بمايرا تنتبه إلى أن الحوار برمته يسير في اتجاه واحد حيث يطرح جاميني الأسئلة، وتتكفل هي وزوجها بالرد عليها. فقالت: «أخبِرْنا إذن يا جاميني، ماذا تفعل في نيويورك؟»

ابتسم جاميني، ومد يديه. وقال: «أحضر اجتماعات لعينة واحدًا تلو الآخر. هذا هو ما أفعله.»

تدَخَّل رانجيت: «لكنني كنت أظن أنك تقيم في كاليفورنيا.»

– «هذا صحيح. لكن هناك أحداث شتى تقع على الصعيد الدولي، وهنا يأتي دور الأمم المتحدة، أليس كذلك؟ ثم تجرَّع الرشفة الثالثة، وبدا جادًّا. ثم قال: «في الواقع يا رانجيت أنا هنا لأطلب منك إسداء صنيع إليَّ.»

رد رانجيت بسرعة: «اطلب ما تشاء.»

نهره جاميني: «لا تتعجل بالموافقة. لأنها ستعني تعهدك بأمر ما فترة من الوقت. لكنه ليس تعهدًا سيئًا في الوقت نفسه. دعني أدخل في صلب الموضوع. عندما تذهب إلى واشنطن سيتصل بك رجل يدعى أوريون بليدسو. إنه عميل سري يحتل مكانة مرموقة في موقع تابع للحكومة لا يعرف معظم الناس عنه شيئًا. وفي هذا الصدد فإن لديه تاريخًا حافلًا. فهو محارب قديم في حرب الخليج الأولى، وفي الاضطرابات التي نشأت بين مناطق

يوغوسلافيا سابقًا، ثم في الحرب الثانية — والأسوأ — في الخليج، وهي حرب العراق. وكان قد أصيب فيها بجرح أفقده ذراعه اليمنى لينال بعدها وسام «القلب الأرجواني» وميدالية «الصليب الحربي» ثم المنصب الذي يحتله الآن بنفس هذا الترتيب.»

«أي منصب هذا؟» سأله رانجيت أثناء توقفه عن الكلام هنيهة.

هز رانجيت رأسه. وقال: «كُفَّ عن هذا يا رانجيت. سوف أترك بليدسو ليخبرك بذلك ... فثمة قواعد لا بد من اتباعها.»

حاول رانجيت مرة أخرى. وسأله: «هل يتعلق الأمر بوظيفة فعلية؟»

وهو ما جعل جاميني يتوقف ثانية ليفكر. ثم قال أخيرًا: «أجل، لكن لا يمكنني أن أخبرك بطبيعتها الآن أيضًا. الأمر المهم في هذه الوظيفة أنك ستؤدي عملًا يعود بالنفع على العالم. وكل ما نحتاج إليه من بليدسو هو التأكد من أن لديك التصريح الأمني الذي تحتاج إليه.»

سأل رانجيت: «أحتاج إليه من أجل ماذا؟»

هز جاميني رأسه وهو يبتسم. ثم بدا عليه شيء من الارتباك وقال: «عليَّ أن أحذرك من أن بليدسو واحد من قدامى المشاركين في الحرب الباردة، وأنه أحمق قليلًا أيضًا. لكن لن تراه مجددًا حالما تحصل على هذه الوظيفة.» ثم أضاف: «ولأن مقر عملي عندما أكون في أمريكا يبعد عن مكانه بأقل من نصف ساعة بالسيارة فستراني كثيرًا على الأرجح إن كنت تحتمل ذلك.» وغمز جاميني بعينه لمايرا. ثم قال إنه تأخر على حضور اجتماع آخر من تلك الاجتماعات المملة في الجانب الآخر من المدينة، وأنه يتمنى أن يلتقي بهما عما قريب في باسادينا، ثم غادر.

نظر كل من مايرا ورانجيت إلى الآخر. وسأل رانجيت: «أين تقع باسادينا؟»

أجابته مايرا: «في كاليفورنيا، أنا واثقة من ذلك. أتظن أنها ستكون مقر عملك؟ أقصد في حال قبول هذه الوظيفة.»

ابتسم لها رانجيت ابتسامة مشوبة بالامتعاض. وقال: «أتعرفين؟ ربما ينبغي علينا الاستفسار من والد جاميني عن كل ذلك.»

وهو ما فعلاه، أو على الأقل تركا رسالة في مكتبه. لكنهما لم يتلقيا ردًّا على الفور. بل لم يتلقيا ردًّا على الإطلاق إلا بعد أن قطعا الرحلة القصيرة من نيويورك (مطار لاجوارديا) إلى واشنطن (مطار ريجان) حيث رحب بهما أعضاء الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم،

وحجزوا لهما في فندقهما الجديد الذي يطل على مبنى الكابيتول — مقر الكونجرس الأمريكي — والذي يقع على مسافة قصيرة من منتزه واشنطن الوطني. لم يذكر الدكتور باندارا شيئًا في رسالته سوى قوله: «يؤكد لي جاميني أن هذا الشخص الذي يريد منك أن تقابله سينفعك كثيرًا.» لكن دون أن يوضح وجه النفع الكثير هذا، أو السبب الذي يجعل جاميني مهتمًّا من الأساس؛ ولذا تنهد رانجيت، وكفَّ عن التفكير في الأمر. والواقع أن ذلك لم يكن مدعاة للشعور بالإحباط التام؛ إذ اتضح أن واشنطن تعج بأشياء أثارت اهتمام رانجيت أكثر من مجرد وظيفة مجهولة سيعرضها عليه شخص يُدعى أوريون بليدسو لم يلتقِ به بعد.

أول مكانٍ ذهب إليه رانجيت ومايرا — برفقة عدد من المتطوعين المتحمسين من الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم — هو مجموعة المتاحف الشهيرة (التي لم يسمع بها رانجيت أبدًا قبل قدومه إلى واشنطن) والتي تُعرف جملةً باسم مُجَمَّع سميثسونيان. سُرَّ رانجيت بزيارة المتحف البريطاني في لندن ومتحف التاريخ الطبيعي في نيويورك؛ لكن مُجَمَّع سميثسونيان هذا — ليس مبنى رائعًا واحدًا فحسب وإنما صف كامل من المباني — سلب عقله. وكل ما استطاع رانجيت أن يوفر الوقت له هو زيارة متحف الفضاء والطيران، وزيارة خاطفة لعدد قليل من المتاحف الأخرى، لكن المعروضات تضمنت — من بين أشياء أخرى كثيرة — نموذجًا فعليًّا (وإن لم يكن بنفس الحجم) لمصعد فضاء أرتسوتانوف الذي كان قد بدأ الدوران حينئذٍ في سماء سريلانكا. بعدئذٍ حان دور كلمته الرئيسية في اجتماع الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم (وهو ما نجح فيه للمرة الثانية)، ثم أصبحت أمامه جلسات الاجتماع السنوي بالكامل ليختار من بينها. علينا أن نضع في اعتبارنا أن هذا العبقري المعروف بين أشهر علماء الأرض وأعظمهم، والمشهور على نطاق عالمي، والحاصل على ثلاث درجات دكتوراه فخرية من أرفع ثلاث جامعات على مستوى العالم (على الرغم من أنه لم ينل شهادة البكالوريوس)، والذي يمكن أن نشبهه بفيرما بل بنيوتن العصر الحديث، لم يحالفه الحظ في حياته الطويلة قط لحضور اجتماع علمي واحد من أي نوع سوى اجتماعات يكون هو المتحدث الرئيسي فيها. لم تكن لدى رانجيت أي فكرة عن مقدار ما يمكن تعلمه عن العديد من الموضوعات. وبعد انتهائه من مهمته الشاقة، أصبح بإمكانه حضور جميع جلسات المؤتمر، وهو ما استفاد منه بأن حضر جلسات عن علم الكون وتكتونيات (الفرع الذي يهتم ببنية قشرة الكواكب) المريخ (والزهرة والقمر أوروبا التابع لكوكب المشتري)، وجلسة بعنوان «ذكاء الآلة: الوعي بالذات» (كانت الجلسة من أجل مايرا في الأساس، لكنها أثارت اهتمام رانجيت

بنفس الدرجة عندما استمع إليها)، هذا بالإضافة إلى جميع جوانب البحث البشري المبهمة الأخرى التي لم يسبق لرانجيت استكشافها والتي أثيرت ضمن القائمة الطويلة والمشوقة للاجتماعات.

كانت مايرا مبهورة مثل رانجيت بهذا الكم من المعرفة البشرية، مع وجود استثناءات بسيطة. كان الاستثناء الأساسي بينها هذه الإغفاءة اليومية التي كان يصر عليها رانجيت بعد الغداء؛ لأن واحدًا من الأطباء شدد على أهمية ذلك. ظل رانجيت يُذَكِّرُها كل يوم: «أنتِ على وشك الوضع!» مع أنها لم تكن تشكُّ في ذلك أبدًا. وفي اليوم الأخير تقريبًا من اجتماع الجمعية، وبينما كان رانجيت يغطيها في فراشها، إذا بصوت خافت ينبعث من الهاتف. أفاد بأن رسالة جديدة قد وردت، وجاء فيها:

> أرجو أن تنضم إليَّ في جناحي لبعض الوقت اليوم لمناقشة عرض أظن أنه سيحوز اهتمامك.
>
> مقدِّم (متقاعد) تي أُو بليدسو (قوات مشاة البحرية الأمريكية).

نظر كل من رانجيت ومايرا إلى الآخر. «هذا هو الشخص الذي تحدث عنه جاميني في نيويورك»، قالها رانجيت، فأومأت مايرا بسرعة.

وقالت: «لا شك أنه هو. هيا اتصل به لنعرف ماذا يريد. ثم عُد إليَّ، وأخبِرْني بكل شيء.»

كان واضحًا أن الجناح الذي ينزل فيه المقدم متقاعد أوريون بليدسو أكبر اتساعًا من الجناح الذي حجزته الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم من أجل مايرا ورانجيت. حتى إن طبق الفاكهة على طاولة الاجتماعات في غرفة الاستقبال كان أكبر، ولم يكن موضوعًا وحده على المائدة. فإلى جواره وُضعت زجاجة ويسكي جاك دانييلز لم تُفتح بعد ومعها الثلج والكئوس ومشروبات إضافية أخرى.

لم يكن تي أوريون بليدسو أطول كثيرًا من رانجيت — ولأنه أمريكي فإنه لم يكن طويلًا على الإطلاق — وكان أكبر منه سنًّا بعقدين على الأقل. لكنه لا يزال محتفظًا بشعره كله، شد بليدسو على يد رانجيت بقوة وهو يصافحه على الرغم من أنه كان يستخدم يده اليسرى. «تفضل سيد ... تفضل بالجلوس. هل تستمتع بوقتك في مدينتنا واشنطن العاصمة؟»

لم ينتظر بليدسو ردًّا من رانجيت، وإنما أشار إلى طاولة الاجتماعات. وقال: «أتود شرابًا سيد سوبرا ...؟ إن كنت تقوى على تناول جاك دانييلز؟»

كبت رانجيت ابتسامته. فأي شخص قضى عامه السادس عشر — حيث اندفاع الشباب — في تناول مشروب العَرَق سيقوى في الأغلب على تناول أي نوع من الخمور الأمريكية. ثم قال: «لا بأس بذلك. ذكرتَ في رسالتك أن لديك عرضًا.»

نظر إليه بليدسو نظرة عتاب. وقال: «يقولون عنَّا نحن الأمريكيين إننا في عجلة من أمرنا دائمًا، لكن خبرتي أثبتت أنكم أيها الأجانب المتسرعون دومًا. لا شك أنني أود الحديث معك حول موضوع ما، لكنني أفضل التعرف على المرء قليلًا قبل أن نعمل معًا.»

أمسك بليدسو زجاجة الويسكي بيده اليمنى التي لم يكن يستخدمها طوال الوقت، بينما كان يفتح الزجاجة باليد الأخرى. لاحظ بليدسو الموضع الذي ترتكز عليه عينا رانجيت فضحك ضحكة خافتة. وقال في لهجة أقرب إلى التباهي: «إنها طرف صناعي. كما أنه مصمم بكفاءة عالية. يمكنني أن أصافح بها الآخرين إذا أردت، لكني لا أفضل ذلك. فما الفائدة إن كنت لن أشعر بيدك؟ وإذا شرد ذهني وبالغت قليلًا في الضغط على يدك، فربما تجد نفسك فجأة تبحث عن طرف صناعي أنت الآخر.»

لاحظ رانجيت أن الذراع الصناعية تعمل بكفاءة تامة، وهو ما نبهه إلى إخبار مايرا بذلك. وباستخدام هذه الذراع الصناعية فتح بليدسو الزجاجة، وصب سنتيمترين من الويسكي في كل كأس، ثم قدم إحدى الكأسين لرانجيت. نظر بليدسو بانتباه ليرى هل سيضيف رانجيت أيًّا من المشروبات الأخرى إلى الويسكي. وعندما لم يفعل، أومأ بليدسو إيماءة استحسان صغيرة وارتشف رشفة من كأسه. وقال: «هذا هو ما نسميه رشفة الويسكي. يمكنك تجرعه دفعة واحدة إن أردت، لكن يجدر بك أن تحاول. هل ذهبت إلى العراق من قبل؟»

هز رانجيت رأسه نفيًا وهو يرتشف القليل من الويسكي بدافع إبداء الكياسة مع مُضيفه.

ربَّت بليدسو على ذراعه الصناعية بالذراع السليمة. وقال: «فقدت هذه هناك. حيث لا تدخر فصائل الشيعة والسنة وسعًا في قتال بعضهم بعضًا، لكنهم يتوقفون بين الحين والحين لقتل من يستطيعون قتله منا. تلك الحرب كانت خطأً ارْتُكِب في مكان غير مناسب ولأسباب غير مبررة.»

بذل رانجيت غاية ما في وسعه ليبدي اهتمامه بحديث بليدسو من باب الأدب معه، وهو يتساءل في نفسه هل سيقول بليدسو إن قرار الحرب قد يكون صائبًا في حالة

أفغانستان، أو ربما إيران. لكن الأمر لم يكن كذلك. إذ قال بليدسو: «إنها كوريا الشمالية. هؤلاء هم الذين يستحقون إنزال الدمار بهم. إن توجيه عشرة صواريخ إلى عشرة مواقع مناسبة كفيل بإخراجهم من اللعبة.»

تنحنح رانجيت. وقال وهو يتناول رشفة أخرى من كأسه: «على حد علمي أن المشكلة في شن حرب على كوريا الشمالية تكمن في امتلاكها جيشًا مهولًا مزودًا بأحدث التقنيات الحربية، وأنه يتمركز على الحدود بعيدًا عن سول عاصمة كوريا الجنوبية بأقل من خمسين كيلومترًا.»

لوَّح بليدسو بيده مستنكرًا. وقال: «سحقًا، بالتأكيد سيكون هناك خسائر. خسائر جمة لا شك. لكن أي مشكلة في ذلك؟ ستكون هذه الخسائر من نصيب الكوريين الجنوبيين، وليس الأمريكيين.» ثم ردَّ نفسه بسرعة وهو يقطب جبنيه من عبارته المزعجة: «حسنًا، بالطبع توجد أعداد كبيرة من القوات الأمريكية هناك. لكن لا بد دون الشَّهد من إبر النَّحْل، أليس كذلك؟»

بدا لرانجيت أن الحديث اتخذ منحًى بغيضًا، وعندما ألقى بليدسو منديلًا داخل سلة المهملات، خال لرانجيت أنه أدرك السبب. فقد ارتطم المنديل بزجاجة ويسكي فارغة. وهكذا بدا واضحًا أن هذا الاجتماع لم يكن الاجتماع الأول الذي عقده بليدسو يومئذٍ.

تنحنح رانجيت. وأردف قائلًا: «حسنًا سيد بليدسو، جئت من بلد صغير له مشكلاته الخاصة. ولا أود توجيه النقد للسياسة الأمريكية.»

أومأ بليدسو برأسه ليوافقه الرأي. وقال: «وهذا أمر آخر»، ثم توقف ليعرض على رانجيت ملء الكأس ثانية. لكن رانجيت هز رأسه رافضًا. فهز بليدسو كتفيه وملأ كأسه هو. واستطرد: «الجزيرة الصغيرة التي جئت منها. اسمها سري... سري...»

صحح له رانجيت بأسلوب مهذب: «سريلانكا.»

– «أجل، تلك الجزيرة. أتعرف ما تتمتعون به هناك؟»

فكر رانجيت. ثم أجاب: «أظن أنها على الأرجح أجمل جزيرة في ...»

– «لا أقصد الحديث عن الجزيرة اللعينة بأسرها، بحق السماء! يا إلهي، هناك ملايين من الجزر الجميلة في كل مكان حول العالم، وجمعيها لا يساوي عندي شيئًا. إنني أتحدث عن ميناء صغير لديكم هناك يسمى ترينكوم... تيرنكو ...»

أشفق عليه رانجيت. وقال: «أظن أنك تعني ترينكومالي. لقد نشأتُ هناك.»

«حقًّا؟» فكر بليدسو في هذه المعلومة، لكنه وجدها بلا جدوى، فاستطرد. وقال: «على أي حال لا يعنيني أمر هذه المدينة في شيء. إنه الميناء الذي لا مثيل له! أتعرف كيف

يمكن الاستفادة من هذا الميناء؟ يمكن أن يصبح أفضل قاعدة لأسطول من الغواصات النووية في العالم سيد سوبـ... سوبرا ...»

ملأ بليدسو كأسه مجددًا، وبدأ أثر الويسكي يظهر عليه. تنهد رانجيت، وأسعفه مرة أخرى. وقال: «اسمي سوبرامانيان يا سيد بليدسو، ونحن نعرف بالفعل بأمر هذه القاعدة. ففي الحرب العالمية الثانية كان الميناء مقرًّا لأسطول الحلفاء، وقبلها صرح اللورد نيلسون نفسه أنه واحد من أعظم الموانئ في العالم.»

– «هذا هراء، ما دخل اللورد نيلسون في ذلك؟ لقد كان يتحدث عن مكان من أجل إبحار السفن. وأنا أتحدث عن الأسلحة النووية! هذا الميناء عميق بدرجة تُمَكِّن الغواصات من الغوص إلى عمق لا يستطيع العدو اكتشافه، وبالطبع لا يستطيع مهاجمته! عشرات الغواصات! وربما المئات. وما الذي فعلناه نحن حيال هذا؟ تركنا الهند تقتنص حقوق التعاقد على الميناء بأكمله. الهند! يا إلهي! وما حاجة الهند إلى أسطول من الأساس، لا أستطيع ...»

بدأ رانجيت يمل هذا المخمور المتعنت. صحيح أن جاميني كان أعز أصدقاء رانجيت، لكن ذلك لا يُلزمه بتحمل المزيد من هذا الهراء. وقف رانجيت. وقال: «أشكرك على ضيافتك يا سيد بليدسو، لكن لا بد لي من الانصراف.»

مد رانجيت يده لمصافحة بليدسو، لكن بليدسو لم يصافحه. وإنما حملق فيه بغضب، ثم أعاد الغطاء إلى زجاجة الويسكي في تؤدة. وقال: «ائذن لي لحظة. فلدينا عمل لم ننتهِ منه بعد.»

توارى بليدسو في واحد من حمامات الجناح. وسمع رانجيت صوت انسياب الماء، ثم فكر في الأمر وهز كتفيه، ثم جلس. لكن الأمر لم يستغرق لحظة فحسب. وإنما مرت نحو خمس دقائق قبل أن يظهر تي أوريون بليدسو مرة أخرى في هيئة تكاد تكون مختلفة تمامًا. فهو الآن نظيف الوجه ممشط الشعر يحمل كوبًا غير ممتلئ من القهوة الساخنة؛ لا شك أنه أحضرها من ماكينة القهوة التي تبدو جهازًا أساسيًّا في حمام أي فندق أمريكي.

لم يعرض بليدسو على رانجيت تناول القهوة. ولم يقدم أي تفسير أيضًا، وإنما جلس، وألقى نظرة خاطفة على زجاجة الويسكي كأنه يتعجب من وجودها هناك، ثم قال في حماس: «سيد سوبرامانيان، هل يعني لك اسما ويتفيلد ديفي ومارتن هيلمان شيئًا؟»

وقع رانجيت في شيء من الحيرة بسبب التغير المفاجئ في موضوع الحوار وفي سلوك بليدسو، وإن كان قد تحمس قليلًا لأن الحوار تغير فجأة إلى الحديث عن أمر يعرفه، فقال: «بالطبع، التشفير بالمفتاح العام. تقنية «ديفي-هيلمان-ميركل».»

قال بليدسو: «تمامًا. لا أظن أنني في حاجة إلى أن أخبرك أن مشكلة كبرى تحيط بتقنية «ديفي-هيلمان» بسبب أجهزة الكمبيوتر الكمومية.»

والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك حقًّا. فمع أن رانجيت لم يهتم اهتمامًا خاصًّا من قبل قط بالشفرات أو بفكها — باستثناء محاولة التعرف على كلمة المرور الخاصة بأحد أساتذته — فإن أي عالم رياضيات في العالم كان على علم تام بهذه المشكلة.

استندت تقنية «ديفي-هيلمان» على فكرة بسيطة جدًّا، لكن تنفيذها كان بالغ الصعوبة حتى إن الفكرة ظلت بلا جدوى إلى أن ظهرت أجهزة الكمبيوتر ذات الإمكانيات الخارقة. إن الخطوة الأولى في تشفير أي رسالة يراد الاحتفاظ بسريةِ ما بها من معلومات هي تمثيلها في صورة سلسلة من الأرقام. وبالطبع أسهل طريقة للقيام بذلك هي استبدال حرف الألف بالرقم واحد وحرف الباء بالرقم اثنين وهكذا حتى حرف الياء الذي يمثله العدد ثمانية وعشرون. (لا شك أن أي خبير تشفير في العالم — أو على الأقل أي خبير تشفير تخطى العاشرة من عمره — لن يتعامل بجدية مع هذا الأسلوب البسيط المعتمد على إحلال الأرقام محل الحروف.) وبعدها يمكن الربط بين هذه الأرقام باستخدام عدد كبير جدًّا — وليكن «ن» — وبطريقة تختفي من خلالها عملية الإحلال البسيطة الأصلية. وذلك عبر إضافة الأعداد القائمة مقام الحروف إلى العدد الكبير «ن» لتحقيق الغاية المرجوة.

غير أن هناك لغزًا يكتنف العدد «ن» نفسه. فخبراء التشفير يحصلون على هذا العدد عن طريق ضرب عددين أوليين كبيرين. ويمكن لأي جهاز كمبيوتر عادي إجراء هذا النوع من الضرب في جزء من الثانية، لكن ما إن تنتهي عملية ضرب العددين الأوليين الكبيرين معًا، تصبح محاولة اكتشاف الأعداد الأولية نفسها مهمة بالغة الصعوبة، وربما تستغرق سنوات عديدة حتى مع استخدام أفضل أجهزة الكمبيوتر. من هنا ظهر مصطلح «شفرة الباب الخلفي»؛ فالدخول من الباب الخلفي سهل بينما يكاد يكون الخروج منه مستحيلًا. يستطيع أي شخص أن يشفر أي رسالة باستخدام ناتج ضرب الأعداد الأولية حتى وإن كان واحدًا من أفراد المقاومة الفرنسية — أيام الحرب العالمية الثانية — تعرض لغارة، ونجح في الفرار من الجستابو (البوليس السري الألماني) وفي حوزته معلومات مهمة للغاية

عن المكان الذي تتجه إليه مجموعة من الفرق المدرعة التابعة للجيش الألماني. لكن لن يستطيع قراءة هذه الرسالة سوى أناس يعرفون كلا العددين الأوليين اللذين استخدمهما هذا الشخص.

احتسى بليدسو رشفة من القهوة التي كانت تبرد بسرعة. وقال: «الأمر يا سوبرامانيان أننا نرسل ونستقبل رسائل مهمة للغاية عبر جميع أنحاء العالم في الوقت الراهن، ولا تسألني عن طبيعة تلك الرسائل. فليس لديَّ سوى لمحة عامة عن الأمر، وحتى ذلك لا أستطيع أن أخبرك به. لكننا نولي أهمية كبرى في هذا الوقت دون أي وقت آخر لأن تكون شفرتنا مستحيلة الاختراق. قد يكون هناك نظام تشفير لا يتضمن كل هذا الهراء المتعلق بتحليل الأعداد الأولية. ولو كان هذا النظام موجودًا، فنحن نطلب مساعدتك في الوصول إليه.»

بذل رانجيت جهدًا كبيرًا كي يمنع نفسه من الضحك. فما يطلبه منه بليدسو هو ما تحاول جميع الوكالات المعنية بالتشفير في العالم الوصول إليه منذ أن نشر ديفي وهيلمان بحثهما عام ١٩٧٥. ثم سأل رانجيت: «ولماذا وقع الاختيار عليَّ؟»

بدا الارتياح على بليدسو. وقال: «عندما اطلعت على ما نشر من أخبار حول برهانك فيما يتعلق بنظرية فيرما الأخيرة تذكرت شيئًا. فكل علماء الرياضيات الذين عملوا على هذه التقنية الخاصة بالتشفير باستخدام المفتاح العام استخدموا شيئًا أطلقوا عليه «اختبار فيرما»، أليس كذلك؟ من يستطيع إذن أن يعرف الكثير عن هذا سوى شخص نجح للتوِّ في إثبات نظريته؟ لقد نلتَ إعجاب جهات أخرى في كل مكان، ولذلك سارعنا نحن لضَمِّك إلى فريقنا.»

ألحت على رانجيت الرغبة في الوقوف والانصراف عندما فكر في شتى الأسباب التي تجعل حديث بليدسو مثيرًا للسخرية. لا شك أن «اختبار فيرما» اتُّخِذَ أساسًا للعديد من الطرق المستخدمة حديثًا في تحديد الأعداد الأولية. لكن الانتقال من هذه الحقيقة إلى الاعتقاد أن الرجل الذي أثبت نظرية فيرما قد يكون ذا نفع في فك الشفرات باستخدام المفتاح العام ما هو إلا اعتقاد منافٍ للعقل.

غير أن هذا تحديدًا هو العرض الذي طلب جاميني من رانجيت أن يقبله. كبت رانجيت رغبته في الضحك أمام بليدسو، وقال: «أنضم إليكم. أيعني هذا أنكم تعرضون عليَّ وظيفة؟»

رد بليدسو: «قطعًا نعرض عليك ذلك، يا سوبرامانيان. سوف نوفر لك جميع الموارد التي تحتاج إليها — وحكومة الولايات المتحدة لديها الكثير منها — بالإضافة إلى راتب كبير. ما رأيك في ...؟»

لم يستطع رانجيت إخفاء دهشته من الرقم الذي ذكره بليدسو. والذي يكفي لإعالة أجيال عديدة من عائلة سوبرامانيان. فعلَّق بجفاء: «يبدو هذا مناسبًا. متى يمكنني البدء؟»

قال بليدسو متجهمًا: «حسنًا، أخشى أن أقول ليس على الفور. فالأمر يتعلق بالحصول على تصريح أمني لك. لا سيما وأنك قضيت بضعة أشهر داخل السجن للاشتباه في تورطك في أنشطة إرهابية.»

حينئذٍ صار رانجيت قاب قوسين أو أدنى من إظهار جام غضبه. وقال: «هذا هراء! لم أتورط في أي ...»

رفع بليدسو يده. وقال: «أعرف ذلك. أتظن أني سأعرض عليك وظيفة كهذه ما لم أكن واثقًا من شيء كهذا؟ لكن الجهة المسئولة عن استخراج التصريح الأمني تنتابها الظنون عندما يكون للشخص صلة بجماعة إرهابية معروفة مثل القراصنة الذين اختطفوا السفينة. لا داعي للقلق. فكل ما نحتاج إليه هو تسوية هذا الوضع. وقد تطلَّب ذلك اللجوء إلى أعلى المستويات. وبالفعل تدخَّل البيت الأبيض، وسوف تحصل على التصريح. غاية ما هنالك أن الأمر سيستغرق بعض الوقت.»

تنهد رانجيت، وكظم غيظه. وتساءل: «وكم سيستغرق ذلك؟»

«ربما ثلاثة أسابيع. أو شهرًا على الأكثر. لذلك أقترح عليك أن تنتهي من أمر جميع المقابلات الصحفية التي وافقت عليها، وعندما أتلقى الأمر، سأتصل بك وأرتب لمجيئك إلى كاليفورنيا.»

لم يكن هناك ما يمكن لرانجيت فعله. فقال: «حسنًا. سوف أحتاج إلى عنوان لك لأُعلِمك بمكاني.»

ارتسمت على وجه بليدسو ابتسامة عريضة. ولاحظ رانجيت أن الكثير من أسنان بليدسو — التي تشبه أسنان القرش — تظهر عندما يبتسم. وقال بليدسو: «لا تقلق. سأعرف مكانك.»

غدت الأسابيع الثلاثة ستة أسابيع، ثم شهرين. وبدأ رانجيت يتساءل إلى أي مدى سيمتد سخاء المؤسسة التي تتكفل بدفع مستحقات الفندق، ولم يكن قد تلقى أخبارًا من بليدسو

بعد. قالت مايرا في محاولة للتخفيف عنه: «إنه الروتين الحكومي. طلب منك جاميني أن تقبل الوظيفة. وأنت قَبِلْتَها. لا يسعنا الآن سوى السير وفق جدولهم الزمني.»

قال رانجيت عابسًا: «لكن أين جاميني؟» لم يرَ رانجيت جاميني مرة ثانية، وعندما أرسل خطابًا إلكترونيًّا إلى مكتب والد جاميني ليسأل عن عنوانه، جاءه ردهم: «إنه في ميدان العمل، ولا يمكن الوصول إليه.»

زارت مايرا أصدقاءها القدامى في معهد ماساتشوستس لتروح عن نفسها. لكن شيئًا كهذا لم يكن متاحًا أمام رانجيت. وعندما عادت مايرا إلى الفندق لاهثة تتهادى في مشيتها ومعها الكثير من الأنباء عن آخر إنجازات عدد من زملائها، فاجأها رانجيت بسؤال غير متوقع: «ما رأيكِ أن نستقل الطائرة التالية ونعود إلى سريلانكا؟»

جلست مايرا ببطنها المنتفخة على أحد الكراسي. وتساءلت: «ما الأمر يا عزيزي؟»

«لا جدوى من بقائنا هنا»، قالها دون أن يذكر شيئًا عن البرودة القارسة في الخارج. ثم أضاف: «كنت أفكر فيما قاله الدكتور باندارا. فوظيفة أستاذ في الجامعة ليست سيئة، وسأحظى أيضًا بفرصة إجراء الأبحاث، وهناك العديد من المسائل الكبرى التي لم يتوصل أحد لحلها بعد. إذا كنت تحلمين بالثراء يمكنني البحث عن حل لمعادلة بلاك–شولز. وإذا أردتُ تحديًا حقيقيًّا فهناك دائمًا مسألة $P = NP$. إذا استطاع أحد حل هذه المسألة فسيُحْدِث تغييرًا جذريًّا في علم الرياضيات.»

تململت مايرا في جلستها على الكرسي في محاولة لإيجاد وضع مريح. وعندما لم تجد، مالت لتضغط على يد رانجيت. وسألت: «ما معنى $P = NP$ ؟ أو تلك المعادلة الأخرى؟»

كان الأمر أسوأ مما ظنت مايرا حتى إنها لم تستطع استدراج رانجيت لتغيير الموضوع. قال رانجيت: «المشكلة أننا نضيع وقتنا هنا. ومن الأفضل أن نضع حدًّا لهذا، ونعود إلى بلدنا.»

ذكَّرته مايرا: «لكنك وعدت جاميني. انتظر بضعة أيام أخرى فحسب.»

قال بعناد: «سننتظر بضعة أيام. أو أسبوعًا على الأكثر، ثم نرحل من هنا.»

لم تصل فترة الانتظار إلى هذا الحد. ففي اليوم التالي مباشرة تلقى رانجيت رسالة نصية من المقدم السابق تي أوريون بليدسو. جاء فيها: «تسلمنا التصريح. اذهبا إلى باسادينا في أسرع وقت ممكن.»

لا شك أن مايرا ورانجيت كانا يرغبان في مغادرة بوسطن بمناخها الذي كان الأسوأ حتى ذلك الحين. لكن عندما انتهيا من حزم حقائبهما، وأثناء انتظار الليموزين التي

ستنقلهما إلى مطار لوجان ليلحقا بالرحلة المتجهة إلى مطار لوس أنجلوس الدولي وضعت مايرا يدها على بطنها فجأة. وقالت: «يا إلهي، أظن أنها انقباضات الرحم.»

وكانت كذلك بالفعل.

عندما أوضحت مايرا لرانجيت ما يجري، غيرت الليموزين وجهتها من المطار إلى مستشفى ماساتشوستس العام. وبعد مرور ست ساعات أبصرت الصغيرة ناتاشا سوبرامانيان النور.

الفصل الثالث والعشرون

المُزارع «بيل»

في مكان آخر بعيد جدًّا في المجرة …

لا يمكنك القول إن «عظماء المجرة» قد غاب عن بالهم أمر كوكب الأرض الذي يعج بالفوضى. فهذا لم يحدث أبدًا. كانوا بالفطرة غير مؤهلين لنسيان أي شيء. ومع ذلك فإن كوكب الأرض تراجع ليحتل أبعد موضع في عقلهم الجماعي، وأصبح اهتمامهم منصبًّا على موضوعات أخرى أكثر أهمية، أو أكثر تشويقًا.

في حالة «بيل» نفسه — على سبيل المثال — كانت أمامه مهمة الاعتناء بمزرعته، أو بالأحرى «مزرعته» بين علامتَي تنصيص؛ إذ لا ينمو فيها أي شيء عضوي.

إننا لا نفكر عادةً في «عظماء المجرة» على أنهم مزارعون من أي نوع. غير أنهم شجعوا زراعة أنواع معينة من المحاصيل، ومن الغريب أن مزارعي القرون الوسطى من البشر فعلوا شيئًا شبيهًا بذلك للغاية مع أراضيهم ذات المساحات الضئيلة.

الرقعة التي أثارت اهتمام «بيل» كي يذهب إليها هي حيز من الفراغ يساوي عدة سنوات ضوئية.

ربما يُخيَّل لرائد الفضاء من الوهلة الأولى أن هذه الرقعة لا تمثل شيئًا سوى فضاء خالٍ. والحقيقة أن هذا هو ما ظنه رواد الفضاء من البشر تحديدًا عندما شاهدوها لأول مرة. لكنها لم تكن خالية تمامًا. فالمعاينات الأكثر وضوحًا — التي تحققت عندما نجح البشر في تصنيع تلسكوبات أفضل — بيَّنت أن هناك شيئًا في هذه البقعة من الفضاء يسبب انكسار الضوء بحيث يظهر شعاع أزرق في اتجاه وشعاع أحمر في الاتجاه الآخر.

وهذا الشيء — مثلما عَرفَه «عظماء المجرة» دومًا — هو الغبار البَيْن نجمي.

وبطبيعة الحال لم تكن هذه الرحلة هي زيارة «بيل» الأولى لمزرعته. فمنذ فترة قصيرة — ربما قبل بضعة ملايين سنة أو نحو ذلك — استكشف «بيل» المزرعة بالتفصيل، وأعدَّ

إحصاءً رسميًّا دقيقًا للغبار. كم تبلغ النسبة المئوية لجزيئات الغبار (مثلما قد يقيسها البشر) التي يساوي حجمها أقل من جزء من المائة من الميكرون؟ بل وكم تبلغ النسبة المئوية لجزيئات الغبار في جميع نطاقات الحجوم وصولًا إلى الجزيئات العملاقة — التي تساوي عشرة ميكرونات في العرض — وربما حتى أكبر من ذلك؟ دوَّن «بيل» أيضًا التركيب الكيميائي لجزيئات الغبار وأعداد نيوتروناتها وحالتها التأينية.

كان كل هذا عملًا بسيطًا وسهلًا للغاية من الواجبات التي يفرضها الواحد من «عظماء المجرة» على نفسه. على أن «بيل» اعتبرها دائمًا ضمن ما يمكن أن نطلق عليه الواجبات الأكثر إثارة للمتعة. فعلى أي حال سوف يُسْهِم إحصاؤه الرسمي هذا في النهاية في تحقيق واحد من الأهداف السامية التي يخطط لها عظماء المجرة.

وهكذا كان ما يفعله «بيل» — شأنه في ذلك شأن بعض البارونات النورمانديين في القرن الحادي عشر — هو الطواف في حقوله. في حين أن رقعة الغبار كانت ما يسميه العبيد السكسونيون التابعون للبارون حقلًا مُرَاحًا؛ بمعنى أنه متروك بلا زراعة كي تستريح التربة وتستعيد خصوبتها.

لم تكن أرض «بيل» تطرح ذرة أو شوفانًا. وإنما كانت تطرح نجومًا فحسب؛ نجومًا كبيرة وصغيرة ومن كل الأنواع؛ غير أن «عظماء المجرة» فضَّلُوا النجوم الكبيرة. إذ يمكن الاعتماد على تلك النجوم العملاقة — التي من شأن البشر أن يسموها بحروف مختصرة — في حرق مخزونها الأوَّلِي من الهيدروجين داخل الأفران النووية في أنويتها على جناح السرعة. وعندما ينتهي هذا يتكرر الأمر مرة أخرى مع الهيليوم والكربون والنيون والمغنيسيوم — مع مراعاة أن يكون كل عنصر أثقل وزنًا من العنصر السابق له — إلى أن يأتي دور الحديد الذي يقع في نهاية السلسلة.

وعندما تتحول نواة النجم إلى الحديد يَضْعُف الفرن النووي الموجود داخل النواة إلى أن يفقد القدرة على مقاومة ضغط الجاذبية الهائل المتولد عن الوزن الثقيل لطبقاته الخارجية. فيتهاوى النجم …

وبعدها يرتد النجم محدثًا انفجارًا مهولًا — تتولد منه ثروة جديدة من العناصر الأثقل التي تكونت في الحرارة المناسبة لهذا الانفجار — ليتحول بعدها إلى جزيئات دقيقة تزيد من خصوبة الرقعة التالية من الغاز البين نجمي فيما بعد.

لا بد من حدوث ذلك — إما عاجلًا أو آجلًا — في ظل السير الطبيعي للأحداث، ولن يتطلب الأمر قيام «بيل» بأي عمل. فعملية كهذه قد تتم بالاعتماد على قوانين الجاذبية البسيطة لنيوتن وأينشتاين؛ تلك القوانين التي لم يرَ «عظماء المجرة» أي داعٍ لتغييرها.

وكما أشرنا سيحدث ذلك «عاجلًا أو آجلًا»، لكن «عظماء المجرة» يفضلون حدوثه عاجلًا. وقد اتخذ «بيل» قرارًا بتسريع هذه العملية. فتفقَّد حيزًا كبيرًا من الفضاء المجاور، وحالفه الحظ في العثور على مجرى رفيع جدًّا من مادة مظلمة قريبة ... فوجَّهه ليصب في أرضه ... وكان سعيدًا بما حققه. فإنجاز العمل بسرعة كان أحد الأهداف الرئيسية لدى عظماء المجرة.

وما هذا الهدف؟

ليس ثمة وسيلة للتعبير عن الهدف باستخدام مصطلحات يمكن للبشر فهمها، لكن إحدى خطوات تحقيقه هي زيادة نسبة العناصر الثقيلة إلى الخفيفة، وفي هذه الحالة تضم كلمة «ثقيلة» تلك العناصر التي تحتوي على نحو عشرين بروتونًا على الأقل في أنويتها إضافة إلى حشد من النيوترونات. مما يعني أنه تم الإغفال تمامًا عن نوعية العناصر التي تمثل أساس نشأة الكون.

ربما يستغرق تحويل كل هذه العناصر الخفيفة إلى عناصر ثقيلة جهدًا كبيرًا ووقتًا هائلًا ... لكن الوقت في نهاية الأمر مِلْك لعظماء المجرة.

الفصل الرابع والعشرون

كاليفورنيا

قد يعتبر الساحل الشرقي الأمريكي مركزًا للنفوذ أو للسلطة أو للثقافة. (بالطبع يعتمد ذلك على المدينة التي تتحدث عنها من مدن الساحل الشرقي سواء أكانت نيويورك أم واشنطن أم بوسطن.) لكنه قطعًا أدنى مكانة من الطرف الآخر لقارة أمريكا الشمالية في جانب واحد مهم جدًّا. لم تكن أشجار النخيل أو الأزهار اليانعة المنتشرة في كل مكان هي ما أثارت البهجة في نفس آل سوبرامانيان. فمايرا ورانجيت في النهاية من أهل سريلانكا، ومعتادان على مشاهدة باقة متنوعة من النباتات المدهشة. كان أفضل شيء أعجبَ مايرا ورانجيت في كاليفورنيا هو دفء جوها! إذ لا تشهد كاليفورنيا البرد القارس أبدًا خاصة في المناطق المحيطة بمدينة لوس أنجلوس التي لم يصل الطقس فيها إلى درجة البرودة الفعلية من قبل قط.

وهكذا كانت باسادينا — مقر عمل رانجيت الجديد — مكانًا رائعًا للعيش فيه. أو لنَقُل إنها هكذا إذا لم نضع في الاعتبار إمكانية حدوث زلازل. أو إذا لم نضع في الاعتبار اندلاع حرائق مدمرة في مجمع سكني كامل في عام قاحل فتأتي على الأخضر واليابس. أو إذا لم نضع في الاعتبار فيضانات تدمر مجمعًا سكنيًّا آخر شُيِّدَت منازله على أراضٍ شديدة الانحدار؛ لأن جميع الأراضي المستوية قد بُني عليها من قبل؛ وكثيرًا ما تفعل الفيضانات ذلك في الأعوام التي ينشب فيها عدد من الحرائق الطفيفة نسبيًّا لتدمر من الأشجار ما يكفي لإضعاف سيطرة سطح الأرض على الطبقة السفلية.

لا بأس بكل هذا. فربما لن يقع منه شيء. أو على الأقل لن يقع شيء من هذا القبيل قبل أن تحزم عائلة سوبرامانيان أمتعتها، وتنتقل إلى مكان آخر. وفي تلك الأثناء تعد باسادينا مكانًا رائعًا لتربية الأطفال. كانت مايرا سعيدة وهي تدفع عربة ناتاشا في السوق

المحلي شأنها في ذلك شأن كل الأمهات الأخريات، وجال بخاطرها أنها لم تكن محظوظة إلى هذا الحد قط في حياتها.

ومن ناحية أخرى اعترت رانجيت بعضُ الشكوك.

صحيح أنه أَحَبَّ الجوانب الجميلة لحياتهم في جنوب كاليفورنيا قدر ما أحبتها مايرا. واستمتع برحلاتهما القصيرة إلى أماكن حظيت باهتمامهما واختلفت عن أي شيء في سريلانكا مثل حُفَر قطران لا برِي في قلب المدينة حيث عَلِقَت أنواع من الحيوانات منذ آلاف السنين وظلت محفوظة في مكانها لتثير إعجاب البشر من رؤيتها في القرن الحادي والعشرين. استمتع رانجيت أيضًا باستديوهات تصوير الأفلام بما فيها من معدات مصممة ببراعة. (خالج مايرا شيء من التردد بشأن اصطحاب تاشي إلى مكان محفوف بالمخاطر كهذا، لكن ناتاشا تهللت فرحًا، وأُعجبت بالمكان عندما ذهبوا إليه.) ومن الأماكن الأخرى التي استمتع بها رانجيت مرصد جريفيث بما يحتويه من أجهزة لرصد الزلازل وتلسكوبات ومكان مطل على المدينة للتنزه في الهواء الطلق.

كانت الوظيفة هي الشيء الذي لم ينل إعجاب رانجيت.

صحيح أن هذه الوظيفة وفرت له كل ما وعده به تي أوريون بليدسو، بل ووفرت له عددًا كبيرًا من الأشياء التي لم يكن يتوقعها أبدًا. فقد كان لرانجيت غرفة مكتب خاصة تميزت باتساعها (عرضها ثلاثة أمتار وطولها يزيد عن خمسة أمتار) وإن كانت بلا نوافذ (لأنها كانت على مسافة نحو عشرين مترًا تحت سطح الأرض شأنها في ذلك شأن جميع الأشياء الأخرى في هذه المنشأة) وتحتوي على مكتب كبير وكرسي جلد كبير ذي مسندين من أجل رانجيت، وعدة كراسي أخرى أقل كُلفة متراصة حول مائدة ملساء من خشب البلوط من أجل الضيوف والاجتماعات. كما أنها كانت تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثة أجهزة كمبيوتر يكاد يصل من خلالها إلى أي شيء. لا يحتاج رانجيت الآن سوى ضغطة على بعض الأزرار من أجل الحصول على نُسَخه الخاصة من جميع المجلات المهتمة بعلم الرياضيات في العالم. ولم يكن يحصل على المجلات فحسب؛ سواء النسخ المطبوعة عندما تكون هي الأُولى في الصدور أم النسخ الإلكترونية عندما تكون هي كل ما يقدمه «الناشرون» الرئيسيون. وإنما كان يحصل على ترجمات — باهظة التكلفة للغاية تتكفل بها الوكالة من حسابها البنكي الذي من الواضح أنه لا حد له — لملخصات المجلات التي تصدر بلغات لا أمل لرانجيت في فهمها أبدًا.

المشكلة هنا أنه لم يكن أمامه عمل يقوم به.

كان رانجيت مشغولًا إلى حد بعيد خلال الأيام القليلة الأولى، وذلك بسبب تردده كثيرًا على أماكن إنهاء الإجراءات الروتينية المعهودة من أجل استخراج شارة تحديد الهوية وتوقيع المستندات وكل تلك الأمور التي لا طائل تحتها والتي لا بد منها داخل أي مؤسسة كبرى في القرن الحادي والعشرين. وبعدها يجلس رانجيت بلا عمل.

مع نهاية الشهر الأول كاد رانجيت يستيقظ كل صباح من أيام العمل نكد المزاج وهو الذي لم يكن هكذا من قبل قط. لكن ثمة مخرج من هذه الحالة. فقضاء بعض الوقت مع ناتاشا ومايرا غالبًا ما كان يزيح غضبه قبل أن ينتهي من إفطاره، لكن أمارات الغضب تبدو عليه مجددًا حالما يعود إلى المنزل من أجل الغداء. فيقول لمايرا بلهجة أقرب إلى الاعتذار: «لا أتعمد أن أكون قاسيًا مع ناتاشا أو معك يا مايرا، لكنني أضيع وقتي هنا. ما من أحد يخبرني بما يُفترض عليَّ فعله. وعندما أجد شخصًا لأسأله، فإنه يتظاهر بالكياسة، ويقول: أتعني أن هذا الأمر بيدي؟» لكن ما إن ينتهي رانجيت من طعامه، ويحمم ابنته تاشي أو يغير لها حفاضها أو يدللها على ركبتيه، ومن ذا الذي يظل عابسًا بعد هذا؟ بالتأكيد ليس رانجيت؛ إذ تعود نفس رانجيت المرحة إلى طبيعتها إلى أن يحين موعد استيقاظه للذهاب إلى العمل مرة أخرى.

ومع نهاية الشهر الثاني كان الإحباط قد بلغ منه كل مبلغ. واحتاج وقتًا أطول في القضاء عليه، لأنه، حسبما أخبر رانجيت — مرارًا وتكرارًا! — زوجته قائلًا: «الأمر أسوأ بكثير من ذي قبل! استطعتُ الوصول إلى بليدسو اليوم، وهو أمر ليس باليسير لأنه نادرًا ما يكون في مكتبه، وسألته مباشرة عن طبيعة العمل الذي من المفترض أن أقوم به. غير أنه نظر إليَّ نظرة متجهمة. أتعرفين ماذا قال لي؟ قال: «إذا وجدتَ ردًّا على سؤالك هذا، فأخبرني به من فضلك.» يبدو أنه تلقى أوامر من جهات عليا أن يوظفني، لكن من دون أن يخبره أحد عن طبيعة عملي.»

أجابته زوجته: «هم يريدونك لأنك مشهور، وانضمامك إليهم سيضيف مكانة إلى المؤسسة.»

قال: «تخمين جيد. كدت أفكر في الأمر نفسه، لكنني وجدت أنه لا يمكن أن يكون صحيحًا. فالسرية تكتنف هذه المؤسسة بأكملها حتى إن الواحد فيها لا يعرف العاملين في المكتب المجاور له.»

سألت مايرا: «أترغب في ترك العمل إذن؟»

أجاب: «حسنًا. لا أظن ذلك. ولا أدري إن كان باستطاعتي فعل هذا؛ لأنني لست متأكدًا من الأوراق التي وقعت عليها، وقد وعدتُ جاميني على أي حال.»

قالت مايرا: «دعنا إذن نتأقلم مع الوضع الحالي. لم لا تفكر في حل لمسألة P = NP التي حدثتني عنها؟ على كل حال غدًا السبت، ما رأيك أن نصطحب تاشي إلى حديقة الحيوان؟»

بالطبع كانت حديقة الحيوان مصدرًا لبث البهجة في نفس رانجيت، لكن أحداث العالم لا تزال سيئة كالمعتاد. ماذا عن آخر المستجدات؟ حسنًا، آخر المستجدات أن سلالة جديدة من المرض القديم المعروف باسم اللسان الأزرق أصابت عددًا كبيرًا من قطعان الماشية في الأرجنتين ليسفر عن نفوق الآلاف منها. وقد تأكد للتوِّ أن الوباء هو صورة من صور الحرب البيولوجية. لكن لم يتعرف أحد على من تسبب في نشر الوباء. ذكر بعض الأشخاص في الوكالة أنها ربما تكون فنزويلا أو كولومبيا لأن الأرجنتين ساهمت إسهامًا كبيرًا في القوة الدولية التي كانت تسعى إلى فصل الجيشين الفنزويلي والكولومبي أحدهما عن الآخر. (لم تحقق القوة الدولية نجاحًا كبيرًا في ذلك، لكنَّ دولتَي فنزويلا وكولومبيا أضمرتا لها العداوة على هذه المحاولة.) كان الاضطراب يسود باقي مناطق العالم كما هي الحال دائمًا. فاندلاع أعمال العنف من تفجير السيارات وضرب الأعناق ليلًا في العراق أظهر أن كلا الفصيلين المسلمين في العراق يحاولان من جديد التأكيد على وجود مذهب إسلامي فعلي واحد عن طريق إبادة أحدهما الآخر. في أفريقيا ارتفعت أعداد الحروب المعترف بها رسميًّا إلى أربع عشرة إضافة إلى عشرات المناوشات القبَلية. وفي آسيا كانت كوريا الشمالية بزعامة «الحاكم المحبوب» تصدر بيانًا تلو الآخر تتهم فيه معظم دول العالم بنشر شائعات عنها.

أما في باسادينا فلم يكن أحد يحارب أحدًا، وكانت الصغيرة تاشي سوبرامانيان مصدر بهجة لوالديها. أي طفل آخر حاول — على غير عادة الصغار في هذه السن المبكرة — أن ينقلب في مهده أو أن ينام تقريبًا نصف ساعات الليل في ليال كثيرة أحيانًا؟ اتفقت مايرا ورانجيت على أن ناتاشا سوبرامانيان تتمتع في الغالب بقدر عالٍ من الذكاء بصرف النظر عن أن جينجتنج جيان — طبيب الأطفال الذي ساعدهم مكتب الخدمات الاستشارية في العثور عليه — أكد أنه لا يمكن الحكم على ذكاء الطفل إلا عندما يبلغ من العمر أربعة أو خمسة أشهر على الأقل.

ومع أن مايرا ورانجيت لم يقتنعا برأي الدكتور جيان في هذا الشأن، فإنه كان طبيب أطفال مفيدًا للغاية، وأمدهما بالكثير من النصائح حول تشخيص أسباب بكاء الأطفال. فالبكاء في بعض الأحيان يعني أنه لا بد من فعل شيء في الحال، وفي أحيان أخرى يمكن تجاهل الطفل إلى أن يتعالى بكاؤه. إضافة إلى ذلك أعطاهما الدكتور جيان تسجيلات صوتية لعدد كبير من أنماط البكاء المحتملة لمساعدتهما في التمييز بينها. والواقع أن المستشارين قاموا بكل ما يمكن القيام به من أجل رانجيت ومايرا. فاختاروا لهما شقة صغيرة جذابة في مجمع سكني مُسَيَّج. كانت الشقة تتكون من أربع حجرات، وبها غسالة ومجفف ملابس، فضلًا عن إمكانية استخدام حمام السباحة التابع للمجمع، وشرفة مزدانة بالنباتات تطل على مدينة لوس أنجلوس، وخدمة حراسة على مدار أربع وعشرين ساعة للتحقق من هوية أي شخص يدخل المكان أو يخرج منه، وهو ما قد يكون أهم شيء في تلك الآونة. بل إنهم قدموا ما هو أكثر من ذلك؛ إذ ساعدوهما في التعرف على أفضل أماكن التنظيف الجاف وتوصيل البيتزا وأفضل البنوك ومكاتب تأجير السيارات (إلى أن يقررا شراء سيارتين، وهو ما لم يحن وقته بعد.)

إضافة إلى كل هذا فقد زودوا مايرا بأسماء ثلاثة مكاتب مختلفة لتأجير الخادمات، لكن مايرا قررت تجاهلها جميعًا. وقالت لرانجيت: «الشقة ليست واسعة إلى هذا الحد. ما نوع الأعمال المنزلية التي قد نحتاج إليها؟ الكنس وطهو الطعام وغسل الملابس والأطباق، ولأننا اثنان فلن نحتاج قدرًا كبيرًا من هذه الأعمال.»

وافقها رانجيت بشدة. وعلق قائلًا: «أنا واثق أنك تستطيعين التعامل جيدًا مع هذا الأمر.» وهو ما جعلها ترمقه بنظرة باردة قليلًا.»

ثم صححت كلامه قائلة: «أنا واثقة أننا نستطيع. دعنا نرى ما لدينا. من الأفضل أن أكون المسئولة عن طهو الطعام لأنني أتفوق عليك في هذا؛ لذا يمكنك الاهتمام بتنظيف المكان بعد تناول الطعام؟ سيكون هذا مناسبًا. هناك أيضًا غسل الملابس؛ يمكنك تشغيل الغسالة والمجفف، أليس كذلك؟ فكل التعليمات موجودة في كتيبات الاستخدام المرفقة مع الأجهزة. أما تغيير ملابس الطفلة وإطعامها، فيمكننا تبادل الأدوار بحيث تتولى أنت هذه المهمة عندما تكون في المنزل. في حين أتولاها أنا عندما تكون في الخارج.»

وهكذا استعرض رانجيت ومايرا قائمة الأعمال المنزلية بندًا بندًا بدءًا من استبدال مصابيح الإضاءة المستهلكة ولفافات المناديل الورقية وانتهاءً بدفع الفواتير. لم تواجه مايرا ورانجيت مشكلة في ذلك. فلا أحد منهما يرغب في انشغال الآخر بعمل يبقيه بعيدًا عنه دقيقة واحدة أكثر من اللازم؛ لأن كليهما لا يريد أن يُحْرَم صحبة الآخر وحديثه.

في غضون ذلك كان أسطول «واحد فاصل خمسة» يتحرك بأقصى سرعته. ووفقًا لمقياس الوقت لدى معظم الكائنات التي تعيش خارج كوكب الأرض، يمكن لهذا الأسطول أن يصل وجهته المقصودة في طرفة عين. بالطبع لم يكن أحد من البشر يعلم شيئًا عن هذا الأمر؛ ولذا فإن التسعة مليارات نسمة قاطبة كانوا يتابعون اهتماماتهم اليومية المعتادة.

وفي إحدى الأمسيات — بينما كانت مايرا ورانجيت يفرغان من تنظيف المكان بعد تناول العشاء — ارتفع صوت عبر التليفون الداخلي يقول: «الدكتور سوبرامانيان؟ معك هنري المسئول عن حراسة الباب. ثمة شخص يود رؤيتك. ويقول إنه لا يرغب في ذكر اسمه، لكنك ستعرفه لأنه صديق ماجي السابق. هل آذن له بالدخول؟»

هبَّ رانجيت من مكانه. وصاح: «جاميني! بالتأكيد، دع هذا الوغد يدخل، واسأله عما يود أن يشرب!»

لكن الرجل لم يكن جاميني باندارا على الإطلاق. بل كان رجلًا أكبر سنًّا يحمل حقيبة مقفلة ومشدودة بسلسلة إلى ذراعه اليمنى. وعندما فتح الرجل الحقيبة أخرج منها شريحة أعطاها لرانجيت. ثم قال: «شغلها من فضلك. ليس مسموحًا لي بمشاهدة هذا؛ لذا عليَّ الانتظار في الخارج، لكن السيدة سوبرامانيان على وجه التحديد مسموح لها بذلك.» ثم ابتسم لهما ابتسامة مهذبة، وأضاف: «وأنا على يقين أن الطفلة لن تفشي أي أسرار.»

وعندما اختفى الرجل داخل الرواق، وضعت مايرا الشريحة في الجهاز، فظهر جاميني على الشاشة وعلى وجهه ابتسامة عريضة. وهو يقول: «آسف على إقحامكما في أمور سرية كهذه، لكن الوضع متأزم هنا. فنحن نرفع التقارير إلى خمس حكومات قومية مختلفة فضلًا عن موظفي الأمن التابعين للأمم المتحدة وأيضًا ... سوف أخبرك عن ذلك في وقت آخر، لكن أود أن أخبرك الآن أن تلك الوظيفة التي حدثناك عنها اتضحت معالمها تمامًا إذا كنت ترغب فيها. أنا واثق أنك ستفعل. فرفضك وظيفة كهذه سيكون ضربًا من الجنون. لكن قبل أن أجيب عن كل تلك الأسئلة هناك أمر بسيط، أو بالأحرى هناك أمر بالغ الأهمية لا بد أن يحدث أولًا. لا يمكنني الإفصاح عن هذا الأمر، لكنك ستعلم به عندما يذاع في الأخبار، وعندئذٍ يمكنك أن تودع باسادينا. لذا عليك بالاسترخاء يا رانجيت. هذا هو كل ما ستسمح لي جميع أجهزة المخابرات تلك بقوله الآن؛ باستثناء أني أحبكم جميعًا!»

انقطع التسجيل، وأظلمت الشاشة.

بعد عشر دقائق عندما استعاد مبعوث جاميني الشريحة وغادر، أخرجت مايرا من أعلى الخزانة زجاجة الجعة التي يحتفظان بها من أجل المناسبات الخاصة. وملأت كأسين، وأرهفت أذنها حيث تنام ناتاشا، وعندما اطمأنت أنها نائمة قالت: «ألديك علم بما يجري؟»

ضرب رانجيت كأسه بكأس مايرا، وتناول منه رشفة قبل أن يقول: «كلا.» جلس رانجيت صامتًا هنيهة، ثم ابتسم. وقال: «لكن إذا لم أثق في جاميني، فمن الذي أثق فيه؟ ليس أمامنا سوى الانتظار ومعرفة ما سيحدث.»

أومأت مايرا، وأنهت كأسها، ثم قامت لتطمئن على ناتاشا وقالت: «على الأقل يبدو أننا لن ننتظر طويلًا.»

وبالفعل لم يكن الانتظار طويلًا. فلم يمر سوى ثلاثة أيام حتى سمع رانجيت — الذي كان يبذل قصارى جهده لاكتشاف عدد من الأعداد الأولية الكبيرة حقًّا التي قد يتلاعب بها خبراء التشفير لأن ضميره لن يسمح له بأن يظل بلا عمل على الإطلاق — صوت ضجيج في الرواق، واكتشف أن نصف الموظفين يحاولون الوصول إلى الردهة في نهاية الممر. كانوا يحتشدون جميعًا أمام قنوات الأخبار. كانت هذه القنوات تعرض صورة لموكب يضم عشرات المركبات العسكرية التي تعبر أحد المنافذ في سور غريب. قال أحد الرجال الجالسين بالقرب من التليفزيون ليضع حدًّا لما يُطرح من أسئلة: «كوريا. إنهم يتجهون نحو كوريا الشمالية! اصمتوا حتى نسمع ما يقولون.»

بالفعل كانت المركبات تتجه نحو كوريا الشمالية، ولا يبدو أن أحدًا من الجيش الجرار الذي يتزعمه «الحاكم المحبوب» كان يكترث لردعهم!

هتف الرجل الذي يقف بجوار رانجيت. وقال: «لكن هذا جنون! لا بد أن شيئًا ما قد وقع.»

لم يكن الرجل ينتظر ردًّا من رانجيت، لكن رانجيت أجابه على أي حال. فقال وهو يبتسم: «أنا واثق أن أمرًا كبيرًا قد وقع. أمر كبير حقًّا.»

الفصل الخامس والعشرون

الرعد الصامت

كان لهذه الطائرة اسم رسمي في سجلات البنتاجون، لكن الأشخاص الذين ابتكروها وصمموها وأرسلوها في طريقها أطلقوا عليها اسم «الرعد الصامت».

في ظلام منتصف الليل أقلعت «الرعد الصامت» من مكانها — وهو مطار بوينج فيلد القديم خارج مدينة سياتل في واشنطن — وتقدمت نحو الغرب بتؤدة وبسرعة ألف كيلومتر في الساعة. لم يكن الغرض من الإقلاع في الظلام هو حجب الطائرة عن رؤية الأعداء. فربما يكون هذا مستحيلًا. فأي دولة معادية محتملة — وأي دولة أخرى أيضًا — لديها سماء تعج بأقمار المراقبة التي ترصد أي تحرك لأي شخص.

لكن الظلام لا يزال مخيمًا، وبعد عدة ساعات كانت طائرة «الرعد الصامت» قد أكملت دائرتها الكبرى بعبور المحيط الهادي، وهبطت — «كأنها صخرة» على حد وصف الطيار لاحقًا — إلى مستوى سطح البحر تقريبًا. ثم أخذت تتقدم فوق المياه التي تفصل بين جزيرتَي هونشو وهوكايدو، ودخلت إلى بحر اليابان.

كان الظلام حينئذٍ يصب في مصلحة طاقم «الرعد الصامت». فالظلام يعني أنه ما من أحد من مذيعي الأخبار الفضوليين في إحدى جزر اليابان سيرى ما يجري بوضوح؛ ولذا لن تذاع أخبار الطائرة على الملأ في الصباح. لا شك أن أجهزة الرادار التي يمتلكها الجيش الياباني الصغير في مدينتَي آموري وهاكوديت أصدرت إشارات. لكن لم يكترث لها أحد. فاليابان لا تمتلك سلاحًا يكفي لاتخاذ إجراء بشأن «الرعد الصامت». وعلى أي حال فقد أُعْلِمَ الجنرالات اليابانيون في سرية تامة وقبل اثنتي عشرة ساعة أن الولايات المتحدة سوف ترسل طائرة تجريبية إلى اليابان، وأن حسن التصرف يفرض عليهم غض الطرف عنها.

وما إن توغلت «الرعد الصامت» في بحر اليابان حتى بدأت ترتفع مرة أخرى، ثم استقامت في طيرانها على ارتفاع اثني عشر ألف متر. لا شك أن السواحل الغربية لبحر اليابان تتبع روسيا، ولا شك أيضًا أن أجهزة الرادار هناك أكثر عددًا وأكثر فعالية من أجهزة الرادار اليابانية. لكنهم لم يكترثوا لذلك أيضًا؛ فكبار الضباط الروس تلقوا معلومات بأن «الرعد الصامت» لا تشكل تهديدًا؛ بالأحرى لا تشكل تهديدًا لهم.

عندما اتفق الطيار والملاح على بلوغ النقطة المستهدفة، خففت «الرعد الصامت» من سرعتها إلى الحد الذي يبقيها في الهواء، وبدأت تنشر أسلحتها. ربما أربكت هذه الأسلحة — قنبلة نووية محدودة الأثر وأسطوانة نحاسية مجوفة عرضها لا يتعدى عرض جسم الإنسان — خبراء الأسلحة قبل عقد من الزمان، لكن هذه الأسلحة هي كل ما تحتاج إليه «الرعد الصامت» لتنفيذ مهمتها.

وبداخل نظام توجيه السلاح ظهرت كوريا الشمالية بزعامة «الحاكم المحبوب» مظللة بشكل بيضاوي طويل هو موضع تأثير السلاح.

لم يكن أحد داخل «الرعد الصامت» ينظر إلى تلك الخريطة؛ لأنه لم يكن بها أحد من الأساس. فقبطان الطائرة وجميع طاقمها كانوا في ولاية واشنطن يراقبون الخريطة على شاشة تليفزيونية. وجه القبطان الأمريكي كلامه إلى المدفعي الروسي: «يبدو كل شيء على ما يرام. انشر العوازل.»

أجابه المدفعي وأصابعه فوق لوحة المفاتيح: «حسنًا.» تكونت أشكال سوداء حول أطراف الشكل البيضاوي محدِّدةً مسار نهر يالو شمالًا وغربًا، والخط الحدودي بين كوريا الشمالية والجنوبية، وأيضًا ساحل المحيط الهادي جنوبًا وشرقًا. بالطبع لم تكن هذه الأشكال أشياء ملموسة. لا شيء مادي يمكن أن ينجو مما أرادوا عزله بالضربة، وقد كان ابتكار المجالات الإلكترونية التي ستتكفل بتنفيذ عملية العزل واحدًا من أكثر التقنيات تقدمًا وبراعة في تصميم طائرة «الرعد الصامت». قال المدفعي للطيار: «كل شيء جاهز.»

سأل الطيار الملَّاح الصيني: «أما زال الوضع على ما يرام؟»، وعندما أكد الملاح أن الوضع كذلك، رسم الطيار علامة الصليب. (كان الطيار يعتبر نفسه كاثوليكيًّا ارتد عن عقيدته، لكن كانت هناك أوقات لم يفكر فيها أنه مرتد على الإطلاق.) وجه الطيار أمره للمدفعي قائلًا: «أطلق السلاح!» وللمرة الأولى في تاريخ العالم تُهزم إحدى الدول هزيمة منكرة في حرب دون أن يتأذى أي شخص.

الواقع أن هذا لم يكن صحيحًا تمامًا.

فقد قضى عدد قليل من مرضى القلب في إقليم «الحاكم المحبوب» نحبهم. وهم الذين أخطأهم الحظ باستخدام منظم ضربات القلب لحظة وقوع الانفجار الكهرومغناطيسي حاملًا معه طاقة تفوق صاعقة البرق. (لكن الفئة الوحيدة التي كانت تستطيع امتلاك تقنية — غربية الصنع — بهذه التكلفة الباهظة في كوريا الشمالية هم المسئولون رفيعو المستوى. وهؤلاء لم يُؤسَف على موتهم.) هذا بالإضافة إلى عدد ضئيل من التعساء الذين كانوا يستقلون طائرات خفيفة والذين راحوا ضحية التصادمات المترتبة على وقوع الانفجار. (كان هؤلاء مسئولين رفيعي المستوى كمن سبقوهم؛ ولذا لم يُؤسَف على موتهم أيضًا.) وهكذا فإن آخر تغيير في نظام الحكم في كوريا الشمالية قد حدث مع وقوع عدد من الضحايا أقل بكثير ممن يلقون حتفهم على الطرق السريعة في الغرب في إحدى العطلات الأسبوعية العادية.

في غضون جزء من الثانية تعطلت جميع شبكات الهاتف في دولة «الحاكم المحبوب». وتعطلت معظم خطوط نقل الطاقة الكهربائية. فضلًا عن ذلك تعطلت جميع أسلحته الأكثر تطورًا من البندقية، والمعروف أن كوريا الشمالية بزعامة «الحاكم المحبوب» تمتلك عددًا هائلًا من جميع أنواع الأسلحة. فمن دون التليفونات وأجهزة اللاسلكي لن يتمكن أحد من معرفة ما يجري في مكان آخر. لم تعد هذه الدولة تشكل تهديدًا لأي شخص؛ لأنه لم تعد هناك دولة بالمفهوم الفعلي على هذه البقعة من الأرض.

أثناء تنفيذ هذه العملية اندلع قتال فعلي ضيق النطاق.

اندلع هذا القتال بسبب عقيد عنيد كان متمركزًا خارج مدينة كيسونج. بالطبع لم يكن بوسع الرجل استيعاب ما حدث، لكنه أدرك على الأقل أن جنوده في خطر. ففعل ما كان سيفعله عقداء كثيرون في مثل هذا الموقف. إذ نشر فرقته، وأمدهم بكل ما قد يحتاجون إليه من البنادق والمسدسات، ثم أطلقهم في هجوم على الخط الحدودي.

لكنهم لم يبتعدوا كثيرًا.

بل إنهم لم يتمكنوا من قطع الطريق بأكمله عبر حقول الألغام الكثيفة المحيطة بالخط الحدودي مع كوريا الجنوبية. لقي ستة من جنود الخط الأمامي مصرعهم عندما انفجرت الألغام، ولقي نحو عشرون آخرون مصرعهم عندما شاهدتهم القوات الكورية الجنوبية في الجهة الجنوبية من الخط وهم يقتربون وفتحت النار عليهم … ثم أوقفت إطلاق النار عندما رأت أن الكوريين الشماليين ما زالوا يتقدمون إلى الأمام — لكن ببطء وبحذر — وأياديهم فوق رءوسهم.

حينئذٍ بدأ العالم بأسره ينتبه إلى ما كان يجري … وليس فقط عالم البشر.

سُمع دوي الأزيز الإلكتروني لهذا السلاح في باقي أنحاء المجرة عندما وصلها بسرعة الضوء البطيئة جدًّا والتي تبلغ ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية (أو ١٨٦ ألف ميل في الثانية لدى الأمريكيين وغيرهم من التقليديين.)

وأخيرًا بلغ الأزيز أسطول «واحد فاصل خمسة» — الذي كان على بعد خمسة عشر سنة ضوئية عن الأرض وقت وقوع الانفجار — وأدركوا أن مصدره تلك الكائنات التي هم في الطريق لإبادتها.

بالطبع لم يكن أحد على سطح كوكب الأرض يعلم شيئًا عن ذلك.

وعلى الجانب الآخر لم يعلم أحد بين «المخزنين في الآلات» — أو في أي مكان آخر تابع لسيادة «عظماء المجرة» — بما حدث للتوِّ في كوريا الشمالية. ولذا عندما بلغ ضجيج الانفجار الإلكتروني مسامعهم أخذوا يفكرون في بعض الاستنتاجات المنطقية، لكن الصواب جانَبَ استنتاجاتهم.

مرت سنوات قبل وصول ذلك الضجيج الأبيض من الموجات الكهرومغناطيسية إلى الكواكب التي تقطنها الأجناس التي تتبع عظماء المجرة. خاصة إلى ذلك الخط المتعرج في جداول المادة المظلمة الذي كان موطنًا لأقرب مجموعة من «عظماء المجرة» أنفسهم. وكان لذلك تأثير سيئ. في الواقع ربما كان هذا التأثير سيئًا على نحو مأساوي، بل ومدمرًا أيضًا.

فالمشكلة تكمن في طبيعة السلاح الذي أطلق عليه مالكوه اسم «الرعد الصامت».

لم يكن معظم الأسلحة البشرية يشكل خطورة؛ لأنها إما أن تعتمد على الانفجارات الكيميائية أو النووية من أجل إحداث الأثر المطلوب. لم يكن مثل هذه الأحداث التافهة ليُوقع الخوف في نفس «عظماء المجرة» الذين لا تتكون أجسامهم من الباريونات. لكن الأمر يختلف تمامًا مع مِرجَل الجزيئات الذي يُطلق عليه «الرعد الصامت». فهذا السلاح من شأنه أن يعرض أجزاء من المعدات التي يستخدمها «عظماء المجرة» للخطر. والحديث هنا لا يتعلق بالنموذج الأولي البسيط الذي أصاب دولة «الحاكم المحبوب» بالشلل، وإنما بالنماذج الأكثر تطورًا التي من المتوقع أن يبتكرها هؤلاء البشر المزعجون عما قريب إن سُمح لهم بذلك.

ولا شك أن «عظماء المجرة» لن يسمحوا للبشر بشيء كهذا. هذا لأنهم قد خططوا بالفعل لإبادتهم نهائيًّا. وسوف تنتهي هذه المشكلة بانتهاء الجنس البشري.

وهو ما يعني — حسب الكلمات الشهيرة التي ذكرها الكاتب المسرحي ويليام شوينك جيلبرت قديمًا على لسان السيَّاف كوكو أثناء تبرير خطيئته أمام إمبراطور اليابان في المسرحية الغنائية «ميكادو» — أن صدور الأمر يكاد يعني تنفيذه على أكمل وجه.

حتى ذلك الحين لم تكن مسألة إبادة الجنس البشري محسومة نهائيًّا بشكل أو آخر. فقد ظل عظماء المجرة أنفسهم يراجعون الموقف — بعد أن أصدروا أمرهم — لوجود احتمال بعيد بأن الظروف قد تتغير مما قد يضطرهم إلى إلغاء الأمر الذي أصدروه.

وتوقف «عظماء المجرة» عن مراجعة الموقف. لأنهم لم يروا سببًا لإزعاج عقولهم (إن كانت لديهم عقول) بهذه المسألة تحديدًا.

لذلك أسقط «عظماء المجرة» هذه المسألة من إدراكهم لصالح أمور أخرى أكثر أهمية وأكثر متعة لا شك. ويتصدر هذه القائمة؛ أولًا، نجم قزم أبيض على وشك اختلاس مادة من شريكه العملاق الأحمر تكفيه لأن يتحول إلى متجدد أعظم (أي نجم متفجر فائق التوهج تظل نواته كنجم نيوتروني بعد انقذاف طبقاته الخارجية) من النوع «آي إيه»؛ ثانيًا، بعض الرسائل التي وردت من نظرائهم في مجرات أخرى والتي لا بد من الإقرار بوصولها على الأقل؛ وثالثًا، سؤال يتعلق بفصل جزء آخر منهم مثل «بيل» ليراقب عن كثب المجرة الثانوية الصغيرة التي تتحرك بسرعة شديدة والتي قد يتسبب دورانها في اصطدامها بمجرتهم في أي لحظة خلال أربعة أو خمسة ملايين سنة مقبلة على أقصى تقدير.

أما أي شيء قد يذكرهم بهذا الكوكب الضئيل المزعج التي يطلق عليه قاطنوه اسم كوكب الأرض فكان في ذيل قائمة اهتماماتهم. ولِمَ قد يكترثون له؟ فالأمر برمته ليس تجربة جديدة على عظماء المجرة. فعلى مدار مليارات السنين منذ أن أصبح «عظماء المجرة» — طوعًا أو كرهًا — أسيادًا لهذا الجزء من الكون فإنهم صادفوا نحو ٢٥٤ جنسًا على نفس الدرجة من الخطورة، وأبادوا ٢٥١ منها. (مُنِحَت الأجناس الثلاثة الأخرى — التي لم يكن أذاها بالغًا — فرصة ثانية.)

ولم يكن من المرجح أن يصبح البشر على كوكب الأرض الجنسَ الرابع الذي يُمْنَح فرصة أخرى.

الفصل السادس والعشرون

على أعتاب السلام

كانت حالة من الارتباك والقلق تسود كوكب الأرض. وإن كان في الأغلب ارتباكًا مشوبًا بالبهجة، إذ لم يعترض أحد في العالم كله على حقيقة أن «الحاكم المحبوب» — باستحيائه وتصريحاته الاعتذارية الفاتنة وجيشه القوي الذي قوامه مليون جندي بكل ما يمتلك من صواريخ وأسلحة نووية — صار في ذمة التاريخ. لكن تلاحقت الأسئلة. فأي حق يخوِّل للولايات المتحدة أن تدمر دولة أخرى؟ وكيف نَفَّذَت ذلك؟

لم يتكفل أحد بالرد على تلك الأسئلة. فالحكومة الأمريكية لم تصرح بشيء سوى أن الموضوع خاضع للبحث، وأنها ستصدر بيانًا، غير أنها لم تحدد موعدًا لإصدار هذا البيان. تمنى الخبراء العسكريون في شتى بقاع الأرض أن لو استطاعوا الوصول إلى حطام «الرعد الصامت» من أجل فحصه. غير أن هذا لم يحدث. فكل ما تبقى من «الرعد الصامت» ضباب خفيف من جزيئات معدنية سائلة متوهجة حتى درجة الابيضاض أخذت تبرد بسرعة.

لم تألُ وكالات الأنباء جهدًا في إذاعة الخبر. فبعد ساعة من تدمير «الرعد الصامت» لكوريا الشمالية بزعامة «الحاكم المحبوب»، بدأت طائرات الهليكوبتر التابعة لوكالات الأنباء من كوريا الجنوبية واليابان تحلق فوق سماء الدولة التي أصبحت الآن صامتة إلكترونيًّا.

لم يكن هناك شيء يُسمع، في حين كان يُرى الكثير. التقطت الكاميرات صورًا للحشود المتجمهرة في شوارع بيونج يانج الواسعة والخالية معظم الوقت، أو المجموعات الصغيرة التي وقفت في يأس بجوار طائراتها التي لم تعد تعمل في القواعد الجوية التي صارت بلا جدوى الآن، أو المجموعات الأصغر التي لم تستطع في بعض الأحيان كبح جماح ثورتها

وارتباكها فنفست عن غضبها عن طريق إطلاق نيران أسلحتهم عديمة الجدوى نحو المتطفلين.

التقطت بعض هذه الكاميرات صورًا لأشياء أخرى. من ضمن هذه الأشياء مثلًا بضع طائرات هليكوبتر تحلق بعيدًا عن أي شخص يحمل أسلحة يدوية.

جاءت هذه الطائرات من نفس المدن التي جاء منها المراسلون الإخباريون. غير أن مهمتها لم تكن مراقبة ما يجري. وإنما كانت المهمة هي نقل رسالة. إذ زُوِّدَت كل طائرة من هذه الطائرات بمكبرات صوت قوية يقوم على تشغيل كل منها واحد من لاجئي كوريا الشمالية السابقين. حلقت الطائرات فوق المدن والأحياء التي جاء منها اللاجئون، وكشف كل متحدث عن هويته وهو يكرر رسالته رباعية الأجزاء:

«انتهى حكم ذلك الملقب بـ «الحاكم المحبوب». وسوف يحاكَم بتهم خيانة جيل كامل من شعبنا وإساءة معاملته وتعريضه للموت جوعًا.»

«حُلَّ الجيش الكوري الشمالي الآن. وأصبح لا يخدم أي غرض ولا يُرجى منه فائدة. ولن تتعرضوا للهجوم من قِبَل أي جهة. لكل الجنود الآن حرية العودة إلى ديارهم واستئناف أعمالهم التي يمارسونها في وقت السلم.»

«الكثير من المساعدات الغذائية وغيرها من الضروريات الأخرى في طريقها إليكم الآن. ومن الآن فصاعدًا سيكون الغذاء الكافي لضمان صحتكم ونمو أبدانكم حقًّا مكفولًا لكل واحد منكم مدى الحياة.»

«وأخيرًا لديكم الحق الآن في اختيار حاكمكم الجديد عن طريق الاقتراع السري.»

وهو ما جعل عددًا كبيرًا من المراسلين الإخباريين يضيفون ودموعهم تتحدر على وجناتهم: «وأنا سأعود إلى موطني!»

الفصل السابع والعشرون

السلام عن طريق الشفافية

لم يدَع جاميني صديقيه في انتظار توضيح للأمر. لم يدَعهما أكثر من ست وثلاثين ساعة، وعلى كل حال كان هناك كثير من الأمور التي شغلت اهتمام مايرا ورانجيت أثناء ذلك الوقت تحديدًا. لم يكن العمل هو ما شغل بالَهما، بل كانت وسائل الإعلام بما تعرضه من مشاهد متواصلة لقوات خارجية تدخل الأراضي الكورية الشمالية بلا مقاومة وبلا سلاح تقريبًا — إذا تجاهلنا صافرات الإنذار والعصي الكهربائية — وتبسط سلطانها على كوريا الشمالية التي كانت من قبل حصنًا منيعًا لـ «حاكم المحبوب». هذا بالإضافة إلى حوارات المعلِّقين التي لا آخر لها والتي تتنوع ما بين التخمين والافتراض والتعبير عن الحيرة التي تعتريهم من جرَّاء ما حدث.

وأخيرًا ظهر شيء على شاشة التليفزيون يُبَشِّر بتقديم بعض الإجابات.

بعد تناول العشاء وبعد أن أخذت مايرا دورها في إيواء الطفلة للنوم أعاد رانجيت تشغيل التليفزيون. وبعد دقيقة أطلق صيحة دهشة جعلت مايرا تعود إلى الغرفة. قال رانجيت: «انظري. يبدو أننا سنحصل على بعض المعلومات المؤكدة.»

كان التليفزيون يعرض صورة لرجل يبدو آسيويًّا يقف أمام منصة خطابية. لم يقدم الرجلَ أحدٌ. وإنما بدأ حديثه مباشرة. فقال وقد بدت على صوته أمارات الحنكة وعدم الرهبة من الوقوف أمام الكاميرات: «أهلًا بكم. أُدْعَى أريتسون ميودا، عملت سفيرًا لليابان لدى الأمم المتحدة فترة. وأترأس الآن إدارة الموارد البشرية لمنظمة يُطلق عليها اختصارًا باكس بير فيديم. وهذا الاسم يعني السلام العالمي عن طريق الشفافية. ونحن نعلن مسئوليتنا عما حدث في شبه الجزيرة الكورية.»

وأردف الرجل: «ونظرًا إلى أنه كان لا بد من إحاطة تنفيذ هذه العملية بالسرية كان لا بد أيضًا من التفكير الطويل فيها وفيما يجري هناك منذ ذلك الحين. والآن يمكننا

تزويدكم ببعض الإجابات. ولتوضيح كيفية وقوع هذه الأحداث وما تعنيه فسوف يتحدث إليكم الشخص الذي كان سببًا في وقوعها.»

اختفى وجه ميودا من الشاشة، وحل محله صورة شخص طويل القامة برونزي البشرة متقدم السن لكن قوي البنية وما إن رأت مايرا صورة الرجل حتى أطلقت صيحة. وقالت: «يا إلهي! إنه ... إنه ...»

لكن قبل أن تنهي جملتها كان ميودا يقدم الرجل الآخر. قائلًا: «أقدم لكم الأمين العام للأمم المتحدة السيد رونوي تيري.»

لم يتجشم رونوي تيري عناء التفكير في عبارات يستهل بها حديثه تمامًا مثلما فعل ميودا. فقال: «دعوني أبدأ بطمأنتكم جميعًا أنه لم تقع أي تجاوزات في كوريا. فما حدث لم يكن حربًا بدافع الغزو. وإنما هو إجراء عسكري واجب صدَّقت عليه الدول الأعضاء في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عن طريق تصويت سري ولكن بالإجماع.»

وتابع قائلًا: «ولكي أوضح لكم كيفية حدوث ذلك أود أن أوضح أمرًا يرجع تاريخه إلى بضع سنوات مضت. يعرف كثير منكم أنه في ذلك الوقت كان يُجْرَى العديد من المباحثات بشأن الأسلوب الذي تحاول من خلاله أقوى ثلاث دول في العالم — روسيا والصين والولايات المتحدة — عقْد مؤتمر للقوى العظمى ذي مَقْصِد مُعلن جدير بالثناء، وهو إيجاد حل للحروب الصغيرة والكثيرة التي كانت تندلع في مختلف أنحاء العالم. ظن كثير من المعلقين أن أمرًا سخيفًا — بل ويبعث على الشعور بالخزي — قد وقع بعدئذٍ بسبب قصة تداولتها الألسنة. ذكرت الشائعة أن الخطة أخفقت في مرادها لأن الدول الثلاث عجزت عن الاتفاق على المدينة التي سيُعقد فيها المؤتمر.»

«لكن لا بد أن أخبركم الآن أن هذا الحدث برمته لم يكن سوى خدعة. وأنه حدث بأمر مني. كنا في حاجة إلى ذلك لإخفاء حقيقة أن الرؤساء الثلاثة يعقدون في الواقع اجتماعات على أعلى درجة من السرية لبحث موضوع ذي أهمية فائقة.»

«كان هذا الموضوع ببساطة يدور حول كيفية — وتوقيت وإمكانية — استخدام سلاح جديد غير مميت لكنه قادر على إحداث دمار بالغ، وهو ما نعرفه جميعًا اليوم باسم «الرعد الصامت».»

«أقدم الرؤساء الثلاثة على هذا الفعل الاستثنائي لأن كلًّا منهم علم — من خلال ما لديه من أجهزة استخبارات متمكنة — أن كل دولة من الدولتين الأخريين طورت سلاحًا يشبه «الرعد الصامت»، وأنها تخطو خطوات واسعة نحو تفعيل هذا السلاح. وبدأ مستشارو كل رئيس من الرؤساء الثلاثة يحثونه على أن يحرز السبق في تطوير السلاح،

ثم يستخدمه ليدمر اقتصاديات غريمَيْه الآخرَيْن، ومن ثم تصبح دولته القوة العظمى الوحيدة في العالم.»

«وبفضل ما يتمتع به الرؤساء الثلاثة من شمائل راسخة، فقد رفضوا جميعًا تلك الخطة. واتفقوا أثناء اجتماعاتهم السرية على أن يخولوا مسئولية «الرعد الصامت» إلى الأمم المتحدة.»

ثم أطرق الرجل هنيهة، واكتست ملامحه بالجدية؛ كان رجلًا ضخمًا مهيبًا قيل مرة إنه كان أقوى رجل في ماريوبوتي — تلك الجزيرة الصغيرة التابعة لجزر بولينيزيا الفرنسية حيث موطنه الأصلي. ثم ابتسم. واستطرد قائلًا: «وهكذا جُنِّب العالم شر صراع مرير من الصعب تقدير تبعاته.»

عندئذٍ نظر رانجيت ومايرا أحدهما إلى الآخر وقد علت وجهيهما نظرات ذهول كتلك التي كانا يحدقان بها إلى شاشة التليفزيون. لم تكن هذه هي النهاية. فما زال هناك الكثير من الأخبار، وهكذا واصل رانجيت ومايرا إنصاتهما بعد أن أجَّلا موعد نومهما أو — بالأحرى — نسياه. ظل رانجيت ومايرا على هذه الحال طوال ما يقرب من ساعة، أو طوال الوقت الذي استغرقه حديث الأمين العام تيري ثم الوقت الأطول الذي استغرقه تحليل جميع المعلقين السياسيين في العالم لكل كلمة من خطابه في حواراتهم. وبينما يهم رانجيت ومايرا بالخلود إلى النوم، كان كل منهما يحاول استيعاب ما يجري.

قال رانجيت وهو يغسل أسنانه: «يمكن القول إذن إن ما فعله تيري هو تنظيم عمل هذه المنظمة التي تُدْعَى السلام عن طريق الشفافية بما تضمه من أعضاء يمثلون عشرين دولة مختلفة …»

ردت مايرا وهي تهيئ الفراش للنوم وتضع الوسائد في أماكنها: «وكلها دول محايدة. ليس هذا فحسب وإنما كلها دول جُزُرية ليست كبيرة بما يكفي لتشكيل تهديد لأي دولة أخرى.»

مضمض رانجيت فمه جيدًا. وقال وهو يجفف وجهه: «عندما تفكرين في النتائج ستجدين أن الأمر برمته لا يبدو سيئًا للغاية، أليس كذلك؟»

وافقته مايرا: «بلى؛ فالواقع أن كوريا الشمالية طالما شكلت تهديدًا على السلام العالمي.»

حدق رانجيت بصورته في المرآة. وأخيرًا قال: «هذا صحيح.» ثم أضاف: «أتمنى أن يأتي جاميني.»

وعندما وصل جاميني كان يحمل أزهارًا لمايرا، ولعبة صينية الصنع للطفلة، وزجاجة ويسكي كوري لرانجيت، قدم جاميني الكثير من الاعتذارات. وقال وهو يطبع قبلة بريئة على وجنة مايرا ويعانق رانجيت: «آسف لأنني تأخرت هكذا. ما قصدت أن أترككما قيد الانتظار، لكنني كنت في بيونج يانج مع أبي لنتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام، وبعدها كان لا بد من زيارة عاجلة إلى واشنطن. فالرئيس غاضب منا.»

بدا الاهتمام على رانجيت في الحال. وعلق قائلًا: «كيف ذلك؟ أتود أن تقول إنه لم يكن موافقًا على شنكم لهذا الهجوم؟»

قال: «بالطبع لا. لا شيء من هذا على الإطلاق. كل ما هنالك أنه على طول الحدود يوجد امتداد متعرج إلى حدٍّ ما بسبب طبيعة المنطقة، وهناك بضعة هكتارات تضم معدات عسكرية تابعة للولايات المتحدة وكوريا الجنوبية لحق بها الدمار تمامًا كما حدث مع أسلحة كوريا الشمالية.» هز جاميني كتفيه. وأردف قائلًا: «لم يكن هناك بد من ذلك. كان «الحاكم المحبوب» يمتلك عددًا كبيرًا من أخطر أسلحته على الجانب التابع له من الخط الحدودي، وهو خط ضيق للغاية. وكان علينا التأكد من القضاء على كل تلك الأسلحة. ولا شك أن الرئيس يعلم ذلك، لكن أحد الأشخاص ارتكب خطأً عندما أكد له أن العملية لن تؤثر على أي شيء يخص الولايات المتحدة. والآن فإن أقوى المعدات الأمريكية عالية التقنية التي تساوي قيمتها أربعة عشر مليار دولار لم تعد تعمل. هلا فتحت هذه الزجاجة يا رانجيت؟»

استجاب رانجيت الذي كان ينظر إلى رفيق صباه بذهول تام، بينما أحضرت مايرا الكئوس. قال رانجيت وهو يصب الويسكي: «أيعني هذا وجود مشكلة؟»

أجاب جاميني: «كلَّا، ليس هناك ما يستدعي القلق الشديد. سوف يتجاوز المسألة. اسمع يا رانجيت، بينما كنت أتحدث مع الرئيس أعطاني شيئًا أسلمك إياه.»

كان هذا الشيء مظروفًا مختومًا بالختم الرسمي للبيت الأبيض. وعندما تناول كل واحد منهم كأسه، وتناول رانجيت الرشفة الأولى، تجهم وجهه وفتح الخطاب. جاء فيه:

عزيزي سيد سوبرامانيان:

نيابة عن شعب الولايات المتحدة أشكرك على خدماتك. ليس أمامي الآن سوى إعفائك من وظيفتك الحالية، لكنني أعرض عليك وظيفة أخرى أكثر أهمية وإن كانت تستلزم قدرًا أكبر من السرية.

قال جاميني متباهيًا: «لقد وقَّعَ الخطاب بيده أيضًا. ولم يستخدم أيًّا من طابعات الأختام. رأيته وهو يقوم بذلك.»

وضع رانجيت كأسه دون أن يكمل شرابه كعادته دائمًا، وقال: «جاميني، إلى أي مدى تتدخل شخصيًّا في سير هذا الحدث؟»

ضحك جاميني. وقال: «أنا؟ لا دخل لي بذلك مطلقًا، فلست سوى ساعٍ لأبي. إنه يوجه لي الأوامر وأنا أنفذها. الأمر أشبه بتجنيد النيباليين.»

قالت مايرا وهي تشم رائحة الويسكي دون أن تذوق شيئًا منه: «كنت أرغب في سؤالك عن هذا الأمر. لماذا النيباليون؟»

أجاب جاميني: «حسنًا، ثمة سببان. أولًا اعتاد أجداد النيباليين الأوائل على أداء الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني — كان يُطْلَق عليهم اسم الجوركا — وكانوا الجنود الأكثر صرامة وذكاءً في الجيش. وهناك سبب أكثر أهمية؛ فقط انظر إليهم. إنهم لا يشبهون الأمريكيين أو الصينيين أو الروس؛ لذلك لم تُبَث كراهيتهم في نفوس الكوريين الشماليين منذ نشأتهم.» اشتمَّ جاميني كأسه، وتنهد، ثم وضع الكأس. وأضاف: «إنهم مثلي ومثلك يا رانج. وهذا سبب يدفعنا لأن نساهم بعمل نافع في منظمة السلام عن طريق الشفافية. ما رأيك إذن؟ هل نوقع العقد هذه الليلة؟»

قالت مايرا بسرعة قبل أن يأخذ رانجيت فرصته في الحديث: «أخبرنا بالمزيد. ماذا تود من رانجيت أن يفعل؟»

ارتسمت على وجه جاميني ابتسامة عريضة. وقال: «ليس ما كنا سنعرضه عليك منذ وقت طويل. كنت أفكر حينها أنك قد تساعدني على أن أصبح مساعدًا لوالدي، لكنك لم تكن مشهورًا آنذاك.»

حثَّته مايرا على مواصلة الحديث متسائلة: «والآن؟»

قال جاميني: «في الواقع علينا أن نفكر في ذلك. سوف تبدأ العمل لدى المنظمة، وعلى الأرجح سيكلفونك ببعض المهام كأن تتحدث باسم المنظمة في المؤتمرات الصحفية، وتروج لفكرة السلام عن طريق الشفافية أمام العالم ...»

تظاهر رانجيت بالعبوس وإن كان في تظاهره هذا شيء من الجد. وقال: «ألا يجدر بي معرفة المزيد عن هذه المنظمة كي أستطيع القيام بمهمة كهذه؟»

تنهد جاميني. وقال: «عزيزي رانجيت. كنت آمل أنك ستفهم ما يجري، وتوقع العقد على الفور، لكن من خلال معرفتي بك فكرت أنك سترغب قطعًا في معرفة المزيد. لذا أحضرت لك بعض الأوراق.»

تناول جاميني حقيبة يده، وأخرج مظروفًا به أوراق. ثم قال: «لنقل إن هذا هو واجبك المنزلي يا رانجيت. أظن أن أفضل شيء تفعلانه هو أن تقرآ هذه الأوراق وتتناقشا فيها الليلة، وفي الصباح سآمر عليكما وأصطحبكما لتناول الإفطار، ثم أطرح عليك السؤال المهم يا رانجيت.»

سأل رانجيت: «وما هذا السؤال؟»

أجابه جاميني: «عجبًا، السؤال متعلق برغبتك في مساعدتنا في إنقاذ العالم. ماذا كنت تظن؟»

قضت ناتاشا وقتًا في اللعب تلك الليلة أقل مما اعتادت عليه. وبدأت تبكي قليلًا لتلفت انتباه والديها إلى انشغالهما عنها، لكن غلبها النوم بعد دقيقتين، فعاد رانجيت ومايرا إلى دراسة واجبهما المنزلي.

انقسمت الأوراق إلى مجموعتين. بدت إحداهما كأنها دستور مقترح (أو هكذا ظنَّا) للبلد الذي كان يُعرف من قبل باسم كوريا الشمالية والذي كان واقعًا تحت وطأة حاكم مستبد. بالطبع قرأ رانجيت ومايرا تلك المجموعة من الأوراق بعناية، لكن معظمها كان يناقش أمورًا إجرائية مثل الدستور الأمريكي الذي قرآه في المدرسة. وإن لم يكن يشبهه تمامًا. فهناك عدة فقرات لا مثيل لها في الدستور الأمريكي. نصت إحدى هذه الفقرات على أن الدولة لن تخوض غمار الحرب أبدًا وتحت أي ظرف من الظروف، وهو ما يتشابه كثيرًا مع الدستور الذي وضعته أمريكا لليابان إبان الحرب العالمية الثانية. أيضًا وردت فقرة أخرى لم ترد في أي دستور سمعا به من قبل؛ فهي تناقش بعض الآليات الغريبة إلى حدٍّ ما في اختيار المسئولين، وهي آليات تعتمد اعتمادًا كبيرًا على أجهزة الكمبيوتر. علاوةً على فقرة ثالثة تتعهد بأن تسمح جميع مؤسسات الدولة — ليس فقط المؤسسات التشريعية الحكومية بكافة مستوياتها، وإنما المؤسسات التعليمية والعلمية بل والدينية — بوجود مراقبين على كافة أنشطتها. (قال رانجيت: «أظن أن تلك هي «الشفافية» التي تحدث عنها جاميني.»)

كانت الوثيقة الأخرى تتناول أمورًا أكثر وضوحًا. فهي وصف لكيفية شروع الأمين العام — مع الحفاظ على السرية المطلقة — في تشكيل مجلسه المستقل المكون من عشرين عضوًا والمنوط بإدارة السلام العالمي عن طريق الشفافية. حددت الوثيقة الدول الأعضاء التي تنوعت ما بين جزر البهاما وبروناي وكوبا وفانواتو (وأيضًا سريلانكا). وكانت هذه

الوثيقة أكثر تحديدًا بشأن مفهوم الشفافية. فمن أجل تحقيق هذه «الشفافية» أُنيطت منظمة السلام عن طريق الشفافية بتشكيل هيئة رقابية مستقلة تلتزم المنظمة أمامها بتقديم نفس الدرجة من الشفافية. قالت مايرا وهي تطفئ المصباح: «أعتقد أن هذه «الهيئة الرقابية» هي المكان الذي ستذهب إليه.»

تثاءب رانجيت. وقال: «ربما، لكني سأحتاج إلى صورة أكثر وضوحًا لما يُفترض عليَّ القيام به قبل الموافقة عليه.»

في الصباح التالي لم يألُ جاميني جهدًا في الإجابة عن أسئلة مايرا ورانجيت. قال: «تحدثْتُ قليلًا مع أبي بشأن ما ستتمتع به من حرية. سوف تحظى بقدر كبير من الحرية يا رانجيت. فهو يؤكد أنك تستطيع الذهاب إلى أي مكان داخل المنظمة والاطلاع على كل ما نقوم به باستثناء كل ما له علاقة بسلاح «الرعد الصامت»: لن تعرف شيئًا عن كمِّ الأسلحة التي نمتلكها أو الأغراض التي قد نستخدمها من أجلها؛ لأنه ما من أحد يستطيع الاطلاع على ذلك سوى أعضاء مجلس الإدارة. لكن بالطبع يمكنك الاطلاع على أي شيء آخر. يمكنك أيضًا حضور معظم الاجتماعات التي يعقدها المجلس، وإذا لاحظت أي خطأ، يمكنك رفع تقرير بشأنه.»

قالت مايرا: «وإذا افترضنا أنه رأى أي خطأ، ولم يحرك المجلس ساكنًا لتصحيح هذا الخطأ.»

أجاب جاميني على الفور: «عندها يستطيع أن يخبر صحف العالم بالأمر. فهذا جوهر الشفافية التي نتحدث عنها. ما رأيك إذن؟ ألديك أسئلة أخرى تود إجابة عنها قبل الموافقة على الانضمام إلينا؟»

قال رانجيت في هدوء: «لديَّ بضعة أسئلة. هذا المجلس. قلتَ إنه يعقد اجتماعات، أليس كذلك؟ عمَّ يدور حديثهم عندما يجتمعون؟»

قال جاميني: «حسنًا، في الأغلب يكون اجتماعهم من أجل التخطيط لجميع الاحتمالات المتوقعة. فمن أجل إحداث تغيير في نظام الحكم لا بد أن تتأكد أن الشعب سيحيا في مجتمع قادر على البقاء بعد إحداث التغيير، وهذا ما تعلمناه من ألمانيا بعد عام ١٩١٨ ومن العراق بعد عام ٢٠٠٣. ولا يقتصر ذلك على ضمان توفير الغذاء والطاقة الكهربائية بأسرع ما يمكن بالإضافة إلى قوات شرطة فاعلة تكون رادعًا لأعمال السلب ونحوها، بل يمتد إلى منح الشعب فرصة لتشكيل حكومته. وما زال أمامنا المستقبل. ولدينا عدد كبير من الحروب الصغيرة والتهديدات بشن الحروب، والمجلس يضع كل ذلك نصب عينيه.»

قالت مايرا: «تمهل قليلًا. هل تتحدث عن استخدام «الرعد الصامت» هذا في مناطق أخرى في العالم؟»

ابتسم لها جاميني ابتسامة حنونة. وقال: «عزيزتي مايرا، ما الذي جعلك تظنين أننا سنتوقف عند كوريا الشمالية؟»

بدا جاميني منزعجًا عندما لاحظ التعبيرات التي علت وجه مايرا ورانجيت. وقال: «ما خطبكما؟ أترميان إلى أنكما لا تثقان بنا؟»

تكفلت مايرا بالإجابة أو بالأحرى بالرد على جاميني؛ لأن ما قالته لم يكن إجابة محددة للسؤال الذي طرحه. فقالت: «جاميني، هل قرأت رواية «١٩٨٤» من قبل؟ إنها رواية نُشِرت في إنجلترا نحو منتصف القرن الماضي من تأليف جورج أورويل.»

بدا الامتعاض على وجه جاميني. وقال: «بالطبع قرأتها. فأبي من أشد المعجبين بكتابات أورويل. أتقصدين أننا نشبه الأخ الأكبر؟ إن الأمين العام — كما تعلمين — يحظى بموافقة مجلس الأمن بالإجماع على كل ما نقوم به!»

قالت: «لا أقصد هذا عزيزي جاميني. إنني أفكر في الطريقة التي قسَّم بها أورويل العالم في روايته. فقد كان العالم يتكون من ثلاث قوى عظمى فقط بعد غزوها لكل مكان آخر. وهي أوشينيا التي قصد بها أورويل في الأغلب أمريكا، وأوراسيا التي تعني روسيا التي كانت تعرف حينها باسم الاتحاد السوفييتي، وإيستاسيا التي ترمز إلى الصين.»

عندئذٍ بدا الغضب واضحًا على جاميني. وقال: «مايرا! أتقولين إن الدول التي أنشأت منظمة السلام عن طريق الشفافية سوف تقسم العالم فيما بينها؟»

وهو ما ردت عليه مايرا بسؤال آخر. إذ قالت: «لا أدري ما تخطط له أيٌّ من هذه الدول يا جاميني. وأتمنى ألا يكون ذلك هدفهم. لكن إن كان هذا هو الواقع، فمن يقوى على ردعهم؟»

عندما غادر جاميني — دون أن يؤثر هذا الحوار على علاقة الصداقة القوية التي تربطه بهما — عاد رانجيت إلى زوجته. وقال: «ماذا سنفعل الآن إذن؟ أقالني الرئيس من وظيفتي هنا. وأنا رفضت الوظيفة التي عرضها عليَّ هو وجاميني.» قطب رانجيت جبينه عندما فكر في الأمر. ثم أضاف: «كان والده يرغب في قبولي هذه الوظيفة هو الآخر. وأظن أنه لن يكون راضيًا عن رفضي إياها. أتساءل الآن هل ما زال عرض التدريس في الجامعة قائمًا.»

الفصل الثامن والعشرون

تأسيس حياة

ما زال عرض التدريس بالجامعة قائمًا بالفعل. فأيًّا كانت نقائص الدكتور داتوسينا باندارا فإن نزعة الانتقام لم تكن واحدة منها. وهكذا كان من دواعي سرور الجامعة أن ترحب بالدكتور رانجيت سوبرامانيان (وإن كان هذا اللقب فخريًّا فحسب) ضمن هيئة التدريس بها كأستاذ جامعي بعقد دائم على أن يبدأ تعيينه (وأيضًا تلقي راتبه) في الحال، ويبدأ مزاولة العمل الفعلي عندما يرى الوقت مناسبًا لذلك تمامًا. فضلًا عن ذلك فإنه من دواعي سرور الجامعة أيضًا أن تجد منصبًا جامعيًّا للدكتورة مايرا دو سويزا سوبرامانيان (واللقب هذه المرة ليس فخريًّا وإنما حصلت عليه مايرا فعليًّا). ومما لا شك فيه أن لقبها لن يرقى إلى مكانة اللقب الذي يحمله زوجها، وكذلك الحال مع راتبها. ومع ذلك …

ومع ذلك سيعودان إلى سريلانكا!

إذا كان رئيس الولايات المتحدة قد اعترض على رفض رانجيت العرض الوظيفي الذي قدمه له، فإنه لم يبدِ أي رد فعل. وكذلك لم يعترض أي شخص آخر. جمع رانجيت متعلقاته الشخصية البسيطة من المكتب؛ صحيح أن عاملًا من عمال الصيانة — صادف كونه أحد أفراد الأمن أيضًا — ساعده في حزم متعلقاته. وصحيح أنه كان مطالبًا بتسليم بطاقات الدخول والشارات وبطاقات الهوية. لكن أحدًا لم يضايقه هو وزوجته في شقتهما أو في المطار أو على متن الطائرات التي استقلاها. وجلست ناتاشا في مقعد الأطفال بينهما في هدوء تام.

بالطبع كانت السيدة فورهولست في انتظارهما في مطار كولومبو؛ إذ كان واضحًا أن أفضل شيء لهم جميعًا أن يقيموا في منزلها مرة أخرى. قالت مايرا وهي تعانقها: «إلى أن نجد منزلًا.»

قالت السيدة فورهولست: «امكثا قدر ما تشاءان. لن يقبل يوريس خيارًا آخر.»

اكتشف رانجيت شيئًا غريبًا بشأن قاعات التدريس في الجامعة. فعندما كانت أعز أماني رانجيت الخروج من هذه القاعات كان يجدها ضيقة المساحة على نحو يثير الشعور بالكآبة. لكنها لم تعد كذلك الآن؛ لم تعد كذلك أمام أستاذ جديد لم يلقِ محاضرة أمام الطلاب من قبل. فالقاعة حينئذٍ بدت كأنها منصة مُحَلَّفين فسيحة مكتظة بطلبة وطالبات يجلسون للحكم عليه. فأعينهم مصوبة بدقة نحو كل حركة يقوم بها، وآذانهم شديدة التوق لسماع الحقائق العظمى التي سيحدثهم بها الأستاذ سوبرامانيان حول الأسرار الكامنة لعالم الرياضيين.

لم يكن إطعام هذا العش المليء بصغار الطيور الجائعة هو وحده الذي أربك رانجيت. بل كان اختياره لما سيسد به رمقهم. عندما أبدت هيئة البحث بالجامعة ترحيبها بانضمام رانجيت إلى هيئة التدريس تفضلوا بترك طبيعة مهامه الوظيفية يضعها هو وفق خطته المُحْكَمة.

لكن لم تكن لدى رانجيت أي خطط.

أدرك أنه بحاجة إلى المساعدة. بل إنه تمنى أن يجد ضالته عند الدكتور دافودبوي؛ ذلك الرجل الذي أحسن التصرف معه عندما كان يحدثه بشأن استيلائه على كلمة المرور الخاصة بأستاذ الرياضيات.

كان دافودبوي لا يزال يعمل بالجامعة. ونتيجة لحالات التقاعد والوفيات التي تحدث بطبيعة الحال، قد ترقى درجة أو درجتين في السلم الوظيفي. لكن عندما لجأ إليه رانجيت طلبًا للمساعدة لم يجد لديه الكثير. قال دافودبوي: «رانجيت، أما زال بإمكاني أن أناديك باسم رانجيت؟ أنت تعرف كيف تسير الأمور. لا تحظى جامعتنا الصغيرة بالعديد من مشاهير العالم. ولجان البحث يريدونك هنا بشدة، لكنهم لا يعرفون تحديدًا فيمَ يريدونك. أتعرف أنك لست مضطرًّا بالفعل لمزاولة مهنة التدريس كثيرًا؟ ليس لدينا عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس المتخصصين في البحث، لكنه احتمال قائم.»

قال رانجيت بحرص: «آها.» ثم أمعن التفكير هنيهة، ثم أردف: «أظن أن بإمكاني إلقاء نظرة على بعض المسائل القديمة الشهيرة مثل فرضيات ريمان وجولدباخ وكولاتز ...»

قال دافودبوي: «بالتأكيد، لكن لا تفقد الأمل في التدريس إلى أن تجربه. لم لا نعقد بضع حلقات دراسية سريعة على سبيل التدريب؟ يمكننا القيام بذلك على الفور.» وبينما

يهم رانجيت بالانصراف وهو يدير الفكرة في عقله، قال دافودبوي: «ثمة شيء آخر يا رانجيت. كنتَ محقًّا بشأن فيرما وكنتُ أنا المخطئ. لم أضطر إلى قول ذلك كثيرًا في حياتي. وهو ما يدفعني إلى الرغبة في أن أثق بآرائك.»

سعد رانجيت لمعرفته أن عميد الجامعة يثق برأيه. مع أن رانجيت نفسه لم يكن شديد الميل إلى الثقة في الآخرين. نُظِّمَت أولى حلقات رانجيت الدراسية تحت عنوان «أسس نظرية الأعداد». قال رانجيت لدافودبوي الذي بدأ التنفيذ على الفور: «سوف أعطيهم نظرة عامة حول الموضوع بأكمله.» ستستغرق الحلقة الدراسية ستة أسابيع على أن تكون المحاضرة الواحدة أربع ساعات، وسوف تقتصر على طلاب السنة الثالثة والرابعة وطلاب الدراسات العليا في قاعة لا تتسع لأكثر من خمسة وعشرين طالبًا.

لم يكن رانجيت قد كرس اهتمامًا كبيرًا للموضوع الذي اختاره لهذه الحلقة الدراسية منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره وهو يخطو أولى خطواته نحو الولع بنظرية فيرما. لذلك نقَّب مكتبة الجامعة بحثًا عن كتب ذات صلة، وأخذ يُدَرِّس منها محاولًا أن يسبق في القراءة بنحو اثنتي عشرة صفحة على الأقل عن الطلاب الذين التحقوا بالصف والذين كانوا يتمتعون بذكاء وسرعة بديهة يبعثان على الشعور بالقلق.

ومع الأسف لم يستمر الأمر وقتًا طويلًا حتى فطن الطلاب لما يقوم به رانجيت. وفي تلك الليلة اعترف رانجيت لمايرا: «إنني أصيبهم بالملل. فهم يستطيعون القراءة من الكتاب تمامًا مثلما أفعل.»

قالت مايرا بلهجة داعمة: «هذا كلام غير معقول.» لكن بعد ذلك — عندما أعاد رانجيت على مسامعها بعضًا من تعليقات الطلاب التي تنم عن احترام شديد لكنها تفتقر إلى علامات التأثر — فكرت مايرا بتمعن. ثم قالت: «أَتَفَهَّم ذلك. عليك بالمزيد من التواصل الشخصي معهم. لماذا لا تعرض عليهم بعض الحيل المتعلقة بالحساب الثنائي؟»

نفذ رانجيت الفكرة التي طرحتها مايرا؛ إذ لم تكن لديه فكرة أفضل. فعرَّف الطلاب على طريقة الضرب الروسية والعد على الأصابع بالإضافة إلى تلك الحيلة التي يَكتب فيها تباديل الصور والكتابات لصف غير معلوم الطول من العملات، واستخدم عملات معدنية حقيقية، وسمح للطلاب بتعصيب عينيه، في حين غطى أحدهم جزءًا من الصف. كانت مايرا محقة. فقد استمتع الطلاب. ورَجَاه بعضهم أن يريهم المزيد، وهو ما جعل رانجيت يذهب إلى أرفف المكتبة حيث وجد نسخة قديمة من كتاب مارتن جاردنر حول الألغاز

والأحجيات الرياضية، وهكذا مرت الأسابيع الستة التي استغرقتها الحلقة الدراسية دون أن يتعرض رانجيت للنقد من طلابه.

أو هكذا ظن.

بعد انتهاء الحلقة الدراسية دعاه الدكتور دافودبوي لزيارة قصيرة من أجل مناقشة بعض الأمور. قال دافودبوي، وهو يصب كأسًا من النبيذ لكل منهما: «أتمنى ألا تمانع يا رانجيت، لكننا بين الحين والآخر — خاصةً عندما نجرب شيئًا جديدًا — نطلب من الطلاب إبداء آرائهم. وقد كنت ألقي نظرة لتوي على الأوراق التي تضم آراء الطلاب في الحلقة الدراسية.»

قال رانجيت: «أه. أتمنى أن تكون الآراء جيدة.»

تنهد عميد الجامعة. وقال: «ليس تمامًا مع الأسف.»

والواقع أن آراء الطلاب لم تكن جيدة تمامًا، وهو ما اعترف به رانجيت أثناء تناول العشاء تلك الليلة. أخبر رانجيت زوجته والسيدة فورهولست: «قال بعضهم إنني كنت أؤدي خدعًا سحرية كالتي تؤدَّى في ملهى ليلي بدلًا من تدريس الرياضيات. وجميعهم تقريبًا لم ترُقهم فكرة التعلم دون استخدام الكتاب.»

قالت السيدة فورهولست وقد قطبت جبينها: «لكنني ظننت أنهم سيستمتعون بتلك الخدع.»

قال: «أظن أنهم استمتعوا — نوعًا ما — لكنهم قالوا إنهم لم يلتحقوا بالصف من أجل هذا.» قشر رانجيت ثمرة برتقال والكآبة تعلو وجهه. وأردف قائلًا: «وأنا أتفق معهم. لكنني لا أدري ماذا يريدون.»

ربتت مايرا على يد رانجيت، وأخذت قطعة من البرتقال. وقالت: «ولهذا السبب نُظِّمت هذه الحلقة الدراسية، أليس كذلك؟ لكي ترى هل سيجدي هذا الأسلوب نفعًا أم لا؟ ومن الواضح أنه لم يُجْد نفعًا، لذا عليك أن تجرب أسلوبًا آخر.» جففت مايرا شفتيها من عصير البرتقال، ومالت إلى الأمام، ثم طبعت قبلة على جبهة رانجيت. وقالت: «هيا لنحمم تاشي، ثم نذهب أنا وأنت للسباحة في حوض السباحة كي نُرَوِّح عن أنفسنا.»

أتم رانجيت ومايرا كل ما خططا له. وهو ما أشاع البهجة في نفسيهما. وحقيقة الأمر أن كل ما يتعلق بالحياة في منزل فورهولست كان مصدرًا لإشاعة البهجة في النفس. فمن الواضح أن العاملين في المنزل فخورون بضيوفهم المميزين، وبالطبع متيَّمُون بناتاشا أيضًا. صحيح أن مايرا كانت تقضي ساعة أو ساعتين معظم الأيام في البحث عن شقة

لينتقل إليها ثلاثتهم، لكنها لم تنجح في العثور على تلك الشقة. بدت بعض الشقق ملائمة في البداية، لكن السيدة فورهولست تكفلت بلفت أنظارهما إلى العيوب الخفية مساعدةً منها: ومن هذه العيوب أن الشقة تقع في حي سيئ، أو أنها تبعد عن الجامعة، أو أن الغرف ضيقة أو إضاءتها ليست جيدة أو كلاهما معًا. كان هناك عدد كبير من العيوب التي تجعل أي شقة غير ملائمة لآل سوبرامانيان، ولم تكن السيدة فورهولست تألو جهدًا في كشف النقاب عن تلك العيوب. قالت مايرا لزوجها وهما يخلدان إلى النوم ذات ليلة: «لا شك أنها ترغب في بقائنا معها. أظن أنها تشعر بالوحدة في غياب يوريس.»

قال رانجيت والكرى يطوف بأجفانه: «صحيح.» ثم أضاف، وهو يتثاءب: «قد تكون هناك أمور أسوأ من الإقامة هنا.»

لا مراء في صدق ما قاله رانجيت. ففي منزل فورهولست تُلبَّى كافة احتياجاتهم دون أي جهد من جانبهم، ودون تكلفة أيضًا. ألح رانجيت في السماح له بالمساهمة مع آل فورهولست في نفقات المنزل. رفضت السيدة فورهولست. كان رفضها نابع من محبة ووُدٍّ، لكن كان رفضًا قاطعًا. قال رانجيت لمايرا وهما يسترخيان بجوار حوض السباحة ذلك المساء: «أوه، حسنًا. إذا كانت السيدة فورهولست تستمتع بتدليلنا، فلِمَ نحرمها هذه المتعة؟»

كان رانجيت يتمنى أن يكون العالم في الخارج باعثًا على البهجة هكذا. لكنه لم يكن كذلك. فعلى الرغم مما حدث في كوريا فإن الكرة الأرضية ما زالت تعاني حروبًا صغيرة وأعمال عنف. حدث توقف مؤقت بعد استخدام «الرعد الصامت»؛ إذ ترددت الأطراف المتناحرة حول العالم خشية أن يحين الدور عليها. لكن ذلك لم يحدث. لم يتكرر استخدام «الرعد الصامت» مباشرة، وفي غضون شهر كانت المدافع والقنابل خارج كوريا الشمالية قد عادت إلى طبيعتها.

في بعض الأحيان كان رانجيت يتمنى زيارة من جاميني باندارا ليخبره بما يعرف من معلومات سرية حول ما يجري. إلا أنه لم يفعل. ظن رانجيت أن جاميني ربما يكون مشغولًا للغاية في تسوية الأوضاع فيما كان يطلق عليها من قبل اسم كوريا الشمالية. والواقع أن هذا المكان كان يشهد الكثير من الأحداث. فالكهرباء عاودت الانتقال عبر خطوط نقل القوى الكهربية التي تعرضت للضرب. وأعيد حرث المزارع التي أُهملت بسبب انضمام الرجال الذين كانوا يعملون فيها إلى الجيش. كما بدأ التصنيع الفعلي للسلع الاستهلاكية. فضلًا عن ذلك كانت هناك أخبار محيِّرة بشأن التخطيط لإجراء

انتخابات. كانت أخبار غريبة لم يستطع آل سوبرامانيان أو أي شخص يتحدثون إليه أن يخرج منها بفهم واضح للأمر. من الواضح أن للكمبيوتر دورًا كبيرًا في ذلك، لكن لم يتمكن أحد من توضيح ماهية هذا الدور على وجه التحديد.

على الرغم من ذلك أقر رانجيت ومايرا وهما يتجاذبان أطراف الحديث ليلًا وكلاهما ممسك بيد الآخر أن معظم الأحداث بدأت تسير في اتجاه أفضل إلى حدٍّ ما — أو على الأقل لم تعد تسير في الاتجاه الأسوأ — عما قبل إطاحة «الرعد الصامت» بنظام الحكم. أو بالأحرى معظم الأحداث. في الواقع، لم تكن المسيرة الأكاديمية لرانجيت من بين هذه الأحداث.

المشكلة التي ارتبطت بمسيرة رانجيت الأكاديمية هي أنه بدا غير قادر على بدئها. فبعد رد الفعل المُحْبِط التي تلقاه بشأن حلقته الدراسية الأولى، عزم ألا يكابد المصير نفسه في محاولته الثانية.

لكن ماذا عساها أن تكون هذه المحاولة؟ بعد تفكير طويل قرر رانجيت أنها ستكون توضيحًا تفصيليًّا لقصته الطويلة بدءًا من تعلقه بنظرية فيرما وانتهاءً بما حققه من نجاح فيها. وافق الدكتور دافودبوي على ترتيب موعد لذلك مشيرًا في هدوء إلى أنه أمر يستحق المحاولة على الأقل.

غير أنه كان للطلاب رأي آخر. من الواضح أن الأخبار المتعلقة بضعف مهاراته التدريسية قد ذاعت بين الطلاب، ورغم انضمام عدد قليل منهم إلى الصف، فإن كثيرين استفسروا عن مضمون الحلقة الدراسية، وظلوا مترددين في اتخاذ القرار، وفي النهاية صرفوا أنظارهم عن الأمر. من الواضح أن معظم الطلاب فكروا في أن رانجيت قد تناول هذا الموضوع باستفاضة في أحاديثه ومقابلاته الصحفية. فألغيت الحلقة الدراسية.

فكر رانجيت في خيار البحث. ووجد أمامه المسائل السبع الشهيرة التي لم يتوصل أحد إلى حلها والتي طرحها معهد كلاي للرياضيات في مطلع القرن الحادي والعشرين — لم تكن هذه المسائل مثيرة للتشويق في حد ذاتها فحسب، بل إن المعهد رصد مكافأة سخية قدرها مليون دولار لحل كل مسألة منها.

وهكذا بحث رانجيت في القائمة التي تضم المسائل وفكر فيها مليًّا. كان بعض هذه المسائل عويصًا حتى على رانجيت نفسه، لكن هناك حدسية هودج وفرضية بوانكاريه وفرضية ريمان؛ كلا على الأقل وُجِدَ حل لبعض هذه المسائل، ومُنِحَت الجوائز المرصودة لها. وهناك أيضًا أهم هذه المسائل، وهي معادلة $P = NP$.

وبغض النظر عن الوقت الذي قضاه رانجيت في التفكير في هذه المسائل، فإن حلها ما زال بعيد المنال. لم يكن بوسعه أن يشعر بذات الشعور الذي ملك عليه نفسه أول ما وقعت عيناه على ما كتبه فيرما في هامش كتابه. وفسرت مايرا ذلك بقولها: «ربما لأنك لم تعد في الرابعة عشرة من عمرك.»

لكن هذا لم يكن السبب. فبرهان فيرما كان أمرًا مختلفًا تمامًا. إذ لم يحدث أن عُرِض على رانجيت باعتباره مسألة ينبغي عليه محاولة حلها. ما حدث أن واحدًا من العظماء في تاريخ علم الرياضيات تباهى بأن لديه برهانًا لتلك النظرية الأخيرة. وكان على رانجيت أن يكتشف هذا البرهان.

حاول رانجيت أن يوضح الأمر لمايرا. وقال لها: «هل سمعتِ من قبل عن شخص يُدعى جورج دانتزيج؟ كان طالب دراسات عليا في جامعة كاليفورنيا بيركلي عام ١٩٣٩. ذات مرة وصل دانتزيج إلى المحاضرة متأخرًا، ورأى معادلتين كتبهما المحاضر على السبورة. ظن دانتزيج أن هاتين المعادلتين واجب منزلي، فنقلهما في دفتره، وأخذهما إلى المنزل ليفكر في حل لهما.»

استطرد رانجيت: «لم تكن المعادلتان واجبًا منزليًّا. فقد كتبهما الأستاذ على أنهما مسألتان في الرياضيات الإحصائية لم يستطع أحد حلهما.»

زمت مايرا شفتيها. وقالت: «أتريد أن تقول إن دانتزيج قد لا يستطيع حل المسألتين لو عرف شيئًا كهذا؟»

هز رانجيت كتفيه. وقال: «ربما.»

استعانت مايرا بالرد الذي يفضله زوجها على التعليقات المربكة. إذ قالت: «هكذا إذن!»

ابتسم رانجيت ابتسامة واسعة. وقال: «حسنًا. هيا إذن لنعطي تاشي درسًا في السباحة.»

لم يشُكَّ أي شخص عرف الصغيرة ناتاشا دو سويزا سوبرامانيان للحظة واحدة أنها لا تتمتع بذكاء خارق. فقد تدربت على استخدام الحمام قبل أن تتم عامها الأول، وخطت أولى خطواتها بعدها بشهر، ثم نطقت أولى كلماتها بوضوح — وهي كلمة «مايرا» — بعد أقل من شهر آخر. وكل هذه الأشياء فعلتها تاشي وحدها.

لم يكن سبب ذلك أن مايرا ليس لديها أشياء تتوق إلى أن تعلمها لابنتها. فهناك الكثير من هذه الأشياء، لكن ذكاء مايرا جعلها تحجم عن تعليمها كل تلك الأشياء مرة

واحدة. لذا قصرت مايرا توجيه ابنتها التي لم تتجاوز من العمر عامين على موضوعين. أحدهما كان الغناء، أو على الأقل نطق أصوات تضاهي ما تغنيه مايرا أمامها. وكان الآخر السباحة.

ابتسم رانجيت لمايرا وناتاشا وهو يجلس على حافة حوض السباحة في منزل فورهولست وقدماه تتدليان في الماء. اعتاد رانجيت ألا يهرع إلى إنقاذ ابنته كلما انزلقت تحت سطح الماء لدقيقة. وطمأنته مايرا بقولها: «سوف تفعل وحدها»، والواقع أن ناتاشا كانت تفعل ذلك دائمًا. ثم استطردت مايرا: «وعلى أي حال فأنا هنا إلى جوارها.»

بعدئذٍ — عندما جُفِّفَت تاشي وتُرِكَت تلهو بأصابع قدميها بابتهاج داخل سريرها المتحرك بجوار حوض السباحة — وبينما كانت مايرا تقطب جبينها أمام تقارير الأنباء على شاشتها المحمولة، ألقى رانجيت نظرة خاطفة. وبطبيعة الحال كانت الأخبار سيئة. ومتى لم تكن كذلك؟

قال رانجيت: «سيكون أمرًا رائعًا لو تلقينا خبرًا سارًّا.» ثم حدث شيء ما.

كان هذا الحدث يتعلق بيوريس فورهولست. عندما عاد رانجيت إلى المنزل بعد يوم آخر من الجلوس في جامعته الصغيرة محاولًا إيجاد وسيلة تجعله يستحق ما يتقاضاه من راتب، سمع أصواتًا تتعالى بالضحك. وبسرعة ميز رانجيت تلك الضحكات الخافتة التي تليق بوقار سيدة متقدمة في السن كالسيدة فورهولست، وأصوات القهقهة الأقل تحفظًا لزوجته الغالية، بينما ذلك الصوت الجهوري الرجالي كان يصدر عن …

كاد رانجيت أن يركض الاثني عشر مترًا التي تفصله عن الشرفة المشمسة حيث يجلس الثلاثة. وصاح متهللًا. وقال: «يوريس! عفوًا، الدكتور فورهولست! كم أنا سعيد لرؤيتك!»

ما إن نطق رانجيت هذه الكلمات حتى أدرك مدى صدقها. فمنذ أيام وهو يتمنى أن يقابل شخصًا مثل أستاذه الذي درَّس له أساسيات علم الفلك في السابق … ليس شخصًا مثله! بل هو على وجه التحديد! يوريس فورهولست الذي بفضله كان علم الفلك المحاضرة الوحيدة التي يتوق رانجيت لاقتراب موعدها أثناء دراسته بالجامعة. وهو الذي ربما يمد يد العون لرانجيت في حل مشكلاته المتعلقة بالتدريس.

أول شيء كان لا بد من الاتفاق عليه ألا يناديه رانجيت باسم «الدكتور فورهولست» بعد الآن. قال فورهولست: «في النهاية أنت أستاذ في الجامعة مثلي، حتى وإن كنتُ في إجازة ممتدة من أجل العمل في مصعد الفضاء.»

اقتضى هذا بطبيعة الحال أن يُحَدِّثهم فورهولست عن آخر التطورات المتعلقة بالسلم الفضائي. فطمأنهم إلى أن المشروع يتقدم بخطًى حثيثة. وقال: «بدأنا بالفعل في استخدام كابل يبلغ مقطعه ميكرونًا واحدًا. وحالما نبدأ بداية مطمئنة سنشرع على الفور في مضاعفة الجهد المبذول، وبعدها ستبدأ الأشياء في التحرك بالفعل؛ لأننا سنتمكن حينئذٍ من استخدام السلم نفسه لرفع المادة المراد نقلها إلى مدار أرضي منخفض بدلًا من تلك الصواريخ بمشاكلها الكثيرة ...» ثم أردف في الحال: «ليس معنى هذا أننا لا نستفيد منها استفادة كبرى. وها هو المشروع يتقدم بسرعة. هذا لأن القوى العظمى التي تشرف عليه — وهي روسيا والصين وأمريكا — تسعى سعيًا حثيثًا إلى دفعه قدُمًا حتى إنهم كادوا يوجهون كل برامج الفضاء التابعة لتشغيل السلم الفضائي. وأنا أتفقد كل مواقع الإطلاق الخاصة بهم منذ شهرين.» مد فورهولست كأسه ليعيد الخادم ملأه. وأضاف: «لقد بدءوا إنشاء المحطة الأرضية على الساحل الشرقي الجنوبي. ولهذا السبب جئت إلى سريلانكا اليوم؛ لا بد أن أذهب إلى هناك لأعد تقريرًا وأرفعه إلى رؤساء الدول الثلاثة.»

قال رانجيت متلهفًا: «أود أن أرى هذا المكان بنفسي.»

رد يوريس: «بالتأكيد يمكنك ذلك. وكذا أي شخص من صف علم الفلك، لكن ليس الآن. فهناك مائتا آلة حفر تعمل كلها في آنٍ واحد، إضافة إلى نحو ثلاثة آلاف عامل بناء مما يجعل المكان مزدحمًا هناك. انتظِرْ بضعة أشهر، وسنذهب في زيارة معًا. وعلى أي حال هذا المشروع محاط بدرجة عالية من السرية؛ أظن أن الأمريكيين يخشون استيلاء بوليفيا أو جزيرة إيستر أو أي دولة أخرى على أفكارهم وبناء مصعد فضاء خاص بها. ستحتاج تصريحًا أمنيًّا من جهات عليا لتتمكن من الدخول.»

همَّ رانجيت أن يطمئن أستاذه القديم بأن لديه أفضل التصاريح الأمنية التي يمكن لأي شخص الحصول عليها، لكنه تردد خشية أن تكون هذه التصاريح قد أُلغيت. عندها قال فورهولست: «وماذا عن أخبارك يا رانجيت؟ بعيدًا عن اكتشاف برهان فيرما والزواج من أجمل عالمة ذكاء صناعي في سريلانكا، ماذا كنت تفعل؟»

بدا أن يوريس فورهولست قد عرف الكثير عن مغامرات تلميذه السابق، وأنه يرغب في معرفة المزيد. فاستمر الحديث حتى وقت العشاء. تردد رانجيت في طلب المساعدة أمام الأسرة بأكملها، وعلى أي حال فالسيدة بيتريكس تشاهد برامج الأخبار ولديها من الأسئلة الكثير. قالت بيتريكس لبقية المجموعة: «إنهم يرسلون سفنًا محملة بدبابات ومدافع

قديمة ذاتية الحركة وأشياء أخرى من هذا القبيل إلى بحر الصين، ويلقون بها في المياه. وهذا من أجل بناء شعاب صناعية تُتَّخَذ مكانًا لتوالد الأسماك على حد قولهم. وقد عرضوا مقاطع مصورة لنوع يمتلكونه من المقاصل — كالتي شاعت أيام الثورة الفرنسية غير أنها على ارتفاع خمسة طوابق — يستخدمونها في تقطيع الصواريخ البالستية العابرة للقارات. أظن أنهم يعملون على تفريغ الوقود ورءوس القذائف أولًا.»

قال يوريس لوالدته: كما أنهم يزيلون المعادن القابلة للتدوير أولًا. رأيت حمولات قطار من هذه المواد تتجه غربًا عبر سيبيريا؛ يقول الروس إن هذا جزء من التعويضات المفروضة على كوريا. هل سمعتم عن الانتخابات التي حددوا موعدًا لإجرائها؟»

أجابت مايرا: «بالتأكيد سمعت عنها. لكنني لم أفهم شيئًا.»

ابتسم يوريس ابتسامة ممزوجة بالأسى. وقال: «وأنا أيضًا. لكني التقيت مصادفة في الصين بسيدة حاولت توضيح الأمر لي. أول شيء أن الوحدة الرئيسية للانتخاب لن تكون المدينة أو الدائرة الانتخابية التي يعيش فيها الناخبون. وإنما مجموعة عشوائية تضم عشرة آلاف شخص — من كل مكان في الدولة — وُلدوا في نفس اليوم. ومن بين هؤلاء العشرة آلاف يجري اختيار مجموعة تضم خمسة وثلاثين شخصًا — اختيارًا عشوائيًّا عن طريق الكمبيوتر — لزعامة المجموعة. يلتقي هؤلاء الخمسة والثلاثون شخصًا، ويجتمعون على مدار أسبوع شهريًّا في مكان ما في كوريا، ويختارون من بينهم رئيسًا — أو بالأحرى رئيس مدينة — ومشرِّعًا يتولى إصدار التصريحات والتخطيط لمشروعات الإنشاء. فضلًا عن أنهم يختارون قضاة، وينتخبون ممثلين عن المجلس التشريعي الوطني وغير ذلك.»

قالت والدة يوريس: «يبدو أمرًا معقدًا. وماذا عن فكرة الاختيار العشوائي عن طريق الكمبيوتر؟ لقد طرح أحد كتاب الخيال العلمي هذه الفكرة قبل ثلاثين عامًا.»

أومأ يوريس. وقال: «لديهم أفضل الأفكار، أليس كذلك؟ على أي حال، لن تعمل الشبكة قبل أن يستعيدوا اتصالاتهم بعد شهر أو شهرين على الأقل، على ما أظن. وربما نفهم ما يجري حينئذٍ.»

بعد تناول العشاء كان لا بد للوالدين الفخورين أن يُرِيا فورهولست كيف أن طفلتهما تجيد السباحة، وبعد أن انتهت تاشي أصرت السيدة فورهولست على ذهاب يوريس إلى النوم. لأنه قطع نصف الطريق حول العالم بالطائرة منذ آخر مرة نام فيها، والآن حان وقت حصوله على قسط من الراحة!

وهكذا لم تتح لرانجيت أي فرصة لطلب المساعدة من يوريس. بعد أن اطمأن رانجيت إلى نوم ناتاشا ومايرا، أخذ يتابع الأخبار في عبوس داخل غرفة الملابس وبصوت خافت للغاية كي لا يزعج النائمين. أصدر مجلس الأمن مجموعة جديدة من التحذيرات الشديدة اللهجة إلى الدول المتورطة — أو التي تبدو على شفا التورط — في إحدى تلك الحروب الصغيرة؛ لم يَرِد ذكر «الرعد الصامت» ضمن التحذيرات، لكن كان رانجيت واثقًا أن جميع الأطراف المتناحرة تضعه في حسبانها. حدَّث رانجيت نفسه أنه ربما اتخذ قرارًا خاطئًا عندما رفض عرض جاميني. فمن الواضح أن منظمة السلام عن طريق الشفافية موجودة دائمًا في قلب الحدث، على عكس جامعة كولومبو.

ثارت نفس رانجيت فتوقف عن سماع الأخبار. وفكر في الحصول على قسط من النوم هو الآخر، وأن يكون حديثه مع يوريس أول ما يفعله في الصباح قبل أن يمضي مجددًا في طريقه إلى موقع بناء المحطة الطرفية.

لكنه سمع صوت موسيقى خافت يأتي من مكان ما.

ارتدى رانجيت روبًا، وخرج يتحقق من الأمر. وفي الشرفة المطلة على الحديقة كان يوريس جالسًا يرشف شرابًا في كأس طويلة، ويحدق إلى القمر بينما صوت المذياع ينطلق في هدوء. وعندما شاهد رانجيت يحدق النظر إليه، ابتسم ابتسامة يمازجها شيء من الخجل. وقال: «ها قد أمسكتَ بي. كنت أفكر للتوِّ في المكان الذي سأختار الهبوط فيه — ربما بعد خمس أو ست سنوات من الآن — عندما يكون مصعد الفضاء جاهزًا للعمل، وأستطيع الذهاب هناك. ربما أهبط في منطقة بحر السكون أو بحر الشدائد أو ربما في مكان أبعد يمنحني فرصة للتباهي أمام الآخرين. اجلس يا رانجيت. أتريد شرابًا؟»

وافق رانجيت، وكان لدى يوريس جميع الإضافات التي تلزمهما. وبينما يتناول رانجيت كأسه، أومأ برأسه ناحية القمر الذي كاد يكتمل وكاد ضوءه يكفي للقراءة عليه. وسأل يوريس: «هل تظن حقًّا أنك ستتمكن من القيام بذلك؟»

قال فورهولست بنبرة واعدة: «ليس ظنًّا، بل هو يقين. ربما يستغرق الأمر وقتًا أطول حتى يحصل رجل الشارع العادي على تَذْكرة للسفر إلى الفضاء. لكن هذا لن ينطبق عليَّ. فأنا واحد من مديري البرنامج، والمنصب يمنح صاحبه امتيازات.» انتبه يوريس إلى نظرة الدهشة التي علت وجه رانجيت. فقال: «ما الأمر؟ ألم تكن تتوقع أن أستغل منصبًا للحصول على شيء أريده؟ لم أكن لأفعل هذا في كثير من الأمور. لكن السفر إلى الفضاء أمر استثنائي. وإذا كان السبيل الوحيد للذهاب إلى القمر هو سرقة البنوك من أجل تمويل الرحلة، فلن أتورع عن فعل ذلك.»

هز رانجيت رأسه. ثم قال بنبرة يشوبها شعور ضئيل أدرك أنها الغيرة: «كم أتمنى لو أني أحب عملي هكذا.»

نظر الدكتور فورهولست إلى تلميذه السابق نظرة متفحصة. وعرض عليه قائلًا: «املأ الكأس مرة أخرى.» ثم أردف وهو يعد الشراب لرانجيت: «بما أنك أثرت هذه النقطة، لِمَ لا تحدثني عن عملك في الجامعة؟»

بالتأكيد لم يكن رانجيت ليرغب في شيء أفضل من هذا. ولم يستغرق وقتًا طويلًا في الإفضاء بمشكلاته إلى أستاذه السابق، وبسرعة استوعب يوريس فورهولست المشكلة. فقال بلهجة متأنية وهو يعيد ملء الكأسين: «لنعد إلى الأساسيات. لا توجد لديك مشكلة في تجميع صف من الطلاب، أليس كذلك؟»

هز رانجيت رأسه نفيًا. وقال: «في الحلقة الدراسية الأولى ضمت قائمة الانتظار ثلاثين أو أربعين طالبًا لم يتمكنوا من تسجيل أسمائهم.»

قال يوريس: «لماذا يسجل الطلاب أسماءهم في صف معك؟ ليس لأنك أستاذ نابغة؛ فحتى لو كنت كذلك فإن الفرصة لم تتح لهم لاكتشاف هذا. وليس أيضًا لأن علم الرياضيات المعقد اكتسب شعبية فجأة بين الطلاب. كلَّا يا رانجيت، إنهم ينجذبون لشخصك ولمثابرتك على حل تلك المسألة طوال هذه السنوات. لم لا تعلِّمهم أن يفعلوا مثلك؟»

قالت رانجيت في عبوس: «حاولت ذلك. فقالوا إنهم سمعوني أحاضر حول هذا الموضوع من قبل. إنهم يريدون موضوعًا جديدًا.»

قال يوريس: «حسنًا، لم لا تعرِّفهم على ما فعله شخص آخر لحل مسألة كهذه، وخطوة خطوة ...»

نظر رانجيت إليه وقد ظهرت أمامه بارقة أمل. وقال: «أها. أجل، ربما. فأنا أعرف الكثير عن الطريق الذي سلكته صوفي جيرما في محاولة حل نظرية فيرما، وبالطبع لم يحالفها النجاح إلا قليلًا.»

قال يوريس راضيًا: «جيد»، لكن رانجيت ظل يفكر.

قال رانجيت وقد بدت عليه الإثارة فجأة: «تمهل، أتدري ماذا يمكنني أن أفعل؟ يمكنني اختيار واحدة من المسائل الشهيرة القديمة التي لم يفلح أحد في حلها؛ مثل تنقيح أويلر لفرضية جولدباخ؛ يمكنني شرح ذلك بصورة سهلة جدًّا يفهمها أي شخص، على الرغم من أن أحدًا لم يستطع التوصل إلى برهان. لقد افترض جولدباخ أن ...»

رفع يوريس يده. وقال: «من فضلك لا تشرح فرضية جولدباخ هذه لي. ولكن، أجل، تبدو فكرة جيدة. يمكنك الاستعانة بها بوصفها مشروعًا للصف. بحيث تعمل عليها أنت وطلابك معًا. ومن يدري؟ ربما تتوصلون إلى حل لها!»

جعل هذا رانجيت يضحك. وقال: «سيكون هذا يومًا موعودًا! لكن لا أهمية لحل المسألة؛ فسوف يشعر الطلاب على الأقل بالشعور الذي يستحوذ عليك عند حل مسألة مهمة، وهذا كفيل بإثارة انتباههم.» ثم أومأ رانجيت لنفسه وقد غمره السرور. وقال: «سوف أجرب ذلك! لكن الوقت تأخر، وعليك أن تستيقظ في الصباح، شكرًا لك، دعنا ننهِ هذا الحوار الآن.»

وافق فورهولست قائلًا: «من الأفضل أن نفعل ذلك قبل أن تكتشف أمي أني ما زلت مستيقظًا. لكن هناك شيء آخر أود أن أحدثك بشأنه يا رانجيت.»

توقف رانجيت — الذي كان يستعد للنهوض — ويداه على ذراعَي الكرسي. وتساءل: «ماذا؟»

قال يوريس: «كنت أفكر في اللجنة التي دُعِيتَ إلى العمل فيها لدى منظمة السلام عن طريق الشفافية. خطر ببالي أننا سنكون في حاجة إلى شيء كهذا في مشروع سلم الفضاء. سنكون في حاجة إلى أشخاص من المشاهير يضعون ما نفعله نصب أعينهم، ويخبرون به العالم بين الحين والحين. وأنت واحد من المشاهير يا رانجيت. أتظن أن بإمكانك ...؟»

قاطعه رانجيت. وقال: «أيًّا كان ما تطلب مني، فأنا موافق. فقد أنقذت حياتي لتَوِّك!»

كان ما قاله رانجيت حقيقي ... فبعد سنوات فكر رانجيت متسائلًا كيف أن هذا الحوار البسيط قد غير مجرى حياته.

على بعد بضع سنوات ضوئية كانت حياة ١٤٠ ألفًا من كائنات «واحد فاصل خمسة» داخل الأسطول المكلف بإخلاء كوكب الأرض من السكان على شفا تغيير هائل أيضًا.

وفقًا لحسابات ربابنة السفن من «المخزنين في الآلات» كان أمام الأسطول ثلاث عشرة سنة أرضية قبل الهجوم على الجنس البشري المحكوم عليه بالهلاك. وتلك نقطة فاصلة في حياة كائنات «واحد فاصل خمسة». هذا لأنها تعني أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء مهم.

وهكذا بدأت الطواقم الفنية المدربة تدريبًا عاليًا في كل مكان من الأسطول — في كل زاوية من كل سفينة — تتفقد جميع الآلات أو المعدات المضبوطة على وضع التشغيل،

وتُوقِف تشغيل معظمها. أُوقِفَ تشغيل الدفع الرئيسي، وهو ما يعني أن الأسطول يتحرك الآن ببطء نحو كوكب الأرض، على الرغم من أن السرعة العالية التي كان يتحرك بها من قبل تجعل المزيد من التسارع صعبًا للغاية أو بلا جدوى تقريبًا وذلك وفقًا لقوانين أينشتاين. أيضًا أُوقِفَ تشغيل أجهزة ترشيح الفضلات المحمولة جوًّا. ولذا فإن شروع كائنات «واحد فاصل خمسة» في إخراج الزفير في آنٍ واحد سوف يبدأ في تلويث الهواء الذي يتنفسونه. فضلًا عن ذلك أُوقِفَت أجهزة شحن المحولات الكهربائية. وكذلك أُوقِفَت أشعة البحث. والآلات المتحكمة في تشغيل جميع المعدات التي لا يمكن إيقافها ولو لوقت قصير، جميعها توقف عن العمل.

فجأة لم يعد أسطول «واحد فاصل خمسة» ذلك الأسطول القتالي المهيب الموجه نحو نقطة القتال، وإنما تحول إلى مجموعة آلات معطلة تكاد تكون بلا تأثير وعلى وشك الوصول إلى نقطة من المحتمل أن تصطدم السفن بعضها ببعض فيها. لن يتمكن الأسطول من السيطرة على هذا الوضع طويلًا.

والواقع أن كائنات «واحد فاصل خمسة» لم تكن في حاجة إلى استمراره طويلًا. فما إن أبلغ الطاقم الأخير عن إيقاف تشغيل كل شيء يمكن وقف تشغيله حتى بدأت كائنات «واحد فاصل خمسة» في نزع جميع الدروع الواقية والأجهزة التي تساعد في الإبقاء على حياتهم. ثم انخرطوا في أعنف موجة من التزاوج الجنسي قد يتخيلها أي فرد من كائنات «واحد فاصل خمسة».

استمر ذلك نحو ساعة.

بعدئذٍ عادت كائنات «واحد فاصل خمسة» الهزيلة بسرعة إلى الدروع الواقية. وعلى الفور أعادت الطواقم الفنية في كل سفينة تشغيل كل شيء كانوا قد أوقفوا تشغيله، وكانت تلك نهاية التزاوج الجنسي.

لماذا أقدمت كائنات «واحد فاصل خمسة» على هذا الفعل؟

من اليسير على معظم البشر أن يدركوا السبب وراء ذلك. لم يكن هناك وجه شبه على الإطلاق بين كائنات «واحد فاصل خمسة» — سواء أكانت أجسامها الحية الضئيلة الهزيلة مكشوفة أم مغطاة بالدروع الواقية — وبين البشر، لكنهم اشتركوا في بعض الصفات. فما من أحد من كائنات «واحد فاصل خمسة» يريد الموت دون أن يترك نسلًا حيًّا يحل محله. وهناك احتمال مؤكد في ظل ما هم مقبلون عليه من صراع أن يموت معظمهم أو جميعهم. ولذا فإن هذا التزاوج الجماعي سيسفر عن حمل عدد كبير من إناثهم وربما

معظمهن إذا واتاهم الحظ. والخمس عشرة سنة الأرضية المتبقية على القتال النهائي هي أقل وقت يلزم لوضع الإناث مواليدهن الصغيرة البائسة، وإيداعهم الحضَّانات، وأقل وقت يحتاج إليه الصغار أيضًا للنمو والوصول إلى مرحلة البلوغ.

وعندما يَطمئن الآباء لحصول هذا، سيكون بمقدورهم شن الهجوم.

بطبيعة الحال لم يكن أحد من البشر يعرف شيئًا عن هذا الأمر، وهكذا واصل التسعة مليارات شخص مهام حياتهم اليومية المعتادة دون أن يدري أحد منهم أن مواليدهم الجدد — بدءًا من تلك اللحظة — سيشعرون ببدايات النضوج الجنسي فحسب قبل أن يبادوا من على وجه الأرض.

الفصل التاسع والعشرون

بذور الأمل

لم يبدأ رانجيت حلقته الدراسية التالية في الجامعة بشرح فرضية جولدباخ. إذ اقترحت عليه مايرا فكرة مختلفة وهو الذي اعتاد الاستماع لنصائحها.

قضى رانجيت معظم الساعة الأولى في أول يوم التقى فيه بطلابه في إرساء القواعد التي سيسيرون عليها، فأجاب عن الأسئلة الخاصة بسياساته في وضع الاختبارات ورصد الدرجات، وعرفهم على الأيام التي يمكن إلغاء المحاضرة فيها لأسباب خاصة، وتعرف على بعض الطلاب. ثم سألهم: «من منكم يستطيع تعريف العدد الأولي؟»

كاد جميع الطلبة في القاعة يرفعون أياديهم. وستة منهم لم ينتظروا إشارة رانجيت لهم بل رفعوا أصواتهم بالإجابة عن السؤال مستخدمين صيغًا مختلفة: عدد لا يقبل القسمة — دون باقٍ — إلا على نفسه وعلى الواحد الصحيح.

كانت بداية مبشرة. فقال رانجيت: «رائع. إذن فالعدد اثنان عدد أولي، والعدد ثلاثة عدد أولي، لكن العدد أربعة يقبل القسمة على نفسه وعلى الواحد وعلى الاثنين. ولذا فإنه ليس عددًا أوليًّا. السؤال التالي: كيف نحصل على الأعداد الأولية؟»

سرت همهمة في القاعة، لكن لم يرفع أحد من الطلاب يده في الحال. ابتسم رانجيت لطلابه. وقال: «أهو سؤال صعب؟ هناك الكثير من الطرق المختصرة التي اقترحها بعض الأشخاص، لكن العديد منها يتطلب أجهزة كمبيوتر كبيرة. أما الطريقة الوحيدة التي لا تتطلب سوى عقل بشري ويد وشيء للكتابة — لكن نتيجتها مضمونة في الحصول على جميع الأعداد الأولية الموجودة في أي سلسلة من الأعداد — فتعرف باسم منْخل إيراتوستينيز. ويمكن لأي شخص استخدام المنْخل. بمعنى أن هذا بمقدور أي شخص يحظى بالكثير من وقت الفراغ.

استدار رانجيت وشرع في كتابة صف من الأعداد يبدأ بالعدد واحد وينتهي بالرقم عشرين على السبورة البيضاء. أوضح رانجيت وهو يكتب الأعداد قائلًا: «إليكم أبيات شعرية تذكيرية لتساعدكم على حفظها:

أحذف الأعداد اثنين وثلاثة،
هذا هو منْخل إيراتوسثينيز.
وعند استبعاد المضاعفات،
فإن الأعداد المتبقية تكون أعدادًا أولية.

واصل رانجيت قوله: «هذه هي طريقة عمله. انظروا إلى قائمة الأعداد. تجاهلوا العدد واحدًا؛ فثمة اتفاق عام بين واضعي نظريات الأعداد على تجاهُل العدد واحد وعدم اعتباره عددًا أوليًّا؛ لأن خللًا تامًّا يكاد يصيب جميع النظريات الخاصة بالأعداد إذا تضمنت العدد واحدًا. وهكذا يكون أول عدد في القائمة هو العدد اثنان. سوف نمر على صف الأعداد الآن، ونشطب جميع الأعداد الزوجية. ونقصد بها الأعداد التي تقبل القسمة على اثنين؛ التالية على العدد اثنين نفسه سوف نجد أربعة وستة وثمانية إلى آخره.» فعل رانجيت هذا. ثم أضاف قائلًا: «أصغر عدد تبقى لدينا بعد العدد اثنين وبعد العدد واحد الذي تجاهلناه هو العدد ثلاثة؛ لذا سنقوم بشطب العدد تسعة وكل عدد تالٍ يقبل القسمة على ثلاثة. إذن الأعداد المتبقية هي اثنان وثلاثة وخمسة وسبعة وأحد عشر إلى آخره. وهكذا تكونون قد حصلتم على قائمة بالأعداد الأولية.»

«حصلنا على الأعداد الأولية حتى الرقم عشرين فقط؛ لأن يدي تؤلمني عندما أكتب سلسلة أعداد أطول، لكن يمكن تطبيق هذه الطريقة على أي عدد من الأرقام. إذا كتبتم أول تسعين ألف رقم — أي جميع الأعداد من واحد إلى تسعين ألفًا — فإن آخر عدد يتبقى لديكم يكون هو العدد الأولي رقم ألف، وتكونون قد كتبتم جميع الأعداد الأولية التي تسبقه أيضًا.»

ألقى رانجيت نظرة على ساعة الحائط مثلما رأى معظم أساتذته يفعلون وقال: «لأن المحاضرة ستستمر ثلاث ساعات فسوف أمنحكم راحة مدتها عشر دقائق. مددوا أرجلكم، واقضوا حوائجكم، وتحدثوا مع زملائكم؛ افعلوا كل ما تريدون لكن عودوا إلى أماكنكم عندما تنتصف الساعة؛ فعندئذٍ سنبدأ العمل الفعلي للحلقة الدراسية.»

لم ينتظر رانجيت انتشار الطلاب، وإنما عبر بسرعة الباب الخصوصي المؤدي إلى مكاتب أعضاء هيئة التدريس في آخر الردهة. قضى رانجيت حاجته متبعًا نصيحة إحدى

ملكات إنجلترا لرعاياها — حسبما ورد في إحدى الأساطير — بأن يقضوا حاجتهم كلما أتيحت لهم الفرصة، وبسرعة اتصل بالمنزل. سألت مايرا: «كيف تسير الأمور؟»

أجابها صادقًا: «لا أدري. لم يُحدثوا جلبة إلى الآن، لكن البعض منهم رفع يده للإجابة عما طرحت من أسئلة.» فكر رانجيت هنيهة. وأردف قائلًا: «يمكنك أن تقولي إني متفائل ولكن على حذر.»

قالت زوجته: «لستُ مثلك. أعني أني لست حذرة في تفاؤلي. أظن أنك ستثير إعجابهم الشديد، وسنحتفل بذلك عندما تعود إلى المنزل.»

عندما عاد رانجيت إلى المنصة قبل دقيقة من انتصاف الساعة وجد جميع الطلاب في أماكنهم. فحداه الأمل أن تكون هذه إشارة جيدة، وبدأ الحديث على الفور.

سأل رانجيت بلا مقدمات: «ما عدد الأعداد الأولية؟»

هذه المرة أبطأ الطلاب في رفع أياديهم، لكن جميعهم تقريبًا رفع يده في النهاية. أشار رانجيت لفتاة في الصف الأول. فوقفت وقالت: «أظن أن هناك عددًا لا نهائي من الأعداد الأولية، يا سيدي.» لكن عندما سألها رانجيت لِمَ تظن ذلك، بدا عليها الإحراج، وجلست دون أن تجيب عن السؤال.

رفع طالب — يفوق الآخرين سنًّا — صوته قائلًا: «لقد أثبتوا ذلك!»

وافق رانجيت: «هذا صحيح بالفعل. إذا كتبت قائمة بالأعداد الأولية — بصرف النظر عن عدد ما تشتمل عليه القائمة من أعداد وعن أكبر عدد فيها — فستوجد دائمًا أعداد أولية أخرى لم تدرج في القائمة.»

«ولمزيد من التوضيح، سوف نفترض أننا نجهل كل شيء عن الأعداد؛ ولذا سنفترض أن آخر رقم في هذه القائمة — الرقم تسعة عشر — هو أكبر عدد أولي يمكن الحصول عليه. وهكذا سنعد قائمة بجميع الأعداد الأولية الأقل من تسعة عشر — أي بدءًا من العدد اثنين وحتى الرقم سبعة عشر — ونضربها بعضها في بعضها. على هذه الصورة: اثنين في ثلاثة في خمسة إلى آخره. سوف نتمكن من القيام بذلك — على الرغم من جهلنا التام — لأن لدينا آلة حاسبة رائعة.»

توقف رانجيت هنيهة ضحك فيها الطلاب، ثم واصل الشرح. استطرد: «الآن أجرينا عملية الضرب، وحصلنا على الناتج. سوف نضيف العدد واحدًا إلى هذا الناتج لنحصل على عدد آخر سنطلق عليه (ن). ما الذي نعرفه عن هذا العدد (ن)؟ نعرف أنه ربما يكون هو نفسه عددًا أوليًّا؛ لأنه كما أشرنا في التعريف إذا أجرينا عملية قسمة على هذه الأعداد

فسوف يتبقى واحد بعد ناتج القسمة. وإذا صادف كون هذا العدد مركبًا، فلن تجد أيًّا من عوامله على هذه القائمة للسبب نفسه.»

«وبذلك نكون قد أثبتنا أنه بصرف النظر عن عدد الأعداد الأولية في قائمة من الأعداد فإن هناك دائمًا أعدادًا أولية أكبر غير موجودة في القائمة، إذن هناك عدد لا نهائي من الأعداد الأولية.» توقف رانجيت ليلقي نظرة على الطلاب. ثم سألهم: «أتعرفون من الذي توصل إلى هذا الإثبات؟»

لم يرفع أحد من الطلاب يده غير أنهم رفعوا أصواتهم بأسماء مختلفة: «جاوس؟» «أويلر؟» «لوباتشفيسكي؟» ثم قال طالب في الصف الأخير: «صديقك القديم فيرما؟»

ابتسم رانجيت لهم ابتسامة عريضة. وقال: «كلَّا، ليس فيرما ولا أي شخص من هؤلاء الذين ذكرتم أسماءهم. يرجع تاريخ البرهان إلى ما قبل ذلك. ربما إلى عهد إيراتوسثينيز، لكن ليس تمامًا. صاحب الإثبات يُدعى إقليدس، وقد توصل إليه حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد.»

ثم رفع رانجيت يده بطريقة حذرة ودودة. وقال: «دعوني أريكم شيئًا آخر. انظروا إلى قائمة الأعداد الأولية. لاحظوا كم مرة يتكرر وجود عددين أوليين هما في الأصل عددان فرديان متتاليان. تسمى هذه الأعداد أزواجًا أولية. أيستطيع أحدكم أن يخمن كم عدد الأزواج الأولية؟»

سرت همهمات خفيفة في القاعة لكن دون أن يتكلم أحد إلى أن تشجع أحد الطلاب وقال: «عدد لا نهائي؟»

قال رانجيت: «بالضبط. هناك عدد لا نهائي من الأزواج الأولية … وواجبكم المنزلي هو البحث عن برهان لذلك.»

أثناء تناول العشاء تلك الليلة لاحظت مايرا شعورًا عفويًّا بالابتهاج لم تره على رانجيت منذ فترة. قال رانجيت للأسرة: «إنهم يمازحونني. سوف أنجح هذه المرة!»

ردت زوجته: «بكل تأكيد. لم يراودني الشك في ذلك. ولا تاشي أيضًا.»

والواقع أن ناتاشا الصغيرة — بعد أن سُمِح لها بالانضمام إلى الكبار على المائدة — بدت مصغية بانتباه وهي تجلس فوق كرسي الأطفال عندما دخل كبير الخدم. سألت السيدة فورهولست: «ما الأمر فيجاي؟ تبدو قلقًا. أهناك مشكلة في الأسفل؟»

هز كبير الخدم رأسه. وقال: «ليس في الأسفل سيدتي. لكن نشرات الأخبار تذيع نبأً أظن أنه سيحوز اهتمامك. وقع هجوم آخر باستخدام الرعد الصامت في أمريكا الجنوبية.»

لم يسفر الهجوم هذه المرة عن عودة دولة واحدة إلى ما قبل العصر الإلكتروني. بل شمل الهجوم دولتين دفعة واحدة. لم يعد هناك هاتف يرن أو مصباح يضيء عند الضغط على المفتاح الكهربائي أو تليفزيون يعرض صورة في أي مكان في فنزويلا وكولومبيا.

وهكذا استكمل أفراد الأسرة طعامهم وقد أخذ الحديث عن حلقة رانجيت الدراسية وحتى عن براعة ناتاشا في استخدام ملعقتها اهتمامًا أقل منهم. كانت شاشات التليفزيون داخل الغرفة تبث الأخبار على الرغم من أنه لم يكن مسموحًا من قبل بتشغيلها أثناء تناول الطعام ظنًّا من السيدة فورهولست أن هذا تصرف غير لائق.

ومثلما حدث مع كوريا عُرِضَت بضعة مشاهد من داخل الدولتين اللتين تعرضتا للغزو حديثًا؛ لأن جميع المرافق المحلية باتت حينئذٍ مظلمة تمامًا. كانت شاشات التليفزيون تعرض بضع صور غير تفصيلية لطائرات شحن — من نوعية طائرات الإقلاع والهبوط القصير التي يمكنها تفادي الطائرات المعطلة فوق مدارج المطار — تابعة لمنظمة السلام عن طريق الشفافية تُقل نفس الجنود والمعدات التي انتشرت من قبل على حدود كوريا الشمالية. أكثر ما كان يعرضه التليفزيون هو أشخاص يقولون نفس الكلام الذي سبق قوله عن كوريا إلى جانب لقطات أرشيفية كثيرة تصور الأحداث التي أدت إلى وقوع هذه الكارثة.

لم يحمل القرن الحادي والعشرين الخير لأيٍّ من الدولتين. كان هناك مشكلات سياسية في فنزويلا ومشكلة المخدرات في كولومبيا؛ شهدت كلتا الدولتين أعمال عنف وأزمات حكومية متكررة انتهت بقرار زعماء المخدرات السابقين الاستيلاء على بعض حقول النفط التابعة للدولة المجاورة أملًا في جني أرباح أعلى.

قال رانجيت لزوجته: «شنت منظمة السلام عن طريق الشفافية هجومها الأول على كوريا الشمالية إذ لم يكن لها صديق حقيقي في العالم. بينما شنت هجومها هذه المرة على دولتين في آنٍ واحد لأن لكل منهما دولًا صديقة تختلف عن الأخرى؛ فالولايات المتحدة تدعم كولومبيا منذ التسعينيات، بينما ترتبط فنزويلا بعلاقات وطيدة مع كل من الصين وروسيا.»

قالت السيدة فورهولست وهي تفكر في تمعن: «لكن عدد الضحايا أقل بكثير هذه المرة. لا يمكنني الشعور بالاستياء لذلك.»

تنهدت مايرا. وتساءلت: «لكن أتظنون أننا سنكون أفضل حالًا عندما تتحكم أوشينيا وأوراسيا وإيستاسيا في العالم كله؟»

الفصل الثلاثون

نبأٌ سارٌّ

عندما انتهت الحلقة الدراسية، لم يتمكن أحد من الطلاب من إيجاد برهان قاطع على وجود عدد لا نهائي من الأزواج الأولية، لم يتوقع رانجيت حينئذٍ نجاح أحد في إيجاد البرهان. ولم يتوقع الدكتور دافودبوي ذلك أيضًا. على الرغم من هذا فإن علامات الرضا بدت واضحة على وجه الدكتور دافودبوي أكثر من ذي قبل أثناء اجتماعه برانجيت بعد انتهاء الحلقة الدراسية. لوَّح دافودبوي بالأوراق الخاصة بتعليقات الطلاب أمام رانجيت، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. وهو يقول: «استمع إلى هذه التعليقات.» «شعرت أني لم أكن أتعلم كيف أحل مسألة رياضية فحسب، بل كنت أتعلم كل ما يدور حوله حل المسائل الرياضية.»، و: «عمل رائع. لا يعاملنا الدكتور سوبرامانيان كالأطفال، بل كأعضاء جدد ضمن فريقه البحثي.»، وأيضًا: «أيمكنني الانضمام إلى حلقته الدراسية التالية أيضًا؟»، وماذا عساك أن ترد على ...» ألقى دافودبوي نظرة ثانية على الورقة واستطرد: «على هذه الفتاة التي تدعى راميا سالجادو؟»

بدا القلق على رانجيت. وقال: «أعرف هذه الفتاة، كانت تبدي نشاطًا كبيرًا أثناء المحاضرات. ربما إذا احتجنا شخصًا متحمسًا نستكمل به عدد الصف.»

قال دافودبوي: «أظن أنه لا داعي للقلق بهذا الشأن. ألا تريد إعداد حلقة دراسية أخرى؟ هل فكرت في موضوع لها؟ ربما موضوع مثل فرضية ريمان؟»

نَبَّهَه رانجيت قائلًا: «ثمة براهين على هذه الفرضية.»

قال: «يعتقد البعض أنها ليست براهين مقبولة. وعلى أي حال فقد كان هناك برهان لنظرية فيرما أيضًا — وهو برهان وايلز — لكن ذلك لم يمنعك من إيجاد برهان أفضل.»

فكر رانجيت في الأمر، وهز رأسه. ثم قال: «أخشى أن فرضية ريمان بالغة التعقيد حتى إنها لن تثير اهتمام أي شخص سوى عالم رياضيات محترف. كيف يمكنك أن

تثير اهتمام طالب عادي في الجامعة بكيفية توزيع الأصفار في دالة زيتا ريمان؟ هناك مسائل أخرى أفضل. مثل تنقيح أويلر لفرضية جولدباخ. إنها مسألة رائعة. وتنص على أنه يمكن التعبير عن جميع الأعداد الصحيحة الزوجية الموجبة الأكبر من العدد أربعة في صورة مجموع عددين أوليين. فالعدد ستة يساوي ثلاثة زائد ثلاثة، والعدد ثمانية يساوي خمسة زائد ثلاثة، والعدد عشرة يساوي خمسة زائد خمسة أو سبعة زائد ثلاثة. بإمكان أي شخص أن يفهم هذه القاعدة! لكن لم يستطع أحد إثباتها ... حتى الآن.»

فكَّر دافودبوي بضع لحظات، ثم أومأ. وقال: «فلتحاول إثباتها يا رانجيت. وربما أَحْضُر واحدة من تلك المحاضرات بنفسي.»

ومع مرور السنوات بدأ رانجيت يدرك أنه أحب التدريس حقًّا. فكل فصل دراسي يأتي بمجموعة جديدة من الطلاب المتحمسين، وبطبيعة الحال كان رانجيت مهتمًّا بالتقارير الشهرية التي ترصد تطور العمل في مشروع السلم الفضائي، فضلًا عن أن ناتاشا بدأت تكبر في السن قليلًا، وكان يُتوقع لها مستقبل باهر. لم يكن هناك دليل واضح يؤكد مخاوف مايرا بشأن تقسيم الدول الثلاث الراعية لمنظمة السلام عن طريق الشفافية العالمَ فيما بينها. فقد استُخْدِم سلاح الرعد الصامت في غزو أمريكا الجنوبية غزوًا هادئًا مثلما حدث في شبه الجزيرة الكورية. ولم يسفر ذلك عن الكثير من الضحايا. وبسرعة جرى التعامل مع مشكلات توفير الغذاء والرعاية للشعب الذي افتقر إلى التكنولوجيا على حين غرة. راقبت دول العالم الخارجي ما يحدث، وتباحثت بشأنه، ويبدو أنها اتفقت على قيام منظمة السلام عن طريق الشفافية بعمل جيد إلى حد ما.

عرف رانجيت أن أحد أسباب نجاح هذه العملية ترجع إلى دقة التخطيط لها. فقبل أسابيع من الهجوم حُمِّلَت حاملتا الطائرات الأمريكيتان القديمتان الناجيتان بكل ما يلزم لهذه المهمة، وكانت أغلب البضائع من روسيا والصين. وبعد الاستعداد التام أُطْلِقَت حاملتا الطائرات في خليج المكسيك في «بعثات تدريبية» حسب البيان الصادر عن البنتاجون، والواقع أنها كانت على استعداد لبدء توفير مساعدات الطوارئ قبل تلاشي صدى الانفجارات النووية لسلاح الرعد الصامت. لقد أقرت مايرا نفسها أن النتائج لم تكن سيئة.

كان رانجيت ومايرا وناتاشا يتناولون طعام الإفطار على مهل في أحد أيام العطلة في الحديقة. كان رانجيت يدرس الخيارات المتاحة والمتعلقة بمحاضراته على إحدى الشاشات،

ومايرا تتابع الأخبار في فتور على شاشة أخرى، في حين كانت ناتاشا — التي أوشكت على إتمام عامها الثاني عشر — تسبح على ظهرها في حوض السباحة. حينئذٍ تنهدت مايرا. ورفعت بصرها، ثم قالت لزوجها: «يبدو أنها على وشك التوصل إلى اتفاق. أقصد كينيا ومصر والدول الأخرى المعتمدة على مياه نهر النيل.»

ابتسم لها رانجيت ابتسامة هادئة. وقال: «كنت أعرف ذلك.» والواقع أن رانجيت كان أبعد ما يكون عن معرفة ذلك في وقت ما — قبل أقل من ستة أشهر — عندما عبأ رئيسا الدولتين قواهما العسكرية التي لا يستهان بها وأرسل كل منهما جيشه متوعدًا جيش الآخر. لكن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رد عليهما بواحد من تحذيراته الشديدة اللهجة. فكرت مايرا مليًّا، وقالت: «أظن أنهم يأخذون تحذيرات مجلس الأمن على محمل الجد الآن بسبب التلويح الدائم بسلاح الرعد الصامت.»

أثبت رانجيت أنه زوج ذكي حين لم يجب مايرا بقوله: «لقد أخبرتكِ بذلك.» فكل ما قاله هو: «أنا سعيد لأنهم يسعون إلى التوصل إلى اتفاق. اسمعي. ما رأيك أن تدور حلقتي الدراسية التالية عن فرضية كولاتز؟»

بدت الحيرة على وجه مايرا. وقالت: «لا أظن أني سمعت بها من قبل.»

وافقها رانجيت: «هذا صحيح في الأغلب. معظم الناس لا يعرفونه. لم ينل لوتر كولاتز أبدًا حقه من الشهرة. سوف أوضح لك هذه الفرضية.» أدار رانجيت الشاشة ليستطيعا رؤيتها معًا. «اختاري عددًا يتكون من أقل من ثلاثة أرقام؛ يمكن تطبيق الفرضية على الأرقام الكبيرة أيضًا، لكنها تستغرق وقتًا طويلًا. هل اخترتِ العدد؟»

فكرت مايرا ثم قالت: «حسنًا، ما رأيك في العدد ثمانية؟»

أجابها: «اختيار جيد. اقسمي العدد على اثنين، واستمري في القسمة على اثنين إلى أن تصلي إلى عدد لا يقبل القسمة على اثنين دون باقٍ.»

فعلت مايرا ما طلبه رانجيت: «ثمانية، أربعة، اثنان، واحد. أتعني هذا؟»

قال: «هذا ما أعنيه تمامًا. انتظري لحظة حتى أكتب ذلك على الشاشة ... حسنًا. سوف نطلق على ذلك قاعدة كولاتز الأولى: عندما يكون العدد زوجيًّا، نقسمه على اثنين ونستمر في القسمة على اثنين إلى أن يصبح الناتج عددًا فرديًّا. اختاري عددًا فرديًّا.»

فكرت مايرا هنيهة، ثم قالت: «خمسة؟»

تنهد رانجيت. وقال: «حسنًا، سوف نستخدم الأرقام السهلة فحسب. الآن، سنطبق القاعدة الثانية. إذا كان العدد فرديًّا نضربه في ثلاثة ونضيف إليه واحدًا.»

أجابت مايرا: «خمسة عشر ... ستة عشر.»

قال: «جيد. الآن حصلنا على عدد زوجي آخر؛ لذا سنعود إلى القاعدة الأولى. دعيني أكتب ذلك على الشاشة.»

عندما كتب رانجيت ثمانية، أربعة، اثنان، واحد بجوار الأعداد التي كتبها قبل ذلك، رفعت مايرا حاجبيها. وقالت: «ما هذا! إنها نفس الأعداد.»

ابتسم رانجيت ابتسامة عريضة. وقال: «وتلك هي الفكرة التي تقوم عليها الفرضية. اختاري أي عدد — حتى وإن كان أكبر عدد يخطر ببالك — وطبِّقي عليه هاتين القاعدتين. اقسمي العدد على اثنين إذا كان زوجيًّا، واضربيه في ثلاثة ثم أضيفي إليه واحدًا إذا كان فرديًّا، وستكون النتيجة واحدًا كل مرة. حتى وإن كان العدد الذي بدأتِ به كبيرًا جدًّا … انتظري، سوف أريكِ ذلك.»

كتب رانجيت عددًا من أوامر البرمجة على الشاشة، وحدد العدد سبعة وعشرين كبداية. ومن خلال التبديل بين القاعدتين الأولى والثانية وفق ما حدد رانجيت عرضت الشاشة ما يلي: «٨١ … ٨٢ … ٤١ … ١٢٣ … ١٢٤ … ٦٢ … ٣١ … ٩٣ … ٩٤ … ٤٧ … ١٤١ … ١٤٢ … ٧١ … ٢١٣ … ٢١٤ … ١٠٧ …» إلى أن أوقف رانجيت تشغيلها. وقال: «أرأيتِ كيف تستمر الأعداد في الزيادة تارة وفي النقصان تارة أخرى؟ الأمر مثير إلى حد ما، وفي بعض الأحيان تصبح الأعداد كبيرة جدًّا؛ فهناك أشخاص في جامعة كارنيجي ميلون وصلوا إلى أعداد مكونة من أكثر من خمسين ألف رقم، لكنها تئول دائمًا في النهاية إلى العدد واحد.»

قالت مايرا بهدوء: «حسنًا، بالتأكيد هذا يحدث. ولِمَ لا؟»

نظر إليها رانجيت بحدة. وقال: «نحن علماء الرياضيات لا نؤمن بما يبدو بديهيًّا. فما يعنينا هو وجود برهان! وضع كولاتز فرضيته عام ١٩٣٧، وفيها ذكر أن هذه القاعدة تنطبق على أي عدد كان على سلسلة الأعداد التي تصل إلى ما لا نهاية. ولكن لم تُثبت على الإطلاق.»

أومأت مايرا في شرود. وقالت: «تبدو هذه فكرة جيدة.» ثم وضعت يدها فوق عينيها وهي تتجه بنظرها ناحية حوض السباحة وترفع صوتها: «من الأفضل أن تأخذي قسطًا من الراحة يا تاشي! حتى لا تصابي بالإرهاق.»

أسرع رانجيت لملاقاة ابنته بالمنشفة، غير أنه كان يحدق النظر بزوجته. وقال في آخر الأمر: «مايرا؟ تبدين شاردة الذهن قليلًا. أمن خطب ما؟»

نظرت إليه مايرا نظرة حنونة، ثم ضحكت. وقالت: «خطب ما؟ على الإطلاق يا رانجيت. كل ما في الأمر أني … حسنًا، لم أقابل الطبيب بعد، لكني واثقة. أظن أننا سنُرزق طفلًا آخر.»

الفصل الحادي والثلاثون

أيام مصعد الفضاء

كانت رعاية مايرا دو سويزا سوبرامانيان لطفلها الثاني أيسر بكثير من رعاية طفلها الأول. فزوجها — على سبيل المثال — أصبح لا يعود إلى المنزل الآن وقد استبدت به مشاعر اليأس من وظيفة كان يظنها بلا جدوى؛ فقد أحبَّه الطلاب، وبادلهم هو الشعور نفسه، ودائمًا ما كان الدكتور دافودبوي راضيًا عن عمله. فضلًا عن هذا فقد تحسنت أوضاع العالم الخارجي أيضًا. على الرغم من أن دولًا قليلة بدت وكأنها لا تستطيع التخلي عن عادة إطلاق التهديدات في وجه جيرانها. لكن ذلك لم يسفر عن وقوع ضحايا.

انتقلت أسرة رانجيت إلى منزلها الصغير على الرغم من اعتراض بيتريكس فورهولست؛ كان المنزل «صغيرًا» فقط إذا ما قورن بمنزل فورهولست، وكان على بُعد خطوات قليلة عن واحد من أجمل الشواطئ الفسيحة في الجزيرة حيث المياه دافئة وجميلة كعادتها دائمًا. وبعد أن استقرت الأسرة في منزلها الجديد لم يعد العالم الخارجي منذرًا بالخطر كما كان من قبل. كان روبرت الصغير يلهو بالمياه في أكثر الأماكن ضحالة من حوض السباحة، بينما بحثت ناتاشا عن مياه أكثر عمقًا لتستعرض مهارتها الفائقة (والموروثة بكل تأكيد، على حد قول رانجيت) في السباحة عندما لا تكون مرتبطة بدروس الإبحار لدى أحد الجيران كان يملك مركبًا شراعيًّا صغيرًا من طراز صَنفيش. ومن بين الأمور التي يسرت إقامة الأسرة كثيرًا في منزلها الجديد أن السيدة فورهولست قد تنازلت عن أفضل طاهٍ لديها وعن مربية ناتاشا المفضلة لتوفر على مايرا عناء العمل المنزلي.

من مظاهر اختلاف حمل مايرا الثاني عن حملها الأول أيضًا وجود ناتاشا معها، أو تاشي كما كانوا ينادونها في معظم الأحيان. لم تكن تاشي تمثل عقبة أمام مايرا. فعندما لا تكون مشغولة بحصد الجوائز في سباقات السباحة — التي اقتصرت على سباقات الأطفال إلى الآن، وإن كانت شوهدت وهي تتابع سباقات الكبار باهتمام بالغ ورغبة جارفة —

فإنها تساعد أمها في تدبير شئون المنزل وطهو الطعام. وبفضل هذه المساعدة توفر لمايرا عدد لا بأس به من الساعات كل يوم كانت تقضيها في متابعة ما فاتها من تطورات في مجال الذكاء الاصطناعي والأطراف الصناعية الذاتية التحكم.

كان هناك كثير من التطورات. وعندما بدأت مايرا تقييم كل ما تشعر به من انقباضات على أمل أن تكون هذه بدايات المخاض كادت تكون قد أَلَمَّت بآخر المستجدات المتعلقة بمجال عملها.

وبطبيعة الحال لن يستمر هذا الوضع طويلًا. فبعد أن تضع مايرا مولودها، وتفطمه، وتدربه على استخدام الحمام، ثم ترسله إلى المدرسة ستكون قد تخلفت عن زملائها مجددًا. لكن لم يكن هناك بدٌّ من حدوث ذلك.

هل كانت مايرا مستاءة من قانون الإنجاب التعسفي هذا؟ من الواضح أنه يفتقر إلى العدل. فهو ينص على أن أي امرأة تريد إنجاب طفل لا بد أن تتقبل قرار الطبيعة القاسي الذي يقضي بأن تحتل المهام الإدراكية لعقل المرأة المرتبة الثانية بعد رعاية طفلها، وذلك لفترة من الوقت. ولا بد أن تكون هذه الفترة طويلة إلى حد ما. فعشر سنوات هي أقل مدة مسموح بها قبل أن تتمكن خبيرة ذكاء اصطناعي (أو طبيبة أو سياسية أو حتى طاهية معجنات) من ممارسة عملها مرة أخرى.

لا شك أن هذا قانون جائر. لكن الجور تفشى في أمور كثيرة في العالم حتى إن مايرا دو سويزا سوبرامانيان لم تعد تطيق إهدار الوقت في التعبير عن استيائها. هذا هو العالم الذي لا سبيل إلى تغييره. فما الجدوى من التبرم والشكوى؟ سوف يأتي وقت يلتحق فيه ابناها بالجامعة. وتتفرغ مايرا تمامًا، وحينئذٍ سيكون أمامها عشرون أو ثلاثون أو ربما خمسون عامًا من الحياة المثمرة تزيل خلالها أي غموض أحاط بالمهنة التي وقع عليها اختيارها.

تسمَّى هذه اللعبة الرضا المؤجَّل. لا يُشترط أن تروقك قواعد اللعبة لتسير وفقها. لكن ربما تفوز بطريقة أو بأخرى.

اعتبر رانجيت ومايرا أنهما فازا فوزًا عظيمًا عندما وُلِد روبرت جانيش سوبرامانيان. وظنَّا أن الحظ حالفهما لإنجاب هذين الطفلين الرائعين. عندما وُلد روبرت كان موفور الصحة على نحو واضح، وأخذ يزداد في الوزن والقوة بالسرعة التي تمناها رانجيت ومايرا. حاول روبرت أن ينقلب في مهده في وقت مبكر عن ناتاشا، وتدرب على استخدام الحمام مبكرًا مثلها. وأقر جميع أصدقاء مايرا ورانجيت أن روبرت من أكثر الأطفال وسامة، وكانوا

صادقين في رأيهم هذا. فروبرت واحد من الأطفال الذين قد يدفع منتجو أغذية الأطفال الكثير من المال نظير وضع صورهم على منتجاتهم.

ومن المثير للدهشة أنه إذا كان هناك أي شخص يحب روبرت الصغير أكثر من والديه فيسكون هذا الشخص ناتاشا التي لم تعد صغيرة السن بعد والتي بدأت بالفعل في إظهار قدرات خاصة فيما يتعلق بالألعاب الرياضية والتعليم وإقناع والديها بتنفيذ كل ما تطلبه منهما.

وكان الاعتناء بروبرت الصغير هو كل ما تطلبه ناتاشا من والديها حينئذٍ.

بالطبع لم تشمل هذه العناية كل شيء. إذ استبعدت المواقف التي تفوح منها رائحة كريهة. طلبت ناتاشا من والدتها السماح لها بتغيير ملابس روبرت، ودفعه على عربته، واللعب معه، فوافقت مايرا على تلبية طلب ابنتها بعد تردد ممزوج بالقلق.

والواقع أن ناتاشا أتقنت المهمة الموكلة إليها. فعندما كان روبرت يصرخ أو يبكي، غالبًا ما كانت هي التي تفسر سبب بكائه. وعندما تأخذه مايرا، كانت ناتاشا تعود إلى حياتها من المذاكرة أو تدريب السباحة اليومي أو قضاء الوقت مع أصدقائها ... أو الجمع بين هواياتها في أغلب الأوقات؛ إذ ينضم إليها أصدقاؤها في حوض السباحة أو ينام روبرت بجوارها وهي تذاكر أفعال اللغة الإنجليزية أو تاريخ الهند والدول التابعة لها.

لا شك أن كل هذا كان يصب في مصلحة مايرا. لم تتخلف مايرا عن مواكبة علم الذكاء الاصطناعي بسرعة مثلما خشيت، وذلك بفضل مساعدة ناتاشا لها في كثير من الأمور المتعلقة برعاية روبرت. وما يصب في مصلحة مايرا يصب بكل تأكيد في مصلحة رانجيت؛ لأن زوجته ظلت قريبة إلى قلبه — وفاتنة على نحو لم يتوقعه — مثلما كانت يوم أن تزوجها.

سارت حياة رانجيت بوجه عام على ما يرام. ولم يكن في حاجة إلا إلى حلقة دراسية واحدة في كل فصل دراسي حسب قرار الدكتور دافودبوي، لكن ما دام سيعقد حلقة دراسية واحدة، فلا بد أن يحضرها عدد كبير من الطلاب. لذلك أصبحت قاعة محاضرات رانجيت تمامًا كقاعة المحاضرات الكبيرة التي انبهر فيها رانجيت بقصص يوريس فورهولست عن كواكب المجموعة الشمسية. لم يعد رانجيت يلقي محاضراته أمام عشرين طالبًا. بل صار لديه الآن مائة طالب. وقد أخبره الدكتور دافودبوي أن هذا يخول له الحق في الاستعانة بمساعد تدريس — وهي تلك الفتاة المتحمسة راميا سالجادو التي كانت قد نالت درجة الماجيستير حينئذٍ والتي ساهمت في إثراء حلقته الدراسية الثانية —

فضلًا عن حقه في إجراء «بحثه» الخاص أثناء الوقت المتبقي من الفصل الدراسي. لَمَّح دافودبوي أن هذا سيتيح الفرصة لرانجيت للبدء مبكرًا في العمل على أي برهان يختاره موضوعًا لحلقته الدراسية التالية.

لكن رانجيت رأى أن هذا الوقت سيكون فرصة جيدة لاستكشاف موطنه الأصلي وهو الذي عزم على تحيُّن الفرصة للقيام به منذ أن اتهمته مايرا للمرة الأولى أنه محدود الأفق إلى حد بعيد.

بدت هذه الفكرة أكثر جاذبية عما كانت عليه منذ بضع سنوات؛ إذ بدا السفر السياحي أكثر متعة في عالم ما بعد «الرعد الصامت». على سبيل المثال يمكنهم أن يقوموا بجولة في نهر النيل مثلما تمنت مايرا منذ أن كانت في العاشرة من عمرها؛ فمصر وكينيا سحبتا أعدادًا كبيرة من جيشيهما في حين توصل علماء البيئة في كافة الدول المعنية إلى سبل لترشيد استهلاك المياه من أجل كبح تعطشهم لمياه النيل. من الممكن أيضًا أن يصطحب مايرا ورانجيت الأطفال إلى لندن — أو باريس أو نيويورك أو روما — ليأخذوا فكرة عما يكون عليه حال المدن الكبرى. وربما اكتفوا بزيارة إلى مضايق النرويج البحرية أو جبال سويسرا أو غابات الأمازون؛ في الواقع كان باستطاعة مايرا ورانجيت الذهاب إلى أي مكان تقريبًا، لكن ما حدث أنه أثناء بحثهما للخيارات التي تطرحها كتيبات السفر وصلتهما رسالة من يوريس فورهولست. جاء فيها:

> أخبرتني أمي أنكم على وشك قضاء إجازة. سوف أكون في المحطة مدة أسبوع على الأقل بدءًا من أول الشهر القادم. لِمَ لا تأتون لرؤية ما نقوم به الآن؟

قالت مايرا: «في الواقع سيكون هذا رائعًا.» وقالت ناتاشا: «بكل تأكيد!» بل إن روبرت — الذي كان يتشبث بالكرسي الذي تجلس عليه ناتاشا ويصغي إلى كل كلمة تُقال — أصدر صوتًا عاليًا فسرته ناتاشا على أنه رد بالموافقة. وهكذا استعد أفراد الأسرة الأربعة لأول رحلة طويلة معًا.

لم تكن دعوة فورهولست هي وحدها التي جعلت رانجيت يتطلع إلى زيارة محطة مصعد الفضاء. إذ كان هناك سببان: الأول هو المجلس الاستشاري الذي أقنعه فورهولست بالانضمام إليه منذ عدة سنوات. لم تكن هذه المهمة تتطلب الكثير من رانجيت تمامًا مثلما وعده فورهولست؛ فلم تكن هناك اجتماعات يستلزم حضورها، ولم يكن هناك

تصويت على أي قضايا؛ لأنه في حالة وجود قضايا شائكة تستلزم اتخاذ قرار بشأنها كانت الجهات المتحكمة في المنظمة — وهي حكومات الصين وروسيا والولايات المتحدة — تتولى اتخاذ هذا القرار بنفسها. مع ذلك كان رانجيت يتسلم تقريرًا شهريًّا يرصد تطور العمل. وفي هذه التقارير أيضًا كان يتبدى استبداد القوى الثلاث العظمى؛ لأن مضمون كل تقرير منها كان سريًّا تمامًا، وكان يشار إلى معظمه بأنه «تطور» دون مزيد من التوضيح. ذهب رانجيت إلى موقع العمل بضع مرات، وكانت كلها زيارات خاطفة. ولم يكن واثقًا أنه سيعرف المزيد من خلال وجوده في موقع الحدث، لكنه كان متلهفًا لاكتشاف ذلك.

أما السبب الثاني فكان مفاجأة لرانجيت نفسه. لم تكن أسرة سوبرامانيان تملك سيارة خاصة، فكان رانجيت ومايرا يستخدمان الدراجة في الذهاب إلى معظم الأماكن، وفي بعض الأحيان تركب ناتاشا أمامهما في سعادة، ويقيَّد روبرت في مقعد للأطفال خلف والده، أو يستخدمان سيارات الأجرة في المسافات الطويلة. لكن الجامعة تعهدت بأن تعير رانجيت سيارة من أجل الرحلة، وهو ما عرفه من الابتسامة العريضة التي علت وجه الدكتور دافودبوي. إذ قال: «هذا أمر استثنائي من أجلك. لقد أرسلتها منظمة السلام عن طريق الشفافية. إنها تصميم جديد من كوريا؛ فقد أصبح لديها الكثير بعد أن تفرغ كل أولئك العباقرة الذين اعتادوا تصميم الأسلحة للأفكار الجديدة التي تخدم المدنيين.» وعندما أوضح دافودبوي ما تتمتع به السيارة الأنيقة التي تتسع لأربعة أشخاص من مزايا عاد رانجيت إلى مايرا ضاحكًا والسرور يملأ نفسه.

قال رانجيت لمايرا وهو يوقف السيارة عند المنزل: «أعطني إبريقًا من الماء.» أجابت مايرا طلبه في حيرة، وزادت حيرتها أكثر عندما فتح رانجيت خزان الوقود بجدية وصب الماء بداخله، وبلغت الحيرة مداها عندما أدار رانجيت المحرك، وأخذ ينصت مستمتعًا إلى خرير الماء.

فسر لها رانجيت الأمر كما عرفه من دافودبوي. وقال: «إنه البورون. والسيارة تدعى سيارة أبو حامد، نسبة إلى شخص لا أعرفه، ربما كان الشخص الذي اخترعها. تعلمين أن عنصر البورون لديه ميل شديد للارتباط بالأكسجين إلى حد أنه يستخلصه من مركبات مثل الماء، أليس كذلك؟ وعندما نستخلص الأكسجين من جزيء الماء، ماذا يتبقى لدينا؟»

سَدَّدَتْ إليه مايرا نظرة متجهمة. ثم أجابته: «الهيدروجين، ولكن ...»

وضع إصبعًا على شفتيها مبتسمًا. وقال: «ولكن ثمن البورون باهظ، وحرق الوقود الكربوني أرخص منه بكثير جدًّا لدرجة أن أحدًا لم يهتم به من قبل. ولكن ها قد حدث

هذا! لقد اكتشفوا كيفية إعادة توليد البورون بحيث يمكن استخدامه مرارًا وتكرارًا. وها نحن أولاء نقود سيارة ليست ذات انبعاثات قليلة وحسب، وإنما لا تطلق أي انبعاثات على الإطلاق!»

بدأت مايرا اعتراضها مجددًا. فقالت: «ولكن …»، وفي هذه المرة قاطعها رانجيت بقبلة على شفتيها.

ثم قال لها ملاطفًا: «هلا أحضرت ناتاشا وروبرت وحقائب السفر؟ ودعينا نرى كيف يعمل محرك الهيدروجين هذا.»

وما حدث أنه عمل بكفاءة عالية. وكان على آل سوبرامانيان أن يتوقفا مرتين في الطريق لتزويد خزان الوقود بالماء، على مرأى من الأعين المحدقة الذاهلة للقائمين على إدارة محطتَي الوقود اللتين توقفا فيهما، ولكن أداء السيارة الصغيرة كان بنفس كفاءة أداء أي سيارة تعمل بالوقود الحفري.

كانت الأسرة لا تزال على بعد عشرة كيلومترات من المحطة الطرفية عندما أطلق روبرت واحدة من صرخاته المفزعة. كبحت مايرا فرامل السيارة فجأة، لكن لم يكن هناك ما ينذر بالخطر. كان مشهدًا مثيرًا فحسب. كان روبرت يشير (وهو يقول «عنكبوت!» و«يتسلق بسرعة!» و«هناك الكثير! هناك الكثير! هناك الكثير!») إلى كابل مصعد الفضاء نفسه الذي كان يُرى بالكاد كشيء يلمع في ضوء الشمس. لكن ما إن تركز عليه بصرك حتى ترى ما يحمله بوضوح شديد. كانت هناك مقصورات لحمل الشحنات تتحرك واحدة تلو الأخرى باتجاه السماء ثم تختفي في الطبقة الأولى من السحب.

قال رانجيت: «رائع. يبدو أنهم بدءوا العمل، أليس كذلك؟»

وبالفعل كان العمل قد بدأ في المحطة.

كان الطريق إلى المحطة مدعمًا بخط سكة حديد، ومع اقترابهم من المحطة تجاوزهم قطار — يتكون من اثنين وأربعين عربة من عربات شحن البضائع أحصت ناتاشا عددها وقد تملَّكتها حالة من الإثارة — ثم اختفى داخل إحدى السقائف العملاقة للمحطة. كان هناك حراس عند مدخل السيارات، لكنهم سمحوا لآل سوبرامانيان بالمرور بعد الترحيب بهم وتوجيههم إلى ساحة وقوف السيارات التابعة للشخصيات المهمة.

وهناك قابلتهم سيدة آسيوية حسنة المظهر عرفتهم بنفسها على أنها مساعِدة يوريس فورهولست. وقالت: «يتطلع المهندس فورهولست كثيرًا لرؤيتكم، لكنه لم يتوقع وصولكم قبل الغد. مع ذلك هو في الطريق إلى هنا. أترغبون في تناول شيء؟»

فتح رانجيت فمه ليشيد بهذه الفكرة، لكنه تراجع بسبب الرد السريع الذي خرجت به زوجته. إذ قالت: «ليس الآن. أيمكننا أن نلقي نظرة على المكان ...»

ألقت الأسرة نظرة على المكان. لكن بعد تلقي تحذير بضرورة الابتعاد عن سقائف الشحن، وبالطبع عن الشاحنات والجرارات التي تحمل مجموعة من المواد مجهولة الهوية التي هي بلا شك أشياء مثيرة للتشويق.

تأمل رانجيت ما يدور حوله دون أن يفهم الكثير. فقال لأسرته: «أتمنى أن أعرف ما هذه الأشياء.»

زَمَّت الصغيرة ناتاشا شفتيها. ثم قالت: «هذا الطرد المتكتل هناك هو محرك الدسر لصاروخ أيوني. وأظن أن البالة الموجودة إلى جواره هي أنابيب نانو كربونية في شكل ألواح؛ أظن أنها في الأغلب جزء من شراع شمسي ...»

حدق رانجيت في ابنته فاغرًا فاه. وسألها: «ما الذي يجعلك واثقة هكذا؟»

ارتسمت على وجه ناتاشا ابتسامة عريضة. وقالت: «عندما كنت تتحدث إلى هذه السيدة تجولت أنا وروبرت في المكان، وقرأت سندات الشحن. أظن أنهم يبنون سفن فضاء هناك في الأعلى!»

ارتفع صوت قادم من سقيفة التفريغ: «أنت محقة تمامًا يا تاشي! لدينا سفينتان تعملان الآن بالفعل.»

لم يكن يوريس فورهولست ليقبل اعتراضًا من أي نوع؛ فهو يرغب في تناول الطعام السريلانكي الرائع، وإذا لم يرغبوا هم في تناول الطعام فبوسعهم أن يكتفوا بمشاهدته. ذلك لأنه — كما عرفوا بعدئذٍ — قضى خمسة أسابيع في مصعد الفضاء نفسه، وهو عائد الآن لتوِّه من الإشراف على تشغيل سفن الفضاء التي استنتجت ناتاشا وجودها.

قال يوريس فرحًا: «بدأ تشغيل مصعد الفضاء بالفعل.» كانت السفينتان الصاروخيتان الآليتان تمشطان المدار الأرضي المنخفض بحثًا عن سفن فضاء مهجورة أو حتى خزانات وقود مهجورة من سفن الفضاء الروسية والأمريكية القديمة. وما إن عثرت عليها حتى رُكِّبَت عليها الشُّرُع الشمسية التي تتحكم فيها أجهزة الكمبيوتر وبُرمجت للاتجاه بهما إلى محطة جراند سنترال. وهناك تغيرت حالتهما. فلم تعودا مدمرتي سفن فضاء خطرتين تطيران بحرية. وإنما صارتا مواد خام لأي شيء يراد بناؤه. صرح فورهولست وفمه مملوء بالطعام الذي أقرت مايرا أنه حلو المذاق حقًّا: «من الرائع أن تشحن الأشياء إلى الأعلى من على سطح الأرض، لكن لم نهدر ما هو موجود هناك بالفعل؟»

– «أهذا ما كنت تفعله في المدار الأرضي المنخفض؟ تجمع الخردة لبناء أشياء جديدة؟»

بدا الإحراج على وجه فورهولست. ثم قال: «في الواقع كنت أتأكد من أن السفينة الثالثة جاهزة للانطلاق. وتلك هي السفينة التي وُجِّهت إلى القمر. أتعرف أن المستكشفين الآليين مشغولون هناك منذ بضع سنوات الآن؟ وأنهم عثروا على قنوات الحمم التي اعتدت أن أحدثكم عنها في محاضرات علم الفلك؟»

شكا رانجيت قائلًا: «لم أعلم شيئًا عن هذا. فالتقارير التي أرسلوها إلى المجلس الاستشاري افتقرت إلى التفاصيل تمامًا.»

وافقه فورهولست: «أجل، أعرف أنها كانت كذلك. لكن يحدونا الأمل في أن تخفف الدول الثلاث العظمى ما يفرضونه من إجراءات مشددة؛ لأن هذه القنوات سوف تغير مصير كل شيء. فإحدى تلك القنوات تقع أسفل خليج أقواس قزح مباشرة. إنها منطقة رائعة. يبلغ طولها ألفًا وثمانمائة متر، وسوف تنقل السفينة الثالثة المعدات اللازمة لسد الفتحات الموجودة فيها بعد أن وضعت هيئة تطوير القمر خطة لها. فالدول الثلاث تتطلع إلى استقطاب السائحين.»

بدا على مايرا الشك. فتساءلت: «السائحون؟ آخر ما سمعته أن هناك نحو أحد عشر شخصًا يعيشون في مستعمرة على القمر، وأن مجرد إمدادهم بالغذاء والهواء اللازم للتنفس يتكلف نفقات باهظة.»

ابتسم فورهولست ابتسامة واسعة. وقال: «أجل، كان هذا في الماضي. كان الوضع كذلك عندما كانت هذه المؤن تصلهم من على سطح الأرض باستخدام الصواريخ. أما الآن فلدينا مصعد الفضاء! وسيكون هناك سائحون. تستخدم الدول الثلاث الكبرى نفوذها لتوفير سبب وجيه يشجع السائحين على الذهاب إلى هناك، وهو ما جعل هيئة الأولمبياد تعقد اتفاقًا.»

تملَّك الحماس ناتاشا التي كانت تلوذ بالصمت على غير عادتها. وقالت: «أي اتفاق هذا؟»

– «تنظيم الأحداث التي لا يمكن تنظيمها على سطح الأرض يا تاشي. تعلمين أن الجاذبية على سطح القمر لا تتعدى ١٫٦٢٢ مترًا لكل ثانية مربعة؛ لذا …»

رفعت ناتاشا يدها. وقالت: «من فضلك دكتور فورهولست!»

– «حسنًا، أعني أنها تساوي سدس الجاذبية على سطح الأرض. ولذا فإنه حالما يشارك أي شخص في سباقات رياضية على القمر فإن جميع الأرقام التي سبق تسجيلها

في سباقات تتضمن جريًا أو قفزًا ستصبح في طي النسيان. لست واثقًا أن قناة خليج أقواس قزح طويلة بما يكفي لاستعراض المشاركين في سباقات الوثب لمهاراتهم.»

بدا رانجيت متشككًا. إذ قال: «أتظن أن هناك من سيسافر بضعة مئات الآلاف من الكيلومترات لمشاهدة بعض الرياضيين يشاركون في سباقات القفز العالي؟»

أصر فورهولست على رأيه قائلًا: «نعم أظن ذلك. وكذلك تظن هيئة تطوير القمر. لكن ليس هذا كل شيء. ماذا ستقول إذن في سباق لم يكن ممكنًا على سطح الأرض؟ مثل سباق طيران يعتمد على القوة العضلية بين البشر؟»

لو أن فورهولست كان يتوقع ردًّا من رانجيت، فلا بد وأنه شعر بالإحباط. ارتطمت الأطباق بعضها ببعض عندما هبت ناتاشا واقفة. وصاحت: «سأقول إني جاهزة! أريد أن أذهب إلى هناك! وسأريكم كيف سأفوز!»

الفصل الثاني والثلاثون

ذهبية ناتاشا

ذهبت ناتاشا إلى سطح القمر هي الأخرى.

بالتأكيد لم يحدث ذلك على الفور. فهناك أمور كثيرة كان لا بد من القيام بها قبل تنظيم أول أولمبياد على سطح القمر، على سبيل المثال لا بد من عمل ترتيبات على سطح القمر من أجل تهيئته وترتيبات أكثر على مصعد الفضاء ليتمكن على الأقل من نقل الركاب ولديهم قدر معقول من الأمل أنهم سيصلون إلى هناك أحياءً. الآن يقرأ رانجيت التقارير التي تصل إليه بنهم بعد أن صارت ثرية بالمعلومات مسترجعًا كل مشاعر الحماسة التي أيقظها يوريس فورهولست في نفسه تجاه السفر إلى الفضاء.

ولحسن الحظ اتخذت حياة رانجيت منعطفًا نحو الأفضل بما يحقق له راحة البال. فاستخدام «الرعد الصامت» للمرة الثانية حجَّم نفوذ عدد من قادة العالم المتعنتين. فضلًا عن أن حلقاته الدراسية حافظت على نجاحها نجاحًا استمر معه رضا الدكتور دافودبوي عنه، وظلت أسرته الصغيرة مصدرًا دائمًا لإشاعة البهجة في نفسه.

اختصَّت ناتاشا على وجه التحديد بقدر كبير من هذه البهجة. لم يكن ترقب السنوات القليلة التي باتت تفصلها عن الالتحاق بالجامعة مشكلة في حد ذاته، ولكن هناك الأولمبياد الذي سيقام على سطح القمر كما وعدها الدكتور فورهولست. ولم يكن التدريب من أجل هذا النوع من الأولمبياد سهلًا. فهو يجعل تدريب اللاعبين من أجل المشاركة في أية مسابقة أولمبية على كوكب الأرض أشبه بقضاء عشر دقائق في تمرينات الصباح للتخلص من الدهون المتراكمة حول الخصر.

لا شك أن ناتاشا لم تكن الوحيدة التي تتدرب من أجل المشاركة في هذا الحدث الرياضي الذي لم يسبق له مثيل. ففي جميع أنحاء العالم كان صغار اللاعبين يتساءلون هل سيستطيعون الوصول إلى مستوى من اللياقة يمكنهم من المشاركة في سباق الطيران.

ولأن عملية التدريب لا بد أن تتم في وجود الجاذبية الأرضية التي لا سبيل للتخلص منها فسيلزم توفر قدر كبير من البراعة في التعامل مع هذا الأمر.

هناك سبيلان للتعامل مع مشكلة الطيران المعتمد على القوة العضلية. فهواة ركوب المناطيد فكروا في استخدام أكياس غاز ذات أشكال مختلفة لتدعيم اللاعب أثناء الطيران بما يساعده على استخدام كل قوته العضلية في تدوير مروحة الطيران دون الحاجة إلى بذل أي جهد ليبقى محلقًا في الهواء. بينما فَضَّلَ هواة التحليق بالدراجات أن يعتمدوا على عضلاتهم فقط في عمل كل شيء. فهم يرون أن مصنِّعي المعدات الرياضية تمكنوا في وقت قصير من ابتكار معدات تعتمد في حركتها على المراوح. وبفضل أنابيب النانو المكونة من جزيئات الكربون ٦٠ — وهي الجزيئات التي حولت حلم مصعد الفضاء بوصفه وسيلة للانتقال إلى واقع ملموس — فإن هذه المعدات كانت خفيفة للغاية لدرجة أنه يمكن رفعها بيد واحدة حتى على سطح الأرض، وعلى سطح القمر باستخدام إصبع واحد!

لم يتوفر لأيٍّ من هؤلاء الرياضيين الطموحين مكان فعلي للتدريب تساوي جاذبيته سدس الجاذبية على سطح الأرض. فكان لا بد لهم من بذل قصارى جهدهم، وهو ما تضمن في أغلب الأحيان استخدام معدات ذات ثقل موازن لتوفير نفس الجاذبية الموجودة على سطح القمر. وهذا يعني أن الأمر لم يكن يتطلب براعة فحسب. وإنما الكثير من المال أيضًا.

كانت تكلفة هذه المعدات تتعدى بفارق كبير القدرة الشرائية لأستاذ جامعي، ولهذه الأسباب حظيت احتياجات ناتاشا بدعم كبير من ذوي النفوذ في سريلانكا. حتى إن هؤلاء الذين ليس لديهم اهتمام محدد بالأحداث الرياضية وجدوا متعة في لفت الانتباه إلى أن سريلانكا باتت بوابة العالم للعبور إلى الفضاء. وهكذا تكفل هؤلاء بتوفير الأموال اللازمة، وبُنِيَت على أطراف مدينة كولومبو صالة تمرينات فسيحة تعادل جاذبيتها الجاذبية على سطح القمر. وهناك تدربت ناتاشا على ركوب الدراجات في الهواء حسبما راقَها.

لم يفصل صالة التمرينات عن منزل سوبرامانيان سوى عشر دقائق بالسيارة؛ ولذا كانت أسرة ناتاشا موجودة دائمًا لمشاهدتها أثناء التمرين. في بعض الأحيان كان الأمر يتعدى مجرد المشاهدة؛ فقد أُعجب روبرت بمشاهدة أخته الكبرى وهي تشق طريقها عبر «سماء» صالة الألعاب، وأُعجب أكثر بالوقت القليل الذي كان يُسمح له فيه باستخدام المعدات في نهاية التمرين. وهكذا حصل روبرت على فرصته في الطيران هو الآخر.

وبالتأكيد لم تكن ناتاشا الوحيدة التي حظيت بفرصة الاستفادة من صالة الألعاب ذات الجاذبية المنخفضة. فقد تقدم مرشحون مفعمون بالأمل من كافة أنحاء الجزيرة

بطلب للحصول على فرصة في تجربة مهاراتهم فيما يتعلق باستخدام هذه المعدات، وحظي أكثر من ثلاثين شخصًا منهم بهذه الفرصة. لكن ناتاشا سوبرامانيان كانت تتفوق على جميع المنافسين دائمًا.

وفي اليوم الذي تجمع فيه الفريق السريلانكي عند محطة مصعد الفضاء لينتقلوا إلى خوض أولى تجاربهم في الفضاء كانت آمال فوز الجزيرة معقودة على ناتاشا.

شهقت مايرا عندما ألقت نظرة على الأسعار التي تعلن عنها الشركات السياحية من أجل الأولمبياد المقام على سطح القمر. وشكت إلى رانجيت قائلة وهي تضع إحدى يديها على قلبها: «أوه، يا رانجيت. لا يمكننا ترك تاشي تشارك في هذا السباق دون أن نكون معها هناك، لكن كيف يمكننا الذهاب؟»

أسرع رانجيت — الذي لم يتوقع أقل من ذلك — إلى طمأنتها. وأخبرها أن أُسَر المتسابقين تتمتع بخصم كبير. وكذلك أعضاء المجلس الاستشاري الذي هو واحد منهم، ومع ذلك فإنه عند جمع الخصمين معًا ستكون تكلفة التذاكر مبالغًا فيها.

غير أنها لن تكون مستحيلة. وعلى ذلك حضرت مايرا ورانجيت وروبرت الصغير إلى المحطة الطرفية. وكأي شخص يمتلك شاشة تليفزيون في العالم — أي كجميع سكان العالم تقريبًا — كانت الأسرة قد شاهدت الأنباء السارة التي صاحبت تطور مصعد الفضاء إلى مرحلة نقل الركاب. وعرفوا كيف تعمل كبسولات نقل الركاب وما يشعر به الراكب عندما يُحمل نحو السماء بمعدل ثابت من الأمتار لكل ثانية.

لكن الشيء الذين لم يقدروه حق قدره هو عدد الثواني — حتى في ظل هذه السرعة — التي ستستغرقها الرحلة من سريلانكا إلى منطقة خليج أقواس قزح. فهذه لم تكن رحلة من رحلات العطلات الأسبوعية.

في الأيام الستة الأولى كانوا قد وصلوا إلى حزام فان ألين السفلي عندما تعين على أسرة سوبرامانيان — إلى جانب أُسر أخرى على متن مصعد الفضاء هي تحديدًا أسرة كاي وأسرة كوسبا وأسرة نرويجية يصعب نطق اسمها — الإسراع إلى مأوى يحتمون فيه من إشعاعات فان ألين الفتاكة. اشتمل هذا المأوى على حجرات داخل الكبسولة جدرانها ثلاثية الطبقات تصلح لأغراض النوم والنظافة معًا. اشتملت هذه الحجرات على حمامات و«أحواض استحمام» تدعو تسميتها تلك إلى الضحك، وعشرين سريرًا ضيقًا للغاية ذات طوابق اصطفَّت في خمسة صفوف. وعندما يتعين على أحد الأشخاص التوجه إلى المأوى،

فليس عليه سوى أن يأتي بنفسه ويُحضر معه الملابس الضيقة الخاصة بمصعد الفضاء (والتي تكاد تكون بلا وزن — لتخفيف الحمل — وأيضًا غير قابلة للاتساخ بقدر ما تستطيع تكنولوجيا إنتاج الأقمشة التوصل إليه؛ إذ لا أمل في غسل الملابس هناك) بالإضافة إلى الأدوية إن كان يستخدم أيًّا منها. ولن تكون هناك حاجة إلى إحضار أي شيء آخر. لا شيء على الإطلاق لا سيما التواضع والاحتشام.

لم يرُق روبرت هذا المأوى. فقد بكى. وكذلك بكى حفيد أسرة كاي. ولم يرُق المأوى رانجيت هو الآخر. إذ اشتاق وهو في الداخل إلى القدر الأكبر (وإن كان ضئيلًا) من الحرية التي أتيحت لهم داخل الكبسولة غير المحمية بزواياها المظلمة وأربطة التدريب المطاطية بها ونوافذها الطويلة الضيقة السميكة، وإن كانت شفافة على نحو يبعث على الرضا. وأكثر ما اشتاق إليه رانجيت هو الأسِرَّة العادية بمصابيحها وستائرها ومساحتها التي تكاد تسمح بتحرك النائم فيها على جنبيه كأنه داخل تابوت. الواقع كانت هذه الأسِرَّة تتسع بالكاد لمرافقة شخص بين الحين والآخر شريطة أن تكون على علاقة حميمة جدًّا مع هذا الشخص.

استمرت العقوبة الأولى في هذا المأوى مدة أربعة أيام. وبعدها عادوا إلى الفضاء الخالي مجددًا مدة تسعة أيام أخرى إلى أن انطلقت صافرات التحذير مرة أخرى لتعلن أن الوقت قد حان للاحتماء من حزام فان ألين العلوي.

أصبح السفر إلى الفضاء متاحًا أمام جميع الأشخاص تقريبًا. لكنه بالقطع لم يكن سهلًا. أو لم يكن مثيرًا للبهجة كثيرًا.

حدث شيء غريب أثناء خروجهم من حزام فان ألين العلوي. فقد حاول روبرت الوصول بسرعة إلى مكانه المفضل، وهو شريط من البلاستيك السميك طوله متران كان نافذتهم الرئيسية على العالم الخارجي. كانت مايرا تتمرن مستخدمة أحزمة التمارين ورانجيت يفكر في التوجه إلى سريره الخاص وأخذ قسط هادئ من النوم عندما أقبل عليهما روبرت وهو يصرخ من فرط الإثارة. كان فهم روبرت عندما يكون منفعلًا أشد صعوبة من فهمه وهو هادئ. لم تستطع مايرا أو رانجيت فهم شيء منه إلا بكلمة «سمكة». لم يكن روبرت ليفعل الكثير من أجل التوضيح، ولم تكن ناتاشا معهم لتترجم ما يقول. ولم يكن هناك سوى طفلة تبلغ من العمر ثلاثة أعوام جاءت برفقة إحدى الأسر داخل الكبسولة. استمعت الفتاة إلى حديثهم هنيهة، ثم أخذت روبرت بعيدًا — وهي لا تزال صامتة — لتعلمه رياضة التاي تشي حسبما فهمت مايرا.

كانت هذه الطفلة تدعى ليو — ابنة زوجين قادمين من مدينة تايبي — وهي واحدة من الركاب المرافقين لهم داخل الكبسولة. كان هناك ستة أفراد من أسرة كاي يضمون والدتَي السيد والسيدة كاي اللذين كانا يعملان في مجال الفندقة. وكانا قد جمعا من هذا العمل ثروة فاحشة مكَّنتهم من أن يكونوا في طليعة السائحين الفعليين الذين عوَّلت عليهم الهيئة المنظمة للأولمبياد. كان هذا حال الأسرة القادمة من كوريا الجنوبية أيضًا وكذلك الزوجان القادمان من كازاخستان. أما الأسرة النرويجية فلم تكن تتمتع بالثراء في شيء، لكنها كانت أسرة أحد ممثلي الدولة في رياضة الوثب الطويل؛ ولذا تمتع أفرادها بخصم على التذاكر.

المشكلة التي واجهتها أسرة رانجيت هي أنه لم يكن هناك أحد من السبعة عشر شخصًا الذين شاركوهم الكبسولة يتحدث الإنجليزية ولا التاميلية أو السنهالية. كانت زوجة السيد كاي تتحدث الفرنسية بطلاقة، وهو ما ساعد مايرا على تبادل الحديث معها. بينما تحدث البقية بعضهم إلى بعض باللغة الروسية أو الصينية ولغة أخرى رجَّح رانجيت أن تكون الألمانية، ولم تكن أيٌّ من هذه اللغات تفيده كثيرًا.

ليس في البداية على أية حال. كان الوقت هو أكثر ما لديهم. إذ استغرقوا أسابيع في الوصول إلى منتصف المسافة وأسابيع أخرى حتى نقطة النهاية حيث تنطلق الكبسولة في مسارها القمري، ثم يومًا أو يومين آخرين حتى هبوطهم على منطقة خليج أقواس قزح.

أثناء تلك الدورة الأخيرة لم يبتعد آل سوبرامانيان عن شاشات الأخبار؛ لأن هذا كان وقت إجراء التصفيات على القمر. سيجرى السباق النهائي بين شخصين أحدهما يطير مستخدمًا جناحين والآخر مستخدمًا منطادًا هوائيًّا. قطع هذه الرحلة سبعة أشخاص يعتمدون في طيرانهم على الأجنحة للمشاركة في التصفيات ... وبينما كانت أسرة سوبرامانيان تقترب من نهاية رحلتها — حيث القمر نفسه يظهر عملاقًا خارج النوافذ — إذ سمعوا الإعلان عن فوز ابنتهم في التصفيات.

حينئذٍ أصبح بوسع جميع البالغين التحدث ولو ببضع كلمات بلغاتهم الأصلية، وكانت هذه الكلمات موجهة لتهنئة أسرة سوبرامانيان.

التقت ناتاشا بأسرتها عند المصعد على السطح المؤدي إلى القرية الأولمبية وقد غمرتها السعادة وأخذت تتحدث كثيرًا، وأصاب رانجيت شيء من الدهشة عندما وجدها برفقة شاب برازيلي طويل القامة بني البشرة. كان كلاهما يرتدي أقل ما يمكن ارتداؤه من

الملابس في هذه البيئة التي لا تتغير فيها درجة الحرارة عن ٢٣ درجة مئوية. قالت ناتاشا لوالديها: «أقدم لكما رون. إنه اختصار لاسم رونالدينو. وهو عدَّاء لمسافة مائة متر.»

لم يلحظ رانجيت كيف أن فتاة في الخامسة عشرة من عمرها قد تبدو امرأة بالغة فاتنة إلا عندما حاول النظر إلى ابنته بعيني رونالدينو البرازيلي. وما أصابه بالدهشة أن مايرا لم تبدُ قلقة بهذا الشأن. فقد صافحت رونالدينو بمودة صادقة حسبما بدا، بينما لم ينتبه روبرت الصغير إلى وجود العدَّاء؛ إذ دفعه من طريقه ليرتمي بين أحضان أخته الكبرى وقد تعالى صياحه.

بعد أن غمرت ناتاشا جبهة روبرت بقبلاتها همست بشيء في أذنَي رون، فأومأ برأسه وقال لوالديها: «إنه لمن دواعي سروري أن ألتقي بكما.» ثم اختفى مهرولًا في تلك المِشية البطيئة الطويلة التي تساعد عليها الجاذبية على سطح القمر.

قالت ناتاشا: «عليه أن يذهب إلى التمرين. سوف يُجرَى سباقي غدًا، بينما لن يبدأ سباقه قبل يوم الأربعاء. سوف يأخذ حقائبكم، ويضعها في غرفتكم حتى يتسنى لنا إحضار طعام شهي لنتناوله.» تقدمت ناتاشا الطريق وهي تمسك بيد روبرت. وبفضل مساعدتها تعلَّم الطفل بسرعة مشية شبيهة بمشية رون. لكن الحظ لم يحالف رانجيت في ذلك. فوجد أن الوثب البطيء من نقطة إلى أخرى أكثر سهولة، وإن كان أقل رشاقة.

لم يقطع آل سوبرامانيان مسافة طويلة، وعندما وصلوا إلى وجهتهم وجدوا أن المكان كان جديرًا بالذهاب إليه. فالطعام لم يكن يشبه طعام الحيوانات الذي تناولوه في كبسولة مصعد الفضاء، فاشتمل على سلاطة، ونوع من اللحم المفروم والمشَكَّل في صورة كرات مقلية، وفاكهة طازجة لتناولها كتحلية بعد الطعام. قالت لهم ناتاشا: «معظم هذا الطعام آتٍ من كوكب الأرض، لكن الفراولة ومعظم مكونات السلاطة تُزْرَع داخل قناة أخرى على القمر.» لم يكن الحديث عن الطعام هو ما يودون سماعه. بل أرادوا معرفة ما كانت تفعله ناتاشا، وما شعرت به. وأرادت هي الاستماع إلى كل التفاصيل المتعلقة برحلتهم، فأخذت تنصت في شيء من التريث الممزوج بالمتعة باعتبار أنها خاضت تلك التجربة من قبل. أرهفت ناتاشا السمع عندما أتوا على ذكر صياح روبرت بكلمة «سمكة»، لكنها عندما استفسرت من روبرت نفسه عن هذا بلُغَتهما الخاصة أبدى روبرت اهتمامًا بكعكته أكثر من الإجابة عليها. ثم قالت ناتاشا: «كل ما قاله إنه رأى شيئًا خارج النافذة يشبه السمكة. إنه أمر غريب. فقد ذكر بعض الأشخاص هنا أيضًا أنهم شاهدوا شيئًا في الطريق إلى الأعلى.»

تثاءبت مايرا. ثم قالت والنعاس يغالب أجفانها: «ربما يكون بَوْلًا متجمدًا لأحد رواد الفضاء. تذكروا الشائعات التي تداولتها الألسن حول مشاهدة أفراد طواقم أبولُّو أشياء اعتقدوا أنها حشرات فضائية؟ يَرَاع فضائية؟ على أي حال هل قلتِ إن لدينا غرفة؟ وبها سرير حقيقي؟»

كان هذا ما ذكرته ناتاشا بالفعل، ولم يكن سريرًا عاديًّا، وإنما زاد عرضه عن تسعين سنتيمترًا، وهو ما يعني وجود متسع أمام مايرا ورانجيت لينام أحدهما بجوار الآخر. وحالما شاهدا السرير لم يستطيعا مقاومته. فكَّر رانجيت أن يأخذ سنة من النوم بجوار زوجته التي كانت قد نامت بالفعل. ثم يستيقظ ويستكشف هذا المكان الرائع بعد أن يغتسل بمياه حقيقية بالطبع.

كانت تلك نية رانجيت. ولم يكن خطؤه أنه لم يستيقظ إلا على صوت زوجته وهي تهز كتفه برفق وتقول: «رانج؟ أتعلم أنك نمت أربع عشرة ساعة؟ إذا استيقظت الآن فسيكون لديك وقت لتناول إفطار شهي وإلقاء نظرة على القناة قبل أن نذهب إلى السباق.»

شهدت بعض الأحداث الأولمبية حضورًا جماهيريًّا يقدر بمئات الآلاف من المشاهدين. لكن الحضور الجماهيري لهذه المباريات التي تقام للمرة الأولى على القمر كان ضئيلًا للغاية مقارنة بهذه الأحداث. كان عدد الأشخاص يكفي بالكاد لشغل المقاعد الخفيفة الوزن التي بلغ عددها ألفًا وثمانمائة مقعد والتي اصطفَّت على جدران القناة، ومن حسن حظ أسرة سوبرامانيان أنهم حصلوا على مقاعد تبعد عن خط النهاية بأقل من مائة متر.

عندما شقوا الطريق إلى مقاعدهم، شعر رانجيت بسعادة لم يشعر بها من قبل في حياته. فحصوله على قسط وافر من النوم، واستحمامه سريعًا بمياه حقيقية وإن كانت معالَجة (كان مؤقِّت المياه محددًا بثلاثين ثانية فحسب لكنها كانت كافية لغمر الجسد بالماء)، ثم إلقائه نظرة سريعة على المكان كانت كلها أمارات على بداية يوم جيد. وتملَّكته الدهشة عندما اكتشف أن غرف المعيشة ليست داخل القناة العملاقة التي تضم الملعب، وإنما في قناة مجاورة أصغر يربط بينهما نفق أقامه البشر.

لكن ها هو هناك! فوق سطح القمر! مع زوجته الحبيبة وابنه في يوم ربما يكون من أسعد الأيام في حياة ابنته الحبيبة الغالية!

ومع أن الضغط الجوي الذي هيأه البشر داخل الأنفاق بلغ نحو نصف الضغط الجوي فقط عند مستوى سطح البحر على كوكب الأرض، كان الهواء غنيًّا بكميات كبيرة

من الأكسجين. ولم يكن ذلك مهمًّا لناتاشا قدر ما كان مهمًّا لخصمها — بايبر دوجان — الذي سيستخدم المنطاد، رغم أنه مع جاذبية القمر التي تعادل سدس جاذبية الأرض يظل بحاجة إلى سعة أقل من ثلاثين مترًا مكعبًا من الهيدروجين لرفعه إلى أعلى. كان بايبر دوجان أسترالي الجنسية. ومع دخوله إلى الملعب — برفقة ثلاثة مساعدين في وضع عصيب يحاولون التأكد من ثبات الآلة — طفت أسطوانة الهيدروجين الانسيابية الخاصة به في الهواء.

مع دخول دوجان إلى الملعب عزفت فرقة موسيقية متوارية عن الأنظار مقطوعة عرف رانجيت من خلال البرنامج أنها النشيد الوطني لأستراليا، «فلتتقدمي يا أستراليا الجميلة»، وتعالى صياح معظم المشاهدين في الجانب البعيد من القناة. همست مايرا في أذني رانجيت: «يا إلهي. لا أظن أن عدد السريلانكيين هنا يكفي لفعل شيء كهذا من أجل تاشي.»

بكل تأكيد كانت هناك أعداد كبيرة من دولة الهند المجاورة وأعداد أكبر من جنسيات أبدت تعاطفها مع فتاة ناشئة أتت من جزيرة صغيرة. وعندما دخلت ناتاشا لتحتل مكانها كانت برفقة مساعد واحد يحمل ما يشبه دراجة بلا عجلات وإنما بأجنحة رقيقة تكاد تشبه نسيج العنكبوت. عُزِفَت الموسيقى من أجل ناتاشا أيضًا — إن كان هذا هو النشيد الوطني لسريلانكا فستكون هذه معلومة جديدة على رانجيت الذي لم يكن يعرف أن هناك واحدًا — لكن كاد صوت الموسيقى يختفي وسط صرخات المشاهدين في الجانب المجاور لها من القناة. استمرت الصيحات أثناء تثبيت المساعِدين لكلا المتسابقين في آلتي السباق حيث بايبر دوجان متدلٍ من خزان الهيدروجين ويداه وقدماه في وضع حر لمساعدته في استعمال الدواسة بينما ناتاشا جالسة بزاوية خمسة وأربعين درجة على مقعد دراجتها الطائرة.

انقطع صوت الموسيقى. وخفتت صيحات الجماهير. وكادت لحظة من الصمت تعم أرجاء المكان ... ثم انطلق صوت حاد معلنًا بدء السباق.

في البداية انطلق منطاد دوجان إلى الأمام في خط أفقي بينما هبطت دراجة ناتاشا مسافة ستة أمتار قبل أن تتمكن من الوصول بها إلى السرعة المطلوبة.

حينئذٍ بدأت ناتاشا تلحق بمنافسها.

كان سباقًا متكافئًا بين الطيارَين حتى نهاية الملعب وكلاهما يتلقى هتافات مدوية من الجميع؛ ليس فقط من هذا العدد الضئيل من المتفرجين داخل القناة وإنما من عشرات

ومئات الملايين الذين يتابعون الحدث في أي مكان به شاشة تليفزيون داخل المجموعة الشمسية.

وعلى بعد عشرين مترًا من خط النهاية تقدمت ناتاشا على خصمها. واجتازت خط النهاية بمسافة ليست بالقصيرة، وكانت صرخات وصيحات وهتافات المشاهدين الذين بلغ عددهم ألفًا وثمانمائة مشاهد داخل القناة هي أعلى صوت سُمع على القمر طيلة سنوات عدَّة.

كانت رحلة العودة إلى كوكب الأرض طويلة ومعقدة تمامًا كرحلة الذهاب، لكن ناتاشا برفقتهم هذه المرة ومعها ما حصدته من جوائز.

كانت هذه الجوائز مجتمعةً مثيرة للإعجاب الشديد. لم تتوقف شاشة ناتاشا الشخصية عن تلقي رسائل التهنئة من جميع الأشخاص الذين تعرفهم ومن عدد كبير للغاية من أشخاص لا تعرفهم. كان رؤساء كل من روسيا والصين والولايات المتحدة من بين من تمنوا لها دوام النجاح، بالإضافة إلى قادة جميع الدول الأخرى في الأمم المتحدة. تلقت ناتاشا تهنئة من الدكتور داتوسينا باندارا نيابة عن منظمة السلام عن طريق الشفافية، ومن جميع أساتذتها القدامى وأصدقائها وآباء أصدقائها. وتلقت تهنئة أيضًا من أولئك الذين كانت تهتم لأمرهم حقًّا مثل بيتريكس فورهولست وجميع العاملين في منزلها. كل هذا بالإضافة إلى الأشخاص الذين كانوا يريدون منها شيئًا مثل البرامج الإخبارية التي تسعى لإجراء مقابلات تليفزيونية معها وممثلين عن عشرات الحركات والجمعيات الخيرية الذين كانوا يستجدون تأييدها لهم. وجدير بالذكر أيضًا أن اللجنة الأولمبية الدولية وعدت بطلتها الجديدة بمكان ضمن سباق سفن الفضاء ذات الشُّرُع الشمسية الذي تخطط له والذي من المقرر عقده حالما يتوفر عدد كافٍ من سفن الفضاء التي تصلح للسباق في مدار أرضي منخفض. قالت مايرا لباقي أفراد الأسرة: «إنهم يقومون بذلك بسبب زيادة الضغوط المفروضة عليهم من جانب الدول الثلاث الكبرى، أنا واثقة من هذا. فهم يريدون بدء العمل في كل شيء على الفور من أجل تحقيق مآربهم الخاصة.»

ربَّت زوجها على كتفها. وسألها مترفقًا: «وما تلك المآرب؟ إنهم يمتلكون كل شيء بالفعل حسبما ذكرتِ.»

قطبت مايرا وجهها. وقالت: «سوف ترى»، لكنها لم توضح ما الذي سيراه رانجيت تحديدًا.

كانت أسرة رانجيت تقترب كثيرًا من حزام فان ألين العلوي قبل أن تقل المكالمات الهاتفية إلى الحد الذي يتيح لرفاقهم في الرحلة إجراء عدد من المكالمات التي أخفقوا في إجرائها من قبل مع ذويهم في أرض الوطن. شارك آل سوبرامانيان ستة عشر شخصًا في الكبسولة هذه المرة، بينهم أسرتان ثريتان من بلغاريا — وإن لم يستطع رانجيت معرفة مصدر هذا الثراء تحديدًا — وعدد قليل من الكنديين الذين كادوا يكونون على نفس الدرجة من الثراء. (كان البترول المستخرج من رمال القطران في مدينة أثاباسكا هو مصدر ثراء هؤلاء الكنديين.) شعر رانجيت بضرورة الاعتذار لرفاقهم في السفر بسبب استحواذ ناتاشا على النصيب الأكبر من دوائر الاتصالات. لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى هذا الاعتذار. قالت أكبر النساء الكنديات سنًّا: «فليباركها الرب. إن أحداثًا كهذه لا تتكرر كثيرًا في حياة فتاة شابة. وعلى أية حال ما زالت القنوات الإخبارية تبث أخر الأخبار. وتركز أغلبها على تلك الموجة من الشائعات الجديدة حول رؤية طبق طائر، لكن هل تناهت إلى أسماعكم أخبار مصر وكينيا؟»

لم يكن آل سوبرامانيان قد عرفوا شيئًا من هذه الأخبار، وعندما أُخْبِروا بها تملَّكتهم حالة من السعادة شأنهم في ذلك شأن أي شخص آخر. لم توافق كينيا ومصر على الاقتسام العادل لمياه نهر النيل فحسب، وإنما صوتت كلتا الدولتين — وفق استفتاء عام دُعِيَ إليه فجأة — على الانضمام طواعيةً إلى اتفاق الشفافية.

قال رانجيت: «تلك أخبار رائعة!»

حينئذٍ انطلقت الصافرات المدوية للتحذير من الإشعاعات معلنة أن الوقت قد حان لدخولهم إلى المأوى مجددًا.

تنهد رانجيت، وتَقَدَّم الطريق تتبعه ناتاشا وهي تتحدث إلى إحدى الفتيات الكنديات وخلفهما زوجته ممسكةً بيد روبرت.

مرت عدة دقائق تَفَقَّد خلالها العشرون شخصًا أسِرَّتهم بينما صوت صافرات التحذير يتردد طوال الوقت. فجأة توقفت مايرا وألقت نظرة على المكان، ثم تساءلت: «أين روبرت؟»

جاءت الإجابة على لسان إحدى الكنديات. إذ قالت: «كان واقفًا عند الباب منذ قليل.»

لم تكن السيدة في حاجة إلى قول المزيد. فقد خرج رانجيت من الباب مناديًا على روبرت بصوت علا عن أصوات التحذيرات المدوية. لم يستغرق رانجيت وقتًا طويلًا في العثور على ابنه الذي كان يحدق باهتمام خارج النافذة في المشهد الضبابي متعدد الألوان

الذي يمثل حزام فان ألين، ولم يستغرق وقتًا أطول في سحبه إلى داخل المأوى وغلق الباب بقوة وراءهما. طمأن رانجيت أسرته وبقية المسافرين الذين تجمعوا في قلق حول الباب قائلًا: «إنه بخير. سألته عما كان يفعل، ولم يقل شيئًا سوى «سمكة».»

انطلقت أصوات ارتياح ممزوجة بالضحك من الجميع، بينما زمت الجدة الكندية شفتيها. وتساءلت: «هل قال إنه شاهد سمكة؟ ورد في الأخبار أن أشخاصًا آخرين شاهدوا أشياء من مصعد الفضاء وصفوها بأنها أشياء لامعة مستدقة الطرفين. أعتقد أنه يمكن القول إن هذا الوصف يشبه السمكة.»

أكد زوج ابنتها قائلًا: «نفس الأشياء التي زعموا أن الناس شاهدوها في كل مكان. كنت أظن أن هذا واحد من تلك الأشياء الغريبة التي يخدع الناس أنفسهم بها، لكن لا أعرف الآن. أعتقد أنه من الممكن أن تكون هذه الأشياء حقيقية.»

في غضون ذلك كان ثمة جدال كبير بين «تساعيي الأطراف» الحقيقيين تمامًا داخل طائراتهم التي تتخذ شكل الزوارق.

القرار الذي اتُّخِذ بإيقاف تشغيل دروع انحراف الرؤية ليصبح بوسع هؤلاء البدائيين على كوكب الأرض رؤيتهم فعلًا بدا قرارًا صائبًا في وقته. وبعد أن وُضع القرار موضع التنفيذ بدأ «تساعيو الأطراف» على الفور النقاش عبر شبكة الأشعة الدقيقة التي تمكنهم من الاتصال بعضهم ببعض دون أن يسترق البشر السمع لما يقولون. طرح «تساعيو الأطراف» موضوعًا واحدًا فحسب للنقاش وهو: هل اتخذوا القرار الصائب؟

ولمحاولة الإجابة عن هذا السؤال نُشِّطَت الأوامر السارية، وخضعت لدراسة الجميع. أنعم خبراء الاتصالات بين «تساعيي الأطراف» و«عظماء المجرة» النظر في الأمر لفترات طويلة قبل الإعلان عن رأيهم. ولأنهم تدربوا منذ ولادتهم على استيعاب أي فارق بسيط في جميع الأوامر التي سبق أن أقرها عظماء المجرة، فقد استُمِع إلى آرائهم بإنصات، وكاد يكون هناك إجماع على ما توصلوا إليه.

صاغ هؤلاء الخبراء آراءهم مستخدمين نوعًا من المصطلحات التي قد يستخدمها أحد المحامين من البشر: حرَّم «عظماء المجرة» على «تساعيي الأطراف» التورط في أي اتصال مع ذلك الجنس البشري الخبيث تحريمًا قاطعًا. لكنهم لم يطلبوا منهم الاكتراث لمسألة التحقق من أن البشر لا يشكُّون في وجودهم.

وبناءً على ذلك فقد خلص الخبراء إلى أن عدالة «عظماء المجرة» ستمنعهم من إنزال العقاب الأليم بجنس «تساعيي الأطراف» لما بدر منهم. واتفقوا جميعًا على أن تاريخ

«عظماء المجرة» يشهد بأن لديهم حسًّا من العدالة أو من شيء يشبهها. ولذلك ربما يكتفون بتوبيخهم. وربما يصل الأمر إلى حد العقاب. لكن من المستبعد تمامًا أن يردوا على ذلك بإبادة «تساعيي الأطراف» جميعًا.

لم تكن الأجناس الأخرى التي تتبع «عظماء المجرة» لتُقْدِمَ أبدًا على مخاطرة كهذه من الأساس. ما كانت كائنات «واحد فاصل خمسة» لتفعل ذلك. وما كانت كائنات «المخزنين في الآلات» لتفعل الشيء ذاته أيضًا. ولم يكن هناك من بين تلك الأجناس التابعة لـ «عظماء المجرة» من يمتلك حس دعابة كهذا أو من يجرؤ على خرق الأوامر على هذا النحو. كان هذا هو الوضع القائم حتى اللحظة الراهنة.

الفصل الثالث والثلاثون

معاناة شخصية وسط ابتهاج عالمي

لن تشكل مياه نهر النيل تهديدًا للسلام العالمي بعد الآن؛ لأن كلًّا من مصر وكينيا اجتازتا تصويت منظمة السلام عن طريق الشفافية بهامش كبير. وقبل أن تتخذ قوات حفظ السلام التابعة للمنظمة أماكنها شرعت فرق من علماء المياه الكينيين في بدء أعمالها في مباني المراقبة المحيطة بالسد العالي في أسوان، وفتحت كلتا الدولتين مواقعهما الصاروخية (المتواضعة إلى حد ما) أمام الرقابة الدولية. وتبعها على الفور إبداء الشفافية فيما يتعلق بالصناعة الثقيلة — على عِلَّاتها — داخل الدولتين.

لم تكن مصر وكينيا الأخيرتين في اتخاذ إجراء كهذا. فالدول الأفريقية الأربع جنوب الصحراء التي كانت تتنافس على مياه بحيرة متوسطة الحجم رأت ما حل بالدولة التي أرسلت قوة لإزاحة الدول الثلاث الأخرى. وعندما ذاقت هذه الدولة — بعد تحذيرها كما ينبغي وتجاهلها لهذه التحذيرات — مرارة «الرعد الصامت»، لحقت الدول الثلاث الأخرى بها في الانضمام إلى الاتفاق.

وحينئذٍ شهد العالم طفرة كبيرة.

سادت جمهورية ألمانيا حالة من الجدال والنقاش، ثم انتهى الأمر بإجراء استفتاء عام واسع النطاق بها. فذكريات الألمان القومية المروعة بشأن الحروب الكبيرة والعنيفة التي انهزموا فيها تغلبت على توقعاتهم المثيرة للقلاقل التي كانت تظهر بين الحين والآخر. انضم الألمان إلى الاتفاق أيضًا. وفتحوا حدودهم أمام الأمم المتحدة، وسرَّحوا قواتهم المسلحة المتواضعة التي كانوا قد أبْقوا عليها، ووقَّعوا على مسودة دستور عالمي وضعته منظمة السلام عن طريق الشفافية.

كانت تلك أوقات ابتهاج للبشر على كوكب الأرض.

لكن وقع حدثان اختزلا بهجة أسرة سوبرامانيان. شاركت الأسرة جميع البشر في الحدث الأول، وهو استمرار ظهور تلك الخيالات الصغيرة المزعجة في المدن ليلًا وفي الجو فوق السفن التي تعبر البحار في وضح النهار بل وحتى في الفضاء مثل «السمكة» التي تحدث عنها روبرت الصغير. أطلق بعض الأشخاص على تلك الأشياء أسماء مختلفة مثل «الموز البرونزي» و«الغواصات القزمة الطائرة» وأسماء أخرى ليس من السهل كتابتها. لكنهم جميعًا كانوا يجهلون حقيقة هذه الخيالات تحديدًا. أما من يؤمنون بفكرة الأجسام الطائرة الغامضة فقد اعتبروها دليلًا قاطعًا على أن الأطباق الطائرة حقيقة واقعة. بينما توهَّم المغالون في مذهب الشك أن بعض الدول ذات السيادة على كوكب الأرض تطور سلاحًا غامضًا لم تعهده البشرية من قبل.

لكن النقطة التي كانت محل اتفاق من الجميع هي أن هذه الأشياء لم تتسبب في إلحاق أي ضرر ملموس بأي إنسان. لذا بدأ هؤلاء الذين يتمتعون بحس الفكاهة في التندر عليها، والبشر لم يعتادوا الفزع من أشياء ضحكوا منها.

أما أسرة سوبرامانيان فكان يشغلها ذلك الحدث الآخر.

بدأ روبرت الصغير السير دون مساعدة من أحد في سن مبكرة، لكن والداه لاحظا عليه أمرًا غريبًا منذ عودتهم من الفضاء. فقد يحدث ذلك أثناء استمتاع أفراد الأسرة جميعًا بأوقات اللهو السعيدة ما بين الاستحمام والخلود إلى النوم. إذ يترك روبرت أمه ليسير إلى حيث تلاطفه شقيقته الكبرى. وفي بعض الأحيان يسقط روبرت في مكانه. ويرتمي على الأرض مغشيًّا عليه، ويظل هكذا بلا حراك هنيهة وعيناه مغمضتان. بعدها يفتح روبرت عينيه، ويقف مترنحًا، ثم يتوجه إلى حيث تنتظر ناتاشا وهو يضحك ويهمهم بينه وبين نفسه كالمعتاد.

كان هذا الأمر جديدًا ... ومخيفًا في الوقت نفسه.

من الواضح أن روبرت لم يشعر بالانزعاج حيال هذه الحادثات الصغيرة. بل بات واضحًا أنه لم يلاحظ حدوثها. لكنها ستتكرر كثيرًا في أوقات أخرى. وستتكرر مرة ثانية.

كان هذا هو الحدث الذي شوَّه السعادة المثلى التي ينعم بها رانجيت ومايرا.

لم يشعر رانجيت ومايرا بالقلق الشديد؛ إذ كان واضحًا أن روبرت يتمتع بصحة جيدة فيما عدا هذا الحادث. لكنهما كانا مشغولَي البال. وشعرا — أو على الأقل شعر رانجيت — بالذنب لأنه هو الذي ترك روبرت يخرج من الغرفة الآمنة أثناء دخولهم حزام

فان ألين العلوي. ومن يدري إذا ما قد صدرت إشعاعات ضارة بالقدر الكافي لإلحاق أذى بالطفل؟

لم تعتقد مايرا في ذلك أبدًا، لكنها لمحت القلق في عينَي زوجها، فقررا استشارة الأطباء.

وهكذا لجأ رانجيت ومايرا إلى عدد كبير من أفضل الأطباء وأكثرهم خبرة. وكانت شهرة رانجيت تسبقهما في كل مكان يذهبان إليه بطفلهما. لم يكن أفراد الفريق الطبي الذين خرجوا لتحيتهما في الثلاثين من عمرهم أو نحو ذلك بما يجعلهم حديثي التخرج من كلية الطب (ومن ثمَّ أقل خبرة بآخر التطورات في علم الطب). بل كانت أعمارهم تقارب الستين، فكانوا يتمتعون بخبرات جيل سابق، بل ويشغلون مناصب رؤساء أقسام على الأقل. شعر هؤلاء جميعًا بالفخر لزيارة الدكتور رانجيت سوبرامانيان ذائع الصيت لمنشآتهم — سواء أكانت مستشفى أم عيادة أم معملًا — واتفقوا جميعًا على نفس الأخبار المحزنة.

كان روبرت طفلًا صحيح البنية من كافة النواحي تقريبًا. بالأحرى يُقصد هنا كافة النواحي تقريبًا عدا جانبًا واحدًا. فقد أصابه خطب ما في مرحلة من حياته. قال جميع الأطباء: «المخ عضو بالغ التعقيد»، أو هكذا أرادوا القول، لكن عددًا كبيرًا منهم وجد سبلًا أفضل في التعبير عن الأخبار السيئة ذاتها. وهي أن الطفل ربما يعاني من حساسية غير معروفة، أو تعرض لخطأ ما أثناء الولادة، أو يعاني من نوع من العدوى لم يُكتشف بعد. لذا كاد جميع الأطباء يتفقون على النقطة التالية. وهي أنه ليس هناك دواء أو عملية جراحية أو أي شيء آخر يجعل من روبرت طفلًا «طبيعيًّا»؛ لأن جميع التحليلات أشارت إلى أن ابن رانجيت سوبرامانيان ومايرا دو سويزا قد تعرض لانتكاسة. وصار الآن نموه العقلي أبطأ إلى حدٍّ ما عما يُفترض أن يكون عليه في هذه السن.

في ذلك الحين كانت أسرة سوبرامانيان قد تعاملت مع قائمة طويلة من المتخصصين. وكان من بين هؤلاء متخصصة في علم التخاطب واللغة لدى الأطفال أوقعت الرعب في قلبي والدي روبرت. إذ قالت: «بدأ روبرت يتخلى عن استخدام الحروف الساكنة. هل لاحظتم إن كان يتحدث إليكم بنفس الطريقة التي يتحدث بها إلى الأطفال الذين يلهو معهم؟» أومأ والداه. فاستطردت: «لأنه في هذه السن يغيِّر الأطفال طريقتهم في الكلام بحسب الشخص الذي يتحدثون إليه. وربما يقول أحدكما «أعطني هذا»؛ بينما تجدان الطفل يقول كلامًا مبهمًا مرادًا به الشيء نفسه. ماذا عن القدرة على الفهم؟ أظن أنه يمكنكما فهم ما يقول، لكن ماذا عن الأصدقاء والأقارب؟»

أقرَّ رانجيت: «ليس دائمًا.»

صححت مايرا كلامه. إذ قالت: «ليس كثيرًا. وهو ما يزعج روبرت في بعض الأحيان أيضًا. لكن أليست هناك فرصة لأن يتغلب على ذلك بمرور الوقت؟»

قالت المتخصِّصة في لهجة حاسمة: «أجل. فألبرت آينشتاين لم يكن يتحدث بصورة جيدة في طفولته. لكن علينا مراقبة ذلك بعناية.»

وعندما طرحت مايرا هذا السؤال على الطبيب التالي، قال في لهجة تنم عن شيء من التَّدَيُّن: «لا بد أن نتحلى بالأمل دائمًا، يا دكتورة دو سويزا.»

وأجابها آخر في لهجة أكثر تديُّنًا: «هناك أوقات لا يمكننا فيها سوى الخضوع لإرادة الله.»

ما لم يقله أحد هو: «إليكم هذه الأمور المحددة التي يمكن اتباعها لمساعدة روبرت على التحسن.»

ولو كانت هناك أمور كهذه، فمن الواضح أن علم الطب ليس على دراية بها. لقد توصل الأطباء إلى كل هذا «التطور» في فهم حالة روبرت على حساب عدد كبير من الأحداث المؤسفة. مثل تقييد روبرت إلى سرير أثناء فحص رأسه بالأشعة السينية. أو حلق شعر رأسه حتى يتسنى لهم تغطية جمجمته بشريط مغناطيسي لاصق. أو تثبيته على نقَّالة ذات عجلات تتحرك ببطء شديد إلى داخل جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي ... أدت كل هذه الأحداث إلى أن أصبح روبرت الصغير — الذي لم يخش شيئًا من قبل في حياته الصغيرة — ينخرط في البكاء كلما اقترب منه شخص يرتدي ملابس بيضاء.

ومع ذلك فإن علم الطب أفادهم في شيء واحد. إذ كانت هناك أدوية تتحكم في سقوط روبرت المفاجئ الذي أطلقوا عليه اسم «الصرَع الصغير» تمييزًا له عن الصرع الحقيقي الذي لم يكن روبرت يعاني منه. لم يتعرض روبرت للسقوط بعدها. لكن لم يكن لدى الأطباء أي أدوية ترفع ذكاء روبرت إلى الحد الذي يتساوى فيه مع أقرانه العاديين.

ثم جاء صباح يوم سُمعت فيه أصوات طرق على الباب. وعندما فتح رانجيت الباب وهو يستعد لركوب دراجته للذهاب إلى مقر عمله في الجامعة، رأى جاميني واقفًا عند الباب. قال جاميني: «كان عليَّ الاتصال لأستأذن في زيارتك يا رانجيت، لكني خشيت أن ترفض.»

أجاب رانجيت صديقه القديم الغالي بأن ضمه بسرعة إلى صدره وعانقه عناقًا حارًّا. ثم قال له: «يا لك من أخرق. لقد كنت أظن العكس. ظننت أنك غاضب منا لأننا رفضنا العرض الذي عرضته علينا منذ سنوات طويلة.»

بعد أن تحرر جاميني من قبضة رانجيت ابتسم ابتسامة يرثى لها. وقال: «في الواقع لست متأكدًا أنك كنت مخطئًا تمامًا. أتسمح لي بالدخول؟»

بالتأكيد سمح له رانجيت بالدخول حيث استقبلته مايرا وروبرت الصغير بالعناق. حاز روبرت النصيب الأكبر من اهتمام جاميني لأنه لم يره من قبل قط، لكنه ذهب بعدها برفقة الطاهي ليلهو بلعبة تجميع الصور المقطعة، بينما جلس الكبار في الشرفة. قال جاميني وهو يتناول كوبًا من الشاي: «لم أرَ تاشي.»

أجابه رانجيت: «إنها تبحر في الخارج. كثيرًا ما تفعل ذلك، وتقول إنه تدريب من أجل سباق كبير تخطط للمشاركة فيه. لكن ما سبب عودتك إلى سريلانكا؟»

زم جاميني شفتيه. ثم قال: «تعرفون أن سريلانكا على وشك إجراء انتخابات رئاسية، أليس كذلك؟ ينوي والدي الاستقالة من مجلس إدارة منظمة السلام عن طريق الشفافية، والعودة لترشيح نفسه للرئاسة. ولديه أمل أنه إذا انتُخِب سيكون بوسعه ضم سريلانكا إلى الاتفاق.»

بدت على رانجيت مشاعر سعادة حقيقية. وقال: «سيمنحه ذلك نفوذًا أكبر! سيكون رئيسًا عظيمًا.» ثم توقف، فقالت مايرا ما لم يرغب رانجيت في قوله.

قالت مايرا: «لكنك تبدو قلقًا. أثمة خطب ما؟»

أجابها جاميني: «بكل تأكيد. إنها كوبا.»

* * *

في الواقع لم يكن جاميني في حاجة إلى مزيد من الإيضاح؛ لأن مايرا ورانجيت كانا يتابعان بطبيعة الحال ما يحدث هناك. فكوبا على وشك إجراء استفتاء عام بشأن السلام عن طريق الشفافية.

بات من المؤكد إلى حد بعيد أيضًا أن نتيجة الاستفتاء ستأتي بالموافقة. جُنِّبَت كوبا مآسي دول العالم الثالث. صحيح أن فيدل كاسترو قد تسبب في إحداث الكثير من الضرر، لكنه حقق قدرًا مؤكدًا من الإنجازات؛ فشعب كوبا شعب متعلم، وبها أعداد هائلة من الأطباء المتمرسين وخبراء في مجال مكافحة الحشرات. وخلال ما يزيد عن النصف قرن لم يتعرض أي كوبي للموت جوعًا.

أما الشيء الآخر الذي فعله كاسترو فكان تأجيج مشاعر المُوَالين. فبعض أبناء وأحفاد — بل وبنات! — الكوبيين الذين ذهبوا للقتال والموت في سبيل الثورة العالمية في عدة دول مختلفة لم ينسوا ما حدث. نجا عدد قليل من المحاربين القدامى بحياتهم، ومع أن

أعمارهم لا تقل عن الثمانين الآن إن لم تكن تزيد، فهم قادرون تمامًا على سحب زنادٍ أو تثبيت فتيل في قنبلة. كم يبلغ عدد هؤلاء؟ لم يكن عددهم يكفي للشك في نتيجة الاستفتاء العام على أي حال. عندما حُسِبت الأصوات، حاز نزع السلاح وإحلال السلام ووضع دستور جديد على أكثر من ٨٠ بالمائة من نتيجة الاقتراع. لكن اثني عشر موظفًا تابعًا لمنظمة السلام عن طريق الشفافية تعرضوا لإطلاق النار وأصيب تسعة منهم — لأن المحاربين القدامى الذين دافعوا عن الاشتراكية كانوا على دراية بكيفية استخدام المدافع — في حين لقي اثنان من المصابين حتفهم.

قال رانجيت بعد أن ساد الصمت هنيهة: «إنه أمر مأساوي حقًّا، لكن ما علاقة هذا بسريلانكا؟»

قال جاميني بلهجة غاضبة: «الأمر يتعلق بأمريكا. ويتعلق أيضًا بروسيا والصين لأنهما لم تفعلا شيئًا. لكن أمريكا هي التي تود إرسال نحو ست سَرايا من القوات الأمريكية مزودة بأسلحة سريعة الإطلاق، بل ودبابات أيضًا. قوات! في حين أن المغزى الأساسي وراء إنشاء منظمة السلام عن طريق الشفافية هو عدم استخدام القوة الفتاكة مطلقًا!»

صمت الجميع هنيهة. ثم قالت مايرا: «فهمتُ ما تقصد»، واكتفت بذلك.

لكن رانجيت قال: «أكملي يا مايرا. فلديكِ الحق في أن تقولي: «أخبرتكما بهذا من قبل».»

الفصل الرابع والثلاثون

البنتومينو والسيارات

كانت ناتاشا سوبرامانيان تتدرب على ركوب الأمواج في مياه البحار الضحلة بجوار منزل والديها عندما رأت تلك السيارة الصفراء الغريبة الشكل. كانت السيارة تنحدر من أحد الشوارع المؤدية إلى الشاطئ، وكانت تبطئ السير عند كل تقاطع. وعندما انحرفت السيارة داخل أحد هذه التقاطعات، كان الشارع الذي سلكته هو نفس الشارع الذي يقع فيه منزل آل سوبرامانيان. لم يكن بوسع ناتاشا أن ترى المنزل نفسه من مكانها وهي تقف على لوح التزلج، لكنها كانت ترى الشارع التالي بوضوح شديد. لم تظهر السيارة في هذا الشارع. ولذا فلا بد أنها توقفت بجوار أحد المنازل في شارعهم، عندئذٍ لم تجد ناتاشا بدًّا من التساؤل هل قصدت تلك السيارة منزلهم.

كانت ناتاشا تدرك أيضًا أن وقت الغداء قد أوشك، الأمر الذي جعلها تسرع بالرجوع إلى الشاطئ. وهناك رأت أن السيارة الصفراء متوقفة بالفعل عند مدخل منزلها ... لكنها شهدت تغيرًا لافتًا للنظر في أثناء الوقت الذي استغرقته ناتاشا في الوصول إلى المنزل. إذ اختفى جزء كبير من المقعد الأمامي بما في ذلك المكان المخصص للسائق. وعندما دخلت المطبخ شاهدت رجلًا عجوزًا مرتديًا ثياب الرهبان يجلس أمام المائدة ويراقب روبرت وهو يرتب واحدة من ألعاب تجميع الصور المقطعة. وإلى جوار الرجل رأت الجزء المفقود من السيارة مثبتًا على عجلتين ذواتَي إطارين من المطاط، في حين كان الرجل يهمهم بصوت خفيض.

مرت سنوات لم تشاهد فيها ناتاشا الراهب العجوز، لكنها عرفته على الفور. فقالت: «أنت سوراش الذي اعتاد أن يغير لوالدي حفاضه. ظننت أنك تحتضر.»

رمقتها والدتها بنظرة حادة. لكن سوراش ابتسم وربت على رأسها. وقال: «كنت أحتضر بالفعل. وما زلت الآن كذلك، وهذه حالنا جميعًا، لكني لم أعد حبيس المنزل منذ

أن أعطوني هذه.» أبعد الراهب روبرت من مكانه، وأشار إلى المركبة ذات العجلات خلف الكرسي الذي يجلس عليه. ثم قال «وعدتُ والديك أن أريهما كيف تعمل. فلتأتِ معنا يا ناتاشا.»

عندما انتقل سوراش من كرسيه على المائدة إلى مقعد هذه المركبة الغريبة ذات العجلتين لاحظت ناتاشا مدى ضعفه ووهنه. لكن ما إن جلس على المقعد حتى أدار عصا القيادة الخاصة بهذه المركبة بيد ثابتة، ودفعها بسرعة عبر الباب الذي فتحه رانجيت مسرعًا.

وعندما ثبت سوراش مركبته ذات العجلتين داخل الفجوة الموجودة في مقدمة السيارة المتوقفة أمام المنزل، سُمعت أصوات متلاحقة نتيجة دوران بعض التروس. انبثق من الجزء الرئيسي للسيارة مقابض قوية ثبتت الكرسي ذي العجلتين في مكانه. أيضًا انبعث من المحرك صوت صفير منخفض، وبدأت سحابة بيضاء نقية تنبعث من أنبوب العادم في مؤخرة السيارة. صاح سوراش: «ضعوا أيديكم فيها إذا شئتم. فكل ما أحرقه في هذه المركبة هو الهيدروجين.»

أجابه رانجيت: «لدينا فكرة عن السيارات التي تستخدم الهيدروجين كوقود.»

أومأ الراهب المسن برفق. ثم تساءل: «لكن أتعرفون شيئًا عن هذا؟» ثم أوضح كيف أن المركبة بأكملها — ما إن تُرفق عربته الشخصية ذات العجلتين بها — تتحول إلى سيارة يمكنه قيادتها على الطريق والانتقال بها بسهولة إلى أي مكان يرغب في الذهاب إليه.

بعدئذٍ أصرت مايرا على أن الوقت قد حان لتناول الغداء. ودار بينهم حديث ودود طويل. غلب عليه طابع المودة. أراد سوراش أن يعرف كل شيء عن عمل رانجيت في الجامعة، وآمال ناتاشا في استغلال بعض مهاراتها في الإبحار من أجل المشاركة في سباق الأشرعة الشمسية الفضائي الذي سيعقد بعد عام، ومهارات روبرت المذهلة في ألعاب تجميع الصور المقطعة، وأيضًا كفاح مايرا من أجل مواكبة آخر التطورات في عملها. أراد سوراش أيضًا أن يخبرهم عما يجري في المعبد الكبير في ترينكومالي، والأماكن التي زارها باستخدام سيارته الجديدة — تباهى سوراش بأنه زار كل مكان في الجزيرة سعيًا لاستكمال رحلة الحج إلى أشهر المعابد الهندوسية في سريلانكا التي طالما اشتاق إليها — والأهم من ذلك مدى الكفاءة التي تعمل بها السيارة.

لكن من أين له بهذه السيارة الجديدة الرائعة؟ أجاب سوراش على الفور: «من كوريا. لقد بدءوا للتوِّ في تسويقها، واستطاع أحد أقاربي أن يحصل لي على هذه.» ثم

أضاف والبهجة تغمره: «أليس رائعًا أنه باستخدام القليل من الجهود التي نهدرها في خوض غمار الحروب والاستعداد لها تمكنا من تحقيق إنجازات كثيرة في نواح أخرى؟ مثل هذا الشيء الذي يطلقون عليه اسم كاشف الرنين النووي رباعي الأقطاب المستخدم في الكشف عن الألغام المدفونة في باطن الأرض، وهناك أيضًا جهاز يشبه روبوتًا صغيرًا لتنظيف الأتربة عن الألغام ووضعها جانبًا دون أن يتعرض أحد للأذى! لقد أزالوا الألغام من كل ساحات المعارك القديمة تقريبًا بجوار ترينكومالي. أيضًا طوروا ذلك النوع من الإيروسولات الذي يحتوي على هرمون مُعدَّل وفقًا للحمض النووي للبعوض الناقل للأوبئة، فضلًا عن الطائرات الآلية الصغيرة التي تجوب المكان لرش هذا البعوض والقضاء عليه. وغير ذلك الكثير. إننا ندين بالكثير لذلك «الرعد الصامت»!»

أومأ رانجيت، ونظر إلى زوجته. حركت زوجته رأسها للخلف فجأة، وقالت: «لم أقل أبدًا إنه سيئ كليةً، أليس كذلك؟»

وعندما انصرف سوراش أخيرًا — والبخار ينبعث من سيارته المعقدة الغريبة أثناء ابتعادها عن المنزل — عاد رانجيت إلى الداخل. قالت مايرا: «إنه عجوز رائع.»

وافقها رانجيت دون تردد. ثم قال: «أتعرفين الأماكن التي زارها مستخدمًا هذه السيارة الغريبة؟ لقد بدأ رحلته بزيارة معبد ناجيوليسفارام شمال جافنا. لا أعرف كم عدد المعابد الأخرى التي زارها، لكنه عندما زار معبد ميونيسفارام كان على مقربة من شمال كولومبو، ولا شك أنه لن يزور المدينة دون أن يمر علينا. إنه يتجه الآن جنوبًا إلى كاتيركامام على الرغم من أن البوذيين هم الأكثر استخدامًا لهذا المعبد الآن. أظن أيضًا أنه سيزور محطة مصعد الفضاء.» وتردد رانجيت ثم أضاف في ترو: «سوراش مهتم بالعلم اهتمامًا بالغًا، أتعرفين ذلك؟»

رمقته مايرا بنظرة حادة، وقالت: «ما الأمر يا رانجيت؟»

هز كتفيه في حركة لامبالية، لكنه لم يتجاهل الموضوع تمامًا. ثم قال: «أوه ... أول شيء قاله عندما كنا في الخارج هو تذكيره لي بأني لا أزال أمتلك منزل والدي القديم، وأنه ما زال شاغرًا هناك.»

قالت مايرا: «حسنًا، لكنك تعمل هنا.»

قال: «أجل، لقد أخبرته بذلك. وبعدها سألني هل اعترتني دهشة عندما تَحَدَّث عن أمور علمية مثل سيارته الجديدة بهذه الطلاقة التي تحدث بها. وقال لي «تعلمت على يد

والدك يا رانجيت. يمكن للمرء أن يؤمن بالدين ويحب العلم في الوقت نفسه.» ثم بدا جادًّا للغاية وقال: «ماذا إذن عن العكس؟ أيمكن للمرء أن يحب العلم وفي الوقت نفسه يُجِلَّ الرب؟ ماذا عن أبنائك يا رانجيت؟ أي نوع من التعليم الديني يتلقون؟» ولَمْ ينتظر مني ردًّا لأنه كان يعرف الرد مقدَّمًا.»

قالت مايرا: «أنت محق»؛ لأنها كانت تعرف الرد هي الأخرى، وتعرف أيضًا أن سماع الرد كان سيؤذي مشاعر سوراش. سبق لمايرا ورانجيت أن تحدثا منذ زمن بعيد عن موضوع الدين واتفقا على رأي واحد. فلو استشهد رانجيت بفيلسوف القرن العشرين المغمور الذي قال ذات مرة: «اختلق الشيطان كل الأديان ليحجب الرب عن البشرية» لأجابته مايرا: «ربما تكون المأساة الكبرى في تاريخ البشرية بأسره هي بسط الكنيسة سيطرتها على المبادئ الأخلاقية. إنها لا تدري في أي شيء تستخدمها. وتظن أنها محددة وفق إرادة شخص لا وجود له.»

ومع ذلك كانت مايرا مدركة لكَمِّ الحب الذي يكنُّه زوجها للراهب العجوز. ولَمَّا لم تجد لديها من الأفكار ما ترضي به جميع الأطراف عمدت إلى تغيير الموضوع. فقالت: «أرأيت ما كان يفعله روبرت أمام سوراش عندما دخلْتَ علينا؟»

طرف رانجيت بعينيه. وقال: «كلَّا ... بل انتظري لحظة. كان يرتب واحدة من ألعاب تجميع الصور المقطعة الصغيرة، أليس كذلك؟»

أجابت مايرا: «ليست صغيرة إلى هذا الحد يا رانجيت. فقد ضمت اللعبة التي رتبها في المطبخ خمسمائة قطعة. علاوة على أنه كان يفعل شيئًا آخر.»

توقفت مايرا، وارتسمت على وجهها ابتسامة. وبذا أثارت فضول رانجيت كما أرادت. فسألها متلهفًا: «ألن تخبريني بهذا الشيء؟»

قالت: «من الأفضل أن تشاهد بنفسك. دعنا نصعد إلى غرفته.» لم تقل مايرا شيئًا آخر إلى أن دخلا غرفة روبرت. كان روبرت يجلس أمام الكمبيوتر ويشاهد مجموعة صور للحيوانات، رفع روبرت بصره، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. قالت أمه: «عزيزي روبرت، ما رأيك أن تُرِي والدك لعبة البنتومينو؟»

لم يكن اهتمام روبرت بالبنتومينو مفاجأة لرانجيت. فهو أيضًا كان مولعًا بها في الخامسة أو السادسة من عمره، وهو أول من حاول إثارة اهتمام الفتى بها. تحلى رانجيت بطول البال وهو يشرح لروبرت فكرة المكعبات الصغيرة، قائلًا: «أتعرف شكل حجر الدومينو؛ هو يتخذ شكل مربعين متجاورين. إذا وضعت ثلاثة مربعات بعضها بجوار بعض يمكنك

أن تطلق عليها اسم ترومينو، وهي تتخذ شكلين أحدهما حرف I والآخر حرف L. هل تفهم ما أعني؟»

حدق روبرت النظر باهتمام أثناء شرح والده، لكنه لم يُبد استجابة تدل على استيعابه. ومع ذلك استطرد رانجيت في حديثه. قائلًا: «إذا كان لديك أربعة مربعات، فستطلق عليها اسم تترومينو، وسوف تتخذ أربعة أشكال ...»

ورسم رانجيت بسرعة:

```
X   X   X  XX
XX  X   X  XX
X   XX  X
        X
```

وأضاف رانجيت: «هذا إذا أهملنا الدورانات والانعكاسات»، ولم يكن هناك بد من توضيح معنى الدورانات والانعكاسات. وأردف قائلًا: «ليس هناك ما يثير الاهتمام في أشكال التترومينو على وجه التحديد، أما إذا وضعت خمسة مربعات بعضها بجوار بعض، فسوف يتغير الوضع!» لأننا — كما أوضح رانجيت — سنحصل على اثنتي عشرة وحدة بنتومينو تتكون كل منها من خمسة مربعات. وعندما تضع هذه الوحدات بعضها بجوار بعض سيصبح لديك سطح مغطى بستين مربعًا.

وهو ما يثير تساؤلًا على الفور: هل يمكنك تكوين سطح من ستين مربعًا — على سبيل المثال في صورة مستطيل أبعاده ٥ × ١٢ أو مستطيل آخر أكثر طولًا أبعاده ٢ × ٣٠ — باستخدام الاثنتي عشرة وحدة، بحيث يُغَطَّى السطح بالكامل دون أن يتبقى أي مربعات؟

كانت الإجابة — التي أبهرت رانجيت صاحب الأعوام الخمسة — أنه لا يمكن القيام بهذا فحسب، وإنما يمكن القيام به بما لا يقل عن ٣٧١٩ طريقة مختلفة! فهناك ٢٣٣٩ طريقة لتكوين السطح ذي الأبعاد ٦ × ١٠ وأيضًا ١٠١٠ طريقة لتكوين السطح ذي الأبعاد ٥ × ١٢، وهكذا.

لم يستطع رانجيت أن يحدد مقدار ما نفذ إلى عقل روبرت من وراء تلك التعبيرات الحنونة المرحة المرتسمة على وجهه. بعد ذلك أبدى روبرت تعاونًا بأن شغَّل البرنامج على الكمبيوتر التعليمي. وعلى الفور بدأ البرنامج يستعرض تباعًا صور جميع الأسطح المختلفة المكونة من وحدات البنتومينو بدءًا من السطح ذي الأبعاد ٥ × ١٢، ثم ٦ × ١٠، وهكذا حتى النهاية.

عندئذٍ كادت دهشة رانجيت توازي سعادته. فقد تمكن روبرت «المعاق» من تحديد وعرض جميع أشكال البنتومينو، وهو أمر يئس رانجيت نفسه من النجاح فيه كل هذه السنوات الماضية! قال رانجيت وهو يمد يده ليعانق ابنه: «لقد قمت بعمل رائع يا روبرت.»

ثم توقف، وأخذ يحدق في الشاشة.

كان البرنامج قد انتهى من عرض أشكال البنتومينو. وتوقع رانجيت أن يتوقف البرنامج من تلقاء نفسه. لكن ذلك لم يحدث. بل انتقل إلى الخطوة التالية، وهي ترتيب أشكال الهيكسومينو؛ أي الوحدات المكونة من ستة مربعات.

لم يتحدث رانجيت مع ابنه عن أشكال الهيكسومينو من قبل. فهو موضوع بالغ التعقيد حتى إن رانجيت على يقين أن روبرت لن يستطيع فهمه. والسبب في ذلك هو وجود خمسة وثلاثين وحدة مختلفة من وحدات الهيكسومينو، وعند وضع هذه الوحدات بعضها بجوار بعض فإنها تغطي سطحًا يضم مائتين وعشر وحدات. وهكذا كان ترتيب أشكال الهيكسومينو عملًا مُحبطًا لم يلقَ قبول رانجيت الصغير أثناء طفولته منذ زمن بعيد. فأي شخص عقلاني سيعتقد أنه يمكن استخدام الخمس والثلاثين وحدة هيكسومينو لتغطية هذا العدد الهائل من المستطيلات المائتين وعشرة دون أن تتخللها فراغات. غير أنه سيكون مخطئًا في اعتقاده. لا يوجد مستطيل واحد — أيًّا كانت أبعاده — يمكن أن يغطَّى سطحه بوحدات الهيكسومينو بأي صورة على الإطلاق. ففي جميع الحالات سوف تتبقى أربعة مربعات خالية على الأقل بصورة يتعذر إصلاحها.

ومن الواضح أن مهمة كهذه ستكون شاقة ومحبطة للغاية لروبرت المعاق.

لكن روبرت في عالم الواقع أثبت أنه ليس معاقًا على الإطلاق! فشاشة الكمبيوتر كانت تعرض أشكال الهيكسومينو المرتبة واحدًا تلو الآخر. لم يرضَ روبرت باليأس. وقرر أن يُكمل جميع الأشكال بنفسه.

وعندما عانق رانجيت ابنه، كادت قوة عناقه أن تلوي عظامه، وهو ما جعل روبرت يتلوى ويصدر صوتًا مكتومًا وإن كانت تغمره سعادة بالغة.

على مدار سنوات استمر الأشخاص المفترض أن يساعدوا مايرا ورانجيت في حل «مشكلة روبرت» في مواساتهما بنفس الكلمات غير المقنعة: لا تفكرا فيه على أنه عاجز. بل اعتبرا أنه «قادر ولكن بصورة مختلفة».

لكن رانجيت لم يقتنع بهذا الكلام. حتى جاء هذا اليوم الذي اكتشف فيه أن ابنه يتقن القيام بشيء أفضل من أي شخص عرفه رانجيت.

وعندما هبطت الأسرة إلى الطابق السفلي لمواصلة أعمالها اليومية المؤجلة والعودة إلى عالم الواقع وجد رانجيت وجنتيه مبللتين بدموع الفرح. كاد رانجيت سوبرامانيان أن يتمنى للمرة الأولى في حياته أن يكون هناك رب — أي رب — في هذا الكون يمكنه أن يؤمن به، حتى يجد من يقدم له شكره.

في هذه اللحظة توقف «بيل» — في طريق عودته إلى موطنه — فترةً قصيرةً في المنطقة المجاورة لهذا الكوكب المزعج الذي يسميه قاطنوه باسم كوكب الأرض. ومع أنها لم تكن وقفة طويلة فإنها كانت كافية لأن ينهل مليارات المليارات من المعلومات المتعلقة بما كان يفعله سكان الأرض المحكوم عليهم بالهلاك حينئذٍ، والأهم من ذلك بكثير الفعل المُنْكَر الذي أتى به ممثلو «عظماء المجرة» — وهم «تساعيو الأطراف» — من تلقاء أنفسهم.

لا يمكن القول إن ما قام به «تساعيو الأطراف» كان على درجة من الأهمية ليشغل بال عظماء المجرة. لم يكن هناك سبب يدعو «عظماء المجرة» للخوف من بضعة مليارات من البشر الغوغائيين المنتمين لطائفة الثدييات بما يمتلكونه من أسلحة نووية انفجرت ودكَّت كل شيء حولها أو ذلك النوع النووي الآخر من السلاح الذي تتولد عنه نبضات كهرومغناطيسية تؤثر تأثيرًا مدمرًا على النبضات الكهرومغناطيسية في الدولة المعادية. لم تكن هذه الأمور البسيطة تمثل أهمية لدى عظماء المجرة. فربما يكون خوفهم من هؤلاء البشر بقدر خوف جنرال من البشر يسيطر على قنبلة هيدروجينية من لعنة إحدى الغجريات.

ومع ذلك فإن «تساعيي الأطراف» — بسماحهم للبشر برؤيتهم — قد فعلوا شيئًا غير مسموح لهم به؛ وإن لم يكن ممنوعًا منعًا باتًّا.

لا بد من اتخاذ إجراءات. ولا بد من إصدار قرارات إذن.

وللمرة الأولى في حياته تساءل «بيل» هل يمكنه اتخاذ قرارات كهذه بمفرده، أم أنه بحاجة إلى الانضمام مرة أخرى إلى غيره من «عظماء المجرة» للتفكير في تبعات تلك القرارات.

الفصل الخامس والثلاثون

فوائد التحصينات

استقال الدكتور داتوسينا باندارا من مجلس إدارة منظمة السلام عن طريق الشفافية حتى يتسنى له الترشح لرئاسة سريلانكا. وكان الأمر الذي أصاب رانجيت بالدهشة أن خليفة داتوسينا باندارا في مجلس إدارة المنظمة هو ابنه؛ أي إن صديق صبا رانجيت سوبرامانيان أصبح الآن عضوًا في الفريق الذي يتحكم في «الرعد الصامت».

وهكذا خلد رانجيت إلى النوم والدهشة تملأ نفسه، وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي وجد شيئًا آخر يثير دهشته. فطعام الإفطار الذي يشم رائحته لم يكن طعام الإفطار الذي تفضله مايرا عادةً. والأغرب من ذلك أنه عندما خرج من حمامه، وبدأ في ارتداء ملابسه سمع صوت زوجته من بعيد تتغنى على ما يبدو ببعض الترانيم التي تحفظها من ذكريات طفولتها في مدرسة الأحد. ارتدى رانجيت قميصه وقد أصابته الحيرة، ثم أسرع إلى المطبخ.

وبالفعل وجد مايرا تغني بابتهاج. توقفت مايرا بمجرد إن دخل رانجيت الغرفة وطبع قبلة الصباح على شفتيها، ثم أشارت إلى مائدة الإفطار. وقالت: «ابدأ بالعصير. وسوف أعد لك البيض في الحال.»

تعرف رانجيت على الطعام الذي كانت تعده مايرا. وقال: «بيض مخفوق؟ وسجق وبطاطس مقلية. ما هذا يا مايرا؟ هل تشعرين بالحنين إلى كاليفورنيا؟»

ابتسمت مايرا ابتسامة حنونة. وقالت: «لا، لكني أعرف أنك تفضل تناول هذا النوع من الطعام بين الحين والحين، علاوةً على أني أردت الاحتفال. فقد استيقظت وفي ذهني فكرة يا رانجيت! أعرف كيف يمكننا إسعاد سوراش دون المساس بمبادئنا في نفس الوقت!»

فرغ رانجيت من تناول العصير، وأخذ يراقب مايرا في سعادة وهي تضع الطعام في طبقه. قال رانجيت: «إن استطعتِ ذلك، فسأخبر جاميني أن يضمك إلى مجلس إدارة السلام عن طريق الشفافية.»

ابتسمت مايرا مرة أخرى وكان كل ما قالته هو: «هل يمكنك تناول أربع قطع من السجق؟ فتاشي لن تأكل منه شيئًا. قالت إنها ستتناول أي شيء في الجامعة.»

ردَّ رانجيت على ابتسامة مايرا بعبوس زائف. وقال: «مايرا! كفاكِ حديثًا عن السجق وأخبريني كيف نسعد سوراش!»

قالت مايرا وهي تجلس بجواره وتصب لنفسها كوبًا من الشاي: «تعرف أن اليوم هو موعد إعطاء روبرت جرعته المنشطة من اللقاح. وقد راودني حلم بهذا الشأن. رأيت في منامي أن روبرت في البيت يلهو بألعاب الكمبيوتر، لكن جسده كان مرشوقًا بالكامل بسهام ورقية ملفوفة ودقيقة، وعندما سحبت أحد هذه السهام من كتفه، ونظرت فيها رأيت أن كلها آيات من الإنجيل.»

زاد عبوس رانجيت. وقال لها: «من الطبيعي تمامًا أن يراودك حلم يعبر عن انشغالك بتحصين ابننا ضد المرض.»

قالت مايرا بلهجة حنونة: «أجل يا عزيزي، لكن من أي شيء كنا نُحَصِّنُه؟ إننا نحقن الأطفال بلقاح الجدري لنحصنهم من الإصابة بالجدري عندما يكبرون. ولذا إن حقَنَّاهم بآيات من الإنجيل وهم أطفال — ربما بذهابهم إلى مدرسة الأحد التي كنت أرتادها في صغري — ألن يصبحوا ...»

صاح رانجيت: «محصنين ضد التشدد الديني عندما يكبرون!» ثم نهض وأحاط زوجته بذراعيه وقال: «أنت أفضل زوجة في هذا العالم. يا لها من فكرة رائعة!» ثم تردد. وقال: «لكن أتظنين أن ناتاشا ستوافق على اقتطاع بعض الوقت من جدولها المزدحم للذهاب إلى مدرسة الأحد؟»

وافقته مايرا بقولها: «أجل، هذه هي المشكلة. كل ما علينا فعله هو محاولة إقناعها.»

لكن عندما عادت ناتاشا إلى المنزل من فترة تدريبها في مركز التدريب على الشراع الشمسي بالجامعة كانت تتألق من فرط البهجة. وصاحت وهي تلوح بورقة في وجه والديها: «ها قد وصلَتْ! تأكَّدَ اشتراكي في السباق!»

لم يراود رانجيت الشك أبدًا بشأن مشاركة ناتاشا في السباق، لكنه انضم إليها في احتفالها فحملها وعانقها عناقًا حارًّا ... ثم أجْلَسَها حين بدا هذا مناسبًا؛ لأنها كانت تفوقه

في الطول بثلاثة سنتيمترات وكان جسدها مفتول العضلات. هنأتها مايرا بقبلة، ثم أخذت تقرأ الوثيقة التي حملت خاتم اللجنة الأوليمبية الدولية. وقالت: «تأكَدَتْ مشاركة عشرة منكم. من يكون آر أولسوس البرازيلي هذا؟ قبطان شراع شمسي آخر. يبدو الاسم مألوفًا.»

ضحكت ناتاشا بما يمكن تسميته ضحكة. وقالت لأمها: «إنه رون. رونالدينو أولسوس؛ عدَّاء المائة متر الذي التقيتما به على سطح القمر.»

نظرت إليها مايرا نظرة تساؤل. وسألتها: «متى توقف عن العدْو وأصبح طيار شراع شمسي؟»

أجابت ناتاشا في تراخ: «ربما يكون للأمر علاقة بي. فقد بدا لي أنه كان يغار مما أفعل. كنا على اتصال منذ ذلك الحين.»

قالت مايرا التي لم تكن تدري أي شيء عن ذلك: «فهِمْت.» ولأن مايرا قد مرت من قبل بفترة المراهقة، وتذكرت كيف أنها لم تكن تحب تَدَخُّل والديها فيما يختص بتجاربها الأولى مع الفتيان، لم تلح في الاستفسار عن الأمر. أرسلت مايرا الخادمة إلى أقرب مخبز راق من أجل شراء تورتة للاحتفال بناتاشا، وزيَّنتها برسم تقريبي لسفينة الشراع الشمسي التي ستبحر بها ناتاشا، وأقامت الأسرة احتفالًا بعد العشاء هذه الليلة.

كانت أسرة سوبرامانيان معتادة على إقامة الحفلات. وبفضل خبرتهم الكبيرة في ذلك صاروا يتقنون الأمر إتقانًا شديدًا، وهكذا ما إن أطفأت ناتاشا شموع التورتة وتمنت أمنيتها التقليدية (التي لم تكن لتخبر بها أي شخص خاصة والديها) غمرهم جميعًا شعور بالسعادة وسط جو من الدفء والمودة. عندئذٍ أحاط روبرت شقيقته الكبرى بذراعيه وهمس في أذنها.

تملَّكت ناتاشا الدهشة مما قاله روبرت. فاتجهت إلى والديها. وقالت: «أصحيح أنكما سترسلان روبرت إلى الكنيسة؟»

قال والدها: «ليست الكنيسة. إنها مدرسة الأحد. استفسرنا عن الأمر، ووجدنا صفًّا يناسبه ... سوف يتعلم قصصًا عن المسيح وعِظَته فوق الجبل وغير ذلك من الأمور الأخرى. وسوف يَسْعَد سوراش عندما يعرف أن أحفاد أبي ليسوا بعيدين عن الدين تمامًا ...»

هزت ناتاشا رأسها في حدة. وقالت: «ليس لديَّ مانع في أن أكون بعيدة تمامًا عن الدين. يقول روبرت إنكم تريدون مني الذهاب أيضًا! ألا تظنون أن لديَّ ما يكفيني من العمل بالفعل؟ فهناك الدراسة وتدريب الشراع الشمسي ...»

قالت والدتها: «إنها ليلة واحدة كل أسبوع. إننا لا نخطط لذهابك إلى مدرسة الأحد. سوف تنضمين إلى مجموعة من شباب الكنيسة. صحيح أنهم يتحدثون عن الكتاب المقدس

بين الحين والآخر، لكنهم يقضون معظم الوقت في تنفيذ مشروعات هدفها تحويل العالم إلى مكان أفضل.»

أضاف والدها: «وهذه المشروعات تتركز في الوقت الحالي على دعم حملة ترشيح باندارا الأب للرئاسة. أظن أنك قد تودين المساهمة في ذلك.»

لم يكن هذا موضوعًا للجدال لدى ناتاشا أو لأي شخص آخر من أفراد أسرتها. هذا لأن باندارا الأب هو الذي أقنع الجامعة بإنشاء مختبر لمحاكاة الشراع الشمسي؛ الأمر الذي منح ناتاشا أعلى قدر من الأمل في أنها ستبلي بلاءً حسنًا في السباق المرتقب. كانت تكلفة مختبر الشراع الشمسي أقل عشرات المرات من تكلفة غرفة الجاذبية القمرية التي تدربت فيها ناتاشا من أجل السباق الذي أقيم على سطح القمر؛ وكان المختبر أكبر قليلًا من مجرد غرفة جدرانها الستة مكونة من شاشات. لكن برامج الكمبيوتر اللازمة لتشغيله كانت معقدة وباهظة التكلفة. كانت تكلفة إنشاء هذا المختبر كبيرة على الجامعة، وكانت مستحيلة تمامًا على أسرة سوبرامانيان وحدها.

قالت مايرا وهي تمرر شاشتها الشخصية إلى ناتاشا: «ولديَّ صورة للمجموعة التُقِطت في حفل على الشاطئ منذ بضعة أسابيع. يبدو أنهم من الأشخاص الذين قد ترغبين في تكوين صداقات معهم.»

قالت ناتاشا وهي تتأمل صور المجموعة التي تضم نحو عشرين شابًّا والمعروضة على الشاشة: «حسنًا.»

لم تعلق ناتاشا على حقيقة أن هناك أربعة شباب على الأقل في الصورة يتصفون بالوسامة على نحو لافت للنظر. وكذلك فعلت مايرا على الرغم من أنها كانت على يقين من أن رون البرازيلي الذي ظهر فجأة لم يكن يضاهيهم وسامةً على الإطلاق.

قالت مايرا: «لكِ مطلق الحرية في هذا بالطبع. إذا كنت تشعرين أنك لا تريدين ...»

قاطعتها ناتاشا: «أظن أنني سأجرب الأمر مرة أو مرتين. وكما قلتِ فسوف يَسْعَد سوراش بذلك.»

عندما عاد «بيل» ليدمج نفسه مع جماعته من «عظماء المجرة» لم يكن مستعدًّا لمشاعر السعادة الغامرة التي صاحبت التجربة. فطوال فترة انفصاله عنهم لتأدية مهامه المختلفة انتابه شعور لم يكن جزءًا من تجربته الحياتية السابقة. إذ كان يشعر بالوحدة. وعندما انضم مرة أخرى إلى رفاقه، لم يعد وحيدًا، وإنما كان مسرورًا.

كادت مغادرته للمجموعة مرة أخرى تكون أمرًا شاقًّا على نفسه.

بالطبع لم يكن هناك خيار. شاركته المجموعة مخاوفه ورغبته في أن يكون مُنْصِفًا. ربما لم يعد هؤلاء البشر التافهون البائسون يمثلون تهديدًا على السلام في المجرة. وإذا كان الأمر كذلك، فربما لا يكون من الإنصاف القضاء عليهم.

اعتاد «عظماء المجرة» أن يتصفوا بالصرامة؛ بل وبالقسوة في بعض الأحيان. لكنهم لم يتعمدوا اللجوء إلى الظلم.

لذلك قفز «بيل» قفزات أعادته إلى المنطقة المجاورة للشمس الصفراء الصغيرة التي يدور حولها كوكبهم، وأرسل رسالتين.

وُجِّهت الرسالة الأولى إلى أسطول «واحد فاصل خمسة» الذي لم يعد يفصله آنذاك عن الكوكب المكلَّف بإبادة سكانه سوى جزء صغير من السنة الضوئية. بدأ «بيل» رسالته: «ألغوا الأوامر الخاصة بإبادة البشر. توقفوا. خفِّفُوا السرعة تمامًا. استخدموا تدابير الطوارئ إذا دعت الحاجة.»

أما الرسالة الثانية فقد وجِّهت إلى الأسطول ولكن إلى «تساعيي الأطراف» أنفسهم. كانت الرسالة تحمل أمرًا بعدم إعطاء البشر على الأرض دلائل أخرى على وجودهم ...

وهو ما أدى إلى ظهور مشكلة صغيرة أمام «المخزنين في الآلات» الذين يقومون على تشغيل الأسطول المكون من ١٥٤ سفينة فضاء.

استوعب هؤلاء الأوامر الصادرة إليهم. لكن تنفيذ هذه الأوامر لم يكن سهلًا كتوجيهها. ففي سفن الفضاء لا يمكنك الضغط على الفرامل فجأة. بل ليست هناك فرامل من الأساس. كانت هناك طريقة واحدة لتحفيز عملية تقليل السرعة، وهو ما تم على الفور. صحيح أن ذلك أسفر عن إهدار كميات هائلة من الطاقة الكهربية ومن سائل التشغيل أيضًا، لكن لا يهم هذا. فهذه المواد — كأي شيء آخر في الكون المنظور — ملك «عظماء المجرة» في النهاية. وإذا أرادوا إهدارها، فهذا شأنهم وحدهم.

كان الجزء الثاني من الرسالة هو الذي أزعج كائنات «واحد فاصل خمسة»؛ فقد أُمِروا بتفادي رؤية الأجناس الأخرى لهم.

دعك من أن «تساعيي الأطراف» قد كشفوا عن أنفسهم بالفعل. كيف يمكن لكائنات «واحد فاصل خمسة» أن تتوارى عن الأنظار وهم يسكبون كميات هائلة من الطاقة داخل أنابيب العادم فيتولد عنها كتلة متوهجة من الغازات المتأينة المنبعثة من ١٥٤ مصباحًا عملاقًا تعمل كلها في آنٍ واحد؟

الفصل السادس والثلاثون

الاستعداد للسباق

ربما توقع البعض أن يقام حفل توديع المشاركين في سباق الأشرعة الشمسية داخل قاعة كبيرة في مدينة مثل نيويورك أو بكين أو موسكو. لكن ذلك لم يحدث. صحيح أن الكاميرات كانت تحيط بهم، وأن كل ما يحدث أمام تلك الكاميرات كان يُبَث على شاشات التليفزيون في جميع أنحاء العالم. لكن المكان الذي وُجدت فيه هذه الكاميرات لم يكن سوى قاعة صغيرة في المحطة الطرفية، ولم يتعد مجموع الحاضرين في القاعة — وهم المتسابقون السبعة ومساعدوهم وأقاربهم من الدرجة الأولى وعدد قليل من الضيوف المهمين — مائتي شخص.

انتابت مايرا بعض الشكوك فيما يتعلق بالسبب وراء ذلك. لا شك أن أي دولتين من الدول الثلاث الكبرى لن تسمحا للدولة الثالثة بالاستحواذ على حدث كهذا. غير أن مايرا لم تنبس ببنت شفة. ألقت مايرا نظرة خاطفة على ابنتها وهي تقف جادة فارعة الطول إلى جانب المتسابقين الستة الآخرين بينما منحهم الحَكَم دقيقة أخيرة لمراجعة قواعد السباق. همست مايرا إلى زوجها بسؤال كانت تعرف رده عليه مقدَّمًا: «ألا تبدو جميلة؟»

وتلقت الرد الذي توقعته. فرانجيت كان على يقين مثلها أن ناتاشا ليست أجمل ملاحي السفن ذات الأشرعة الشمسية وأفضلهم فحسب، وإنما كانت تبدو أكثر نضجًا مقارنة بسنوات عمرها الستة عشر، وهو ما أثار دهشة رانجيت بل وأثار شيئًا من القلق في نفسه. ركز رانجيت على أكثر ما يثير قلقه في هذا المشهد. فقال لزوجته: «ها هو البرازيلي أولسوس يقف إلى جوارها مباشرة.»

ضغطت مايرا على يده. وقالت بحكمة حلَّت عليها بعد أن تذكرت نفسها وهي فتاة في السادسة عشرة من عمرها: «رون فتًى لا بأس به.» ثم أضافت: «مرحبًا يا يوريس.»

عانق فورهولست مايرا، وصافح رانجيت. ثم قال لهما: «سوف يبدءون بعد لحظات. أردت أن ألقي عليكما السلام، وأن أخبركما أن مهندسي مصعد الفضاء عقدوا رهانًا صغيرًا فيما بينهم. وقد راهنت على فوز ناتاشا.»

قالت مايرا: «ألهذا كان انفعالكم منذ قليل؟»

غمزها فورهولست بعينه. وقال: «كلَّا، لقد وصلتنا رسالة من مركز أحداث الفضاء في ماساتشوستس. شوهد انفجار لمتجدد أعظم في كوكبة قنطورس القريبة من القطب السماوي الجنوبي، وكانت له بعض الملامح الغريبة.» ارتسمت على وجه فورهولست ابتسامة عريضة. وأضاف: «يكاد هذا الحدث يجعلني أتمنى لو بقيت متخصصًا في علم الفلك.» وعندما اعتلى رئيس اللجنة المنصة، وبدأ جميع الحاضرين في التوجه إلى مقاعدهم، قال فورهولست: «أراكما لاحقًا!»

تحدَّث شخص واحد في هذا الحفل، وهو الرئيس المنتخب حديثًا لجمهورية سريلانكا؛ داتوسينا باندارا. بدا باندارا مناسبًا لمنصب الرئاسة؛ إذ أطل على الحاضرين بوجه جاد تبدو عليه أمارات تقدم السن وبهيئة ممشوقة لرجل لم يسمح لنفسه بالتراخي مطلقًا. لكن حديثه لم يكن مصبوغًا بصبغة رسمية، بل كاد يكون حديثًا مازحًا. وجه باندارا حديثه إلى جمهوره الذي ضم نخبة قليلة من الأشخاص: «ثمة دول كثيرة طالبت بإقامة هذا الحدث في إحدى المدن الكبرى، لكنه أقيم هنا. لم يكن السبب في ذلك أن دولتنا أحق من غيرها بإقامة حدث كهذا. كل ما في الأمر أن مصعد الفضاء يقع في سريلانكا بفضل موقعها الجغرافي المتميز. ومن دون مصعد الفضاء ما كان قُدِّرَ لهذا السباق أن يُجرى. هذا المصعد التي ستستقلونه أيها الشباب السبعة الرائعون لينقلكم إلى مدار أرضي منخفض، وهو نفسه الذي نقل سفن الفضاء الخاصة بكل منكم إلى النقطة ذاتها قطعة تلو الأخرى حيث يُجرَى تجميع هذه القطع لتكوين سفن الفضاء التي ستقودونها ضمن أكبر سباق من نوعه على الإطلاق. فليباركهم الرب، ونراكم سالمين في أوطانكم بعد انتهاء السباق.»

كانت تلك نهاية الحفل وتلتها قبلات وأحضان الوداع قبل أن يتجه الطيارون ومساعدوهم إلى رصيف الشحن الخاص بمصعد الفضاء. لاحظ رانجيت بسرور أن البرازيلي رونالدينو أولسوس كان يستقل الكبسولة الأولى، بينما تجلس ناتاشا بين ركاب الكبسولة الثالثة.

عندما طبع رانجيت ومايرا قبلة الوداع على وجه ناتاشا للمرة الرابعة أو الخامسة، ونجحا أخيرًا في تحرير روبرت من بين ذراعيها، بدآ يتوجهان إلى الحافلات كبقية الأشخاص الآخرين.

وفي الطريق شاهدا يوريس فورهولست واقفًا بمفرده يتحدث بانفعال عبر شاشته الجيبية. قالت مايرا فور وصولهما إليه: «ما الذي يثير قلقك الآن يا يوريس؟ هل عثرتم على متجدد أعظم آخر؟»

تحدثت مايرا بلهجة مازحة. لكن التعبيرات التي ارتسمت على وجه فورهولست لم تكن كذلك. فأغلق شاشته وهز رأسه. ثم قال: «ليس تمامًا. ربما لا يكون ما شوهد متجددًا أعظم على الإطلاق. تستعد تلسكوبات الفضاء في الوقت الحالي للحصول على صورة واضحة. إنه أقرب كثيرًا مما يُفترض أن يكون عليه المتجدد الأعظم. حتى إنه ربما يكون في سحابةِ أُورت.»

توقفت مايرا ويدها على صدرها. وتساءلت: «ألن يشكل هذا خطرًا على المتسابقين ...؟»

هز فورهولست رأسه نفيًا. وقاطعها قائلًا: «لا، لا توجد خطورة عليهم. كلا. سيكونون في مدار أرضي منخفض. إن هذا الشيء — أيًّا كانت طبيعته — بعيد كل البعد عنهم، لكنني أتمنى أن أعرف ما هو.»

وفي الفضاء حيث كانت تُجَمَّع المركبات ذات السفن الشراعية لم يكن القائمون على تجهيز هذه المركبات بمفردهم.

لم يتمكن أحد من رؤية سفن الفضاء الصغيرة التي يستقلها «تساعيو الأطراف»؛ لأنهم استعادوا ناقلات الفوتونات الخاصة بهم منذ وقت طويل. لكن طواقم «تساعيي الأطراف» كادوا يشعرون بنفس الحيرة التي انتابت يوريس فورهولست ولكن حول موضوع مختلف تمامًا. في أي غرض سوف تُستخدم سفن الفضاء السبعة المكتملة البناء هذه؟ إنها لا تحمل أي أمارة على كونها سلاحًا من أي نوع، وهذا ما أزاح شيئًا من القلق عن «تساعيي الأطراف»، لكن ظلت هناك نقطة أخرى تثير قلقهم. فما من أحد بينهم يعرف شيئًا عما تفعله هذه السفن. ولم تكن هذه بالمعلومة التي يرغب «تساعيو الأطراف» في نقلها إلى أسيادهم عظماء المجرة.

الفصل السابع والثلاثون

السباق

اختارت ناتاشا سوبرامانيان سفينتها بنفسها، واسمها «ديانا». لم تسافر هذه السفينة من قبل. لكنها جاهزة الآن. كانت السفينة راسية فوق السفينة الأم وقد شُدَّ شراعها الضخم بعد تثبيته فامتلأ بالفعل بالرياح الوفيرة الساكنة التي تهب بين العوالم. حينئذٍ أوشك السباق على البدء.

انبعث صوت الراديو في مقصورة السفينة الخاصة بناتاشا: «باقٍ من الزمن دقيقتان. تحققوا من كل شيء لتأكيد الاستعداد.»

أجاب ربابنة السفن واحدًا تلو الآخر. استطاعت ناتاشا تمييز جميع أصوات أصدقائها ومنافسيها التي كان بعضها مشوبًا بالتوتر والبعض الآخر هادئًا هدوءًا يكاد يوصف بالتبلد. في جميع الأماكن التي سكنها البشر هناك بالكاد عشرون شخصًا يتمتعون بالمهارات اللازمة لقيادة يخت شمسي. وها هم الآن جميعًا — عند خط الانطلاق مثل ناتاشا أو على متن المراكب المرافقة — يدورون على بعد ستة وثلاثين ألف كيلومتر فوق خط الاستواء الأرضي.

«رقم واحد، جوسامير. مستعد للانطلاق!»

«رقم اثنان، ووميرا. كل شيء على ما يرام.»

«رقم ثلاثة، صن بيم. جاهز!»

«رقم أربعة، سانتا ماريا. جميع الأنظمة تعمل.» ابتسمت ناتاشا؛ فهذا صوت رون أولسوس الذي تشعر نحوه بالإعجاب، لكن ليس بقدر إعجابه بها على ما يبدو. كان رد الشاب البرازيلي تكرارًا قديمًا لما كان يقال في بداية عهد الملاحة الفضائية، وهو رد ملائم تمامًا لميل رون نحو التكلف.

«رقم خمسة، ليبيديف. مستعدون.» كان هذا رد الروسي إفريمي.

«رقم ستة، أراكني. مستعدة.» كانت هذه شي ليانج، وهي فتاة من قرية صغيرة شمال مدينة تشنجدو القريبة من جبال الهيمالايا. وفي النهاية حان دور ناتاشا لتقول كلماتها التي سيُسمَع صداها في جميع أرجاء العالم وفي كل موقع يسكنه البشر:

«رقم سبعة، ديانا. مستعدة للفوز!»

جال بخاطر ناتاشا — وهي تلتفت لتتأكد للمرة الأخيرة من أن حبال الشراع مشدودة جيدًا — أنها توجه كلماتها هذه للفتى رونالدينو.

بدا لناتاشا — التي كانت تحلق بلا وزن داخل مقصورتها الصغيرة — أن شراع سفينتها ديانا يملأ السماء. وربما كان هكذا بالفعل. فثمة شراع في الخارج مساحته أكثر من خمسة ملايين متر مربع موصول بكبسولة القيادة على هيئة شبكة عنكبوت عن طريق تجهيزات وحبال يبلغ طولها نحو مائة كيلومتر، وهذا الشراع جاهز لتحريرها من قيود الجاذبية الأرضية. وعلى الرغم من أن سُمْك الشراع — البالغ مساحته عدة كيلومترات مربعة والمصنوع من البلاستيك المصفح بالألومنيوم — لا يتعدى بضعة أجزاء من المليون من السنتيمتر، فقد أمَلَت ناتاشا أن ينتج طاقة تكفي لأن تكون أول المتسابقين وصولًا إلى خط النهاية في المدار القمري.

انطلق مكبر الصوت مرة أخرى: «باقٍ من الزمن عشر ثوانٍ. أديروا جميع معدات التسجيل!»

لم ترفع ناتاشا عينها عن تلك الكتلة الشراعية الضخمة أثناء تحريكها للمفتاح الذي شغَّل جميع الكاميرات وأجهزة التسجيل في سفينة الفضاء ديانا. فهذا الشراع هو الذي ملك عليها حواسها. إذ يصعب على العقل الإحاطة بشيء شديد الضخامة وشديد الهشاشة هكذا في الوقت نفسه. والأصعب من ذلك هو التفكير في أن هذا الغشاء الرقيق الشبيه بالمرآة يستطيع سحبها بأقصى سرعة عبر الفضاء معتمدًا على الطاقة الناتجة عن ضوء الشمس الساقط عليه فقط.

«... خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد. انطلاق!»

مرَّت سبعة أنصال سكاكين ذات حواف ماسيَّة يجري التحكم فيها عن طريق الكمبيوتر عبر الحبال السبع الرقيقة في آنٍ واحد. فانطلقت اليخوت. حتى هذه اللحظة كانت اليخوت وسفن الصيانة قد دارت حول الأرض كوحدة واحدة متصلة بعضها ببعض اتصالًا وثيقًا. أما الآن فستبدأ السفن انتشارها كبذور نبات هندباء برية تنجرف أمام النسيم.

وسوف يكون الفوز من نصيب أول شخص يتخطى مدار القمر.

على متن ديانا لم يطرأ تغيير على أيٍّ من حواس ناتاشا. ولم تكن ناتاشا تتوقع أن يطرأ أي تغيير؛ الأمر الوحيد الذي برهن على وجود قوة تدفع السفينة هو المؤشر الموجود في لوحة القيادة إذ كان يسجل حينئذٍ معدل تسارع يقدر بنحو واحد على ألف من الجاذبية الأرضية.

بالقطع يمكن وصف هذا المعدل بأنه ضئيل جدًّا على نحو يثير السخرية. لكنه كان أكبر من أي معدل تسارُع آخر سجلته أيٌّ من سفن الأشرعة الشمسية من قبل، وهذا هو ما وعد به مهندسو ديانا وبنَّاءوها. لم تتحقق معدلات التسارع هذه من قبل مطلقًا إلا في حالة تجهيزات الأشرعة الصغيرة الحجم، لكن ها هي تتحقق الآن. أجرت ناتاشا حساباتها بسرعة، وأتبعتها بابتسامة مع ظهور النتيجة على لوحة القيادة؛ فهي لن تحتاج إلا لدورتين على كوكب الأرض لتحصل على السرعة الكافية لمغادرة المدار الأرضي المنخفض والتوجه إلى القمر. وحينئذٍ سوف تكون قوة إشعاع الشمس بالكامل خلفها.

قوة إشعاع الشمس بالكامل …

لم تفارق الابتسامة وجه ناتاشا وهي تفكر في كل تلك المحاولات التي بذلتها من أجل توضيح فكرة الإبحار الشمسي أمام جماهير من المستمعين قد يكون من بينهم رعاة محتملون أو مجرد أشخاص يدفعهم الفضول على كوكب الأرض. كانت تقول لهم: «ارفعوا أياديكم إلى الشمس بحيث تكون راحة اليد للأعلى. بمَ تشعرون؟» وعندما لم تكن تتلقَّى ردًّا على سؤالها كانت تضيف: «حرارة طفيفة»، ثم تبدأ في توضيح الفكرة التي يستند عليها الإبحار الشمسي. «لكن هناك شيء آخر. إنه الضغط. غير أنه ضئيل جدًّا. حتى إنكم قد لا تشعرون به؛ فوزن هذا الضغط على راحة اليد أقل كثيرًا من واحد ملِّيجرام. لكن انظروا ما الذي يمكن أن يفعله هذا الضغط الضئيل جدًّا!»

بعدئذٍ تتناول ناتاشا بضعة أمتار مربعة من مادة الشراع وتقذفها تجاه جمهورها. فيلتف الغشاء الفضي الرقيق ويتلوى كأنه عمود من الدخان، ثم ينجرف نحو السقف فوق السحابة المرتفعة من الهواء الدافئ المنبعث من الأجسام البشرية. وهنا تستطرد ناتاشا:

«لعلكم تلاحظون مدى ضآلة وزن الشراع. الشراع المستخدم في اليخت الخاص بي البالغة مساحته كيلومترًا مربعًا يزن أقلَّ من طن. وهذا هو كل ما نحتاج إليه. فهذا الوزن كافٍ لتجميع اثنين كيلوجرام من ضغط الإشعاع، وهو ما يلزم لبدء تحرك الشراع …

وسوف تعمل تجهيزات الشراع على سحب ديانا معه. لا شك أن معدل التسارع سيكون ضئيلًا — أقل من واحد على ألف من ثابت الجاذبية — لكن دعونا نرى ما الذي يمكن أن يفعله هذا الضغط البالغ الضآلة.»

«في الثانية الأولى سوف تتحرك ديانا نحو نصف سنتيمتر. أو ربما لن تصل إلى هذا الحد؛ لأن تجهيزات الشراع سوف تتمدد بدرجة كبيرة يصعب معها قياس الخطوة الأولى.»

تلتفت ناتاشا إلى الشاشة المثبتة على جدار الغرفة، وتطقطق أصابعها لتشغيل الشاشة. تعرض الشاشة صورة لذلك الامتداد الهائل — والذي يكاد يصعب تصوره — للشراع، ثم تركز الصورة على كبسولة الركاب — التي لا يتعدى حجمها حجم كابينة استحمام في فندق صغير — والتي ستكون مسكنًا لناتاشا خلال أسابيع الرحلة.»

بعدئذٍ تستطرد ناتاشا. فتقول: «غير أنه بعد مرور دقيقة واحدة يصبح الوقوف على الحركة أمرًا سهلًا تمامًا. حينها سنكون قد قطعنا مسافة عشرين مترًا بسرعة نحو كيلومتر في الساعة ... وهكذا لن يتبقى أمامنا سوى مائة ألف كيلومتر أخرى للوصول إلى مدار القمر.»

عادةً ما يضحك الجمهور ضحكة مكبوتة. فترد عليهم ناتاشا بابتسامة ودودة إلى أن يسود الصمت، فتستأنف حديثها. قالت: «هذه السرعة ليست سيئة. فبعد مرور الساعة الأولى سنكون قد قطعنا ستين كيلومترًا من نقطة البداية، وستكون سرعتها آنذاك مائة كيلومتر في الساعة. وعليكم أن تتذكروا أين نحن! فكل هذا سيحدث في الفضاء حيث لا يوجد أي احتكاك. فما إن تبدأ في تحريك شيء ما سوف يتحرك بلا توقف لأنه ليس هناك ما يبطئ سرعته سوى جاذبية الأجسام البعيدة. سوف تفاجَئون عندما أخبركم بمقدار السرعة التي ستتحرك بها سفينتنا الشراعية التي يبلغ معدل تسارعها واحد على ألف من عجلة الجاذبية في نهاية اليوم الأول. ثلاثة آلاف كيلومتر في الساعة كلها بسبب ضغط ضوء الشمس الذي لا تستطيعون مجرد الشعور به!»

استطاعت ناتاشا إقناع جمهورها. واقتنع العالم كله في النهاية، أو على الأقل اقتنع أصحاب المناصب الرفيعة ومتخذو القرار. تكاتفت المؤسسات والأفراد ووزارات مالية الدول الثلاث العظمى من أجل تمويل النفقات الباهظة لهذا الحدث. لكن هذه الأموال لم تذهب سدى. نجح سباق الطيران الحر الذي أقيم في قناة الحمم القمرية القديمة تلك في إطلاق شرارة التوافد السياحي الحقيقي إلى القمر. وها هو هذا الحدث قد سجل حضورًا لأكبر جمهور شهده التاريخ. علاوةً على ذلك كانت الدول الثلاث الكبرى ترسل بالفعل

سفن تنقيب — من بينها عدد كبير يتحرك بالشراع الشمسي — لبدء البحث عن ثروات المجموعة الشمسية من المواد الخام.

وكانت الشابة ناتاشا دو سويزا سوبرامانيان في قلب تلك الأحداث جميعًا!

بدأت سفينة ديانا بداية موفقة. ثمة متسع من الوقت الآن أمام ناتاشا لتلقى نظرة على منافسيها. في البداية تحررت ناتاشا من معظم ملابسها خاصةً وأنه لم يكن هناك أحد ليشاهدها. وتحركت بحذر لتتخذ مكانها أمام البريسكوب (منظار الأفق)؛ صحيح أن هناك أجهزة لامتصاص الصدمات بين كبسولة التحكم وتجهيزات الشراع الدقيقة، لكن ناتاشا عزمت على ألا تجازف أبدًا.

وعبر البريسكوب شاهدت ناتاشا سفن الفضاء الأخرى كأزهار فضية غريبة الشكل زُرِعَت في حقول الفضاء المظلمة. فهناك سفينة سانتا ماريا الأمريكية الجنوبية — بقيادة رون أولسوس — على بعد ثمانين كيلومترًا فقط. كانت سانتا ماريا تشبه إلى حد بعيد طائرة الأطفال الورقية، غير أن طول الجانب الواحد فيها يزيد عن واحد كيلومتر. وبعيدًا عنها كانت سفينة الفضاء الروسية ليبيديف متخذة شكل صليب مالطا، والسبب في ذلك — كما علمت ناتاشا — أنه يمكن الاستفادة من الأشرعة التي تشكل الأذرع الأربعة الكبيرة في توجيه السفينة. على العكس من ذلك كانت سفينة ووميرا الأسترالية تتخذ شكل منطاد دائري قديم وبسيط، وإن كان محيط دائرته خمسة كيلومترات. أما السفينة أراكني فكانت تشبه شبكة العنكبوت، وقد بُنيت السفينة اعتمادًا على نفس الفكرة حيث استُخدمت مكاكيك نسج أوتوماتيكية تتحرك في شكل حلزوني انطلاقًا من نقطة مركزية. واشتركت معها في نفس التصميم أيضًا سفينة جوسامر لكن بحجم أقل قليلًا. وأخيرًا كانت السفينة صن بيم التابعة لجمهورية الصين الشعبية تتخذ شكل حلقة مستوية يتخللها فراغ في المنتصف اتساعه واحد كيلومتر، وكانت تدور ببطء حتى إن حركتها باتت أصعب بفعل قوة الطرد المركزي. كانت ناتاشا على علم بأن هذه فكرة قديمة لكن لم يتمكن أحد من إنجاحها. وكانت متأكدة إلى حد بعيد أن السفينة الآسيوية صن بيم ستواجه مشكلات عندما تبدأ في الدوران.

بالطبع لن يستمر الوضع هكذا مدة ست ساعات أخرى؛ وذلك بعد أن تكون اليخوت الشمسية السبعة قد قطعت الربع الأول من دورانها في المدار الجغرافي المتزامن الذي يستغرق أربعًا وعشرين ساعة. في بداية السباق كانت جميع السفن تجري — إذا جاز

لنا هذا التعبير — بعيدًا عن الشمس ومن خلفها الرياح الشمسية. ولا بد لكل سفينة أن تحقق أقصى استفادة من تلك الدورة الأولى قبل أن تديرها قوانين الحركة المدارية بسرعة حول كوكب الأرض. وعند الوصول إلى هذه النقطة ستتجه السفن فجأة وفي اتجاه مباشر نحو الشمس. وعندئذٍ ستظهر أهمية الخبرة في القيادة.

لكن ليس الآن. ليس هناك من المشكلات الملاحية ما يثير قلق ناتاشا. فباستخدام البريسكوب تحققت ناتاشا جيدًا من شراعها ومن جميع نقاط الاتصال الخاصة بتجهيزات الشراع. كان سيتعذر رؤية حبال الصواري والأربطة الدقيقة للغشاء البلاستيكي غير المفضض لولا طلاؤها بالصبغة الضوئية. الآن تظهر هذه الحبال والأربطة عبر البريسكوب على هيئة حبال مشدودة من الضوء الملون تضيق لمسافة مئات الأمتار نحو كتلة الشراع العملاقة. توجد رافعة كهربية صغيرة في كل حبل لا تتعدى حجم بكرة سنارة الصيد. كانت الروافع — التي تخضع لتحكم الكمبيوتر — تدور باستمرار وتحرك الحبال إلى الداخل والخارج بينما يحافظ جهاز الطيران الآلي على ضبط الشراع بما يتناسب مع الزاوية الصحيحة للشمس.

استمتعت ناتاشا بمشاهدة التأثير الذي يلعبه ضوء الشمس على شراعها الكبير الشبيه بالمرآة. اهتز الشراع في صورة تموجات وئيدة مرسلًا عدة صور للشمس وهي تتحرك عبره إلى أن يخبو بريقها عند الأطراف. لا شك أن هذه التموجات لم تكن تمثل مشكلة. بل إنه لا مفر من حدوثها في بناء هائل ورقيق للغاية كهذا، وغالبًا لا تسفر عن أي أضرار. ومع ذلك فقد راقبتها ناتاشا بحذر مع الانتباه إلى الإشارات التي قد تتحول في نهاية الأمر إلى تموجات كارثية، تعرف باسم «الموجات الاهتزازية». يمكن لتلك الموجات أن تمزق الشراع إلى أجزاء، لكن الكمبيوتر طمأنها إلى أن النمط الحالي من التموجات لا يمثل أي خطورة على الشراع.

لم تشعر ناتاشا بالرضا إلا بعد أن تأكدت أن كل شيء على ما يرام، حينئذٍ — وليس قبل ذلك — سمحت لنفسها بالدخول إلى شاشتها الخاصة. ونظرًا إلى أن كل ما يردها من رسائل يمر على مركبة التحكم قبل الوصول إليها، ولأنهم كانوا حريصين على تمرير الرسائل الواردة من قائمة معتمدة فحسب من الأشخاص فقد جنبها ذلك سيلًا هائلًا من الرسائل التي تدعو لها بالتوفيق أو التي تستجدي خدمة ما. وجدت ناتاشا رسالة من أسرتها ورسالة من جاميني ورسالة يوريس فورهولست. وليس أكثر. سعدت ناتاشا بتلقي الرسائل. ولم تكن بحاجة إلى الرد على أي منها.

فكرت ناتاشا هنيهة في أخذ قسط من النوم. من المؤكد أن السباق بدأ لتوِّه، لكن النوم من الأشياء التي ينبغي الاقتصاد فيها. فطاقم القيادة في جميع السفن الأخرى يضم شخصين. بوسعهما تبادل فترات النوم. بينما لم يكن هناك أحد مع ناتاشا يخفف العبء عنها.

اتخذت ناتاشا هذا القرار بإرادتها، وذلك عندما تذكرت البحار الذي يدعى جوشوا سلوكم الذي طاف حول العالم منفردًا بنفسه في مركبه الشراعي الصغير «سبراي» منذ زمن بعيد. ذكرت ناتاشا أنه ما دام سلوكم قد تمكن من القيام بذلك فسوف تتمكن منه هي الأخرى. إضافة إلى هذا فإنه يوجد سبب وجيه يدفعها هي الأخرى إلى المحاولة. وهو أن أداء اليخت الشمسي يتناسب تناسبًا عكسيًّا مع الوزن الذي ينقله. ووجود شخص آخر برفقة ناتاشا — بجميع ما يحتاج إليه من معدات — سيمثل وزنًا إضافيًّا يقدر بثلاثمائة كيلوجرام، ولا شك أن هذا الوزن قد يكون الفارق بين الفوز والخسارة.

وهكذا ربطت ناتاشا الأحزمة المطاطية في كرسي مقصورة القيادة حول خصرها وساقيها. ثم ساورها التردد هنيهة. إذ فكرت أنه سيكون ممتعًا لو ألقت نظرة على بعض النشرات الإخبارية لترى هل توصل أحد من علماء الفلك إلى ماهية هذا الجسم الغريب الذي قيل إنه ليس متجددًا أعظم والذي أضاء السماء الجنوبية على نحو أثار الدهشة ثم لم يلبث أن اختفى فجأة …

تغلَّب الانضباط الذي تحلت به ناتاشا على فضولها. فوضعت قطبي محفز النوم على جبهتها، وحددت وقت النوم بثلاث ساعات، ثم أرخت جسدها. وبرفق شديد سرت النبضات المنومة في فصوص دماغها الأمامية. وانتشرت أشكال لولبية من الضوء الملون أسفل أجفانها المُسْبلة، وأخذت هذه الأشكال تتسع نحو الخارج إلى ما لا نهاية.

ثم راحت ناتاشا في نوم عميق.

استيقظت ناتاشا من نومها العميق إثر سماع صوت المنبه المزعج. قامت على الفور وأخذت عيناها تتفحصان لوحة القيادة. لم تمر سوى ساعتين … لكن هناك ضوء أحمر يومض فوق جهاز قياس التسارع.

كان الضغط يتضاءل. وسفينة ديانا تفقد طاقتها.

أسفر تدريب ناتاشا عن تحليها بالانضباط. وهذا الانضباط حال دون وقوعها فريسة للهلع. لكنها شعرت بخوف شديد وهي تزيح الأربطة التي تثبتها في المقعد لترى ماذا

ستفعل. أول ما تبادر إلى ذهنها أن خللًا ما أصاب الشراع. ربما تعطلت الأجهزة المضادة للدوران مما أدى إلى التفاف الشراع حول نفسه. لكنها عندما تحققت من أجهزة القياس التي تقرأ مدى توتر حبال الشراع لاحظت أمرًا غريبًا. كانت قراءة أجهزة القياس طبيعية على أحد جانبَي الشراع. في حين كانت القيمة تتضاءل أمام عينيها ببطء على الجانب الآخر.

بعدها استوعبت ناتاشا ما يجري. أمسكت بالبريسكوب لفحص الزوايا العريضة لأطراف الشراع. أجل! ها هي المشكلة ... ليس هناك سوى سبب واحد لحدوثها.

فهمت ناتاشا ما يجري عندما شاهدت ظلًّا هائلًا مستدق الأطراف ينزلق نحو شراع ديانا الفضي البراق. كان الظلام يلقي بظلاله على أحد جوانب سفينة ناتاشا كأن سحابة مرت بينها وبين الشمس فحجبت عنها الضوء ووضعت حدًّا للضغط الضئيل الذي يدفع السفينة.

لكن لم يكن هناك سحب كهذه في الفضاء.

ابتسمت ناتاشا ابتسامة عريضة عندما أدارت البريسكوب تجاه الشمس. انزلقت المرشحات البصرية في أماكنها على نحو آلي لتقي ناتاشا من فقدان البصر الفوري، وشاهدت ناتاشا ما كانت تتوقع رؤيته تمامًا. بدا المشهد كأن طائرة ورقية ضخمة تشق طريقها في وجه الشمس.

استطاعت ناتاشا تمييز هذا الشكل في الحال. كانت سفينة أمريكا الجنوبية سانتا ماريا تحاول إحداث كسوف صناعي أمام ناتاشا على مسافة ثلاثين كيلومترًا خلفها.

همست ناتاشا: «حسنًا، سيد رونالدينو أولسوس، يا لها من حيلة قديمة!»

بالفعل كانت تلك حيلة قديمة، لكنها مشروعة في الوقت نفسه. ففي السباقات التي كانت تُجرى قديمًا في المحيطات كان ربابنة السفن يبذلون ما في وسعهم لسلب الرياح من منافسيهم.

كانت هذه الخدعة تنطلي على من يفتقرون إلى الكفاءة فقط، وناتاشا دو سويزا سوبرامانيان ليست من بين هؤلاء. درس كمبيوتر ناتاشا الصغير — الذي كان بحجم علبة الثقاب لكن قدرته تضاهي قدرة ألف شخص من خبراء تحطيم الأرقام — المشكلة بضع ثوانٍ، وبسرعة أخرج تصحيحات المسار.

يستطيع اثنان لعب هذه الحيلة. ابتسمت ناتاشا وهي تمد يدها لتعطيل جهاز الطيران الآلي وإدخال التعديلات التي تضمن توازن تجهيزات شراعها ...

لكن ذلك لم يحدث.

ظلت الروافع الصغيرة بلا حراك. فجأةً لم تعد هذه الروافع تتلقى أي أوامر على الإطلاق سواء من جهاز الطيران الآلي أو من الشخص الذي من المفترض أن يتحكم في كل شيء.

توقفت السفينة ديانا عن الانطلاق؛ وبدأ الشراع الهائل في التأرجح …

ثم بدأ يلتوي …

ثم بدأت تموجات الشراع في التحول إلى موجات واسعة غير منتظمة. ووصلت المادة الرقيقة التي يتكون منها الشراع إلى أقصى درجات التوتر المسموح بها، بل وتجاوزتها.

لاحظ العميد البحري على الفور أن ديانا تواجه مشكلة. وهو ما لاحظه أسطول السفن بالكامل أيضًا، وفي لمح البصر سادت الاتصالات اللاسلكية حالة من الاضطراب. كان رون أولسوس أول من طلب مركبًا يعمل بالطاقة الكيميائية ليقلع به من سفينته حتى يتسنى له المساعدة في البحث عن ناتاشا سوبرامانيان وسط البقايا المنهارة من السفينة ديانا. ولم يكن رون الأخير. ففي غضون ساعة أخرى تفكك السباق إلى أكثر من عشرين سفينة من مختلف الأنواع تتحرك على غير هدى حول السفينة الجميلة ديانا التي تحولت إلى كتلة متجعدة، والجميع يبذل ما في وسعه كي لا يصطدم بعضهم ببعض. استعد عدد كبير من الطواقم في سفينة الفضاء المخصصة لركوب رواد الفضاء من أجل المشاركة في عملية البحث.

بحث الجميع في كل ثنية من ثنايا الشراع الهائل المتغضن بالعين المجردة وأيضًا بالمناظير التي تستخدم الأشعة تحت الحمراء في حال وجودها. فهذه المناظير بوسعها أن تلتقط على الفور أدق إشارة على وجود جسد بشري دافئ في أي مكان في الشراع المحطم.

بحث هؤلاء أيضًا في الفضاء المحيط بحطام ديانا في حال كانت ناتاشا قد قُذِفت خارج السفينة على إثر حادث غير معروف …

والأهم من ذلك أنهم بحثوا في مقصورة القيادة الصغيرة داخل السفينة ديانا.

لم تستغرق عملية البحث طويلًا. فبسبب وجود ناتاشا بمفردها على متن السفينة لم تكن هناك حاجة للخصوصية؛ لم تتعد مساحة كبسولة ديانا بضعة أمتار مكعبة، ولم يكن بها مكان للاختفاء.

لكنها لم تكن داخل المقصورة. وهكذا انتهى فريق البحث إلى أن ناتاشا سوبرامانيان ليست في أي مكان على الإطلاق.

الفصل الثامن والثلاثون

البحث عن ناتاشا سوبرامانيان

عزم الأفراد الثلاثة الباقون من أسرة سوبرامانيان على كوكب الأرض على مواصلة حياتهم بصورة طبيعية قدر المستطاع، بينما رابعة الأسرة تجول الفضاء بين الأرض والقمر في مركبة غريبة الشكل من البلاستيك وجزيئات الكربون. فما إن أرسلت الأسرة رسالتها الأخيرة التي تتمنى فيها حظًّا موفقًا لناتاشا حتى استقل رانجيت دراجته متوجهًا إلى عمله. وفكرت مايرا أنه ربما يمكنها الحصول على ساعة كاملة — أو ساعتين — للاطلاع على آخر ما نُشر في المجلات التي يزداد تراكمها لديها والتي تطرح بعض القضايا الشائكة في مجال الذكاء الصناعي والأجهزة التعويضية. لم يكن الاستمتاع بهذه الساعات الخاصة القليلة أمرًا متكررًا. هذا لأنها لم تكن تتاح لمايرا إلا عند خلود روبرت إلى النوم أو عندما يكون في مدرسته الخاصة أو عندما يرافق خادمة المنزل «ليساعدها» في أعمال الصباح من ترتيب الأسرَّة وتنظيف الغرف.

كانت مايرا تحاول استيعاب ما نشر في المجلات — وأمامها كوب من الشاي الفاتر على المائدة والتليفزيون يبث البرامج الإخبارية في غرفتها لربما يحدث شيء غير متوقع في سباق ناتاشا، وإن كان هذا مستبعدًا — عندما سمعت صوت نشيج ابنها الذي ينفطر له القلب.

رفعت مايرا بصرها، ورأت الخادمة تحمل روبرت إلى داخل الغرفة. قالت الخادمة وقد بدا عليها التأثر: «لا أدري ماذا حدث يا سيدتي. كنا نفرغ سلال المهملات عندما جلس روبرت فجأة وأخذ يبكي. إنه لا يبكي عادةً يا سيدتي.»

لا شك أن مايرا كانت تعلم ذلك. لكن ها هو روبرت يبكي الآن. لذا تصرفت مايرا كالمليارات التي لا تحصى من الأمهات منذ بدء الخليقة. فاحتضنت ابنها بين ذراعيها وهدهدته برقة وهي تهمس في أذنيه. لم يفلح ذلك في إيقاف روبرت عن البكاء. لكن

الدموع هدأت وتحولت إلى شهقات. كانت مايرا تسأل نفسها هل يستدعي هذا الحدث الغريب والمقلق — وإن كان مؤكدًا أنه لا يمثل تهديدًا على حياة ابنها — أن تتصل بزوجها في عمله، وفجأة سمعت صرخة مكتومة من الخادمة. فرفعت بصرها.

ظهرت على التليفزيون صورة اليخت الشمسي الخاص بابنتها. وفضلًا عن أن أحد أطراف اليخت كان في وضع مائل بدرجة طفيفة للغاية، فقد ظهر اليخت على نفس الصورة التي كان عليها قبل ساعة. لكن هناك شريط أحمر أسفل الصورة يقول: «حادث في السباق القمري؟» وعندما ارتفع صوت التليفزيون كانت التعليقات المرتبكة التي أدلى بها مذيع الأخبار واضحة ولا تستدعي أي تساؤلات. تعرضت السفينة ديانا لحادث. والأسوأ من ذلك أن ربان السفينة — أي ابنة مايرا المحبوبة — لا تستجيب للنداءات التي تصدر عن العميد البحري، ويبدو أن الحادث الذي تعرض له اليخت الشمسي قد أدى إلى اختفاء ربان السفينة.

ربما كان قلق مايرا سوبرامانيان المهول أشد محنة شخصية قد يشعر بها أي شخص في العالم، لكنها لم تكن بمفردها. وكلما زاد بحث السفن في لغز حادث ديانا زاد اليأس من العثور على إجابات لهذا اللغز.

كان عمال الإغاثة في يخت العميد البحري قد ارتدوا ملابس الفضاء، وفتشوا كبسولة القيادة في السفينة ديانا منذ وقت طويل. تمكن عمال الإغاثة من دخول الكبسولة وتفتيشها، لكنهم لم يجدوا أثرًا لقائدتها. ولكن لم يكن هذا الأسوأ. إذ أوضح التفتيش الدقيق أن العداد الموجود على أحد الأقفال الهوائية في الكبسولة يؤكد عدم فتحه منذ دخول ناتاشا عند بدء السباق. وهذا يعني أن ناتاشا ليست مفقودة فحسب، وإنما لم تغادر كبسولة القيادة مطلقًا.

لا شك أن كل هذه الأمور مستحيلة الحدوث تمامًا. لكنها في الوقت نفسه صحيحة قطعًا.

لا شك أيضًا أن العميد البحري وطاقمه لديهم العديد من المشكلات الأخرى التي تحتاج حلولًا على الفور. فهناك ستة يخوت شمسية أخرى لم تعد تتحرك في خط منتظم، وهي معرضة الآن للاصطدام بعضها ببعض بسبب تشتت الفكر الذي أصاب قادتها بعد الحادث الذي حل باليخت السابع. صدر الأمر إليهم جميعًا بطي أشرعتهم وترقب نقطة التجمع. ومعنى هذا أن السفن ستتحول إلى ست كرات صغيرة يُجرى تعقبها واقتيادها بصورة أو بأخرى إلى مدارات انتظار حتى لا يكون ثمة تهديد لحركة المرور في الفضاء

... لكن لن يحدث ذلك توًّا. فهذه المشكلات يمكن التعامل معها بأسلوب منهجي عندما يسمح الوقت بذلك.

غير أن ما حدث لناتاشا سوبرامانيان يخلو من المنهجية تمامًا. فلا شك أن اختفاءها — في ظل الملابسات التي حدث فيها — كان مستحيلًا. أثرت كل هذه الأحداث تأثيرًا سيئًا للغاية على جميع الأشخاص المعنيين، ثم ازداد الأمر سوءًا.

طوال الست والثلاثين ساعة التالية اجتمع أفراد أسرة سوبرامانيان في المطبخ ومعهم الخادمة والطاهي. وعندما استيقظ روبرت من غفوته كان قد توقف عن البكاء، لكنه لم يكن قادرًا على إخبار والديه بسبب بكائه إلى أن سألوه هل لبكائه علاقة بشقيقته فأجابهم بكلمات متقطعة: «ناتاشا نائمة، وهي سعيدة.»

وعندما أُعِدَّ طعام العشاء كان روبرت الوحيد الذي تناول طعامه بشهية. لم ينم أحد من أفراد الأسرة طويلًا؛ فإما أنهم كانوا يغفون على مقاعدهم أو يستلقي الواحد منهم نحو نصف ساعة على الأريكة أسفل نافذة المطبخ. لم يجرؤ أيٌّ من الكبار على الذهاب بعيدًا عن شاشة الأخبار لأكثر من دقيقتين خشية أن يُعْلَن فجأة عن أي تفسير لما حدث.

لم يُعْلَن عن أي شيء.

لكن كانت هناك نشرات إخبارية. أذيع بيان عن فريق الباحثين في المدار الأرضي المنخفض يقولون إن برفقتهم الآن عشرات من تلك الأشياء الطائرة الصغيرة ذات اللون النحاسي التي اعتبرها العالم أول دليل مؤكد على أن الأطباق الطائرة — أو ما يشابهها — حقيقة واقعة. لماذا كانوا هناك؟ ما الذي يريدونه؟ كانت التخمينات كثيرة، لكن لم يخرج أحد بتفسير، وهكذا تحول اهتمام العالم إلى أمور أخرى. تحول الاهتمام إلى تلك البقعة من سحابةِ أُورت حيث شاهد علماء الفلك شيئًا يشبه المتجدد الأعظم، لكنه ليس بمتجدد أعظم. أوضح التعريض الضوئي لفترات أطول — باستخدام مجموعة أكثر فعالية من التلسكوبات الموصولة بعضها ببعض — وجود إشعاعات ذات مستوى منخفض لم تُرصَد من قبل في دراسات أجريت على المنطقة نفسها. وتحول الاهتمام أيضًا إلى زوارق السحب التي كانت تسوق قوارب السباق السبعة تدريجيًّا إلى مدارات آمنة؛ القوارب الستة السليمة بالإضافة إلى كرة النسيج المتجعدة للسفينة ديانا. ثم تحول الاهتمام إلى جميع عواصم العالم ومدنه الكبرى حيث مجموعة من «الخبراء» في كل مدينة يسهبون في تحليل ما يجري دون أن يقدم أحدهم تفسيرًا واضحًا.

بعدئذٍ بدأت المكالمات الهاتفية. ولم يتحسن الأمر في اليوم التالي ولا اليوم الذي يليه.

آخر شيء كانت تقبل به مايرا هو ترك طفلها الثاني بعيدًا عن بصرها، لكن عندما تحدثت مع رانجيت في الأمر اتفقا على أنه ليس من الصواب إثارة قلق روبرت أكثر مما هو عليه بالفعل. فاليوم التالي هو يوم الأحد. وروبرت معتاد على الذهاب إلى مدرسة الأحد أيام الآحاد من كل أسبوع. ولم يختلف هذا الأحد عن غيره، رغم أن مايرا جلست في غرفة خالية قريبة طوال الفترة التي أنصت فيها روبرت — مع غيره من الأطفال ذوي الإعاقة في المجموعة الخاصة في الكنيسة — بأدب لمساعِدة القسِّ وهي تروي لهم قصصًا من الإنجيل، ثم بدءوا في تلوين بعض الرسوم التخطيطية التي أطلقت عليها الفتاة الصغيرة الجالسة إلى جوار روبرت «يسوع المسيح على الصليب». وفي يوم الاثنين كانت هناك ورشة عمل ذكر أحد الاستشاريين أنها ستنال إعجاب روبرت. في هذه الورشة تعلَّم روبرت سوبرامانيان — الذي اكتشف أنماط الهيكسومينو بنفسه! — بأناة وعلى ما يبدو بسعادة كيفية ملء مقلمة مزخرفة بأقلام شمع ذات ألوان مختلفة لبيعها في متجر الهدايا الصغير التابع للورشة.

انتهى بكاء روبرت. لكن لم تنته مشاعر القلق والحيرة وألم الفقدان المرير لدى كل من مايرا ورانجيت. لم يتوقف سيل المكالمات الهاتفية التي كانت ترد إليهما من جميع الأشخاص الذين يعرفونهم وأيضًا من عدد مهول من أشخاص لا يعرفونهم على الإطلاق. بعضهم كانوا أشخاصًا مزعجين حقًّا. على سبيل المثال كان رونالدينو أولسوس يرجو منهما أن يسامحاه إن كانا يشعران بأنه مسئول بأي حال عما حدث؛ أيضًا وردت مكالمة من تي أوريون بليدسو — من باسادينا — أبدى فيها تعاطفًا خاطفًا؛ لأن الهدف من وراء المكالمة في الأساس كان سؤال رانجيت هل لديه أي معلومات لم يخبر بها السلطات — لأي سبب كان — بشأن ما حدث لابنته.

وكانت هناك مكالمات من المراسلين الصحفيين.

ظن رانجيت أن أقصى قدر من انتهاك خصوصيته قد حدث بعد نشر مجلة «نيتشر» لبرهانه حول النظرية الأخيرة لفيرما. لكنه كان مخطئًا. فما يحدث الآن أسوأ بكثير. فمع أن الرئيس المنتخب باندارا قد اتفق مع الشرطة على حراسة الطريق المؤدية إلى منزل سوبرامانيان فإن هذه الإجراءات كانت مؤثرة عند المنزل فقط وليس في أي مكان آخر. فما إن يستقل رانجيت دراجته ليغادر المنزل حتى يصبح مثارًا لحديث الآخرين. وهكذا لم يعد رانجيت يذهب إلى جامعته إلا عندما لا يكون هناك مفر من ذهابه. وذات مساء بعد تناول العشاء ترك رانجيت مايرا تراجع ما يُنشر في المجلات من تقارير علمية، وروبرت

يرص حبات البلي على أرضية الغرفة بجوارها، وأوى هو إلى غرفة النوم الرئيسية ليُعِد لحلقته الدراسية المقبلة.

حينئذٍ وقع أمر ما.

رفعت مايرا بصرها عن شاشتها مقطبة جبينها. فقد سمعت صوتًا — ربما صرخة إلكترونية بعيدة — وفي نفس اللحظة لمحت وميضًا ذهبي اللون يمر أسفل الباب.

بعدها سمعت صوت زوجها وهو يصيح بلهجة ممزوجة بالهلع والفرح. كان يقول: «يا إلهي! تاشي، أهذا أنتِ حقًّا؟»

لم يعد هناك سبب يمنع مايرا دو سويزا سوبرامانيان من دخول تلك الغرفة. وعندما فتحت الباب بحدة رأت زوجها يحدق النظر في شخص يقف بجوار النافذة. رأت مايرا فتاة ترتدي أقل ما يمكن لفتاة — تعلم تمام العلم أنه لن يراها أي شخص غريب — أن ترتديه من ملابس.

كانت الفتاة ترتدي ثوبًا اعتادت مايرا أن ترى ابنتها فيه كثيرًا داخل المنزل. كررت مايرا صرخة زوجها: «تاشي!» وفعلت ما قد تفعله أي أم في ظروف منافية للعقل كهذه؛ إذ اندفعت نحو ابنتها محاولة أن تحيطها بذراعيها.

لكن تبين لها أن هذا مستحيل.

فعلى بعد متر من الفتاة اصطدمت مايرا بشيء حملها على أن تبطئ في سيرها، وبعدها بمسافة اثني عشر سنتيمترًا أوقفها بلا حراك. لم يكن هذا الشيء حائطًا. لم يكن شيئًا ملموسًا على الإطلاق. ربما يمكن أن نقول عنه إنه أشبه بنسيم دافئ لا يقاوَم.

وأيًّا كان هذا الشيء فقد أوقف مايرا في مكانها على بعد ذراع عن هذا الهيكل الذي يعلوه وجه الطفلة التي حملت بها وشملتها بتربيتها ومحبتها.

والتي لا تكترث بالنظر إليها الآن أيضًا. فعيناها كانتا مثبتتين على رانجيت. وعندما تحدثت قالت: «لن يفيد الحديث عن هويتي في شيء يا دكتور سوبرامانيان. يهمني الآن أن أطرح عليك أسئلة عديدة، وعليك أن تجيب عنها جميعًا.»

ودون أن تنتظر ردًّا من رانجيت ودون أي تفسيرات أو أدنى احترام، بدأ الاستجواب.

أسئلة «عديدة»؟

أجل، كان هذا هو الوصف الدقيق تمامًا. إذ استمرت الأسئلة بلا توقف — قرابة أربع ساعات — وتناولت هذه الأسئلة كل شيء. «لماذا يدمر الكثيرون من عشائركم ما

يمتلكونه من أسلحة؟» «هل عاش الجنس البشري في سلام من قبل؟» «ما معنى كلمة «برهان» في ضوء أبحاثك السابقة على نظرية فيرما؟» والأكثر من هذا أنها تناولت أسئلة أكثر غرابة: «لماذا يباشر ذكورُكم إناثَكم حتى وإن كانت الأنثى عاقرًا؟» و«ألم تحددوا عددًا مثاليًّا للسكان على كوكبكم؟» و«لماذا تفوق أعدادكم الفعلية هذا العدد بفارق كبير جدًّا؟» و«هناك أماكن تبلغ مساحتها عدة كيلومترات مربعة على كوكبكم وبها عدد ضئيل للغاية من السكان. لماذا لم توطنوا فيها بعض البشر من المناطق الحضرية المزدحمة؟»

وطوال هذه الأسئلة كانت مايرا واقفة بلا حراك. صحيح أنها كانت تشاهد كل شيء. لكنها لم تستطع التحرك. شاهدت عناء زوجها في التعامل مع التحقيق على الرغم من حيرته البائسة، وتمنت أن تمد يد العون له.

ويا لها من أسئلة! كانت الفتاة تطرح أسئلتها بصوت يحمل نبرة واحدة كأنه صادر عن جثة دبت فيها الروح من جديد وهي تقول: «في بعض الأحيان تستخدمون كلمة «دولة» لوصف تجمع من البشر بينما تستخدمون كلمة «أمَّة» في أحيان أخرى. هل يكمن الفارق بين الكلمتين في المساحة مثلًا؟»

هز الأب المفترض رأسه. وقال: «على الإطلاق. فهناك دولة لا يزيد عدد سكانها عن بضع مئات من الآلاف، وأخرى — كالصين على سبيل المثال — عدد سكانها نحو مليارين. لكن كلتاهما دولتان ذاتا سيادة ...» وعلى الفور راجع نفسه وصحح قائلًا: «أقصد أمَّتَان.»

صمتت تلك الهيئة المتجسدة في صورة ابنته هنيهة. ثم تابع أسئلته: «كيف اتُّخِذ القرار بتدمير القدرات الإلكترونية للأمم أو البلدان أو الدول ذات السيادة مثل كوريا الشمالية وكولومبيا وفنزويلا وغيرها؟»

تنهد رانجيت. وقال: «أظنه اتُّخذ من قِبَل مجلس إدارة منظمة السلام عن طريق الشفافية. ربما يمكنك طرح هذا السؤال على واحد منهم — مثل جاميني باندارا أو والده — لتحصلي على إجابة أكثر دقة.» وعندما صمتت الهيئة المتجسدة مرة أخرى، أضاف رانجيت بلهجة متوترة: «بوسعي أن أخمن بالطبع. أتودين أن أفعل ذلك؟»

نظرت إليه العينان التي لم تكونا عينا ناتاشا لحظة طويلة. وجاء الجواب: «لا.» ثم انطلقت صرخة إلكترونية مدوية أعقبتها حركة سريعة في الهواء، ثم اختفت تلك الهيئة المتجسدة في صورة ناتشا.

استعادت مايرا قدرتها على الحركة مرة أخرى، وهو ما فعلته. إذ هرعت إلى جوار زوجها، وأحاطته بذراعيها. جلس الاثنان في صمت وكلاهما متشبث بالآخر إلى أن سُمِعت أصوات

طرقات حادة على الباب الأمامي أفزعت الجميع. وعندما فتحت الخادمة الباب هرع اثنا عشر على الأقل من أفراد الشرطة إلى الداخل، وبدءوا في البحث عن شيء يلقون القبض عليه. قال القائد لاهثًا: «أرجو المعذرة. شاهد الشرطي المسئول ما كان يحدث عبر النافذة، وأرسل إلينا إشارة، لكن عندما وصلنا لم نستطع الاقتراب من المنزل. بل إننا لم نستطع لمس الجدار ... اسمحوا لي.» ورفع قائد الشرطة شاشته إلى أذنه، بينما أخذت مايرا تطمئن أفراد الشرطة — الذين كانوا يمعنون في تفتيش كل مكان في المنزل — أن أحدًا منهم لم يصب بسوء.

أعاد قائد الشرطة شاشته إلى حزامه، وقال: «الدكتور سوبرامانيان؟ هل ذكرت اسم جاميني باندارا — ابن الرئيس المنتخب — في حديثك مع ذلك الـ ...» توقف القائد ليفكر في مسمى مناسب يستكمل به جملته، لكنه لم يجد. فقال: «مع ذاك.»

أومأ رانجيت. وأردف: «أجل، أظن ذلك.»

قال الضابط في أسف: «هذا هو ما فكرتُ فيه. فجاميني يخضع الآن لنفس التحقيق الذي خضعتَ له أنتَ وعلى يد الشخص نفسه.»

وصلت كل هذه الأخبار إلى جميع البشر الذين يمتلكون أو يستطيعون الوصول إلى شاشة تبث الأخبار. لكنها لم تقدم صورة واضحة لما يحدث سواء لأسرة سوبرامانيان، أو لبقية الجنس البشري. أو حتى لمجموعة كائنات «واحد فاصل خمسة» الموجودين داخل ناقلات الجنود التابعة لهم التي تنجرف عبر سحابةِ أُورت.

كانت مخاوف تلك الكائنات أكثر إلحاحًا بكثير من مخاوف الجنس البشري. فكائنات «واحد فاصل خمسة» اعتبروا أن تأجيل إبادة الجنس البشري أمرًا جيدًا تمامًا، لكن يبدو أن الأوامر التي أصدرها «عظماء المجرة» لم تضع في الاعتبار تمامًا ما قد يترتب على الامتثال لها.

كانت المشكلة تتعلق بأعداد تلك الكائنات. فقد استقل نحو ١٤٠ ألفًا من كائنات «واحد فاصل خمسة» سفن الفضاء في البداية. لم يتغير هذا العدد طوال ما يزيد عن اثني عشر عامًا. لكن بعد ذلك — وبسبب رغبة كائنات «واحد فاصل خمسة» في ألا يواجهوا الموت دون أن يتركوا ذرية من بعدهم يحملون صفاتهم الوراثية — فقد سمحوا لأنفسهم بذلك النشاط الجنسي العارم الذي استغرق أمدًا قصيرًا.

كان نتاج هذا النشاط الجنسي قد أبصر النور بالفعل، بل كادوا يصلون الآن إلى مرحلة النضج الكامل ...

لكن الأسطول لم يكن مزودًا بالمؤن التي تكفي هذا العدد الكبير من الأحياء فترة طويلة.

فالمعدات الآلية التي صُمِّمت لتزويد ١٤٠ ألفًا من كائنات «واحد فاصل خمسة» بالهواء والماء والغذاء اضطرَّت إلى تلبية احتياجات ضعف هذا العدد. وهي الآن معرضة للانهيار من شدة الضغط عليها. وقريبًا سوف يحدث عجز في هذه المؤن، وسرعان ما يليه الموت.

فما الذي سيفعله «عظماء المجرة» إزاء أمر كهذا؟

الفصل التاسع والثلاثون

التحقيقات

جافى النوم أجفان أسرة سوبرامانيان تلك الليلة، بل وأجفان أي شخص — أيًّا كانت منطقته الزمنية — لأن معظم سكان العالم تسمَّروا في أماكنهم أمام شاشات التليفزيون غير مبالين بالوقت. ظهر جاميني باندارا في البداية لا يرتدي سوى منشفة حمام طويلة، وكان يجلس على حافة حوض الاستحمام، ويخضع للتحقيق من نفس الهيئة المتجسدة في صورة ناتاشا سوبرامانيان والتي سبق لها التحقيق مع رانجيت. لم يكن هناك تفسير عاجل لكيفية حدوث ذلك.

تركز موضوع هذه الأسئلة تحديدًا على تأسيس منظمة السلام عن طريق الشفافية، وتطوير سلاح الرعد الصامت، والتشكيل الرئيسي للمجموعات التي خططت تلك الهجمات ونفذتها. أجاب جاميني عن الأسئلة كافة بوضوح شديد. لكن عند سؤاله عن التفاصيل التقنية لسلاح الرعد الصامت هز رأسه، وذكر اسم واحد من فريق المهندسين الذين صمموا السلاح. وعن المعلومات السرية بشأن المسئول عن إصدار أوامر البدء في هذا المشروع والمكلف بتلقي هذه الأوامر، أحال جاميني السؤال إلى الأمين العام للأمم المتحدة. وعندما تحول التحقيق إلى السؤال عن نزوع الجنس البشري دائمًا إلى خوض غمار الحروب مع جيرانهم اعتذر جاميني. وذكر أن هذه النزعة قديمة قِدَم الجنس البشري ذاته، لكنه لم يستطع تحديد المسار التاريخي الذي سلكته هذه الحروب، لكنه أضاف أنه رسب في مادة التاريخ القديم الوحيدة التي درسها في حياته على الإطلاق. وذكر أن الأستاذة التي درَّست له هذه المادة لا تزال موجودة في كلية الاقتصاد في لندن.

كان هذا صحيحًا، لكنها في تلك اللحظة كانت تقضي إجازتها في مدينة بيليز الصغيرة. ألقت المحَقِّقَة القبض عليها في مكان يعرف باسم ألتون ها. وهناك في يوم حار وفي وضح النهار — حيث مائة من علماء الأنثروبولوجيا والسائحين والمرشدين

و(أخيرًا) الشرطة البيليزية يشاهدون ويستمعون إلى كل كلمة تقال دون أن يتمكنوا من الاقتراب من المتحدثين — طرحت ناتاشا الزائفة أسئلتها وحصلت على ملخص التاريخ العسكري للجنس البشري. أمدَّتها أستاذة التاريخ بكل ما طلبته من معلومات. فبدأت بأولى الأمم الموثقة تاريخيًّا — السوماريون والأكاديون والبابليون القدماء والحَيْثيون — في تلك السنوات الغابرة قبل انبثاق «الحضارة» في إقليم الهلال الخصيب الواقع بين نهري دجلة والفرات، وصولًا إلى مصر والصين وأوروبا وأخيرًا العالم بأسره. أينما ذهب البشر وأيًّا كان جيرانهم وأيًّا كان حجم ثرائهم، فإنهم لا ينفكون يشاركون في حصتهم المعهودة من الحروب المدمرة والدامية.

بلغ إجمالي عدد الأشخاص الذين استجوبتهم ناتاشا سوبرامانيان الوهمية نحو عشرين شخصًا. جميعهم أجابوا عن كل أسئلتها حتى وإن تأخر بعضهم في الرد. أكثر من تأخر في الرد عليها كان مصمم قنابل نووية من مدينة أماريلُّو في ولاية تكساس؛ إذ رفض رفضًا باتًّا أن يدلي بأي تفاصيل عن تصميم السلاح النووي الذي كان جزءًا من الرعد الصامت. ولم يتغير موقفه حتى عندما مُنِع الطعام والشراب والذهاب إلى الحمام … إلى أن قال في النهاية إنه سيتحدث إذا أعطاه رئيس الولايات المتحدة الإذن بذلك. استغرقت المقابلة التالية مع الرئيس أقل من عشرين دقيقة قبل أن يتفهَّم الوضع ويدرك تأثيره المحتمل على حياته وراحته، فقال أخيرًا: «تبًّا، أخبروها بما تريد.»

استغرقت جميع التحقيقات المتتالية لتلك الهيئة المتجسدة في صورة ناتاشا نحو إحدى وخمسين ساعة. ثم اختفت تمامًا. وعندما قارن رانجيت ومايرا بين التسجيلات الأولى والأخيرة من التحقيقات أصابهما الذهول عندما شاهدا أن شعرها المجعد لم يتحرك من مكانه. ولم يكن هناك أي أثر للإرهاق على وجهها أو في نبرة صوتها. أيضًا لم تتسخ ملابسها القليلة بفتات الطعام التي لا بد من سقوطها (أي طعام هذا؟ لم يرها أحد تتناول شيئًا)، أو بسبب احتكاكها عرضًا بجدار مغطى بالغبار. قال رانجيت في ذهول: «إنها ليست حقيقية.»

قالت زوجته: «نعم، ليست كذلك. لكن أين ناتاشا الحقيقية؟»

ولأن مايرا ورانجيت ليسا سوى اثنين من البشر فهما بحاجة إلى الراحة. ولكنها كانت صعبة المنال. لذلك أصدرت مايرا إلى الخدم أوامر مشددة بألا يزعجهما أحد قبل العاشرة صباحًا إلا إذا حانت لحظة نهاية العالم.

وعندما فتحت مايرا إحدى عينيها لترى وجه الطاهي الذي مال نحوها ووجهه مكسو بملامح القلق ولتكتشف أن الساعة تجاوزت السابعة بقليل، سارعت بدفع زوجها بمرفقها في صدره. هذا كي لا تفوته لحظة نهاية العالم إن كانت هذه اللحظة قد حانت بالفعل.

ومن ذا يستطيع الجزم بأنها لم تحن؟ فقد أخبرهما الطاهي أن «المتجدد الأعظم» الذي شوهد في سحابةِ أُورت قد عاود الظهور مرة أخرى لكن بقدر ضئيل جدًّا من الطاقة التي ظهر بها من قبل. ومع دوران أعداد متزايدة من أكبر التلسكوبات العاكسة على سطح الأرض للحصول على صورة أكثر وضوحًا اتضح أن هذا الإشعاع الجديد لا ينبع من مصدر واحد. وإنما هناك ما يربو على مائة وخمسين مصدرًا (هكذا ذكر مذيع النشرة الإخبارية وقد امتزج في صوته القلق والحيرة البالغة)، وأوضح تحليل دوبلر معلومة أخرى عن هذه المصادر. فجميعها يتحرك. إنها تتحرك في اتجاه مركز المجموعة الشمسية؛ وتحديدًا في اتجاه كوكب الأرض نفسه.

أتى رانجيت برد الفعل المتوقع منه تمامًا. إذ شرد ببصره برهة. وقال: «حسنًا.» ثم انقلب على جنبه ليعاود النوم على ما يبدو.

فكرت مايرا أن تفعل مثلما فعل رانجيت، لكن محاولة وجيزة من جانبها أثبتت أن هذا محال. أدت مايرا طقوس الصباح بصعوبة بالغة، وانتهى بها الحال في المطبخ لتقبل بكوب شاي من الطاهي دون الدخول في حوار معه. ولتتجنب مثل هذا الحوار أخذت كوب الشاي معها إلى فناء المنزل لتفكر.

كان التفكير من الأمور التي تتقنها الدكتورة مايرا دو سويزا سوبرامانيان إتقانًا شديدًا. لكن الوضع اختلف هذا الصباح إذ لم تستطع التركيز. ربما يكون هذا بسبب صوت نشرة الأخبار التي يديرها الطاهي في المطبخ، بل استطاعت مايرا من مكانها في الخارج أن تسمع تلك الأصوات الخافتة التي لا تتحدث بشيء يسترعي الانتباه؛ لأن وكالات الأنباء صرحت بكل ما لديها في البيان الأول، ولم يعد لديها جديد يثير الاهتمام. أو ربما لأن ما أرادت التفكير فيه هو لغز الظهور المُبْهَم لتلك الفتاة التي تشبه ابنتها كثيرًا وإن لم تكن هي. أو ربما يكون هذا بسبب حرارة شمس الصباح بالإضافة إلى شعورها بالإجهاد.

ثم غطت في نوم عميق.

لم تستطع تحديد الفترة التي نامتها وهي مستلقية على ذلك الكرسي المتحرك أسفل الشمس الساطعة. وعندما استيقظت فجأة لاحظت في الحال أن الشمس قد ارتفعت كثيرًا في السماء، وأن الطاهي والخادمة يصدران قدرًا هائلًا من الضوضاء داخل المطبخ.

بعدئذٍ سمعت مايرا الصوت الخافت الذي انطلق من شاشة الأخبار والذي كان سببًا في هذه الضوضاء. كان هناك بثٌّ — التقطه مصادفةً أحد المراقبين في المدار الأرضي المنخفض — صادر من مجموعة سفن الفضاء التي كانت تشارك من قبل في أول سباق من نوعه بين السفن ذات الأشرعة الشمسية. وكان الصوت مألوفًا تمامًا لكلٍّ من مايرا ورانجيت.

انطلق صاحب الصوت المألوف قائلًا: «النجدة. ليساعدني أحد للخروج من هذه الكبسولة قبل أن ينفد هواء الطوارئ.» وأنهى صاحب الصوت استغاثته بمعلومة أخرى لم تكن ضرورية كثيرًا لمايرا أو رانجيت: «أنا ناتاشا دو سويزا سوبرامانيان، كنت أقود السفينة الشمسية ديانا من قبل، وليس لديَّ أدنى فكرة عما أفعل هنا.»

الفصل الأربعون

معرض الصور

قبل أربع وعشرين ساعة كان الشيء الوحيد الذي تتمناه مايرا سوبرامانيان في العالم هو أن تعلم أن ابنتها على قيد الحياة وفي أمان، رغم تأكيد جميع الشواهد عكس ذلك. كان هذا حينها. أما الآن سمعت مايرا رسالة ناتاشا. بل وسمعت رسالة طواقم الطوارئ الذين استجابوا على الفور لاستغاثة ناتاشا. وبثوا رسالة لاسلكية إلى العالَم المترقِّب يقولون فيها إن الفتاة المفقودة ليست على قيد الحياة وبصحة جيدة حسبما يرون فحسب، بل هي الآن في مأمن لأنهم يصطحبونها في صواريخهم، ويتجهون بها إلى نقطة اتصال المدار الأرضي المنخفض بمصعد الفضاء.

لم تكتفِ مايرا بهذا. فما ترغب فيه الآن هو ضم ابنتها بين ذراعيها. لا أن تكون على بعد آلاف الكيلومترات عنها بلا أي أمل في رؤيتها وجهًا لوجه طوال كل الأسابيع التي سيستغرقها مصعد الفضاء حتى تصل ناتاشا إلى المنزل.

لكن بعدئذٍ في ذلك المساء كانت مايرا تقلب بين شاشات الأخبار على أمل العثور على خبر واحد لا يكون مخيفًا أو مبهمًا، وإذا برانجيت يأتي مهرولًا إثر سماع صرختها. صاحت مايرا وهي تشير إلى الصورة الظاهرة على الشاشة «انظر!» انطلقت صرخة أخرى من رانجيت؛ لأن الصورة التي كانت تشير إليها مايرا هي صورة ابنتهما ناتاشا، وكانت مايرا على يقين أن هذه ليست النسخة الزائفة لناتاشا التي قضت بضعًا وخمسين ساعة في استجواب جميع هؤلاء البشر.

لم يعرف رانجيت ما تقوله، ولم يكترث له في تلك اللحظة. بل توجه هو ومايرا إلى مكتبه تاركين الصورة خلفهما على شاشة الأخبار. لم يهدر رانجيت الوقت في محاولة اتباع الطرق المعتادة للاتصال هاتفيًّا بعربة مصعد الفضاء التي تقل ابنته الحقيقية العائدة من الفضاء. كان لمنصب رانجيت امتيازات خاصة. فقد اتصل بالقنوات التنفيذية

التي كانت مفتوحة أمامه باعتباره واحدًا من الأعضاء في مجلس إدارة مصعد الفضاء، وقبل مضي دقيقة كانت ابنته الحقيقية تطل عليه من فراشها الصغير داخل كبسولة العربة المحميَّة من الإشعاع. واستغرق الأمر وقتًا أطول قبل أن تُطَمِئن ناتاشا الحقيقية والدتَها أنها — بشعرها الأشعث وملابسها المشوبة بالبقع وخلو مظهرها من تأنق الفتاة التي كانت تحاكيها — هي بعينها ناتاشا التي تريدها.

وأخيرًا نجحت ناتاشا في إقناع والديها أنها على قيد الحياة ولم تصب بسوء، وإن كانت تجهل تمامًا كيف انتهى بها الحال في الكبسولة التي لم تكن بالقطع بداخلها عندما فتشتها فرق البحث.

كانت تلك أنباء سارَّة، لكنها ليست كافية لمايرا. فبعد أن فقدت مايرا ابنتها على نحوٍ أثار الرعب في نفسها وبدا معه أن عودتها أشبه بالمستحيل لم تكن مستعدة لإنهاء الاتصال الحالي. الواقع أن مايرا كانت ستستمر في الحديث ساعات، غير أن ناتاشا الحقيقية هي التي أنهت المكالمة. رفعت ناتاشا بصرها عن الكاميرا، وانتابها شعور بالانزعاج ثم الجفول وأخيرًا الخوف. وصاحت: «يا إلهي. أهذه شبيهتي التي كانوا يتحدثون عنها؟ ها هي تظهر على قنوات الأخبار، اذهبا لتريا بأنفسكما!»

فعل رانجيت ومايرا ذلك، وبعدها أعادا تشغيل رسالة هذا الكائن من بدايتها. بدأت الرسالة بضوء متوهج. ثم بدأت نظيرة ناتاشا في الحديث دون مقدمات. قالت: «أهلًا بسكان الأرض من البشر. هناك ثلاثة أمور نود تبليغكم بها، وبيانها كما يلي.»

«أولًا لقد غادر ذلك الفرد من «عظماء المجرة» الذي كان موجودًا في مكان قريب فيما مضى تلك المنطقة الفلكية المجاورة لينضم ثانية إلى رفاقه حسبما نظن. ولا أحد يعرف متى سيعود أو ماذا سيفعل بعد ذلك.»

«ثانيًا خلُصَ صناع القرارات القياديون لدينا إلى أنكم ستجدون التحاور معنا أكثر سهولة إذا اطلعتم على هيئتنا. ولذلك سوف نعرض صورًا لخمسة وخمسين من الأجناس الأكثر نشاطًا التي تعمل لحساب «عظماء المجرة» بدءًا بنا نحن «تساعيو الأطراف».»

«ثالثًا وأخيرًا لا تستطيع كائنات «واحد فاصل خمسة» العودة إلى ديارهم في الوقت الحالي بسبب نقص المؤن. ولا يرغب «المخزنون في الآلات» في المغادرة بدونهم. ولذا سوف يأتي كلا الجنسين إلى كوكبكم. تضم الفصائل الثلاث التي ذُكرت للتوِّ جميع الأجناس المكلفة بمواجهة المشكلات التي تُحْدِثونها. لكن ليس هناك داعٍ للخوف. فقد ألغى «عظماء

المجرة» أوامرهم بتعقيم كوكبكم. وعلى كل حال، عندما تصل كائنات «واحد فاصل خمسة» فإنهم سيقيمون في مناطق لا تشغلها شعوبكم. وتلك نهاية الرسالة.»

كانت هذه حقًّا نهاية الرسالة. وعلى إثرها نظر كل من مايرا ورانجيت أحدهما إلى الآخر في ذهول. سألت مايرا: «ما الأماكن التي سيقيمون فيها برأيك؟»

لم يحاول رانجيت إجابة سؤالها؛ إذ كان يفكر في سؤال آخر أكثر إلحاحًا. فقال: «في اعتقادك ما الذي يقصدونه بتعقيم كوكبنا؟»

لم تكتفِ الكائنات التي تطلق على نفسها اسم «تساعيي الأطراف» بعرض صور لكل الكائنات التي وعدت بها مرارًا وتكرارًا على جميع شاشات العالم، وإنما كان يصاحب العرض تعليق صوتي. جاء فيه: «نُدعى «تساعيو الأطراف» لأن لدينا تسعة أطراف كما تشاهدون. لدينا أربعة أطراف في كل جانب وظيفتها الرئيسية عملية التنقل. أما الطرف الموجود في المؤخرة فيستخدم في كافة الأغراض الأخرى.»

وعلى كل شاشة كانت تُعرض صورة للكائن الذي يصفه التعليق الصوتي. هتف الطاهي: «إنها تشبه الخنفساء!» والواقع أن هذا صحيح إذا ما ارتدت الخنفساء أحزمة من قماش ذي بريق معدني بين كل زوج من الأزواج الأربعة من أطرافها. وكما أشار التعليق فهناك طرف آخر في نهاية الجسد، رأت مايرا أن هذا الطرف يشبه خرطوم الفيل لكنه أكثر نحولًا وطوله يكفي لملامسة الجهة الأمامية التي يبدو أن بها فمًا وعيونًا.

لو كان «تساعيو الأطراف» غريبي الشكل — والواقع أنهم كانوا كذلك بالفعل — فإن الأجناس التي ظهرت بعدهم كانت قطعًا أكثر غرابة. كانت الفصيلة الثانية التي عُرِضَت تشبه أرنبًا صغيرًا مسلوخًا، لكن بلون أرجواني باهت بدلًا من اللون الوردي المعتاد. (أشار التعليق الصوتي إلى أن هؤلاء هم كائنات «واحد فاصل خمسة»، لكن مر بعض الوقت قبل أن يعرف البشر سبب هذه التسمية.) أما الفصيلة الثالثة فكانت الأكثر شبهًا بالبشر (وإن لم يكن التشابه كبيرًا) من بين كائنات المجرة التي تعرَّف عليها البشر مؤخرًا. كانت بعض الفصائل التي عُرِضَت فيما بعد في البث لديها ما يصل إلى اثني عشر طرفًا وربما عدد أكبر من مجسات الاستشعار (في بعض الأحيان كان يصعب التأكد من العدد). ومع ذلك فإن هذه الفصيلة الثالثة — ذات المسمى الغريب الذي هو «المخزنون في الآلات» — لم يكن لديها سوى ذراعين وساقين ورأس واحد. لم تكن هناك طريقة للحكم على حجم هذه الكائنات. فربما تكون صغيرة الحجم كقرد المارموسيت أو ضخمة

كالحيوانات التي تُرى في السيرك، لكنها بالقطع لم تكن من النوع الذي قد يرغب الإنسان في مقابلته في ليل مظلم. كانت هذه الكائنات دميمة الخلقة. وفي الواقع فإن أفضل صفة استخدمها معلقو الأخبار في العالم هي وصفهم بأنهم «شيطانيون».

بعدئذٍ زادت غرابة العرض. فالكائنات التالية كانت من كل لون يمكن تخيله، وعادةً كانوا يظهرون في ألوان يناقض بعضها بعضًا في أنماط تمويهية تسبب إرهاقًا للعين. كانت أجسام هذه الكائنات مغطاة بحراشف أو ريش متناثر ونحيل، وتضمنت جميع الأشكال التي يمكن تخيلها، واقتصرت هذه الفئة على الكائنات المعتمدة على الكربون. أما الكائنات التي كانت تشبه إلى حد بعيد تماسيح بدينة وقصيرة في ملابس غوص عتيقة الطراز فلم تكن على هذا القدر من الوضوح إلا بعد أن أُشير إلى أنهم قادمون من عالم غلافه الجوي قارس البرودة مثل قاع أحد البحار الأرضية، وأن السائل الذي يجري في عروق الكائنات الحية في هذا العالم هو ثاني أكسيد الكربون شديد الخطورة.

والواقع أن العرض الذي لم تجد مايرا بدًّا من تسميته «العرض العجيب» لم ينتهِ باستعراض الخمسة والخمسين جنسًا من الأجناس الأكثر تقدمًا في المجرة. إذ كان العرض مستمرًّا. وما إن حظيت جميع الأجناس بما أتيح لها من لحظات شهرة على شاشات كوكب الأرض حتى بدأ الاستعراض من جديد بداية من «تساعيي الأطراف». لكن مع اختلاف أن العرض هذه المرة كان مصحوبًا ببيئة محيطة. ظهرت الكائنات الفضائية إلى جانب سفن الفضاء التي تتخذ شكل ثمار الموز وأجزاء أخرى من عالمهم، وصاحَبَ هذا العرض تعليق صوتي مختلف.

لا شك أن هذا الحدث برمته كان مثيرًا للاهتمام. وفي المرة الثالثة كان آل سوبرامانيان قد علموا أن طول الفرد العادي من «تساعيي الأطراف» لا يمكن أن يتجاوز ثمانية عشر أو عشرين سنتيمترًا، وذلك مقارنة بالحجم التقريبي لسفينة الفضاء التابعة لهم. ووفقًا للتعليق الذي صاحَبَ العرض الثاني لمن يطلق عليهم «المخزنون في الآلات» كان هذا الاسم يصف طبيعتهم تحديدًا. فقد كانوا مخزنين داخل الآلات. في حين لم تكن الأجساد البيولوجية المعروضة سوى حقيقة تاريخية، أما الآن فكل فرد في هذا الجنس يحيا حياته محفوظًا داخل ذاكرة إلكترونية. هذا ما أخبرت به مايرا رانجيت بعد أن عاد من نقل روبرت النائم إلى الفراش.

قال رانجيت وهو يعود للجلوس على كرسيه المفضل: «حسنًا. يبدو هذا مناسبًا. أظن أن الفرد على هذه الحال قد يعيش إلى الأبد، ألا تتفقين معي؟»

وافقته مايرا: «ربما. سأتناول كوبًا من الشاي. أتريد واحدًا؟»

وافق رانجيت على تناول الشاي. وعندما عادت مايرا حاملة الكوبين كانت الشاشة تعرض أحد «تساعيي الأطراف» وهو يزيل القماش من بين مفصلَي الورك لكائن آخر من «تساعيي الأطراف» أيضًا، ثم يحك جسده المكشوف بأطرافه التسعة. قالت مايرا وهي تضع أحد الكوبين أمام زوجها: «مهلًا. ماذا يفعل، هل يحمِّم الآخر؟»

قال رانجيت: «ربما يدهن له جسده بالزيت. من يدري؟ كل هذا يُسَجَّل، ما رأيك إذن أن نطفئ الجهاز الآن وأن نعاود المشاهدة عندما نريد؟»

أجابت مايرا وهي تمد يدها وتقوم بذلك بدلًا منه: «فكرة رائعة. أود أن أسألك سؤالًا على كل حال. من الذين لم نرهم بعد في هذا العرض؟»

أومأ رانجيت. وقال: «أعرف من تقصدين. الكائنات التي كانوا يتحدثون عنها. الكائنات التي يطلقون عليها اسم «عظماء المجرة»».

«هذا صحيح، ويبدو أنهم يحظون بمكانة مهمة بينهم. وحتى الآن لم يعرضوا صورهم علينا.»

الفصل الحادي والأربعون

العودة إلى الديار

بحلول الوقت الذي عادت فيه ناتاشا الحقيقية إلى فراشها في منزل كولومبو كان من المتوقع أن يتوقف التعليق الصوتي الذي تبثه ناتاشا المزيفة إلى العالم منذ وقت طويل. وهذا ما حدث بالفعل ... ولكن إلى حد ما. إذ تكرر بث العرض الذي استغرق اثنتين وستين ساعة ثلاث مرات قبل أن يتوقف، ولكن لأسباب خاصة بهم استمر «تساعيو الأطراف» في إعادة بث العرض كل بضعة أيام.

لم ينظر البشر لهذا الأمر باعتباره ميزة. فالتعليقات الصوتية التي يبثها «تساعيو الأطراف» لم تكن تبث باللغة الإنجليزية وحدها. وإنما بكل لغة ولهجة تستخدمها أي جماعة من البشر يكفي عددها للتحكم في بث تليفزيوني في أي مكان في العالم. وكان عدد هذه المجموعات كبيرًا بما يكفي لإعاقة معظم وصلات القمر الصناعي في العالم بما يضر بمصالح البشر.

أما الأثر الثاني المترتب على تكرار هذا العرض فهو منح الصغيرة ناتاشا مزيدًا من الوقت لتفحص شبيهتها الصورية كلما ظهرت على الشاشة؛ حيث الملابس الكاشفة والشعر المجعد المنسدل فوق أذنها اليسرى وكل شيء آخر. لم تتغير هذه الهيئة قط. ولم يكن ذلك بالمشهد الذي تستمتع ناتاشا بالنظر إليه. قالت ناتاشا لوالديها: «هذا المشهد يُشعرني بالخوف. فها أنا ذا أتفوه بأشياء أعرف أني لم أقلها قط، هذه أنا!»

قالت والدتها بعقلانية: «لكنك لست هذه يا عزيزتي. إنهم يحاكون صورتك بطريقة ما، وأظن أنهم فعلوا ذلك ليكون لديهم شخص يتحدث نيابة عنهم دون أن تكون هيئته مروعة.»

قالت ناتاشا: «لكن أين كنتُ أثناء قيامهم بذلك؟ لا أتذكر أي شيء! شاهدت رون أولسوس يحاول الاستيلاء على رياحي الشمسية، وفجأة وجدت نفسي ... حسنًا، في مكان

لا أعرفه. لم يكن مكانًا محددًا إلى حد ما. فهناك شعرت بالدفء والراحة؛ ربما نفس الشعور الذي شعرت به عندما كنتِ حاملًا بي يا أمي.»

هزت مايرا رأسها في حيرة. وقالت: «أخبرنا روبرت أنك كنت سعيدة.»

قالت: «أظن أنني كنت كذلك. الأمر التالي الذي عرفته هو أني كنت أجلس أمام لوحة التحكم وأصرخ طلبًا للمساعدة، والسفينة ديانا محطمة من حولي.»

ربتت مايرا على ذراعها. وقالت: «وقد حصلتِ على المساعدة والحب؛ لأنك بيننا الآن. وبمناسبة الحديث عن الفتى أولسوس فقد أرسل إليك أربع رسائل عندما كنت نائمة. يُعرب فيها جميعًا عن أسفه البالغ، ويسأل هل بإمكانه مقابلتك لتقديم اعتذاره.»

ارتسمت على وجه ناتاشا ابتسامة عريضة. وقالت: «بكل تأكيد. ولكن ليس الآن. ماذا عن طعام الإفطار لديكم؟»

اعتبر غالبية البشر أن تلك الإعادات الخرقاء للقائمة التي تذاع بأسماء الكائنات الفضائية ما هي إلا إهدار للوقت ولمرافق الاتصالات. لكن لم يكن الأمر هكذا في نظر الجميع. فالكنيسة الصغيرة لعبدة الشياطين شاهدوا الصور المخزَّنة سلفًا لمن يُطلق عليهم «المخزنون في الآلات» وقرروا على الفور أن الكائن ذي الفراء الشائك الشبيه بالإنسان هو في الواقع صورة للشيطان — تمامًا مثلما قرر بضعة ملايين من المشاهدين الآخرين في الحال — لكنهم زعموا أن هذا ليس بالأمر السيئ. فهم يرون أن الشيطان يُعبَد ولا يُمقَت. والكتاب المقدس يبرهن على ذلك إذا قُرِئ بفهم صحيح؛ لأن إبليس طُرد من الجنة بسبب تشويه الملائكة الخصوم لسمعته. قال أحد الأساقفة متحمسًا: «إنه ليس عدونا. إنه مَلِكُنا!»

ما آمنت به القلة القليلة من أعضاء الكنيسة — غالبًا في الجنوب الغربي الأمريكي — لم يكن ليثير الكثير من اهتمام أغلب البشر إلا لسببين. أولًا، كانت هناك تلك المعلومة المقلقة بشأن «تعقيم» كوكب الأرض. وهو ما يعني ضمنًا أن تلك الكائنات لديها القدرة على إبادة البشر إن شاءوا، وهذا ليس بالأمر الذي يسهل نسيانه. ثانيًا لم يعد عبدة الشيطان مجرد قلة من المجاذيب. وحتى المجذوب يتحين الفرصة عندما تدق بابه. وقد اغتنم هؤلاء فرصتهم. فأي عابد للشيطان يحظى بمنصب داخل المؤسسة أعلى من العامل المسئول عن تنظيف مقاعد الكنيسة اتجه على الفور لجميع البرامج الحوارية التي فتحت بابها أمامه. كانوا يأملون أن يكون العالم مليئًا بأمثالهم من المجاذيب الذين لم يُقْدِموا على عبادة إبليس لأنهم لم يقتنعوا بوجوده حتى الآن. تمنى عبدة الشيطان أن يحذو هؤلاء حذوهم بعد رؤية «المخزنين في الآلات» الشيطانيين.

وقد كانوا محقين في ذلك. فمع العرض الثالث للكائنات المريعة التي يطلق عليها اسم «المخزنين في الآلات» كان نحو مائة ألف ممن اعتنقوا المذهب الجديد في الحال يتوسلون من أجل معرفة أسرار إبليس الكنسيَّة. ومع إعادة العرض للمرة الأولى كان عدد رعايا كنيسة عبدة الشياطين قد بلغ عدة ملايين، وكانت هناك كنيستان متناحرتان — بعبارة أخرى متهمتان بالهرطقة — من كنائس عبدة الشيطان تتناحران فيما بينهما لجذب أعضاء للكنيسة. وانتعشت طوائف وأديان زائفة أخرى، لكن لم يصل أيٌّ منها إلى ما وصل إليه عبدة الشيطان.

لا شك أن كل هؤلاء قد أصابهم مس من الجنون. قال رانجيت لجاميني باندارا عندما اتصل به: «أو ربما أصابهم شيء أقرب ما يكون إلى الجنون. لمَ أنت قلق بهذا الشأن؟»

أجابه: «لأن المجذوب بوسعه أن يسحب زناد بندقيته يا رانجيت. ألم تتلقَّ ناتاشا تهديدات بالموت؟»

أمعن رانجيت في التفكير هنيهة قبل أن يجيب. فقد شددت ابنته كثيرًا على عدم إخبار أي شخص بهذا الأمر، ومع ذلك أقر رانجيت: «بلى، هذا أمر تافه، وناتاشا لا تأخذ هذه التهديدات على محمل الجد.»

قال جاميني: «أنا آخذها على محمل الجد، وكذلك والدي يأخذها على محمل الجد. ولذا، أصدر أوامره بتوفير حراسة حول منزلك طوال الأربع والعشرين ساعة ومرافقة أي شخص يخرج منكم.»

هز رانجيت رأسه. وبدأ يقول: «لا أظن أن هذا الأمر ضروري ...»

قال جاميني بابتهاج: «ما تظنه أنت ليس مهمًّا. فوالدي هو رئيس الدولة الآن وهو الذي يصدر الأوامر. على أي حال، إذا لم يكن العملاء الفيدراليون هم مصدر التهديد، فقد يكون أي شخص آخر. يتلقى صديقك الحميم يوريس فورهولست تهديدات هو الآخر. وقد حظي بالفعل بمجموعة من الحراس المسلحين حول قاعدة مصعد الفضاء. وهو يتحدث الآن عن إحاطة أي شخص على صلة بالمشروع بقوات الأمن التابعة لمصعد الفضاء. وأنت واحد منهم.»

فتح رانجيت فمه ليبدي اعتراضه — الذي لم يكن بسبب أنه لن يحتمل فكرة وجود حراسة حوله على مدار أربع وعشرين ساعة يوميًّا قدر ما كان بسبب توقعه لرد فعل ابنته — لكن جاميني لم يترك له الفرصة لذلك. وإنما قال في هدوء: «وكما ترى، فإن هذا أمر واقع. ولا جدوى من الاعتراض. وربما يكون سببًا في إنقاذ حياتكم جميعًا.»

تنهد رانجيت. وتساءل: «وإلى متى سيستمر هذا؟»

قال جاميني مترويًا: «حسنًا، على الأقل إلى أن تظهر تلك الكائنات التي تدعى «واحد فاصل خمسة». بعدها من يدري ماذا سيحدث؟»

أقر رانجيت بينه وبين نفسه أن هذا سؤال وجيه. لكن يتبقى ذلك السؤال المختلف تمامًا والمتعلق بكيفية إخبار مايرا وناتاشا بالخطة.

كادت الفرصة تحين أمام رانجيت على الفور. فما إن أنهى اتصاله مع جاميني حتى ذهب للبحث عن أسرته ووجدهم في الشرفة الخلفية يستخدمون المنظار ذا العدستين في الظلام لتأمل الكوكبة التي شغلت حيزًا كبيرًا من سحابةِ أُورت. مررت مايرا المنظار لناتاشا وهي تقول لزوجها: «إنهم يقتربون كثيرًا. تاشي؟ أعطي المنظار لأبيك ليلقي نظرة.» فعلت ناتاشا ما طُلب منها. ولم يواجه رانجيت صعوبة في العثور على بقعة الضوء اللامعة التي كانت تمثل عادم صواريخ تخفيف السرعة في أسطول «واحد فاصل خمسة» الذي بات على مسافة قصيرة على حد قول الخبراء. لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها رانجيت هذا الضوء. فقبل الإعلان عن وصول كائنات «واحد فاصل خمسة» للإقامة على كوكب الأرض كانت تلسكوبات الكوكب العملاقة توفر صورًا أكثر تفصيلًا وأشد وضوحًا لعرضها على شاشات الأخبار في العالم.

لكنهم كانوا يقتربون.

أنزل رانجيت المنظار عن عينيه وتنحنح. ثم قال: «كنت أتحدث مع جاميني على الهاتف»، وحكى لهما عما دار بينه وبين جاميني. وإذا كان رانجيت قد توقع اعتراضًا من ابنته على تدخُّل الكبار في حياتها، فلا شك أنه كان مخطئًا. أنصتت ناتاشا في تأن، وكان كل ما قالته: «سوف يحمينا هؤلاء الحراس من عبدة الشيطان المجاذيب، أليس كذلك؟» ثم أشارت إلى الأضواء المتلألئة في السماء واستطردت: «لكن من سيحمينا من هؤلاء؟»

كان هذا هو السؤال الذي يشغل بال جميع البشر في العالم، فكانوا يطرحونه على أنفسهم بل حاولوا طرحه على الغزاة؛ إذ بدأ نصف عدد أهم الشخصيات في العالم الحديث في ميكروفونات تُرسل أسئلتهم في اتجاه الأسطول المقترب. كانت هناك العديد من الأسئلة تناولت خططهم ونواياهم وأسباب قدومهم إلى كوكب الأرض من الأساس؛ العديد والعديد من الأسئلة طُرحت بلغات عدة من قبل أشخاص كثيرين على اختلاف مراتبهم.

لكنهم لم يتلقوا أي إجابات لأسئلتهم.

لم يكن التعامل مع هذا الحدث أمرًا يسيرًا على الجنس البشري. ففي كل مكان من كوكب الأرض — وداخل قنوات الحمم في القمر وفي الفلك وفي أي مكان آخر كان للبشر

فيه موطئ قدم — سيطر القلق على البشر مما هو آتٍ. ولم تكن أسرة سوبرامانيان بمنأى عن هذا الشعور بالقلق. فمايرا عادت لقضم أظافرها ثانية وهي التي لم تفعل ذلك منذ السنوات الأولى من فترة المراهقة. بينما كان رانجيت يقضي ساعات طويلة في إجراء مكالمات هاتفية مع جميع الشخصيات المهمة التي يعرفها (وهؤلاء كانوا كثيرين) على أمل أن يكون لدى أحدهم خبر لم يتناهَ إلى مسامعه بعد فيشاركه إياه. (لكن ذلك لم يحدث.) في غضون ذلك كانت ناتاشا مشغولة في محاولة تعليم روبرت كيف يقرأ كلمة برتغالي. وذات صباح وبينما يتناول الجميع طعام الإفطار إذ سمعوا فجأة موجة من الأصوات العالية تَرِد من الخارج. وعندما فتح رانجيت الباب ليستطلع الأمر شاهد أربعة من الحراس القائمين على حمايتهم بملابسهم الرسمية وهم يرفعون بنادقهم ويوجهونها نحو ستة أشخاص غرباء. في الواقع لم يكونوا جميعًا غرباء. كان معظمهم صغار السن متجهمي الوجوه أياديهم مرفوعة في الهواء، لكن في المنتصف كان يقف شخص تعرف عليه رانجيت في الحال، على الرغم من أنه بدا أكبر سنًّا عما كان عليه في آخر لقاء جمع بينهما. قال رانجيت: «كولونيل بليدسو. ماذا تفعل هنا؟»

تطلب هذا الموقف قليلًا من التفاوض. واتُّفِق على السماح للمقدم بليدسو بدخول المنزل لكن مع وقوف قائد الحرس بجواره ومسدسه في يده. ظل الحرس المرافق لبليدسو في الخارج جالسين على الأرض وأياديهم على رءوسهم، في حين كان بقية الحرس السريلانكيين يتأكدون من بقائهم على هذا الوضع.

ربما ظن المرء أن بليدسو شعر بالسوء في موقفه هذا. لكنه لم يفعل. قال بليدسو: «أشكرك على السماح لي بالدخول والحديث معك. لم أكن أرغب في الاضطرار إلى منح حراسي حرية التصرف مع حراسك.»

لم يكن رانجيت واثقًا هل ينبغي لهذا القول أن يُضحكه أم يثير حفيظته، لكنه قرر ألا يفكر فيه. ودخل في الموضوع مباشرةً. فسأله: «عمَّ تريد أن تتحدث؟»

أومأ بليدسو برأسه. وقال: «حسنًا، دعنا لا نضيع الوقت. جئت إلى هنا ممثلًا عن رئيس الولايات المتحدة الذي انتهى إلى أن الجنس البشري لن يطيق السماح لهؤلاء القتلة الغرباء بالهبوط على كوكب الأرض.»

كان رانجيت ينوي سؤاله عن الكيفية التي يعتزم بها رئيس الولايات المتحدة الحيلولة دون ذلك، لكن زوجته سبقته. فتساءلت: «وما الذي يُخَوِّل لرئيسكم التحدث باسم البشر أجمعين؟ أليس لروسيا أو الصين — مثلًا — رأي آخر؟»

أصيب رانجيت بالدهشة عندما بدا له أن بليدسو كان يتوقع هذا السؤال. أجاب بليدسو: «أنت تعيشين في الماضي يا سيدة سوبرامانيان. فأنت تتحدثين وكأن هناك ثلاث قوى عظمى. هذا ليس صحيحًا. فروسيا والصين لم تعودا سوى قوتين زائفتين الآن! وما من حاجة إلى النظر إليهما بعين الاعتبار.»

واستطرد بليدسو في توضيح كلامه بنبرة ساخرة قائلًا إن كلتا الدولتين مشغولة بمشكلاتها الداخلية التي تحاول الإبقاء عليها سرًّا. قال: «كادت جمهورية الصين الشعبية أن تفقد سيطرتها على إقليم جيلين لصالح حركة فالون جونج، وقد ضاقت ذرعًا بهذا الأمر. ومن المؤكد أنك لم تسمعي عن إقليم جيلين من قبل، أليس كذلك؟ هذا الإقليم هو المكان الذي تحصل منه الحكومة الصينية على جزء كبير من حبوبها، ناهيك عن الكثير من السيارات وعربات السكك الحديدية. أنتِ تسمعين ما قلته. الزراعة والصناعة! وأتباع حركة فالون جونج ينتشرون عبر الحدود إلى منغوليا الداخلية.»

وهز بليدسو رأسه بأسلوب ربما اعتبره رانجيت ومايرا تعاطفًا لولا تلك الابتسامة الخافتة التي ظهرت بوضوح على جانبَي فمه. ثم أردف متسائلًا: «وماذا عن الروس؟ الروس وضعهم أسوأ بكثير. فالشيشان مصدر قلق لا ينتهي. هناك مسلمون في الشيشان، وسوف يتوافد إليها جميع المجاهدين المسلمين من أي مكان في العالم ممن لا تزال لديهم الرغبة في قتل الزنادقة وذلك بهدف التسلح، وهناك يمتد عدد من أهم خطوط أنابيب النفط الروسية. وإذا هدأت الأوضاع أخيرًا في الشيشان، فهناك مجموعة من الأقاليم الأخرى التي ترغب بشدة في أن تسلك الاتجاه نفسه.»

علَّقت مايرا: «تبدو سعيدًا بهذا.»

زم بليدسو شفتيه. وقال: «سعيد؟ كلا. ما الذي قد يعنيني في مشكلات الصينيين أو الروس؟ لكن لا شك أن هذه المشكلات تساعد في تبسيط الأمور عندما تكون هناك حاجة إلى اتخاذ إجراء ما، علاوةً على أن الرئيس ليس مضطرًّا إلى النظر إلى آراء هاتين الدولتين بعين الاعتبار. وهنا يأتي دورك أنتَ وعائلتك يا سوبرامانيان. الرئيس لديه خطة. ولكم جميعًا دور في تنفيذها.»

سيطرت على رانجيت وأسرته مشاعر الفتور تجاه ضيفهم المتطفل منذ أن حلَّ عليهم. أما الآن فقد تحول هذا الفتور إلى شيء يشبه الجليد القطبي.

سأل رانجيت: «ماذا تريد؟» قالها بلهجة توحي بأن أيًّا كان ما يطلبه بليدسو فإن فرصته ضئيلة في الحصول عليه.

قال بليدسو: «الأمر بسيط. أريد من ابنتك ناتاشا أن تظهر في بث تليفزيوني لتقول إنهم أخبروها أثناء احتجازهم إياها أن «تعقيم» كوكب الأرض يعني قتل جميع البشر حتى يتسنى لكائناتهم الغريبة الاستيلاء على الكوكب.»

صاحت ناتاشا على الفور. وقالت: «هذا لم يحدث قط يا سيد بليدسو. لا أتذكر شيئًا على الإطلاق عن تعرضي للاحتجاز.»

رفع والدها يده. وقال لها: «هو يعلم أنها أكذوبة يا حبيبتي. حسنًا، يا بليدسو. لماذا ترغب في إثارة مشاعر الكراهية ضد هذه الكائنات؟»

أجاب بليدسو: «لأننا سنضطر إلى إبادتهم عاجلًا أم آجلًا. وماذا بعد؟ حسنًا، سنترك لهم الفرصة للنزول على كوكب الأرض. وعندها سوف تظهر أنتَ في بث حي لتقول إن ابنتك قد أفضت إليك بأمور تظن أن العالم بحاجة إلى معرفتها، وبعدها تظهر ناتاشا لتروي قصتها.»

خال رانجيت أن بليدسو يبدو سعيدًا للغاية بهذه الفكرة. وسأله: «وبعد ذلك؟»

هز بليدسو كتفيه. وقال: «سوف نبيدهم. في البداية سنوجه إليهم ضربة بسلاح «الرعد الصامت» حتى لا يتسنى لهم فعل شيء. ثم نطلق عليهم القوات الجوية الأمريكية بالكامل لتقصفهم بالقنابل والصواريخ وأيضًا الصواريخ البالستية العابرة للقارات. والأسلحة النووية وأي نوع من الأسلحة الأخرى. وأضمن لك أنه بعد انتهاء هذه العملية لن يتبقى منهم أي شيء يزيد حجمه عن أنملة إصبعك الصغير.»

تذمرت مايرا بسخط، لكن رانجيت هو الذي تحدث. وقال: «أنت مجنون يا بليدسو. أتظن أن هذه الكائنات لا تملك أسلحة؟ كل ما ستفعله هو أنك ستودي بحياة بضعة آلاف من القوات الجوية ... وفوق هذا ستثير غضب الكائنات الفضائية.»

قال بليدسو متهكمًا: «لقد أخطأتَ مرتين. فجميع هذه الطائرات الأمريكية تستخدم نظام الطيران بواسطة أسلاك التحكم الرقمي بحيث يكون جميع أفراد الطاقم على الأرض في أمان. ولا يعنينا في شيء أن يثار غضب تلك الكائنات. لدينا قول مأثور في الولايات المتحدة يا سوبرامانيان. يقول «عش حرًّا، أو اختر الموت.» ألا تؤمن بهذه المقولة؟»

فتحت مايرا فمها لترد نيابة عن الجميع، لكن رانجيت أوقفها. وقال: «ما لا أومن به هو إطلاق الأكاذيب التي تودي بحياة الآخرين، حتى إن لم يكونوا من البشر. لن نفعل ما تطلبه يا بليدسو. وأظن أنه يتحتم علينا الظهور على شاشات التليفزيون لنخبر العالم أجمع بما تخططون له.»

حدجه بليدسو بنظرة معادية. وقال: «أتظن أن هذا سيجدي نفعًا؟ تبًّا يا سوبرامانيان، أتعرف معنى «الإنكار»؟ سأتعرض للإنكار. إذا انتشر هذا الخبر، فسيهز الرئيس رأسه ويقول: «العقيد بليدسو المسكين. كان يفعل ما ظنَّ أنه تصرف صحيح، لكن كل ما فعله كان بقرار شخصي منه. لم أوافق قط على خطة كهذه.» وربما يزعجني بعض الصحفيين فترة من الوقت أمتنع خلالها عن الحديث إليهم، وفي وقت قريب جدًّا سينتهي كل شيء ويصبح طي النسيان. من واجب الرئيس — بصفته قائدًا للقوة المهيمنة على هذا الكوكب — أن يدافع عن الدول الأضعف، وقد اتخذ قرارًا بأن الهجوم هو أفضل مسلك يمكن اتباعه. إنني أتصرف وفق إرادة الرئيس. ما رأيك في هذا؟»

وقف رانجيت. وقال: «أود أن أحيا حرًّا، لكن هذا ليس متاحًا هنا، أليس كذلك؟ إذا كان يتعين عليَّ الاختيار بين عالم يحكمه أناس مثلكم وآخر تحكمه مسوخ محرشفة خضراء فربما أختار عالم المسوخ. والآن اخرج من بيتي!»

الفصل الثاني والأربعون

منخفَض مميَّز

عندما نزلت كائنات «واحد فاصل خمسة» أخيرًا على سطح كوكب الأرض، صاحب نزولهم عرض ألعاب نارية هائل. لكن عرض الألعاب النارية هذا لم يحدث لنفس الأسباب التي يحدث من أجلها العرض المماثل الذي يصاحب عودة المركبات التابعة للبشر من الفضاء. فجميع كبسولات ميركوري ومركبات الفضاء سويوز والمكاكيك التي صنعها البشر قديمًا تصطدم بالغلاف الجوي للأرض عند عودتها إلى الأرض محدثة وهجًا ناريًّا مجهدًا للعين لسبب بسيط. وهو أنه ليس لها حيلة في الأمر. كان يتعين عليها خفض السرعة حتى يتسنى لها العودة للدخول إلى الغلاف الجوي للأرض، ولم يكن هناك سبيل لتقليل سرعة الهبوط بما يكفي لضمان هبوط آمن على الأرض سوى الاحتكاك بالغلاف الجوي.

أما مركبات الفضاء التابعة لكائنات «واحد فاصل خمسة» فلم تكن بحاجة إلى الاحتكاك بالهواء. إذ تقل سرعة هبوطها وفق آلية مختلفة تمامًا. فهم يطلقون صواريخهم الأيونية في اتجاه أمامي بأقصى قوة لتؤدي دور المكابح. وهي طريقة أيسر في الهبوط فضلًا عن أنها توفر تحكمًا أكثر دقة في موقع الهبوط.

تطلبت هذه الآلية استخدام كميات هائلة من الطاقة، لكن توفير الطاقة لم يكن من أولويات كائنات «واحد فاصل خمسة».

واجه المراقبون من البشر مشكلة في تحديد المكان الذي عقد الأسطول عزمه على الهبوط فيه. توصل التخمين الأولي إلى أنهم سيهبطون في مكان ما في صحراء ليبيا؛ ربما على السواحل المتاخمة للبحر المتوسط. وبسرعة تغير هذا التخمين ليتجه إلى مكان أبعد قليلًا ناحيتَي الشرق والشمال؛ ربما في مكان ما داخل الأقاليم الصحراوية الشاغرة شمال غرب مصر.

لم يستغرق خبراء القنوات الإخبارية وقتًا طويلًا في التوصل إلى المكان الذي يُدعى «منخفض القطارة».

بعدها استغرق رانجيت ومايرا وقتًا أقل في تشغيل محركات البحث. قالت مايرا وهي تقرأ من شاشتها: «هذا المنخفض هو خامس منخفضات العالم من حيث العمق. ويبلغ عمقه ١٣٣ مترًا تحت مستوى سطح البحر.»

أضاف رانجيت وعيناه على شاشته: «ويبعد عن البحر مسافة خمسة وستين كيلومترًا فقط. و... انتظري لحظة! إنه أكبر منخفضات العالم فوق اليابسة على سطح الأرض، بأكثر من أربعين ألف كيلومتر مربع تحت مستوى سطح البحر.» وفي الحال علم رانجيت ومايرا أن هذا المكان غير مأهول بالسكان إلا من بعض قبائل البدو المتجولة وقطعان من الحيوانات يرعونها، وأنه لا يحمل قيمة واضحة لدى أي شخص من البشر على الأقل. الأمر الوحيد الذي يبدو أنه ساهم في اهتمام البشر بأمر هذا المكان هو احتلاله مكانة كبرى على مدار بضعة أسابيع في واحدة من الحروب التي نشبت في القرن العشرين، وهي الحرب بين الألمان والإنجليز. آنذاك حوصر الألمان في منخفض القطارة الذي يتعذر اجتيازه وتمكن الإنجليز من إلحاق خسائر فادحة بهم في معركة عرفت باسم «معركة العلمين».

عند هذه النقطة توقف رانجيت ومايرا عن البحث بعد أن وجداه بلا جدوى. قال رانجيت في النهاية: «لا أظن أن هذا هو سبب اختيار كائنات الفضاء لهذا المكان. أقصد إمكانية الدفاع عنه بسهولة ضد أي جيش.»

سألته مايرا: «وما السبب إذن؟»

قطب رانجيت جبينه، لكنه لم يجب عن سؤالها. وقضى كلاهما ربع الساعة التالي يفكران في أسباب أخرى كانت تتزايد درجة استبعادها إلى أن تدخلت شاشة الأخبار. ذكر مذيع الأخبار أن أول احتجاج رسمي صدر للتوِّ من القاهرة. وهو بيان شديد اللهجة.

لم يكن نقل الخبر على هذه الصورة دقيقًا تمامًا. صحيح أن البث كان من القاهرة، لكنه لم يرد على لسان شخص مصري. كان المتحدث السفير الأمريكي. أخبر العالم بأن الحكومة المصرية طلبت منه الإدلاء بتصريح يوضح ردها الرسمي. قال السفير إن المنطقة المعروفة باسم «منخفض القطارة» جزء لا يتجزأ من جمهورية مصر العربية. وهي دولة ذات سيادة، وإنه لا يحق للدخلاء الوجود فيها. وإنه صدرت إليهم أوامر بمغادرة الأراضي المصرية على الفور أو مواجهة تبعات هذا الموقف.

بدا واضحًا أن اجتماعات سرية كانت تُجرى، ثم جاءت كلمات السفير التالية لتؤكد بما لا يدع مجالًا للشك ما كانت تدور حوله هذه الاجتماعات. صرح السفير: «جمهورية مصر العربية واحدة من أقدم الحلفاء لأمريكا وأقربهم. وعلى المعتدين أن يواجهوا الجيش المصري وجيش الولايات المتحدة أيضًا.»

همهم رانجيت: «يا إلهي. أشعر بأن تي أوريون بليدسو له دخل بهذا.»

قالت مايرا الملحدة لزوجها الأقل منها تدينًا: «فليساعدنا الرب الآن.»

ربما هدأت حدة الوضع إذا اقتطعت الكائنات الفضائية التي هبطت على الأرض جزءًا من وقتهم للإعلان عن خططهم على المدى البعيد. لكنهم لم يقدموا تفسيرًا لما يحدث. ربما لا تستطيع هذه الكائنات القيام بأكثر من عمل في آنٍ واحد، أو ربما ظنوا أن هؤلاء البشر البدائيين على كوكب الأرض هم الذين لا يستطيعون ذلك؛ لأنهم استمروا في الحفاظ على وعدهم بعرض جميع أجناس الكائنات الحية المختلفة في المجرة على البشر مرارًا وتكرارًا.

كان هذا العرض مشوقًا تمامًا فيما مضى. لكنه لم يعد الآن كذلك. المشاهدون الوحيدون الذين واصلوا توجيه اهتمامهم لهذا العرض هم منتجو أفلام الرعب ذات الميزانيات المنخفضة الذين تحمسوا للبحث عن أفكار ينقلونها إلى فنيي التجميل الذين يعملون لديهم، فضلًا عن القلة المتبقية من علماء التصنيف في العالم حيث تحمس كل واحد منهم لفكرة مؤثرة ومفاجئة مفادها أنه ربما يصبح نموذجًا آخر من كارولوس لينيوس — مؤسس علم التصنيف — في القرن الحادي والعشرين.

لا شك أن أيًّا من ذلك لم يكن يمثل مشكلة للجنس البشري. لكن كانت هناك مشكلة أخرى ظهرت في شقين.

الشق الأول هو ذلك البث الذي تجاوز حدود المعقول والذي أذيع على النطاقات الترددية لوسائل الاتصال في العالم. لم يكن بث قائمة بالكائنات المجرِّية العاقلة ذا تأثير في حد ذاته على هذه النطاقات الترددية. المشكلة كانت في تلك العادة الكيِّسة التي بمقتضاها تذيع الكائنات الفضائية كل شيء يرغبون في قوله بعدد كبير من لغات العالم التي يربو عددها عن ٦٩٠٠ لغة.

وحتى هذه المشكلة لم تزعج سوى مجموعة قليلة من الأشخاص الذين مُنِعت برامج المسابقات التي يفضلونها من العرض على التليفزيون. أما الجانب الأكثر خطورة فهو التشويش على الاتصالات خاصة المفاوضات التي تجري وراء الكواليس بين عدد كبير من القوى العسكرية في العالم.

أجرى رانجيت اتصالًا هاتفيًّا سريعًا بجاميني باندارا الذي أكد له صحة ظنونه. لم يكن قرار الحكومة المصرية بخروج السفير الأمريكي بهذه التصريحات الملوحة باستخدام القوة قرارًا طوعيًّا. أوضح صديق داتوسينا باندارا المصري القديم حميد العصر — الذي يشغل الآن منصب السفير المصري لدى سريلانكا — الأمر برمته في مكالمة هاتفية لوالد جاميني. قال جاميني: «أجرى مكالمة هاتفية مع والدي. قال فيها إن الحكومة المصرية تعرضت لضغوط أمريكية لم تستطع الصمود أمامها. ذكر والدي أنه كان هناك أحد العملاء السريين من الأمريكيين ...»

قال رانجيت: «لا شك أنه هو. صديقك القديم كولونيل بليدسو، أنا واثق من ذلك.»

بدت الدهشة على جاميني وهو يقول: «قد تكون محقًّا. على أي حال ذكر حميد العصر أن مصر تعي التزاماتها فيما يتعلق بمنظمة السلام عن طريق الشفافية، لكنها لا تزال في مرحلة تنفيذها. كذلك لم تكتمل المرحلة الانتقالية بعد، ومصر دولة فقيرة لا تقوى على الوقوف في وجه الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بالنظر إلى المساعدات الأمريكية التي تبلغ مليارات الدولارات.»

قال رانجيت: «اللعنة.» وعندما أخبر مايرا بهذا الحوار، أجابت بنفس الرد تقريبًا.

قالت مايرا: «كان ينبغي أن نخمن هذا. دعنا نأمل ألا يسوء الوضع أكثر.»

الفصل الثالث والأربعون

نزول المهاجرين

كان الصغير روبرت أقل المتأثرين من أسرة سوبرامانيان بالتطورات المروعة التي يشهدها العالم من حولهم. صحيح أن بكاءه زاد إلى حدٍّ ما هذه الأيام. لكن لم يكن يبدو أن أوضاع العالم الخارجي هي السبب في حزنه. وإنما هو القلق الواضح على والديه. وكانت طريقة روبرت في التعامل مع هذه المشكلة هي التصرف بأدب شديد؛ فكان يربت عليهما، ويعانقهما، بل ويتناول طعامه كله دونما جدال، ويخلد إلى النوم دون اعتراض عندما يخبرانه بأن موعد النوم قد حان. وسعيًا لإدخال البهجة إلى نفسيهما، كان روبرت يتلو على مسامعهما كلمات وعبارات درسها في مدرسة الأحد. فكان يكرر على مسامعهما على نحو يبعث الطمأنينة: «القاعدة الذهبية: عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك.»

بالطبع لم يكن الاستماع لما حفظه روبرت من دروسه في مدرسة الأحد عن القاعدة الذهبية في معاملة الآخرين ليخفف من قلق مايرا ورانجيت. فضلًا عن ذلك فإنهما لم ينزعجا عندما بدأ روبرت اهتمامه بما يُعرض على شاشات الأخبار حول العالم، وذلك عندما كان يجد قناة تليفزيونية لم يستول عليها ساكنو المجرة الغرباء.

كانت شاشات الأخبار تعرض مشاهد لما تفعله كائنات «واحد فاصل خمسة» في منخفض القطارة. فأي قمر تجسس بشري لم يتم الاستيلاء عليه من أجل إعادة عرض القصص الخاصة بتلك الكائنات المجرِّية كان يوَجَّه لهذا الجزء من العالم الذي يكاد يكون في طي النسيان.

ما إن هبط أسطول «واحد فاصل خمسة» على الأرض حتى وضح السبب وراء استخدامهم الصواريخ من أجل تقليل السرعة بدلًا من الاحتكاك بالهواء. فالاحتكاك بالهواء كان سيمزق سفن الفضاء التابعة لهم إربًا. هذا لأنها لم تكن انسيابية الشكل. بل لم تكن تتخذ شكل أنبوب بسيط مثل السفن القزمة التي استخدمها «تساعيو الأطراف».

كانت سفن «واحد فاصل خمسة» أقرب في الشكل إلى أشجار عيد الميلاد من أي تصميم ديناميكي هوائي وكانت بها مكعبات وكرات ومضلعات تتدلى من الأجسام الرئيسية عند جميع الزوايا.

وهذا يفسر السبب وراء حاجتهم لاستهلاك الوقود من أجل تخفيف السرعة. فدخول الغلاف الجوي للأرض مرة أخرى اعتمادًا على المكوك ربما يحول هذه السفن إلى شهب تبلغ مداها من التوهج وتسفر على الفور عن مساحات من الحطام المتوهج الذي يغطي آلاف الأفدنة.

ما إن هبطت كائنات «واحد فاصل خمسة» في صفوف منظمة حتى وضحت أسباب استخدامهم لكل هذه الإضافات الغريبة. كان بعضها يشبه قرون الاستشعار في الشكل، وهؤلاء فصلوا أنفسهم وتحركوا على غير هدى هنيهة، ثم تلَوَّوا بعيدًا لاستكشاف البيئة الجديدة. بينما ارتبط آخرون بعضهم ببعض وتوجهوا إلى مياه الواحة المالحة، دون أن يتمكن رانجيت من تخمين سبب لذلك. قال رانجيت: «هذه المياه غير صالحة للشرب. ليتهم يعرفون ذلك.»

تفرست مايرا في وجهه. وقالت في ترو: «تبدو أكثر ابتهاجًا منذ أن اتصل يوريس وقال إن مستخدمي الديناميت قد توقفوا. والآن تبدو قلقًا بشأن المياه التي ستشربها كائنات «واحد فاصل خمسة».»

لم يحاول رانجيت الدخول مع زوجته في جدال؛ لأن ما كانت تقوله صحيح. فقال: «الأمر شبيه بما يردده روبرت على مسامعنا. حري بنا أن نعامل الآخرين بمثل ما نحب أن يعاملونا به. وأنا شخصيًّا لا أحب أن يطلق أحد النار عليَّ.»

ارتسمت على وجه مايرا ابتسامة عريضة، ثم انتبهت لما يُعرض على الشاشة. فبعض الأدوات الصغيرة التابعة لكائنات الفضاء انفصلت عن سفن الفضاء، وتقدمت ببطء نحو أحد الكثبان الرملية، وبدأت تحفر فيه. تعجبت مايرا قائلة: «إنهم يحفرون نفقًا. أتظن أنهم يحفرون مأوى يقيهم من قصف القنابل حال تعرضهم للهجوم؟»

لم يحر رانجيت جوابًا. ففكرة توقع كائنات الفضاء شن هجوم عليهم كانت مقبولة تمامًا، لكنه لم يشأ أن يقول ذلك ...

ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك أيضًا؛ لأن جميع شاشات الأخبار التي لا تزال تابعة للبشر أظلمت في الحال. وبسرعة ظهرت مذيعة أخبار يبدو عليها الارتباك، وأخبرت المشاهدين في عجالة أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية طلب اقتطاع وقت عاجل للإدلاء ببيان «يهم العالم أجمع». قالت مذيعة الأخبار التي ظهرت على شاشة رانجيت للمشاهدين

بنبرة متوترة: «كانت تلك كلمات الرئيس. وليست لدينا أي معلومات أخرى سوى أن هذا البيان يكاد يكون غير مسبوق في ... ماذا؟»

كانت توجه سؤالها إلى شخص متوار عن الأنظار، لكن كان الجواب واضحًا. فكل ما استطاعت قوله «سيداتي سادتي، رئيس الـ...»

عندئذٍ أظلمت الشاشة وقتًا وجيزًا. وعندما أضاءت مرة أخرى كانت تعرض صورة لمجموعة من الرجال والنساء يبدون على قدر من الأهمية (ومن القلق أيضًا) ملتفين حول مائدة تضم مجموعة من الميكروفونات. نظر رانجيت متحيرًا إلى هذا المشهد؛ لأنه لم يكن يبث من الحديقة الوردية أو المكتب البيضاوي أو من أي خلفية أخرى من تلك الخلفيات التي يفضلها الرئيس دائمًا. صحيح أن العلم الأمريكي الضخم موضوع خلف المجموعة الواقفة تنفيذًا لأوامر الرئيس كالمعتاد. لكن الصورة التي ميزها رانجيت للغرفة التي تجمعهم كانت غريبة عليه؛ فالغرفة بلا نوافذ، وتشع بأضواء مصابيح كشافة، وبها فرقة برتبة عرفاء من مشاة البحرية الأمريكية يقفون منتصبين وأصابعهم على أزندة أسلحتهم.

همست مايرا: «يا إلهي. إنهم داخل ملجأ نووي.»

لكن رانجيت لم يسمعها. وإنما اكتشف شيئًا آخر. فقال: «انظري إلى الرجل الواقف بين الرئيس والسفير المصري. أليس هذا أوريون بليدسو؟»

كان الرجل الذي أشار رانجيت نحوه هو أوريون بليدسو بالفعل. لكن لم يكن هناك وقت ليتحدثا عن وجوده؛ لأن الرئيس بدأ حديثه. فقال: «أصدقائي، يتملَّكني شعور بالحزن الشديد وأنا أقف أمامكم لأقول إن غزو كوكبنا — نعم غزو؛ فلست أجد كلمة أخرى لوصف ما حدث — من قِبَل تلك الكائنات الفضائية قد وصل إلى حد لا يمكن التغاضي عنه. وجهت حكومة جمهورية مصر العربية أمرًا واضحًا لمن يمارسون هذا العدوان أن يكفوا عن استعدادهم للحرب على الفور وأن يبدءوا انسحابهم من الأراضي المصرية. ولم يكتفِ المعتدون بعدم الانصياع لهذا الأمر — الذي يتفق مع القانون الدولي — بل لم يكن لديهم من الكياسة ما يجعلهم يقرون بتلقي مثل هذا الأمر.»

«وبناءً على هذا فإن حكومة حليفتنا جمهورية مصر العربية تجهز جيشًا مدرعًا لعبور الصحراء وطرد الغزاة خارج أراضيها. علاوة على ذلك، فإن رئيس جمهورية مصر العربية قد طالب الولايات المتحدة بالالتزام بالمعاهدات الحالية التي تفرض عليها المساعدة في أي جهد عسكري لطرد هؤلاء الغزاة.»

«لعلكم تدركون أنه لا خيار أمامي سوى الانصياع لهذا المطلب. ومن ثمَّ فقد أصدرتُ أمرًا للفرقة السادسة والثانية عشرة والرابعة عشرة والثامنة عشرة من القوات الجوية بتدمير المعسكرات التابعة لتلك الكائنات الفضائية.» وابتسم الرئيس ابتسامة خفيفة. واستطرد: «يُفترض في أغلب الأحوال أن يحظى قرار كهذا بسرية تامة، لكني أظن أن استعراض القوات الحقيقية الموجَّهة للتعامل مع المعتدين سوف يقنع هؤلاء الغزاة القادمين من الفضاء بحتمية وضع حد لأنشطتهم الاستفزازية على الفور والإعلان عن نيتهم مغادرة الأراضي المصرية.»

والتفت الرئيس لينظر إلى شاشته؛ فالمشهد الذي كان يُعرض على الشاشات في باقي أنحاء العالم أوضحَ حقيقة ما وعد الرئيس به. كانت الطائرات الحربية تتجه من كل اتجاه صوب هدف واحد هو «منخفض القطارة». تعرف رانجيت على بعض هذه الطائرات؛ فكان منها الأجنحة الطائرة ذات السرعات فوق الصوتية والطائرات الضخمة القديمة من طراز ب-٥٢ — التي كان أول استخدامها في الحرب الفيتنامية والتي ما زالت تعمل بكامل طاقتها — وقاذفات القنابل السريعة ذات إمكانية التخفي عن شاشات الرادار؛ ميَّز رانجيت اثني عشر نوعًا مختلفًا على الأقل من الطائرات جميعها يتوجه إلى نفس النقطة على الخريطة.

وفجأة ودون سابق إنذار لم تعد هذه الطائرات كذلك.

بدا المشهد في نظر رانجيت مماثلًا لما يحدث عند سياج الكلاب حيث يتلقى الحيوان صدمة بفعل شبكة أسلاك مدفونة في كل مرة يحاول فيها اجتياز نقطة معينة أثناء عَدْوه. حدث نفس الشيء مع هذه الطائرات. فمع وصولها نقطة معينة على محيط الدائرة المرسومة التي تتخذ من منخفض القطارة مركزًا لها اختلت الأنماط المرتبة لها، ولم يعد بينها ترابط، وبدأت تفقد طاقتها واحدة تلو الأخرى. لم تنفجر أي طائرة. ولم يكن هناك تصاعد للهب أو أي إشارة على وجود عمل عدائي. كل ما حدث أن أسطول الطائرات الهائل لم يعد يبعث شعلات الوهج التي هي عوادم تلك الطائرات. اختفت تلك الشعلات المتوهجة.

وعندما افتقرت الطائرات إلى قوة الدفع بذلت أفضل ما في وسعها كي تنزلق إلى الأرض، لكن أفضل ما في وسعها هذا كان سيئًا للغاية. ففي غضون دقائق كانت الشاشات تعرض صورًا لخمسمائة أو ستمائة محرقة تحدد كل منها نقطة ارتطام إحدى طائرات الأسطول العسكري الضخم بالأرض حيث انفجر الوقود المتبقي داخل خزاناتها إثر الارتطام مباشرة.

وفي محيط معسكر الغزاة واصلت الآلات المختلفة المشغولة بالعمل مهامها الغامضة دون أن تلقي بالًا لما حدث على الإطلاق.

اعتبرت كائنات «واحد فاصل خمسة» أن منخفض القطارة جنة على الأرض.

نالت مياه الواحة غير الصالحة للشرب على وجه التحديد إعجابهم. إذ كانت أنقى من أي مياه أخرى شاهدوها على كوكبهم على مدار عدة أجيال. بالطبع كانت المياه تحتوي على بضع مواد كيميائية لا بد من ترشيحها، لكنها لم تكن تحتوي على أي ملوثات إشعاعية أو أي باعثات بوزيترونات!

ونال الهواء استحسانهم أيضًا! إذ تمكنوا من استنشاقه دون الحاجة إلى مُرَشِّح! صحيح أنه كان هواءً ساخنًا — نحو ٤٥ درجة مئوية أو ربما ١١٠ درجة فهرنهايت وفق المقاييس العديدة والمحيرة التي يستخدمها البشر — لكن ما إن ينتهوا من حفر النفق الذي يربط المنخفض بالبحر حتى يكون هناك الكثير من مياه البحر المتوسط الباردة التي ستجعل المناخ ملائمًا للعيش.

والواقع أنهم كانوا يشعرون بالسعادة التي يُفترض أن يشعر بها جنس مستعبَد من الكائنات يعتمد في الأساس على الأطراف الصناعية لولا وجود مشكلة واحدة أثارت استياءهم.

كالمعتاد كان «تساعيو الأطراف» هم مصدر هذا الإزعاج. اتفق «تساعيو الأطراف» على تدمير الطائرات المُغيرة لأن هذا لن يعرض حياة أي كائنات واعية في المكان للخطر؛ فجميع الطائرات الحربية تخضع للتحكم عن بعد. لكن الهجوم أودى بحياة بعض البشر وهو ما أثار حالة من السخط.

كانت مجموعة من المنقبين عن البترول قد دفعهم الحظ العاثر لوضع مقاييس الزلازل التي يستخدمونها في المكان الذي تحطمت فيه واحدة من قاذفات القنابل الأمريكية. ولم يلقَ سوى أحد عشر شخصًا حتفهم، أي ما يعادل أقل من ٠٫٠٠٠٠٠٠١ في المائة من الجنس البشري. ووفق أي إحصاء عقلاني لم يكن هذا عددًا كافيًا لإثارة القلق.

لكن «تساعيي الأطراف» ظلوا يموءون كالقطط بسبب ما حدث. فأفكار البشر عن العدالة والتعويضات لم تكن كأفكارهم، وقد عرفوا ذلك من استراق السمع على جميع أنشطة البشر المهمة وعدد لا بأس به من الأنشطة الثانوية أيضًا. في النهاية، استسلمت كائنات «واحد فاصل خمسة». وتساءلوا: «ما الذي يمكننا فعله لمعالجة هذا الموقف؟ هذا بخلاف مغادرة هذا المكان الخلاب والعودة إلى كوكبنا لأننا لن نقوم بذلك.»

أجاب الخبراء من «تساعيي الأطراف» على الفور: «التعويضات. عليكم أن تدفعوا لهم. تأكدنا من خلال برنامج التنصت الذي نستخدمه أنه يمكن إصلاح أي خطأ يحدث في شئون هؤلاء البشر عن طريق دفع تعويضات تكون في صورة أموال. هل ترغبون في القيام بذلك؟»

لم تستغرق كائنات «واحد فاصل خمسة» وقتًا طويلًا في الرد على هذا السؤال. فأجاب قائدهم في الحال: «بالتأكيد سنقوم بذلك.» ثم أتبعوا هذا بسؤال آخر: «وما «الأموال»؟»

الفصل الرابع والأربعون

خلافات دولية

في اليوم التالي وعلى مسافة بعيدة جدًّا من منخفض القطارة، كانت أسرة سوبرامانيان تنهي إفطارها. كانت ناتاشا وروبرت يرتديان ملابس السباحة في انتظار مرور الثلاثين دقيقة الإلزامية التي تفرضها عليهما والدتهما بعد الانتهاء من تناول الطعام وقبل التوجه إلى الشاطئ. في حين كان رانجيت يقطب جبينه أمام الشاشة وهو يمسك بكوب من الشاي في يده. فعلى الشاشة ظهرت مستعمرة «واحد فاصل خمسة» الصاخبة كما يرصدها واحد من بضعة أقمار صناعية لا تزال خاضعة لتحكم البشر، وكان رانجيت يقطب جبينه أمام المشهد منذ فترة من الوقت.

عندما فكرت مايرا في الأمر تساءلت عما يستحوذ على انتباه زوجها على الشاشة إلى هذا الحد، غير أن تركيزها كان منصبًّا على الفرز الصباحي للرسائل الواردة. رفعت مايرا إحدى الرسائل لتراها بوضوح وتحدثت إلى رانجيت. فقالت: «تتساءل جامعة هارفارد هل لديك رغبة في توجيه كلمة في حفل التخرج مرة أخرى. وهذه رسالة من يوريس. يقول فيها إنهم ما زالوا يتلقَّون رسائل التهديد، لكن إن كان هناك عبدة للشيطان ينوون مهاجمة مصعد الفضاء حقًّا فإنهم لا يوجدون في نطاق عشرين كيلومترًا من القاعدة. و... انتظر! ما هذا؟»

توقفت مايرا إثر سماع صيحة دهشة من زوجها، وعندما رفعت بصرها أدركت سبب هذه الدهشة. توقف التصوير الجوي، واستولت الكائنات الفضائية على القمر الصناعي مرة أخرى من أجل تحقيق مآرب شخصية، وظهر هيكل مألوف الشكل على الشاشة. صاحت ناتاشا التي كانت تقف خلف مايرا: «تبًّا! ها أنا ذا مجددًا!»

كانت الصورة لناتاشا. أو بالأحرى كانت لشبيهة ناتاشا التي لا تُقهر — بشعرها المجعد المتدلي فوق أذنها اليسرى — والتي تكرر ظهورها كثيرًا منذ أن بدأ العالم في

التداعي. تنهدت مايرا. وقالت: «كنت أتمنى لو أنك ترتدين مزيدًا من الملابس»، وجُنِّبت رد ابنتها اللاذع عندما بدأ هذا الكائن حديثه.

«أحمل إليكم رسالة من الكائنات التي تسمى «واحد فاصل خمسة» المقيمين حاليًّا في المكان الذي يسمى منخفض القطارة على الكوكب الذي تطلقون عليه اسم الأرض. ومحتوى الرسالة كما يلي:

«نشعر بالأسف الشديد على البشر الذين سقطوا قتلى أثناء صد الهجوم. سوف ندفع تعويضات تصل إلى ألف طن من الذهب المعدني الخالص بنسبة ٩٩٫٩٩٩٩٩، لكننا بحاجة إلى ٩٠ يومًا لمعالجة الذهب من مياه البحر. نرجو إخبارنا بقبول العرض.» وهكذا تنتهي رسالتهم.»

اختفت الصورة، وظهرت مكانها الهياكل اللامعة الموجودة داخل المستعمرة، استدار رانجيت يحدق النظر في زوجته وأبنائه. وقال متشككًا: «أظن أنهم صنعوا ما يشبه نسخة احتياطية من تاشي يمكنهم الاستفادة منها في الإدلاء ببياناتهم.»

ابتسمت مايرا على استحياء. وقالت: «لا أدري، لكن أسمعت ما قالوا؟ يكاد يبدو مناسبًا. إذا كانت لديهم رغبة في محاولة التعويض عما حدث، فهناك بعض الأمل.»

أومأ رانجيت في ترو. ثم تساءل: «مر وقت طويل لم نسمع فيه أنباءً سارَّة حتى إني لا أدري كيف يكون الاحتفال بها. ما رأيكم في مشروب جماعي؟»

قالت ناتاشا على الفور: «ما زال الوقت مبكرًا جدًّا. وعلى أي حال روبرت لا يشرب، وأنا أيضًا لا أشرب كثيرًا. افعلا ما يحلو لكما. سنذهب أنا وروبرت إلى الشاطئ.»

قال رانجيت وهو يقبل يد زوجته: «سوف أجري اتصالًا بالمكتب. أود معرفة رأي دافودبوي فيما حدث.»

قالت مايرا: «إذن اذهبوا جميعًا.» وجلست تفكر هنيهة في صمت. ثم تنهدت، وصبت لنفسها كوبًا من الشاي الساخن، وعادت للتفكير فيما خُيِّل إليها أنه بداية أخرى لعالم طبيعي.

لم تتلاشَ أفكار التدمير والنكبات من عقلها تمامًا. غير أنها كانت أقل حدة حينئذٍ؛ فلم تكن هذه الأفكار تشغل الفكر أكثر من ألم عابر في أسنانك يذكِّرك بحجز موعد مع طبيب الأسنان؛ ليس بالضرورة الشهر القادم بل ربما يكون الشهر الذي يليه. وهكذا عادت مايرا مرة أخرى لتصفح رسائل الصباح. كانت هناك رسالة من ابنة أختها آدا لابروي تقول مستبشرة إن حالة «التخزين في الآلة» التي تحدثت عنها الكائنات الفضائية

تشبه إلى حد بعيد فكرة الذكاء الاصطناعي الذي اشتغلت به على ما يبدو طوال حياتها، وسألت أيضًا هل لدى ناتاشا أي وسيلة يمكن من خلالها سؤالهم عن مزيد من التفاصيل؟ ووردت اثنتا عشرة رسالة من أشخاص آخرين جميعهم يشتركون في الاعتقاد خطأً بأن ناتاشا الحقيقية ربما يمكنها بصورة أو بأخرى إرسال رسالة إلى الكائنات الفضائية. وكانت هناك رسالة من معبد ترينكومالي أثارت قلق مايرا إذ ورد فيها أن الراهب المسن سوراش قد اجتاز آخر جراحة أجريت له لكن التوقعات طويلة المدى غير مضمونة في أحسن الأحوال.

أعادت مايرا قراءة الأخبار المحزنة وقد أطبقت شفتيها في تعبير عن القلق. كان سوراش قد اتصل بنفسه ليخبرهم أنه سيخضع لعملية جراحية أخرى، لكنه تحدث عنها كما لو كانت عملية لاستئصال اللوزتين. بينما تدل هذه الرسالة على أن الأمر أكثر خطورة. تنهدت مايرا، وانتقلت إلى الرسالة التالية …

واكفهرَّ وجهها. كانت هذه الرسالة موجهة إلى رانجيت شخصيًّا. جاءت من أوريون بليدسو يقول فيها: «هذه الرسالة لتذكيرك بالالتزامات المفروضة على المواطنة الأمريكية ناتاشا دو سويزا سوبرامانيان بموجب قانون الخدمة العسكرية الموحد لسنة ٢٠١٤. عليها أن تتجه إلى أي قاعدة عسكرية أمريكية حتى تخضع للتقييم. ولا بد من حدوث ذلك في غضون الثمانية أيام المقبلة وإلا ستُطبق عليها العقوبات.»

لم تتمكن مايرا من اللحاق بناتاشا لإخبارها بمضمون هذه الرسالة التي تتعلق بحياتها المستقبلية. لكنها نادت على رانجيت، وعندما أنهى مكالمته الهاتفية، وأعطته الرسالة قال: «يا إلهي! اللعنة!»

هكذا أصبحت أسرة سوبرامانيان بصدد مجموعة جديدة وغير متوقعة تمامًا من المشكلات. لم يخطر ببال رانجيت أو مايرا أن الحقيقة الجغرافية الخاصة بمولد ابنتهما على الأراضي الأمريكية تخول لأمريكا الحق في استغلال خدماتها. ولم يكن أمامهما سوى اتخاذ خطوة واحدة، وهو ما حدث بالفعل.

عندما ألح رانجيت في طلب المساعدة من صديقه القديم جاميني باندارا تركه جاميني منتظرًا على الهاتف دقيقة، ثم اعتذر منه، وتركه وقتًا أطول بكثير.

لكنه عندما عاد بدا أقل قلقًا. وقال: «رانجيت؟ ما زلت على الهاتف. حسنًا. لقد تحدثت مع والدي، وهو يجري اتصالًا الآن مع مستشاريه القانونيين. ويود منك الحضور إلى هنا.» وتوقف جاميني هنيهة، وعندما تابع حديثه كان يبدو عليه الارتباك. إذ

قال: «المشكلة في ذلك الحقير بليدسو. نود الحديث بشأنه يا رانجيت. سوف يرسل والدي طائرة لك. أحضِر معك مايرا. وناتاشا. وبالطبع، روبرت أيضًا. سوف نكون بانتظاركم.»

لم تكن الطائرة التي وصلت إليهم ذلك المساء قريبة في الحجم بأي حال من الأحوال من الطائرة التي أنقذت رانجيت من عملية التسليم الاستثنائي. كان على متن الطائرة مضيفة واحدة لم تكن تضاهي في جمالها المضيفتين الأخريين في شيء، لكن كان على متنها شيء غير متوقع. كان يقف عند باب الطائرة صديق قديم يرحب بهم. نظرت إليه مايرا مرتين، ثم ابتسمت. وقالت: «الدكتور دو سارام. يا لها من مفاجأة رائعة!»

استسلم نايجل دو سارام — الرجل الذي عمل محاميًا لرانجيت ذات مرة والذي يعمل الآن وزيرًا للخارجية لدى الرئيس باندارا — لعناق مايرا، ثم أشار للجميع بالجلوس على المقاعد التي تحيط بمائدة طويلة. وقال وهو يربط حزام الأمان: «سوف نتحدث في الطريق.» وبينما تنطلق الطائرة على ممر الإقلاع قرأ دو سارام الرسالة التي أعطتها مايرا له، ومع استقرار الطائرة في تحليقها كان دو سارام مستعدًّا. فالتفت إلى ناتاشا. وقال: «أظن أن ما يتعين فعله واضح؛ فقد توصلت إلى المعلومات الخاصة بالقانون الأمريكي وقرارات المحكمة فيما يتعلق بهذا الشأن وأنا في الطريق إلى هنا. أول شيء ينبغي فعله هو التخلي عن الجنسية الأمريكية؛ سنجد الأوراق جاهزة في مكتبي عندما نصل. كان الأفضل لو فعلت ذلك منذ سنوات بالطبع.» وأضاف: «إنه خطئي أنني لم أتأكد من ذلك.»

تساءل رانجيت بارتياب: «أهذا كل ما علينا فعله لتسوية هذا الأمر؟» فإذا كانت أقوى دولة على الأرض تحاول تجنيد ابنته، فلن يكون هناك مجال للمجازفة.

بدا الذهول على وجه المحامي العجوز. وقال: «بالطبع لا! لن يعني هذا شيئًا سوى أن القضية بأكملها ستُنظر أمام المحاكم الأمريكية. لكن هذا سيستغرق سنوات، ولا أدري إن كنتم تنتبهون إلى وجود انتخابات رئاسية قادمة في أمريكا. من الواضح أن الإدارة الحالية لن تفوز. ونأمل ألا تطبق الإدارة التالية السياسات نفسها. وفي غضون ذلك أرجو منكم البقاء بعيدًا عن أمريكا.»

أحاطته ناتاشا بذراعيها. وهمست قائلة: «شكرًا لك.»

كرر والدها — الذي بدا عليه الحرج — تعبيرات الشكر، وأضاف: «أظن أن هذا الشأن لم يكن يستدعي مجيئك إلى هنا.»

قال المحامي: «هذا سؤال آخر، أليس كذلك؟ يريد الرئيس باندارا أن يتحدث معك بشأن ضابط سلاح البحرية الأمريكي السابق الذي يدعى أوريون بليدسو.»

عندئذٍ تدخلت مايرا. وقالت: «هو الذي دبَّر قصة تجنيد تاشي.»

هز المحامي رأسه. وقال: «ليس واضحًا هل هذه فكرته أم أنها صدرت بناءً على أوامر عليا. ما أعرفه هو أنه الآن في بروكسل للحديث مع المسئولين في البنك الدولي.»

بدت مايرا أكثر قلقًا. وتساءلت: «بشأن ماذا؟»

قال المحامي متجهمًا: «إنه يعطيهم أوامر صادرة من الأمريكيين. وهم يعدون بيانًا للإدلاء به صباح غد، وسيذكرون فيه أنه لا يمكن قبول هذه الكمية الهائلة من الذهب لأن من شأنها الإخلال بتوازن الهيكل المالي العالمي.»

قطب رانجيت جبينه، وأطبق شفتيه. ثم أقر: «ربما يكون هذا صحيحًا. فهذا الأمر يعادل ... ماذا؟ ضخ رأس مال جديد في الأسواق قيمته تريليونات الدولارات بين عشية وضحاها. وقد يكون لهذا الأمر تداعيات خطيرة. ناهيك عن تأثير ذلك على سعر الذهب في الأسواق العالمية.» ثم هز كتفيه. وأضاف: «إنك في موقف لا تحسد عليه يا سيدي. لا أدري كيف يمكن التعامل مع هذا النوع من المشكلات.»

لكن المحامي كان يهز رأسه. وقال: «أظن أن الرئيس لن يوافق. على الأقل لديه أمل أنكم تستطيعون المساعدة. سوف ينضم إليكم بعد قليل، فهو يود معرفة كل شيء عن هذا الشخص الذي يدعى بليدسو. وبعدها سيحاول التوصل إلى بعض الحلول.»

لم يكن الرئيس السريلانكي هو الوحيد من بين قادة العالم الذي يدعو إلى اجتماع هيئة من الخبراء. ففي كل مكان من الكوكب كان عدد من أكثر الأشخاص ذكاءً واطلاعًا يناقشون نفس الأسئلة. عقدت منظمة السلام عن طريق الشفافية اجتماعات خاصة بها، في حين استطلع مقرها الرئيسي أفضل تلك الآراء وأَصْوَبها ...

ربما كُللت هذه الجهود بالنجاح لولا تدخُّل الأمريكيين لإفساد الأمر برمته. كان هذا من خلال بيان ألقي كالمعتاد من قبل المتحدثة الرسمية باسم الإدارة الأمريكية، لكن تأثيره على الموقف لم يكن كالمعتاد مطلقًا.

قالت المتحدثة الرسمية وهي تبتسم أمام الكاميرا تلك الابتسامة المألوفة التي هوَّنت عليها الإدلاء بعشرات التصريحات المقيتة: «يود الرئيس توضيح أن أمريكا أيضًا لها حق مشروع في التعويضات بسبب الخسائر الفادحة التي لحقت بطائرات قوات حفظ السلام التابعة لها دون داعٍ.»

الفصل الخامس والأربعون

البحث عن حل

عندما رافق نايجل دو سارام أسرة سوبرامانيان إلى مقر الرئاسة، كانت آثار تقدم السن التي ظهرت على داتوسينا باندارا أول شيء استوقف رانجيت. لم يكن هذا الأمر مفاجئًا تمامًا. فالرئيس ناهز التسعين عامًا. لكنه بدا حينئذٍ أكثر وهنًا عن آخر مرة التقى فيها رانجيت أثناء تنصيبه رئيسًا. غير أن صوته كان واضحًا قويًّا أثناء ترحيبه بهم. قبَّل باندارا كلًّا من مايرا وناتاشا، وصافح كلًّا من رانجيت وروبرت بحيوية بالغة، وهو ما فعله جاميني لكن مع اختلاف أنه عانق رانجيت وروبرت بدلًا من مصافحتهما. قال جاميني: «نشكركم على قدومكم. طلبنا شايًا للكبار» — وغمز بعينه إلى ناتاشا التي ردت عليه بابتسامة معبرة عن الامتنان لاعتبارها من الكبار — «وعصير فاكهة لروبرت. وإذا ملَّ روبرت الاستماع إلينا، فهناك جهاز لألعاب الفيديو بجوار النافذة.»

قالت مايرا: «سيكون هذا أمرًا رائعًا. فهو يحب لعبة الشطرنج الثلاثية الأبعاد.»

– «عظيم. هل سوَّى الدكتور نايجل مشكلاتكم فيما يتعلق بمسألة التجنيد؟»

قال رانجيت: «أظن ذلك. هذا ما نأمله على كل حال.»

«إذن دعونا نركز على الموضوع الأهم. يسبب لنا العجوز أوريون بليدسو الكثير من المشكلات. دعونا نبدأ بسماع ما يفعله معكم.»

أجاب نايجل دو سارام عن هذا السؤال بسرعة وباختصار. فأومأ جاميني برأسه، ثم توجه بالكلام لأسرة سوبرامانيان. فسألهم: «هل لاحظتم الجهة التي وردت منها رسالته؟»

هزت مايرا رأسها. وقطب رانجيت جبينه. وقال: «في الواقع لاحظت شيئًا. لم تكن الرسالة من واشنطن. ولا من مكتبه في كاليفورنيا. أظن أنها مرسلة من مكان ما في أوروبا.»

نظر جاميني إلى والده الذي أومأ في تؤدة. قال الرئيس: «الرسالة واردة من بروكسل. فبسبب الضغط الأمريكي أصدر البنك الدولي أمرًا للمصريين برفض عرض الذهب، والعقيد بليدسو هو الذي ضغط عليهم.»

تحدث جاميني باندارا. فقال: «كل هذا بسببي. بدا لي أن بليدسو هو الرجل الذي يمكنني الاستعانة به لاستخراج التصريح الأمني الذي كنتَ بحاجة إليه للانضمام إلينا في منظمة السلام عن طريق الشفافية. كانت الحكومة الأمريكية سببًا في طلب هذا التصريح؛ لأنهم بالتأكيد لم يرغبوا في تمكين أي شخص لا يتمتع بتصريح أمني على أعلى مستوى من المشاركة في سلاح «الرعد الصامت»، خُيِّل إليَّ أن بليدسو هو الشخص المناسب لاستخراج هذا التصريح لك.» ثم هز رأسه بوجه عابس. وأضاف: «كان قرارًا خاطئًا. كان يجدر بي البحث عن وسيلة أخرى. فهو لا ينفك يثير القلاقل منذ ذلك الحين.»

قال والده: «لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب. السؤال المهم هنا: ما الذي يمكننا عمله؟ مِصر حقًّا بحاجة ماسة إلى المال.»

قطبت مايرا جبينها. وقالت: «لِمَ يتعين عليهم الاستماع إلى البنك الدولي؟ لِمَ لا يقبلون عرض الكائنات الفضائية فحسب؟»

قال الرئيس في شيء من الأسى: «أتمنى لو كان ذلك بوسعهم يا عزيزتي مايرا. سوف يلجأ البنك إلى الثأر عن طريق إلغاء الاعتمادات المالية التي يتمتع بسلطة إلغائها، وإيقاف ما يمكن إيقافه من المنح، وإبطاء جميع الإجراءات الأخرى.» وهز الرئيس رأسه. ثم أضاف: «للأسف لم يخطئ الأمريكيون بشأن تأثيرات ضخ هذه الكمية من رأس المال الجديد؛ فقد يفضي ذلك إلى حدوث مشكلات خطيرة على الأسواق العالمية. وربما تسفر عن إفلاسنا هنا.»

ثم أطرق الرئيس برأسه. كانت ناتاشا تجلس بجواره على الأرض وقد وضعت ساقًا فوق الأخرى وبدت عليها علامات القلق. فسألها: «أتودين أن تقولي شيئًا يا عزيزتي؟»

أقرت ناتاشا: «أجل. لماذا مصر دولة فقيرة؟ كنت أظن أن السد العالي في أسوان وضعها في مصاف الدول الغنية.»

ارتسمت على وجه الرئيس ابتسامة حزينة. وقال: «هذا ما ظنه الكثيرون. يمكن لسد أسوان إنتاج كميات هائلة من الطاقة الكهربية، لكن لا يمكنه القيام بشيئين في وقت واحد. فالوصول إلى الحد الأقصى من إنتاج الطاقة سوف يؤثر سلبًا على الناتج الزراعي، وهم بحاجة ماسة إلى الغذاء.» هز باندارا رأسه. وأضاف: «يمكن للمال أن يصنع المعجزات في مصر. مثل بناء المئات من مصانع الطاقة الجديدة على سبيل المثال.»

سألت ناتاشا: «ولم لا يقومون بذلك على أي حال؟»

نظر إليها الرئيس نظرة ترفق. وقال: «هم يتمنون ذلك. لكنهم لا يستطيعون. إنهم لا يملكون المال. وهم لا يملكونه منذ فترة طويلة. لذلك فإن السبيل الوحيد أمامهم لبناء مصانع جديدة يكون باتباع نظام البناء والامتلاك والتشغيل والتحويل. حيث يقوم القطاع الخاص بتمويل بناء المصانع وتصبح ملكًا له يحصد منها الأرباح على مدار عدد من السنوات قبل تحويل ملكيتها إلى الدولة. لكن عندئذٍ يكون قد مر على بناء هذه المصانع وقت طويل وربما لا تكون آمنة تمامًا كما يفترض.» وهز الرئيس رأسه مرة أخرى. وأضاف: «هذا ما أكده لي صديقي حميد. سيشعر بالاستياء إذا عرف الأمريكيون أنه أخبرني بذلك.»

تنهدت ناتاشا. وقالت: «وما العمل إذن؟»

جاءها الرد من شخص لم يكن يُتوقع رده. إذ رفع روبرت بصره عن شاشته. وقال مستنكرًا: «القاعدة الذهبية.»

نظر إليه نايجل دو سارام نظرة ود. وقال: «ربما تكون محقًّا في ذلك يا روبرت.»

تجهم جاميني باندارا. ثم تساءل: «محق بشأن ماذا؟»

– «حسنًا، بشأن القاعدة الذهبية. عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به. هذا أبسط وصف أعرفه لعالم مطبوع على حب الخير، وإذا التزم الجميع بهذا المنهج — نحن والأمريكيون والكائنات الفضائية والعالم أجمع — فإنني على يقين من أن عددًا كبيرًا من المشكلات سوف يُحل.»

نظر جاميني بارتياب إلى صديق والده. وتساءل: «لا أقصد الإساءة يا سيدي، لكن أتظن حقًّا أن كائنات «واحد فاصل خمسة» سوف تتأثر بمقولة قديمة منشؤها معتقدات بعض الشعوب البدائية؛ أعني ديانات بعض الشعوب؟»

قال المحامي على نحو قاطع: «ليس لديَّ شك في ذلك. القاعدة الذهبية ليست مجرد معتقد ديني. فقد عبر آخرون عن نفس المعنى بعبارات مختلفة دون التوسل إلى قوة خارقة. فهناك على سبيل المثال فيلسوف العقل المحض إيمانويل كانْت. كان ما قاله هو ...» أغلق دو سارام عينيه هنيهة، ثم ردد الكلمات الشهيرة: «تصَرَّف دائمًا وفق القاعدة التي تجعلك تتمنى أن لو كانت تلك القاعدة قانونًا كونيًّا. أليست هذه قاعدة روبرت الذهبية بالضبط؟ تلك التي أطلق عليها كانْت اسم «الإلزام المطلق». كان يعني أنه ينبغي على جميع البشر — وأظن جميع الكائنات الفضائية أيضًا إذا أطلق كانْت خياله للتفكير

في هذه الأشياء — اعتماد تلك القاعدة كقاعدة سلوكية رئيسية دون استثناءات.» داعب دو سارام شعر روبرت في حنان. وقال: «كل ما عليك الآن يا روبرت أن تقنع والدك بإثبات هذه النظرية تحديدًا، وسوف يصبح العالم مكانًا أفضل.» ثم ألقى نظرة على الجانب الآخر من الغرفة حيث جلس رانجيت أمام الشاشة التي تعرض ما تقوم به كائنات «واحد فاصل خمسة» من أنشطة لا حصر لها. وصاح: «ألا ترغب في المحاولة، يا رانجيت؟»

وعندما رفع رانجيت بصره كان يرتسم على وجهه تعبير ملائكي، لكنه لم يكن ينظر إلى نايجل دو سارام. قال رانجيت: «جاميني، هل تذكر عندما كنا نناقش — منذ سنوات طويلة — موضوعًا لإحدى المحاضرات التي حضرتُها؟ حول فكرة طرحها الإسرائيليون — وأطلقوا عليها اسم المشروع الشمسي المائي — من أجل توليد الكهرباء في البحر الميت؟»

لم يستغرق جاميني أكثر من نصف ثانية للتفتيش بين ذكرياته القديمة. وقال «لا. ما الذي تتحدث عنه؟»

قال رانجيت متباهيًا بالفكرة التي توصل إليها: «اكتشفتُ أخيرًا السبب الذي ربما يدفع كائنات «واحد فاصل خمسة» إلى حفر هذا النفق! ربما يبنون مصنعًا لتوليد الكهرباء! حسنًا، لن يسمح الأمريكيون بتقديم الكائنات الفضائية كل تلك الأموال للمصريين، لكنهم لا يستطيعون الاعتراض على مشاركة الكائنات الفضائية بعض الطاقة الكهربائية مع المصريين الذين هم في أمسِّ الحاجة إليها!»

الفصل السادس والأربعون

التوصل إلى اتفاق

لَمَّا كانت هناك حاجة إلى اتخاذ قرارات مهمة اجتمع نحو ثمانية عشر أو عشرين من الكائنات الفضائية، وضم هذا الاجتماع «تساعيي الأطراف» وكائنات «واحد فاصل خمسة» بل وعددًا قليلًا من «المخزنين في الآلات» الذين كانوا يقودون الأسطول. كان مكان الاجتماع في السابق منصة للعميد البحري في أسطول غزو «واحد فاصل خمسة»، أما الآن فقد صار شبيهًا إلى حدٍّ ما بالكرملين أو المكتب البيضاوي. كان الحشد مثيرًا لاشمئزاز كائنات «واحد فاصل خمسة»؛ لأن معظمهم كان يرتدي أقل ما يمكن ارتداؤه من الملابس الواقية، ومن ثم كانوا أكثر عرضة من أي وقت آخر لأصوات كل هؤلاء الآخرين ومناظرهم وروائحهم.

من بين جميع كائنات «واحد فاصل خمسة» كانت المسئولة عن حمايتهم من المشكلات هي أقلهم رضا عن كل تلك المدخلات الحسية. كان لقبها الرسمي «مكتشفة المغبَّات»، لكنهم دائمًا ما كانوا ينادونها باسم «القَلُوقَة». والواقع أن أكثر ما كانت تنفر منه «القلوقة» هو اضطرارها إلى حضور محاضرة يلقيها كبير المحكِّمين من «تساعيي الأطراف» حول التقنيات البشرية العتيقة. في حقيقة الأمر لم تكن «القلوقة» تهتم لأي علاقة مع «تساعيي الأطراف» خاصة تلك العلاقات التي يُحتمل أن تتضمن لمس أطرافهم التسعة الصغيرة البغيضة. لكن في بعض الأحيان لا يكون أمامها خيار آخر.

كان الجزء الذي يُدَرَّس لهم آنذاك حول تصميم الآلات الميكانيكية البشرية ذي أهمية بالغة لدى البشر. والواقع أن «القلوقة» أقرت أن تلك أفكار مبتكرة. فالمياه تأتي من البحر وتهبط على قاع منخفض القطارة لتدير التوربينات هناك من أجل توليد الكهرباء. سألت «القلوقة» المتحدث باسم «تساعيي الأطراف»: «وهذه الكهرباء هي التي تحتاج إليها تلك الكائنات؟»

أجاب «تساعي الأطراف» قائلًا: «هذا ما وعدتموهم به. لديَّ صورة من الاتفاق إن كنت تودين رؤيتها.»

وبالفعل كان هذا الكائن يمد أحد أطرافه المُعالجة بعصا بيانات. انتفضت «القلوقة»، وابتعدت قليلًا. ولما لم تكن ترغب في إخفاق هذه المفاوضات فقد طرحت تعليقًا إيضاحيًّا، وقالت: «عندما أشرتم بهذا العرض أول مرة ظننت أنكم كنتم تفكرون في تعليمهم تجميع الطاقة الفراغية مثلما نفعل. أنا سعيدة أننا لا نقوم بهذا. لأنه قد يثير غضب «عظماء المجرة» عندما يعودون.»

لم يرد «تساعي الأطراف». واستطردت «القلوقة». فتساءلت: «وما هذا الشيء الذي يسمونه «الإلزام المطلق»؟»

أخفى «تساعي الأطراف» تثاؤبه. وقال: «إنها الطريقة التي تود هذه الكائنات أن تدير كوكبهم بها. وهم يريدوننا أن نفعل الأمر نفسه. وواقع الأمر أن …» — أشار بطرفه التاسع إلى أحد الطيارين من «المخزنين في الآلات» الذي كان يتابع المحادثة مع مترجِمِه من «تساعيي الأطراف» — «انتقال التكنولوجيا بدأ بالفعل.»

تنهدت «القلوقة» التي كانت تعي ذلك جيدًا. وقالت: «وعندما يعود عظماء المجرة، ماذا ستقولون لهم؟»

أصدر «تساعي الأطراف» صفيرًا متبرمًا. وأجاب: «ربما يعودون في غضون ثانية من الآن أو في غضون عشرة آلاف عام. فمقياس الوقت لديهم مختلف. أنتِ تعرفين «عظماء المجرة».»

حدقت «القلوقة» النظر إلى «تساعي الأطراف» هنيهة. ثم قالت وهي ترتجف داخل درعها الخفيف: «في الواقع نحن لا نعرف عنهم شيئًا على الإطلاق. ومع ذلك، فإننا نقبل العرض ما دام لا يوجد بديل آخر. وإن كان الحظ حليفنا عند عودة «عظماء المجرة» ربما نكون جميعًا في عداد الموتى.»

قبل عودة «القلوقة» إلى مركز القيادة أصرت على غمر المكان بالغازات المتأينة. وعلى الرغم من ذلك، فقد توقفت عند الباب لتشم المكان قبل دخوله.

دفع ذلك شاغلي المكان إلى التصرف كما لو كانوا يتبادلون ابتسامات ساخرة ولكن على طريقة «واحد فاصل خمسة». لكن الوحيد الذي رفع صوته كان ذلك الكائن الذي يُدعى «المدير». فقال لها: «لقد ذهبوا، يا «قلوقة». بل واختفت روائحهم أيضًا. لم يعد هناك ما يدعو إلى الخوف.»

نظرت إليه «القلوقة» نظرة استنكار وهي تتخذ مقعدها. لكنه في النهاية لم يكن أرفع منها مكانة وفق التدرج الوظيفي بين كائنات «واحد فاصل خمسة» فحسب، بل كان رفيقها عندما تتاح الفرصة لذلك. قالت له هو ومن كانوا معه في الغرفة: «تعرفون أنني لا أخاف من «تساعيي الأطراف». أتودون أن أخبركم بسبب نفوري منهم؟»

قال المدير برقة: «رجاءً أخبرينا.»

قالت: «لست أنفر منهم بسبب رائحتهم المقززة، ولا لأن طرفهم التاسع — الذي يستخدمونه في تداول الأشياء — هو العضو التناسلي لديهم في الوقت نفسه. هذه أشياء بغيضة. في بعض الأحيان يحاولون لمسي بهذا العضو، وهو أمر مقزز. لكن لا حيلة لهم في تغيير طبيعتهم البيولوجية، أليس كذلك؟»

أكد المدير: «بلى»، وضجت الغرفة بهمسات صاخبة من الآخرين يؤيدون قوله.

قالت: «لكنهم يستطيعون المساعدة في تعليمنا سكان هذا الكوكب وتقديم النصح لهم حتى يصيروا على نفس درجة تحضرنا. لا نستطيع أن نقبل أن تتم كل تعاملاتنا معهم عن طريق «تساعيي الأطراف»؛ لأنهم الوحيدون الذين يتحدثون لغاتهم.»

انقطعت أصوات الهمس فجأة. حتى المدير ظل صامتًا هنيهة قبل أن يجازف بالكلام: «رؤساؤنا لا يريدوننا أن نتحدث مع الأجناس الأخرى مباشرة. وهذا هو سبب تفويض «تساعيي الأطراف» دون غيرهم بتعلم مهارات اللغة.»

كانت «القلوقة» مصرة على رأيها. فقالت: «لكن رؤساءنا ليسوا هنا الآن. ولدينا مضمار واحد مناسب نسير فيه من أجل المستقبل. لا بد أن نبدأ تعلُّم لغات البشر على الفور ... أم أنكم تفضلون أن يحذو هؤلاء البشر عندما يتطورون حذو «تساعيي الأطراف» بدلًا منا؟»

الفصل السابع والأربعون

الفراق

عندما ذهب رانجيت ومايرا لزيارة سوراش كان قد مر وقت طويل على لقائهم السابق؛ قبل عمليتين جراحيتين وفق حساب الراهب المسن للوقت. في ذلك الوقت كان عالَمهم — وعالم جميع الأَحياء على كوكب الأرض — قد شهد وما زال يشهد تغيرًا جذريًّا.

قال رانجيت لزوجته: «لا يقتصر الأمر على التكنولوجيا فحسب. سادت العالمَ روح المودة. كل ما تمناه المصريون هو حصة في الكهرباء المولدة في القطارة. ولم تكن كائنات «واحد فاصل خمسة» مُلزمة بإعطائهم كل هذا القدر.»

لم ترد مايرا توًّا، ما جعل رانجيت ينظر إليها نظرة سريعة. كانت تحدق ببصرها في مياه خليج البنغال وقد ارتسم على وجهها ما يمكن اعتباره ابتسامة خفيفة. وعندما شعرت بنظرة زوجها إليها اتسعت ابتسامتها. وقالت: «صحيح.»

ضحك رانجيت وعاد يولي اهتمامه للطريق. وهو يقول: «حبيبتي، أنت تحفلين بالمفاجآت. ألم يعد لديك من الأمور ما ترتابين بشأنه؟»

فكرت مايرا. وقالت: «على الأرجح نعم. في الوقت الراهن لا أفكر في أي أمور مهمة تثير شكوكي.»

قال: «ولا حتى الأمريكيين؟»

زمت شفتيها. وقالت: «ليس بعد أن صار هذا البغيض الذي يدعى بليدسو هاربًا من العدالة. أظن أن الرئيس لن يتسبب في أي مشكلات أخرى لفترة من الوقت. إنما جيء ببليدسو من أجل الإنكار.»

استمع رانجيت في صمت، لكنه كان يفكر في شيء آخر غير ما تقوله مايرا. كان يفكر في مايرا نفسها وبالتحديد في حظه السعيد الذي هيأ له الارتباط بها. لم يسمع رانجيت ما قالته مايرا بعد ذلك. فقال: «ماذا؟»

أجابته: «سألتُك هل تظن أنه سيُنتخب مرة أخرى؟»

وقبل أن يرد رانجيت دار بالسيارة على الطريق المتجه أعلى التل حيث ينتظرهما سوراش. ثم قال: «كلا. لكن لا أظن أن هذا سيكون مهمًّا. تظاهر الرئيس بالشدة طوال الفترة التي استطاع فيها ذلك. والآن سيرغب في الظهور بمظهر من يهتم بالآخرين.»

لم ترد مايرا على ذلك إلى أن أوقف رانجيت السيارة. ثم وضعت يدها على ذراعه بوُدٍّ. وقالت: «أتدري يا رانجيت؟ إنني أشعر براحة حقيقية.»

ولَّى عهد الحرية التي كان ينعم بها الراهب العجوز سوراش. فهو الآن ممدد على فراش صغير ويده اليسرى مثبتة في مكانها لتسمح بوصول شبكة من الأنابيب المتصلة بأكياس دواء ذات ألوان متعددة إلى أوردة معصمه دون أن يعوقها شيء. وعندما دخل عليه رانجيت ومايرا قال بصوت يشوبه الرنين بسبب الميكروفون الحلقي المثبت في حنجرته: «مرحبًا بكما يا أحبائي. إنني ممتن لزيارتكما. ثمة قرار يتعين عليَّ اتخاذه يا رانجيت، ولا أعرف ماذا أفعل. لو كان والدك على قيد الحياة لكنت استشرته في الأمر، لكنه مات وأطلب منك النصيحة. هل أسمح لهم بتخزيني داخل آلة؟»

التقطت مايرا أنفاسها. وقالت: «هل كانت آدا هنا؟»

لم يقو الراهب المسن على الإيماء برأسه، لكنه استطاع أن يحرك ذقنه. وقال: «نعم، كانت هنا. لقد دعَوْتُ الدكتورة لابروي. لم يعد بوسع الطب فعل شيء آخر معي سوى أن يتركوا الآلات تتنفس نيابة عني وأستمر أنا في هذا الألم الشديد. ورد في الأخبار أن آدا لابروي لديها بديل آخر. تقول إنها تستطيع القيام بما تعلمته من الكائنات الفضائية. يمكنني أن أترك جسدي، ولكن سأواصل حياتي كبرنامج كمبيوتر. لن أشعر بالألم بعدها.» وصمت الراهب هنيهة قبل أن يقوى على مواصلة الحديث. ثم قال: «لكن سيكون لهذا الأمر تكلفته. فلن يكون السبيل إلى الخلاص عن طريق أعمال الخير في يوجا المنهج الفعلي متاحًا أمامي حسبما أظن، لكن ستكون أمامي فرصة لأداء يوجا المنهج الوجداني ويوجا المنهج الفكري اللذين هما الطريق إلى المعرفة والطريق إلى التقوى. لكن أتعرف ماذا يعني ذلك لي؟»

هز رانجيت رأسه نفيًا.

قال الراهب المسن: «معناه الوصول إلى النرفانا (الانفصال التام بين الروح والجسد وقتل شهوات النفس). سوف تتحرر روحي من دورة الموت والبعث.»

تنحنح رانجيت، وقال: «لكن والدي كان يقول دائمًا إن هذا هو ما يسعى إليه الجميع. ألا تريد ذلك؟»

أجاب الراهب: «بلى، أريده من أعماق قلبي! لكن ماذا لو كان هذا خداعًا؟ لا يمكنني خداع براهما!»

استرخى سوراش في فراشه وعيناه الغائرتان مثبتتان على رانجيت ومايرا في استجداء لنصيحتهما.

قطب رانجيت جبينه. لكن مايرا هي التي تحدثت. فوضعت إحدى يديها على معصمه المنكمش، وقالت: «عزيزي سوراش، نعرف أنك لن تُقْدِم أبدًا على القيام بشيء من أجل غرض دنيء. عليك أن تفعل ما تظنه صوابًا. وسوف يكون كذلك.»

وكانت تلك نهاية الحوار.

وعندما أصبحا في الخارج مرة أخرى، أخذ رانجيت نفسًا عميقًا. وقال: «لم أكن أعرف أن آدا مستعدة لتخزين البشر.»

قالت مايرا: «ولا أنا أيضًا. فعندما تحدثت معها آخر مرة أخبرتني أنهم يستعدون لتخزين فأر أبيض.»

تجهم رانجيت. وقال: «وإذا كان سوراش مخطئًا، فسوف يُبعث على الحال نفسه.»

تحدثت مايرا بعقلانية: «حسنًا، إذا كان سيُبعث من الأساس — وهذا ظنه هو وليس ظني — فأنا واثقة أن هذا لن يكون سيئًا.»

وصمتت هنيهة، ثم ابتسمت. وقالت: «دعنا نر ما وصل إليه العمل في منزلنا.»

بدت لمسات مايرا في إعادة تهيئة المنزل الذي كان يمتلكه والد رانجيت؛ فضم غرفة نوم كبيرة لرانجيت ومايرا في حين كان يحتوي على غرفتين صغيرتين، وضم ثلاثة حمامات (ونصف حمام في الطابق الأرضي من أجل الضيوف) في حين كان يحتوي على حمام واحد فقط. غير أن أيًّا من هذه الغرف لم يكن قد اكتمل بعد، كان التحرك بين أكوام البلاط وتجهيزات السباكة وأعمال الترميم بوجه عام عملًا شاقًّا. فقالت مايرا: «ما رأيك في قضاء قليل من الوقت في السباحة؟»

أقر رانجيت على الفور أنها فكرة رائعة. وفي غضون عشرين دقيقة كانا يرتديان ملابس السباحة ويستقلان دراجتيهما على الطريق إلى الطوف الذي كان يرسو بالقرب من صخرة سوامي.

ولما كان مستوى المياه القريبة ينخفض بسرعة إلى عمق مائة متر وأكثر فقد اصطحبا معهما عدة الغوص. تضمنت تلك العدة أحدث الخزانات المصنوعة من ألياف الكربون التي يمكنها الاحتفاظ بالهواء عند ضغط ألف وحدة من وحدات الضغط الجوي. لم يكن رانجيت ومايرا ينويان النزول إلى هذا العمق، لكن تاريخ المنطقة المؤلم كان معروضًا للمشاهدة تحت سطح الماء. ففي هذا المكان — منذ نحو أربعة قرون — عندما استولى الغزاة البرتغاليون على ترينكومالي دمر قبطانهم البحري المعبد الأصلي في نوبة غضب ديني. (وحقيقة أن بعضًا من أسلاف مايرا كانوا من المخربين لم تثبط اهتمامها على الإطلاق.) كان قاع البحر حول الصخرة لا يزال مملوءًا بأعمدة منحوتة يسهل التعرف عليها.

وما إن أصبح رانجيت ومايرا تحت الماء حتى توقفا لمعاينة أحد المداخل الزاخرة بالتفاصيل. كان رانجيت يهز رأسه كأنما يعاتب زوجته وهو يتتبع ببصره صدعًا شوه نقوش زهرة اللوتس، وفجأة خفت الضوء الذي كان يعلو رأسيهما.

عندما نظر رانجيت عبر المياه التي كانت تلمع من شدة الصفاء وقعت عيناه على هيكل ضخم يمر فوقهم مباشرة.

صرخ رانجيت عبر هاتفه المائي: «إنه قرش الحوت!» قالها رانجيت بصوت مرتفع للغاية لدرجة أن صوته خرج مشوهًا كصوت الراهب العجوز عندما تحدث إليهما عبر الميكروفون الحلقي. ثم أردف: «لنذهب ونتعرف عليه!»

ابتسمت مايرا وأومأت برأسها. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يواجهان فيها هذه الكائنات الضخمة المسالمة التي تتغذى على العوالق البحرية في المياه حول ترينكومالي. كانت هذه الكائنات بطولها البالغ نحو عشرة أمتار بمنزلة السفينة الرئيسية التي تستقلها أسماك الريمورا حيث يلتصق البعض بها من خلال الممصات بينما يسبح البعض بالقرب من أفواهها الضخمة على أمل الحصول على فتات طعام تتغذى عليه.

بدأ رانجيت في ملء جاكيت الغوص بالهواء، وبدأ يرتفع ببطء بمحاذاة الحبل الذي يدله على مكان الطوف. وتوقع رانجيت أن تحذو مايرا حذوه، لكنه أصيب بالفزع عندما سمع صوتها وقد حاولت ضبط نفسها تمامًا لكن صوتها لم يخل من التوتر. لهثت مايرا: «ثمة خطب في مضخة الهواء. سألحق بك بعد دقيقة.» بعدها سُمع صوت أزيز هواء قوي مع امتلاء كيس الطفو الخاص بمايرا فجأة. تعرض رانجيت لدفعة قوية مع انسحاب مايرا بحدة إلى الأعلى.

في لحظات كهذه يدب الفزع في قلوب أكثر الغواصين خبرة. ارتكبت مايرا خطأً جسيمًا عندما حاولت حبس أنفاسها.

وعندما لحق بها رانجيت على الطوف، كان الأوان قد فات. كانت الدماء تسيل من فمها، ولم يكن رانجيت واثقًا هل التقط آخر الكلمات التي همست بها.

أعاد رانجيت تكرار الكلام في عقله إلى أن أصبح واقفًا فوق طوف مروحية الإسعاف الجوي التي وصلت على الفور لتؤكد له ما كان يعرفه بالفعل.

كانت مايرا تقول: «أراك في العالم القادم.» مال رانجيت، وطبع قبلة على جبينها البارد.

ثم قال لقائد المروحية: «دعني أستخدم هاتفك. أود الحديث مع الدكتورة آدا لابروي في الحال.»

الفصل الثامن والأربعون

روح في الآلة

إن كان هناك أي مريض يستحق أن تبذل الدكتورة آدا لابروي كل ما في وسعها لمساعدته فسيكون هذا الشخص بلا شك خالتها الحبيبة مايرا. لكن الأمر لم يكن في يدها تمامًا. لحسن الحظ كانت آلات الكائنات الفضائية التي يمكنها تنفيذ هذه المهمة في مكان قريب تستعد لتحويل العجوز سوراش إلى كيان معنوي يواصل حياته داخل الآلات. لكن لم تُجمع الأجزاء بعضها مع بعض بعد. فكان بعضها متراصًّا في الرواق خارج غرفة سوراش بالمستشفى، وبعضها على نقالات في الفناء، وعدد قليل ما زال في الشاحنات التي نقلت هذه الأجزاء من مصعد الفضاء. وسوف يستغرق تجميع هذه الأجزاء بعض الوقت.

في غضون هذا الوقت لن تدخر عوامل التحلل الوحشية وسعًا في إتلاف جسد مايرا.

لا بد من اكتساب المزيد من الوقت. وهناك طريقة واحدة للقيام بذلك. عندما شق رانجيت طريقه عنوة إلى الغرفة التي كان يجري فيها العمل على ما تبقى من زوجته أدرك أخيرًا سبب إصرارهم الشديد على إبعاده عن الغرفة. لم تكن مايرا ترقد على أحد أسرة المستشفى. بل كانت مغمورة في خزان ماء تطفو على سطحه مكعبات ثلج نصف منصهرة. ووفرت الأساور المطاطية حول رقبتها وخصرها مكانًا لعمل معدات الحفظ التي كان كل منها يضخ سائلًا باردًا داخل جسدها بينما دمها الحقيقي ذو اللون القرمزي يسيل في ... حمام؟ أجل، كان هذا هو المكان الذي يتدفق فيه دم مايرا!

سمع رانجيت صوتًا من خلفه يقول: «رانجيت.»

استدار رانجيت وما زالت ملامح الفزع ترتسم على وجهه. كان صوت الدكتورة آدا لابروي يوحي بالشفقة وإن كانت النظرة التي علت وجهها صارمة. قالت له: «لا ينبغي أن تكون هنا. فالمنظر لا يسُرُّ.» ثم ألقت نظرة على الساعة، وأضافت: «أظن أن الوقت قد حان، لكن عليك الخروج من هنا حتى نتمكن من العمل.»

لم يعترض رانجيت. فقد رأي كل ما كان يقوى على رؤيته. شاهد رانجيت جسد زوجته مرات عديدة بكامل صحته ولونه الوردي طوال زواجهما السعيد الذي دام طويلًا، لكنه الآن صار ضاربًا إلى اللونين الأزرق والبنفسجي حتى إنه لم يحتمل النظر إليه.

كان وقت الانتظار بلا نهاية أو هكذا بدا لرانجيت، لكن انتهى هذا الوقت أخيرًا. كان رانجيت يجلس شارد الذهن في إحدى غرف الانتظار عندما دخلت الدكتورة لابروي متوردة الخدين بل وتبدو سعيدة أيضًا. قالت آدا وهي تتخذ مقعدًا بجواره: «كل شيء يسير على ما يرام يا رانجيت. تمكنا من إنشاء الواجهات البينية. ونحن الآن في انتظار نقل البيانات.»

فسر رانجيت هذا الكلام في نفسه. فقال: «هذا يعني أن مايرا تُخزَّن داخل الآلة الآن؟ ألا يُفترض أن يكون هناك أحد أثناء حدوث ذلك؟»

أجابت: «هذا ما يحدث بالفعل يا رانجيت.» ثم رفعت ذراعها لتريه شاشة حول معصمها. وقالت: «إنني أراقب ما يحدث. لقد حالفنا الحظ إذ اعتاد «عظماء المجرة» على تخزين بضع عينات من جميع الأجناس التي يبيدونها، ولهذا كان «المخزنون في الآلات» يعدون العدة لهذه المهمة قبل المجيء إلى هنا.»

قطب رانجيت جبينه على الفور. وسألها: «ماذا تقصدين، «تخزين»؟ هل تتحدثين عن شيء يشبه التابوت أو جرة لحفظ رماد الموتى أو شيء من هذا القبيل؟»

قطبت آدا جبينها هي الأخرى. وسألته: «ألم تكن تتابع الأخبار يا رانجيت؟ الأمر يشبه «المخزنين في الآلات» أنفسهم. فهؤلاء يمكن تسميتهم آلات المرحلة الثانية. تقتصر المرحلة الأولى على إعداد نسخ مماثلة تمامًا من الأشخاص، وتخزينهم كعينات. أما المرحلة الثانية تتمثل في تزويدهم بالحياة داخل الآلات ... كلَّا، انتظر»، قالتها عندما سمعت صوتًا دقيقًا يشبه صوت الجرس. كانت عيناها مثبتتين على شاشة العرض وهي ترفع ذراعها وتتحدث في الجهاز الغريب المثبت على معصمها. وبعد دقيقة أظلمت الشاشة. وعندما أضاءت مرة أخرى كاد قلب رانجيت يتوقف؛ لأنها كانت تعرض صورة زوجته كما رآها آخر مرة بملابس السباحة لكنها الآن ترقد بلا حراك على سرير جراحي ...

كلَّا، لم تكن بلا حراك. فتحت مايرا عينيها. وارتسمت على وجهها ملامح الحيرة والإثارة أيضًا عندما رفعت يدها وأدارتها لتتفحص أصابعها.

قالت آدا لرانجيت بلهجة تباهٍ: «ما تشاهده الآن محاكاة. وفي وقت لاحق سوف تتعلم مايرا محاكاة أي بيئة ترغب فيها، وتتعلم أيضًا كيفية التفاعل مع الآخرين في هذه البيئة.» ثم همست مرة أخرى في الشيء المثبت على معصمها. فأظلمت الشاشة مجددًا. «لم نكن منصفين معها على الرغم من ذلك. لنمنحها بعض الخصوصية أثناء تأقلمها مع ما حدث لها. يمكننا تناول كوب من الشاي، وسأحاول الرد على جميع أسئلتك بافتراض أن لديك بعض الأسئلة.»

وبالطبع أراد رانجيت أن يطرح عليها الكثير من الأسئلة. زادت برودة كوب الشاي — الذي لم يشرب منه شيئًا — وهو يحاول استيعاب ما حدث. وفي النهاية رن صوت جرس دقيق آخر، فابتسمت آدا. وقالت: «أظن بإمكانك الحديث معها الآن»، ثم أومأت ناحية الشاشة التي عرضت صورة مايرا مرة أخرى على نحو مفاجئ. تحدثت آدا إلى الشاشة قائلة: «مرحبًا خالتي مايرا. هل أطْلَعَك برنامج الإرشاد على كل ما تودين معرفته؟»

تحسست مايرا شعرها الذي لم يُصَفَّف منذ خروجها من المياه التي كانت سببًا في وفاتها، وقالت: «تقريبًا. ما زلت أحتاج بعض المعلومات، لكنني لم أشأ الانتظار طويلًا. أهلًا بك يا رانجيت. وأشكرك على إنقاذ حياتي البديلة أو أيًّا ما شئت تسميتها.»

لم يجد رانجيت شيئًا يقوله سوى: «بكل سرور يا عزيزتي.» وعندما قامت آدا لتتركهما يتحدثان على انفراد قال لها رانجيت: «مهلًا. هل المرء مضطر للموت حتى يُخزَّن على هذا النحو؟ أعني هل يمكنك أن تضعيني معها في المشهد إذا أردت ذلك؟ وعندئذٍ نصير كأننا شخصان حقيقيان اجتمعنا معًا؟»

بدا الذعر على آدا. وقالت: «حسنًا، أجل.» كانت ستستطرد حديثها غير أن مايرا سبقتها وتحدثت عبر الشاشة.

قالت مايرا: «عزيزي رانجيت، لا تفكر في هذا الأمر. رغم أني أتوق إلى وجودك معي، عليك ألا تفعل ذلك. لن يكون هذا من الإنصاف لتاشي أو روبرت أو ... تبًّا، دعنا نواجه الموقف. لن يكون هذا من الإنصاف للعالم أجمع.»

حدق رانجيت في الشاشة. وقال: «حسنًا.» وبعد لحظات من التفكير تذمر قائلًا: «لكني أفتقدك كثيرًا.»

قالت: «بالطبع. وأنا أفتقدك أيضًا. لكن هذا الوضع أفضل من ألا يرى أحدنا الآخر أبدًا. علمتُ من برنامج الإرشاد أنه يمكننا الحديث هكذا في أي وقت نشاء.»

قال رانجيت: «هذا صحيح. لكن لا يمكن أن يمس أحدنا الآخر، وربما أحيا سنوات أخرى.»

أجابته بقولها: «أتمنى لك عمرًا مديدًا يا عزيزي. لكن هذا سيمنحنا غاية نتطلع إليها.»

الخاتمة الأولى

حياة رانجيت سوبرامانيان المديدة

بهذا تنتهي قصة رانجيت سوبرامانيان.

وليس معنى ذلك أنه لم يعِش — أو «يعيش» — زمنًا طويلًا بعد ذلك. فقد عاش رانجيت زمنًا طويلًا؛ أولًا في حياته «العادية» ثم مُخزنًا في الآلة. علاوةً على ذلك فقد وقعت له أحداث عدة حافلة بالتشويق والإثارة في هذه «الحياة» التالية كمجموعة من الأنماط الإلكترونية. لكننا لن نتطرق إلى معظم تلك الأحداث هنا. ليس لأنها تفتقر إلى عنصر التشويق؛ بل إنها مشوقة. لكنها في الوقت نفسه كثيرة جدًّا. هناك أمور أخرى نقوم بها، وهي أكثر أهمية من تعديد كل الأحداث التي مر بها ذلك الجزء المعنوي من رانجيت سوبرامانيان الذي خُزِّن وواصل حياته طوال سنوات عديدة تالية.

غير أن هناك حدثًا لا بد من الإشارة إليه.

وقع هذا الحدث بعد مرور فترة طويلة على حياة رانجيت المختزنة في الآلة في وقت كان قد انتهى فيه من معظم الأنشطة السياحية التي طالما تمنى القيام بها. (بعبارة أخرى كان قد استكشف سطح المريخ بالكامل تقريبًا، وشبكة الكهوف الجوفية الأكثر تشويقًا للكوكب نفسه، بالإضافة إلى معظم الكواكب الأخرى والأقمار المهمة داخل المجموعة الشمسية وعدد من الأشياء الأكثر ضخامة في سحابةِ أُورت.) في تلك الأثناء كانت مايرا قد انطلقت في رحلة إذ طالما تمنت رؤية أحد الثقوب السوداء عن كثب. وطوال غياب مايرا الذي استمر بضعة آلاف سنة كان رانجيت يسكن جانب جبلٍ افتراضي من الزجاج الليفي في حالة من الاسترخاء. (كان السبيل إلى استرخاء رانجيت هو التفكير في نظرية P = NP.

وقد منحه هذا الوضع شعورًا بالمتعة طوال عدة عقود دون أن تلوح في الأفق نهاية لذلك.) ابتكر رانجيت جبلًا افتراضيًّا في البيئة المحيطة كي يكون وحيدًا، وتملَّكته الدهشة عندما لاحظ شخصًا يسير بخطًى متثاقلة نحو منحدر الجبل باتجاهه.

لم يكن هذا الدخيل غريبًا على رانجيت فحسب، وإنما كان غريب الشكل أيضًا. فعيناه صغيرتان وعظام وجهه بارزة ويبلغ من الطول ثلاثة أمتار. وعندما وصل إلى النتوء الصخري الذي كان ينتظر عليه رانجيت ألقى بنفسه على كرسي طويل قابل للطيِّ (لم يكن موجودًا قبل وصول هذا الشخص الغريب)، وأخذ بضعة أنفاس عميقة على نحو مبالغ فيه، وقال: «أمهلني بعض الوقت. «لا بد أن الصعود إلى هنا كان شاقًّا، أليس كذلك؟» أهذا ما ينبغي لي قوله؟»

تعرض رانجيت للإزعاج على يد غرباء كثيرين على مدار البضعة آلاف سنة الماضية بحيث لم يعد للكياسة مكان لديه. لم يرد رانجيت على السؤال. وإنما قال: «من أنت؟ وماذا تريد؟»

بدا الغريب مندهشًا وسعيدًا في الوقت نفسه. وقال: «فهمت. أنت تدخل في صلب الموضوع. حسنًا. اسمي هو ...»

غير أنه لم يذكر اسمًا. لقد أصدر ضجيجًا من أصوات يتعذر نطقها، وأتبعها بقوله: «لكن يمكنك أن تدعوني «طالبًا» لأني هنا من أجل دراسة أساليبك في التفكير والتصرف.»

فكر رانجيت في إبعاد هذا المتطفل عن بيئته الخاصة التي أنشأها بعناية، لكنه وجد فيه شيئًا مسلِّيًا. قال رانجيت: «حسنًا، لتدرس في مكان آخر. لم ترغب في القيام بذلك؟»

ملأ الغريب فمه بالهواء حتى انتفخ خداه. وقال: «كيف يمكنني أن أشرح ذلك؟ إنه نوع من الاحتفال بعودة «عظماء المجرة» ...»

قال رانجيت: «مهلًا. هل عاد «عظماء المجرة» أخيرًا؟»

– «بالتأكيد عادوا، وذلك بعد — دعني أفكر وفقًا لطريقتكم في الحساب — نحو ثلاثة عشر ألف سنة. تلك ليست فترة طويلة وفقًا لمفهوم الوقت لدى عظماء المجرة، لكنها تكفي لوقوع تغيرات هائلة لدى البشر مثلي.» وأضاف بأسلوب مهذب: «وبالطبع، مثلك أنت أيضًا. ولهذا السبب بدأنا إعادة تجسيد هذه الأحداث، ولأنك قمت بدور ثانوي في عدد منها فقد وقع الاختيار عليَّ لأعيد تجسيد شخصيتك.»

– «أتعني أنكم تعدون فيلمًا عن هذه الأحداث، وأنك ستؤدي دوري؟»

– «ليس «فيلمًا» بالتأكيد. لكن أجل، سوف أجسد دورك.»

– «حسنًا. لم أكن ألقي بالًا لما وقع من أحداث مؤخرًا. حتى إنه لم يصل إلى علمي أن «عظماء المجرة» قد عادوا.»

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه الغريب. وقال: «لكنهم عادوا بكل تأكيد. لقد أخبروا «تساعيي الأطراف» وكائنات «واحد فاصل خمسة» أنهم سيغيبون فترة قصيرة. وهو ما حدث بالفعل. رغم أن ثلاثة عشر ألف سنة هي فترة قصيرة وفقًا لمعاييرهم هم، وليس وفقًا لمعاييرنا. يبدو أن «عظماء المجرة» قد أصيبوا بدهشة عندما وجدوا أننا قد تطورنا بهذه السرعة. تلك هي المرة الأولى التي يسمحون فيها لكائنات عاقلة بتطوير نفسها وفق السرعة التي تناسبها؛ لأنهم دأبوا على منع جميع الأجناس الأخرى التي اكتشفوها من التطور. لكني لا أظن أنهم يمانعون في التخفف من أعبائهم.» حاول الغريب تحريك شفتيه هنيهة، ثم قال لرانجيت: «أيمكنك أن تقول «حسنًا» مرة أخرى من فضلك؟»

– «حسنًا» قالها رانجيت ليس تلبيةً لطلب هذا الشخص فحسب، وإنما لأنه لم يجد ردًّا آخر على ما سمعه لتوِّه. «ماذا تعني؟ التخفف من أي عبء؟»

قال الغريب وهو يتأمل النظرة التي علت وجه رانجيت ويحاول تقليدها بنفسه: «إدارة الأمور. ليس لأنهم لم يتقنوا عملهم، غالبًا. لكن كانوا مخطئين عندما حالوا دون تطور العديد من الأجناس المثيرة للانتباه. وعلى الرغم من أن النواحي الفنية كانت على ما يرام بوجه عام، فلا بد أن تقر بأن ما فعلوه بالثابت الكوني لَهُو أمر مربك تمامًا.»

وقف رانجيت منتصبًا. وقال: «حسنًا، إذا لم تعد مقاليد الأمور في أيدي عظماء المجرة، ألا يُفترض بأحد أن يتولى هذه المسئولية نيابة عنهم؟»

قال الغريب في لهفة: «بالتأكيد. ظننت أنك تعرف. هناك أحد بالفعل. نحن من يتولى تلك المسئولية الآن.»

الخاتمة الثانية

اعتراف وعرفان

أشار أحدنا في مكان آخر إلى تعريف الرجل المهذب على أنه «شخص لا يتخلى عن أدبه مصادفةً أبدًا». وعلى المنوال نفسه لا يجوز لكاتب الخيال العلمي أبدًا أن يشوه مصادفةً إحدى الحقائق العلمية الموثوقة.

غير أن الكلمة المهمة هنا هي كلمة «مصادفة»؛ لأن الكاتب يضطر في بعض الأحيان عند كتابة رواية خيال علمي أن يتيح لنفسه مساحة من الحرية العلمية، وإلا لن تحقق روايته مفادها. (على سبيل المثال، كلنا يعرف أن تحرك أي جسم بسرعة تفوق سرعة الضوء هو ضرب من ضروب المستحيل. غير أننا إذا لم نتح لأنفسنا هذه الحرية، فلن نتمكن من كتابة مجموعة كاملة من القصص المشوقة.)

وهكذا نظن أن أفضل ما يفعله الروائيون عند اللجوء إلى هذه الحرية هو اعترافهم بها. وفي الرواية التي بين أيدينا هناك ثلاثة أمثلة على ذلك:

(١) في هذا الوقت المبكر من القرن الحادي والعشرين لا توجد سفن فضاء ذات سرعة عالية كالتي تحدث يوريس فورهولست عن ذهابها إلى سحابة أورت. كنا نتمنى وجود مثل هذه السفن، لكن ليس هناك أي منها.

(٢) ليس هناك برهان من خمس صفحات لنظرية فيرما كالذي قيل إن رانجيت سوبرامانيان توصل إليه، وأحدنا يظن أنه من الممكن ألا يُتوصل إلى برهان كهذا أبدًا لأن المسألة ربما لا يكون لها حل.

(٣) لا يمكن أن تكون سريلانكا محطة أرضية لمصعد الفضاء لأنها لا تقع على خط الاستواء. وفي عمل سابق تغلب أحدنا على هذه المشكلة بأن أزاح سريلانكا بعيدًا ناحية الجنوب. وبدلًا من تكرار هذا في العمل الحالي فقد لجأنا إلى حل مختلف قليلًا. فخط الاستواء في النهاية ليس سوى خط وهمي. ولهذا تخيلنا إزاحته بضع مئات من الكيلومترات ناحية الشمال.

أخيرًا نود أن نقر بالعرفان للتوضيح الذي أمدنا به الدكتور ويلكينسون من منتدى الرياضيات في جامعة دريكسل حول ما حققه أندرو وايلز على وجه التحديد من خلال برهانه الذي احتوى مائة وخمسين صفحة، وللمساعدة التي فاقت توقعاتنا من صديقنا روبرت سيلفربيرج و — من خلاله — المتحدث الرسمي لجامعة أوكسفورد بالمملكة المتحدة.

الخاتمة الثالثة

سير آرثر وأنا فريدريك بول

التقيت بآرثر سي كلارك أول مرة في الخمسينيات من القرن العشرين أثناء زيارته الأولى إلى مدينة نيويورك عبر المحيط الأطلنطي. حينها كان آرثر قد هيأ لنفسه مكانًا ككاتب خيال علمي من الطراز الأول، وفعل مثلما يفعل كتاب الخيال العلمي في بلد غريب، فبدأ يبحث عن كتاب خيال علمي آخرين ليتحدث إليهم، وعثر عليهم في جماعة تفتقر إلى التنظيم أطلقت على نفسها اسم «نادي هيدرا» حيث كنتُ واحدًا من الرؤساء التسعة المؤسسين. نشأت بيننا علاقة صداقة استمرت طوال نصف قرن هو ما تبقى في حياة آرثر. كنا نلتقي مصادفة إما في مهرجان للأفلام في ريو دو جانيرو أو في لقاء علمي عارض أو اجتماعات خاصة بالخيال العلمي، وهو ما تكرر عدة مرات في عدة أماكن. في البداية قضى آرثر وقتًا طويلًا في زيارة نيويورك، وكثيرًا ما كان ينزل في فندق تشيلسي غرب شارع ٢٣، وعندما تحين الفرصة كنت أشاركه تناول عشاء أو مشروب. كل هذا كان يحمَّل على حساب النفقات الذي تسدده عن طيب خاطر دار النشر التي أعمل لحسابها؛ إذ كنت أعمل محررًا في تلك الفترة وكنت أتوق لنشر أكبر قدر أتمكن من الوصول إليه من كتابات آرثر. ولكن مع بدء الألفية الجديدة تضاءلت قوة صداقتنا، وتحولت إلى خطابات متقطعة ومكالمات هاتفية عابرة. كنت قد توقفت عن التحرير حتى أتفرغ لكتاباتي، في حين توقف آرثر عن مغادرة موطنه في سريلانكا التي لم يحدث أن ذهبتُ إليها قط. (رغم زيارتي لعدد من الدول الأخرى لم تكن سريلانكا واحدة منها.)

وفي أحد خطاباته التي وصلتني أوائل عام ٢٠٠٦ ذكر آرثر في إشارة عابرة أنه قبل سنوات ووسط نوبة نشاط وقَّع عقود نشر لعدد من الروايات، وهو على يقين الآن أنه لن يتمكن من إنهائها وحده، ما جعله يتفق مع روائيين آخرين على مشاركته في معظم هذه الروايات، غير أن هناك رواية واحدة — اسمها «النظرية الأخيرة» — تحتاج شريكًا في كتابتها.

بدا هذا كأنه تلميح، وقد فهمته. فرددت عليه قائلًا: «إن كنت حقًّا بحاجة إلى شريك في هذه الرواية غير المكتملة فأنا على أهبة الاستعداد. إنني أهوى الأعمال المشتركة، ويبدو لسوء الحظ أنه لم يعد أمامي من يشاركني في الكتابة.»

أشعر بالأسى عندما أقول إن هذه هي الحقيقة. فنحو ثلث الروايات العديدة التي نشرتها كُتِب بمشاركة آخرين كانوا غالبًا أصدقاء منذ زمن بعيد — من بينهم إسحاق أسيموف وليستر ديل راي وسيريل كورنبلاث وجاك ويليامسون — وهؤلاء قضوا نحبهم منذ وقت طويل. خطر لي أن حث آرثر على الانضمام لمجموعة بها هذا الكم من الوفيات قد لا يكون أفضل محفز أعرضه على شريك محتمَل، والواقع أنه عندما مرت أسابيع لم أتلقَّ خلالها ردًّا منه بدأت أتساءل هل جعلته يشعر بالخوف من الفكرة. لكن بعدها وصلني خطاب — ليس من آرثر نفسه وإنما من وكيل أعماله في نيويورك — يقول إن آرثر قد أحال عرضي إليه، وأضاف:

> منذ تلقيت هذا الخبر من آرثر وأنا أناقش الأمر مع محرِّره كريس شلوب الذي كان يناقشه بدوره مع زملائه ورؤسائه في دار نشر بالانتاين/ديل ري. ومن دواعي سروري أن أخبرك أنهم تحدثوا إليَّ اليوم لإبداء رغبتهم في المضي قدمًا … بعنا المادة إلى دار بالانتاين بناءً على بعض الأوراق التي أمدَّنا بها آرثر بالإضافة إلى ملخص موجز. أظن أنك قد ترغب في الاطلاع على هذه الأوراق قبل الالتزام بهذا المشروع.

لم يراودني أدنى شك في أني أود المشاركة في كتابة هذه الرواية، لكني كنت أنتظر بلهفة المسودة التي كتبها آرثر. وعندما وصلتني وجدت أنها تقرب من نحو مائة صفحة من الكتابات الأولية والمسودات بعضها مجمل والبعض الآخر مكتمل التفاصيل تمامًا.

اختير للرواية اسم «النظرية الأخيرة» إشارة إلى التعليق الشهير الذي كتبه عالم الرياضيات الفرنسي بيير دو فيرما في القرن الثامن عشر. كان فيرما يفكر في مسألة

رياضية شهيرة. تنص نظرية فيثاغورس على أنه في حالة تربيع ضلعي مثلث قائم الزاوية وجمعهما معًا فإن مجموعهما يساوي مربع وتر المثلث. (أو أن مربع (أ) زائد مربع (ب) يساوي مربع (ج).) باستخدام الأعداد الصحيحة فإن أصغر مثلث تنطبق عليه هذه القاعدة هو المثلث الذي يساوي ضلعاه ثلاث وحدات وأربع وحدات ويساوي وتره خمس وحدات؛ لأن مربع الثلاثة (تسعة) زائد مربع الأربعة (ستة عشر) يساوي خمسًا وعشرين وهو مربع الوحدات الخمس التي يساويها وتر المثلث.

لا شك أن هذا لا يمثل مشكلة إلى الآن. فأي شخص يولي اهتمامًا بالرياضيات على علم بذلك، وهذا معلوم لدى الجميع على الأقل منذ عهد الإغريق القدماء. السؤال الذي شغل بال فيرما كان يتعلق بتطبيق هذه القاعدة على المعادلات ذات الأسس الأعلى من الأس التربيعي. هل يوجد مثلث يكون فيه مكعب (أ) زائد مكعب (ب) يساوي مكعب (ج)؟

أعلن فيرما أن هذا غير ممكن. وأضاف أنه اكتشف مؤخرًا برهان قوي على ذلك، وكتب: «هذا الهامش صغير جدًّا بحيث لا يتسع لعرض البرهان.» ومنذ ذلك الحين وعلماء الرياضيات يحاولون اكتشاف هذا البرهان الذي ادعى فيرما الوصول إليه. لم يحالف النجاح أحدًا منهم. ويراهن الخبراء الآن على أن فيرما كان مخطئًا، وأنه لم يتوصل إلى هذا البرهان قط.

أثناء قراءتي كل هذه التفاصيل في المسودة الإجمالية التي كتبها آرثر خطر لي هاجس. لقد قضيت فترة من الولع بهذا الفن المحير لنظرية الأعداد، ومن ثم كانت كل هذه المعلومات مألوفة وفي الوقت نفسه مشوقة لي، لكن ماذا عن مشتري الرواية العادي؟ من البديهيات المعروفة في عالم النشر أن مشتري الكتب الأمريكيين يكرهون الرياضيات، ويخافونها، وينفرون منها بشتى صورها. هل سيُقدمون إذن على شراء كتاب عنوانه ليس سوى تعبير رياضي مبهم؟

قلت لنفسي إنهم سيفعلون بالتأكيد؛ فالكتاب لا يدور حول النظرية. وإنما يدور حول فتًى عقد العزم على أن يعيد اكتشاف هذا البرهان المفقود، وحول ما حدث له وللعالم الذي يسكنه، بل وللمجرة بأسرها بعد اكتشافه هذا البرهان. فضلًا عن ذلك وجدْتُ الكثير من الأحداث الرائعة، ومن بينها سلاح حربي رائع حقق النصر في حروب دون أن يودي بحياة أي شخص، ومشهد مؤثر بين رانجيت سوبرامانيان — بطل الرواية — ووالده كبير الكهنة في معبد بوذي في سريلانكا، وعدد من الأجناس المثيرة في الفضاء، وموت إحدى الشخصيات الرئيسية، ووصف مقتضب للشخصيات الرئيسية في الرواية. كنت على يقين

من أن هناك مصادر أخرى كثيرة أستقي منها، خصوصًا ذلك المصدر الرائع الذي سيسد الفراغات غير المكتملة وهو آرثر نفسه.

وهكذا أرسلت رسالة إلى آرثر أخبره أنني وافقت على بنود عرضه الكريم، وبدأت في إجراء عملية بحث وأنا على يقين تام أن كتابة هذه الرواية ستكون أمرًا سهلًا نسبيًّا. ومن قبيل الصدفة أني كنت أكتب رواية انتهيت من نصفها في هذا الوقت لكن لم تكن هناك مشكلة في تأجيلها حتى الانتهاء من رواية آرثر. وكنت قد أخبرت محرِّرِي جيم فرينكيل منذ وقت طويل أنه سيحصل على الرواية حتمًا، لكنني لن أوقع عقدًا معه حتى أكاد أنتهي منها؛ لأني كنت أود أن أنأى بنفسي بعيدًا عن الشعور بالقلق الدائم الذي يصاحب الالتزامات التعاقدية. وهكذا بدأت في كتابة «النظرية الأخيرة».

لكل كاتب أسلوبه المميز في تحويل أفكاره إلى كلمات على الورق، ويتسم أسلوبي ببعض الغرابة في أمرين: أولًا أني أكتب قليلًا كل يوم، و«كل يوم» هنا تعني جميع الأيام بلا استثناء ومن بينها يوم عيد الميلاد ويوم عيد ميلادي وحتى الأيام التي أخضع فيها لعلاج عصب الأسنان. ثانيًا أني أفعل ذلك أيًّا كان المكان الذي أكون فيه. وقد كتبت عددًا من أفضل رواياتي في الفنادق والمطارات وعلى متن الطائرات على ارتفاع ٣٠ ألف قدم في الطريق إلى نيروبي أو بكين على سبيل المثال وفي عدد من الأماكن الأشد غرابة ومن بينها — أيام الحرب العالمية الثانية — مكان في قاعدة شانوت حيث كنت أتدرب كي أصبح قارئ نشرة جوية لدى القوات الجوية؛ إذ كان هذا هو المكان الوحيد في القاعدة الذي يظل مضاءً بعد الموعد المحدد لإطفاء الأنوار. لكن من بين جميع الأماكن التي يمكنني أن أمارس عملي فيها فإن مكاني المفضل هو سفينة رحلات مناسبة الحجم تبحر بي إلى مكان في العالم لم أذهب إليه من قبل.

في ذلك الوقت كنت قد اتفقت مع زوجتي على القيام برحلة لا تكون عبر أيٍّ من البحار الكبرى. كنا نقوم برحلة نهرية في نهر الدانوب تبدأ من بوخارست في رومانيا لنقطع الطريق برًّا إلى النهر في اتجاه المجرى إلى البحر الأسود وعودة في الاتجاه المعاكس لمجرى النهر عبر بلغاريا وصربيا وكرواتيا إلى بودابست في المجر. وحدث أني زرت معظم هذه الأماكن في الستينيات عندما كنت ألقي محاضرات ممثلًا عن وزارة الخارجية الأمريكية، لكنني لم أهتم لذلك. غادرَت زوجتي المركب لتزور أماكن محددة كانت تثير اهتمامها، بينما بقيت أنا على متن المركب بصحبة دفتر أوراقي الصفراء المسطرة وأقلام الحبر الجاف أكتب الرواية بمعدل رائع.

لم أحاول الاتصال بآرثر ما بين مغادرة شيكاغو وصعودنا على متن القارب النهري. لكن القارب كان مزودًا بخدمة البريد الإلكتروني، وكانت أولى الرسائل الإلكترونية التي بعثتها إليه تتعلق بالسؤال عن بعض الكائنات الفضائية المثيرة للاهتمام في مسودة الرواية. أطلق آرثر على هذه الكائنات اسم عظماء المجرة، وكانوا مسئولين عن تسيير الأمور بوجه عام، ورأيت كيف أنه قد يكون لهم دور مهم في نهاية القصة. لذلك طلبت من آرثر أن يخبرني بكل ما راوده من أفكار بشأن هذه الكائنات المدهشة. غير أن رده كان أقل فائدة بكثير مما توقعت. أخبرني آرثر أن كل ما يعرفه عن «عظماء المجرة» موجود في أوراق المسودة التي أرسلها وكيل أعماله إليَّ. وأضاف أنه بلا شك كانت لديه أفكار أخرى في وقت ما بخصوص هذه الكائنات، لكنه لم يعد يذكر منها شيئًا. لقد تلاشت هذه الأفكار دون أن تخلف أثر.

سألت آرثر مندهشًا وقلقًا عن أي تفاصيل؛ ولم يستطع أن يعطيني سوى أقل القليل. من الواضح أن شيئًا غريبًا حدث لآرثر في أحد أيام عام ٢٠٠٣. فبعد أن وقَّع عددًا كبيرًا من عقود نشر روايات جديدة استيقظ ذات صباح ليكتشف أنه لا يذكر كيف يكتب أيًّا من هذه الروايات.

لا تسألني عن تفسير هذا الأمر؛ لأن آرثر نفسه لم ينجح كثيرًا في تفسيره لي، لكن هذا ما حدث. لقد تبخرت جميع الكلمات التي كانت تمثل مفتاحًا لتلك الروايات. ذكر آرثر أنه منذ ذلك الحين حالفه قدر وفير من الحظ في كتابة خطابات تحية قوامها ثلاثمائة كلمة إلى مجموعات مختلفة حول العالم أرادت تكريمه، لكنه لم يزد على هذا.

لذلك صعدت إلى السطح العلوي للمركب، وشاهدت ضفاف النهر تمر بجانبي بعض الوقت وأنا أمعن في التفكير في هذا التطور الجديد. كان هذا يعني مزيدًا من العمل أو بالأحرى مزيدًا من المسئولية على كاهلي.

مع ذلك لم يكن الوضع سيئًا كلية، فقد وعد آرثر أن يراجع كل صفحة أثناء كتابتي للرواية وأن يدلي بتعليقاته عليها. صحيح أن هذا الوضع كان جديدًا عليَّ، لكنه لم يكن سيئًا بالضرورة. وهكذا نزلت لتناول الغداء، وبينما كنت أنهي فنجان قهوتي الثاني سلمني الضابط الثاني في المركب رسالة إلكترونية جديدة. كانت هذه الرسالة من وكيلي في نيويورك وجاء فيها «إذا كنت شرعت في كتابة «النظرية الأخيرة» فتَوَقَّف. ألغى وكيل كلارك الاتفاق.»

عندما اكتملت الرواية أخيرًا، وروجعت لتلائم آرثر، ثم روجعت مرة ثانية لتلائمني، ومرة ثالثة لتلائم كريس شلوب محررنا في دار نشر ديل ري أرسلتُ بريدًا إلكترونيًّا إلى آرثر أبلغه بالأخبار السارة وقلت فيه: «من بين جميع الروايات التي كتبتُها لم أواجه قدر المشكلات التي واجهتُها في هذه الرواية. أشعر بالسعادة أنها انتهت بسلام، لكني لن أكررها ثانية مع أي رواية تكون أقل من «الحرب والسلم».» كان إلغاء وكيل آرثر في نيويورك للتعاقد مجرد حدث أول ضمن سلسلة من المشكلات الفريدة من نوعها.

لم آخذ هذه المشكلة الأولى على محمل الجد. لم تكن الواقعة تتعدى مجرد خلاف ثانوي بين وكيل أعمالي ووكيل أعمال آرثر، وأدركت أنهما سيتوصلان لتسوية في النهاية. ومع ذلك استغرق الأمر عدة أسابيع من التفاوض جيئة وذهابًا لإنهاء الخلاف. لكن قبل تسوية هذه المشكلة زادت الأوضاع سوءًا.

فمثلًا بعد فترة قصيرة أَوْقَفَ مُزَوِّد الخدمة في سريلانكا نشاطه دون أن يخبر أحدًا على ما يبدو، ومن ثم لم تعد هناك جدوى للرسائل الإلكترونية، وانقطعت اتصالاتي مع آرثر أكثر من أسبوع. (إنه أمر مزعج للغاية أن تحاول إرسال بريد إلكتروني إلى عنوان كنت ترسل إليه من قبل بصورة مستمرة لتفاجأ بأن خدمة بريد «ياهوو» تخبرك أن هذا العنوان ليس موجودًا الآن ولم يكن له وجود من قبل.) بعد فترة تكرر هذا الانقطاع أسبوعًا آخر لكنه لم يكن بسبب تدخُّل بشري وإنما بسبب عاصفة استوائية عنيفة. وبين جميع المشكلات الأخرى كنا نواجه المشكلة الرئيسية والمتكررة المرتبطة باعتلال صحة آرثر.

في المراحل الأولى من كتابة الرواية كان آرثر يقرأ ما أكتب حالما أرسله إليه، وكما وعد من قبل كان يعلِّق ويدلي باقتراحاته بشيء من التفصيل. لم تكن هذه التعليقات تلقى قبولي دائمًا؛ ففي بداية الرواية ولأسباب تتعلق بالحبكة الروائية أردت أن يقضي رانجيت سوبرامانيان فترة من الوقت داخل حبس انفرادي. وكان أيسر طريق لتحقيق ذلك هو توريطه في الصراع الوحشي الدامي الذي تشنه الحكومة السريلانكية بين الحين والآخر على مجموعة من السكان التاميليين، لكن آرثر أخبرني على الفور أن هذه فكرة مؤسفة تمامًا. فمع أن الحكومات السريلانكية المتعاقبة كانت تتعامل بود شديد مع ضيفها الشهير (في الوقت الذي كان فيه آرثر بسيط اليد في سريلانكا) فإنه لم يغب عن باله قط أنه ضيف، وأن إقامته في سريلانكا قد تنتهي إذا أساء لحكام الدولة، فخشي أن يفضي وصفي للحرب المستمرة إلى هذه النتيجة.

كان الخطأ خطئي؛ لأني كنت على علم بمخاوف آرثر فيما يتعلق بهذا الموضوع، وكنت أعرف أيضًا كم كان يقلق من الغارات التي يشنها «نمور التاميل». في بداية السبعينيات عندما كنت أنا وآرثر في رحلة ذات جدول أعمال مزدحم لإلقاء محاضرات في اليابان كان آرثر متقد الذهن ومؤثرًا كعادته أثناء جلوسه أمام الجمهور، لكن ما إن أصبح بعيدًا عن الأنظار حتى أخذ يبحث عن بعض النشرات الإخبارية الناطقة باللغة الإنجليزية ليتابع مدى اقتراب «النمور» من مدرسة الغوص التي كان يديرها بالقرب من الشاطئ. (اتضح أنهم ليسوا قريبين بما يكفي لإلحاق الضرر بالمدرسة. ولم تتعرض المدرسة لضرر جرَّاء أيٍّ من جولات الحرب، لكن لحق بها الضرر بعد عقود عندما ضربت موجة تسونامي البلاد عام ٢٠٠٦، وأودت بحياة مئات الآلاف من الأشخاص في هذه المنطقة.) لذلك تحاملت على نفسي، وتخلصت من عدد كبير من الأوراق لأكتب مسارًا مختلفًا تمامًا يفضي إلى حبس رانجيت المسكين (والآن أظن أن هذا الطريق أفضل بكثير من المادة القديمة، وهو ما يثبت أن أيسر الطرق أمام الكاتب لا ينبغي بالضرورة أن يكون أفضلها.)

والواقع أن هذه النقطة هي العنصر الوحيد في الرواية الذي اعترض عليه آرثر كلية. في الغالب كانت تعليقاته مفيدة وفي الوقت نفسه مشجعة. لكن مع مرور الوقت زاد تأخر وصول هذه التعليقات، وبدأت تفتقر إلى التفاصيل مرة بعد أخرى. والسبب الرئيسي في ذلك صحته التي كانت تتدهور يومًا بعد يوم.

قبل نصف قرن لاحظت في إحدى الأمسيات أن آرثر يواجه بعض الصعوبة في النهوض من الأريكة الوثيرة التي استلقى فوقها دون أن يكترث لما كان يفعله الحشد تلك الليلة. وعندما سألته عن ذلك لم يبدِ اهتمامًا وقال: «تعرضت لحادث صغير أثناء الغوص. سيمر الأمر بسلام.» لكن صعوبة الحركة لم تكن بسبب حادث غوص، ولم تمر بسلام. وكان أفضل رأي طبي تلقاه — وهو أفضل رأي يمكن أن يعرضه عالَم الطب لأن آرثر زار جميع المراكز البحثية الكبرى التي وجدها أثناء طلبه للمساعدة — أنه يعاني ما يطلق عليه متلازمة ما بعد الشلل. لكن هذا التشخيص لم يفد في شيء؛ لأن هذا المرض لم يكن له علاج معروف. وفي النهاية لازم كرسيًّا متحركًا لم يبرحه طوال العقود الأخيرة من حياته.

لكن في حقبة الستينيات والسبعينيات كانت كلمة «في النهاية» لا يزال أمامها وقت طويل. ظل آرثر مشغولًا كعادته، وكنا نقضي بعض الوقت معًا في مناسبة أو أخرى.

وعندما حلت ذكرى ميلاده التسعين، وبدا واضحًا أن صحته تتدهور سريعًا اجتمع عدد من أصدقائه لإرسال تهانيهم بذكرى ميلاده، بينما قررتُ إدخال السرور على قلبه عن طريق تذكيره ببعض الأوقات الرائعة التي قضيناها معًا، وعلى وجه التحديد في مؤتمر أقامته وكالة ناسا للفضاء نحو عام ١٩٧٠ حول ما أطلقوا عليه اسم التكنولوجيا التأملية، وكان حضور المؤتمر بالدعوات فقط، وأدركت ناسا أن إتقان التأمل يستلزم وجود كاتب أو اثنين من كتاب الخيال العلمي على لائحة الحضور ليبينوا للآخرين كيفية القيام بذلك. ومن ثم اختارت الوكالة دعوة اثنين من أفراد مهنتنا هما آرثر كلارك وأنا.

لا أدري هل حصلت وكالة ناسا على ما كانت تتطلع إليه من عقد هذا المؤتمر. ما أعرفه هو أنها كانت في رأيي — وأنا على يقين أن آرثر يشاركني نفس الرأي — عطلة أسبوعية رائعة. فمن حيث التنظيم عقد المؤتمر على جزيرة قرب شاطئ جورجيا، ولم يكن هناك سبيل للعودة إلى اليابسة إلا على متن طائرة مروحية صغيرة. وهذا يعني أن نجوم هذا الحدث — هؤلاء الذين اعتادوا استقلال الطائرة مسافات طويلة للإدلاء بكلمتهم ثم التحليق على الفور إلى موعدهم التالي — قد اضطروا إلى البقاء في المكان والتحدث مع من تبقى منا طوال العطلة، وهي أفضل طريقة لتنظيم حدث كهذا. ضم المؤتمر خمسين أو ستين مدعوًّا جميعهم نجوم في مجالات علمية وتكنولوجية مختلفة، ومن بينهم أصدقاء قدامى مقربون مثل مارفين مينيسكي مدير معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في مجالَي علم صناعة الإنسان الآلي والذكاء الاصطناعي، بالإضافة إلى أصدقاء جدد رائعين مثل إدجار ميتشيل أحد رواد الفضاء في مركبة أبولُّو الذي حاول إرسال رسائل تخاطرية من فوق سطح القمر إلى رفاقه على سطح الأرض. وكان لدى هؤلاء جميعًا أمور مشوقة يتحدثون عنها.

لم تقتصر المتعة على البرنامج الرسمي للمؤتمر فحسب. ففي البداية اكتشفت أنا وآرثر بعض الدراجات التي لم يكن يستخدمها أحد؛ لذلك دعوْنا مجموعة من الآخرين للانضمام إلينا في سباق للدراجات. (سألته في الرسالة التي أرسلتها إليه في عيد ميلاده: «هل تتذكر عندما كنا مفعمين بالحيوية؟»)

في نهاية الأمر انتهت رواية «النظرية الأخيرة» بنجاح، لكن صحة آرثر اتخذت منحًى آخر. كانت معاناته من أمراض الشيخوخة تزداد يومًا بعد يوم؛ تلك الدورة المتكررة من الأسقام والعلل التي تخبرنا بأن أجسادنا قد أُنهكت بسبب ما نُلحقه بها من أضرار.

(إنني خبير في هذه الأمور لأنني في النهاية أصغر من آرثر ببضع سنوات فحسب.) في حالة آرثر كان بعض ما يعانيه من أسقام محيرًا. فذات صباح استيقظ ووجد أنه لا يستطيع النهوض من فراشه. وعندما وصل الأطباء كان كل ما أخبروه به أنه أثناء نومه كسرت اثنتان من فقراته بطريقة ما، لكن لم يعرف أحد كيف حدث ذلك. كتب إليَّ آرثر حينئذٍ أن أكثر ما كان يتوق إليه في هذا العالم هو يوم يستطيع فيه الانتقال مرة أخرى بالكرسي المتحرك الذي أُعِد له خصوصًا.

بعدها سادت فترة طويلة من الصمت استمرت أسابيع أو ربما شهرًا أو شهرين. كانت تصلني الأنباء بين الحين والحين أن السبب هو نقل آرثر إلى المستشفى حيث كان يُمنع من الاتصال بالعالم الخارجي في بعض الأحيان. وعندما كان يشتد عليه المرض كان العاملون في مكتبه وفي منزله في سريلانكا يبذلون قصارى جهدهم كي يتضافروا ويحُولوا بينه وبين الاهتمام بأي شيء سوى صحته. وبعد شهر وأكثر من هذا الصمت أرسلتُ إليه الرسالة المذكورة آنفًا لأخبره بانتهاء الرواية، وأنني أتمنى أن يبذل بعض الجهد ليخبرني برأيه في المخطوطة النهائية التي كانت لديه منذ وقت طويل. لا بد أني كنت أشعر ببعض الضيق لأني أنهيت الرسالة قائلًا: «من فضلك أخبرني برأيك. أعرف أنك طاعن في السن ومعتل الصحة، لكني مثلك أيضًا.»

بعد يوم أو يومين تلقيت منه رسالة مطولة تحدث فيها عن كل ما أود سماعه، فأثنى على العمل الذي قمت به، وقال إن الرواية ممتازة، وسامَحَني لأني لم ألتزم بإجراء تغير أو تغيرين بسيطين للغاية لأنني (كما أخبرته) تعلَّقت بهذه الأجزاء وتمنيت ألا يشعر بالإحباط لأني أبقيت عليها دون تغيير. ولم يقتصر آرثر على قول كل ما كنت أتمنى سماعه، وإنما قاله بالأسلوب المميز الذي يتسم به سير آرثر تشارلز كلارك؛ ذلك الأسلوب الحي والموجز الذي اعتاده دائمًا.

يصعب عليَّ وصف كمِّ السعادة التي شعرت بها عند تلقي هذه الرسالة. وبسرعة كتبت ردًّا أخبره أنه على الرغم من احتمال تفتت عظامه وانهيار أعضائه الداخلية فإن عقله لا يزال متقدًا. وبعد بضعة أيام كنت أشاهد الأخبار على شاشة التليفزيون أثناء تصفح بعض الخطابات وإذا بالمذيع يقول إن سير آرثر كلارك قد وافته المنية وهو نائم الليلة الماضية.

وهكذا فقدناه.

كان آرثر مواطنًا قيِّمًا، وسوف نفتقده كثيرًا، وهو ما نشعر به الآن بالفعل. غير أن هناك جانبًا هزليًّا آخر في هذا الحدث كنت أتمنى أن يشاركنا إياه.

فلأنني حظيت بقراءة التعليمات المفصلة المرحة التي كتبها آرثر وأوصى بتطبيقها في مراسم دفنه فإني أُدرك أنه كان سيسعد بمزحة صغيرة وسط هذه المحنة؛ فقد لا يكون هناك أساس للربط بين الموت وبين التعاون في كتاب واحد مع فريدريك بول عند التفكير في الأمر بعقلانية، لكن يبدو أن التاريخ يثبت العكس. ولا أظن أني أرغب في التعاون مع أي كاتب آخر بعد الآن.

الخاتمة الرابعة

نظرية فيرما الأخيرة

خطر ببالنا أنه ربما يكون من المفيد إلقاء مزيد من الضوء على موضوع النظرية الأخيرة لفيرما، لكننا لم نجد متسعًا لهذه المناقشة لا يؤثر تأثيرًا سلبيًّا على الإيقاع السردي للرواية. وها نحن نتحدث عنها الآن في نهاية الرواية … وإذا كنتَ واحدًا من هذا القطاع الكبير من الأشخاص الذين لم يسبق لهم التعرف على هذه النظرية من قبل قط، فسوف تكتشف أنها كانت تستحق الانتظار.

بدأت قصة أشهر مسألة في علم الرياضيات بملحوظة كتبها محامٍ فرنسي من مدينة تولوز في القرن السابع عشر. هذا المحامي يُدعى بيير دو فيرما. لم تَشغل مهنة المحاماة وقت فيرما بالكامل، ولهذا اشتغل بعلم الرياضيات كهاوٍ أو — إحقاقًا للحق — كشخص يستحق عن جدارة أن يُعد واحدًا من أهم علماء الرياضيات في جميع الأوقات.

سُمِّيت هذه النظرية الشهيرة باسم نظرية فيرما الأخيرة.

من أهم ما يميز هذه النظرية أن فهمها ليس صعبًا على الإطلاق. الواقع أن معظم الأشخاص الذين يتعرفون عليها لأول مرة لا يصدقون أن إثبات نظرية بسيطة للغاية كهذه يمكن توضيحها بالعد على أصابع اليد قد تحدَّى كل علماء الرياضيات في العالم على مدار أكثر من ثلاثة قرون. والواقع أيضًا أن جذور هذه المسألة تمتد إلى ما قبل ذلك بكثير لأن فيثاغورس — نحو عام خمسمائة قبل الميلاد — هو الذي أشار إليها مستخدمًا كلمات النظرية الرياضية الوحيدة التي تداولتها الألسن بصيغة واحدة:

«في المثلث القائم الزاوية يكون مربع طول الوتر مساويًا مجموع مربعَي طولَي الضلعين القائمين.»

يمكن لأي شخص درس الرياضيات حتى مرحلة التعليم الثانوي أن يتخيل مثلثًا قائم الزاوية، ومن ثم يكتب نظرية فيثاغورس على الصورة $أ^{٢} + ب^{٢} = ج^{٢}$.

ما إن أعلن فيثاغورس عن هذه النظرية حتى بدأ علماء رياضيات آخرون في البحث حول أمور تتعلق بها (هذا هو ما يفعله علماء الرياضيات). وتمثل أحد الاكتشافات التي توصلوا إليها في أن هذه المعادلة تنطبق على عدد كبير من المثلثات القائمة التي أطوال أضلاعها أعداد صحيحة. فالمثلث الذي طولا ضلعَيه خمس وحدات واثنتا عشرة وحدة — على سبيل المثال — سيكون طول الوتر فيه ثلاث عشرة وحدة … ولا شك أن $٥^{٢} + ١٢^{٢} = ١٣^{٢}$. البعض الآخر بدأ يبحث عن احتمالات أخرى. هل يوجد — مثلًا — مثلث أطوال أضلاعه أعداد صحيحة وتنطبق عليه نفس العلاقة حال تكعيب الأضلاع؟ بعبارة أخرى هل ($أ^{٣}$) زائد ($ب^{٣}$) يساوي ($ج^{٣}$)؟ وماذا عن الأعداد المرفوعة للأس أربعة؟ أو الأعداد المرفوعة لأي أس أعلى من اثنين؟

قديمًا حيث لم تكن توجد آلات حاسبة ميكانيكية — ناهيك بالطبع عن الآلات الإلكترونية — قضى الناس أزمنة في استهلاك كميات هائلة من الورق لإجراء الحسابات اللازمة للبحث عن إجابات لهذه الأسئلة. وهو ما حدث مع هذه المسألة. لكن لم يتوصل أحد إلى أي حل. فهذه المعادلة البسيطة المسلية أثبتت صحتها مع الأسس التربيعية فحسب وليس مع أي أس آخر.

بعدها توقف الجميع عن البحث؛ لأن فيرما أوقفهم بسطر واحد كتبه. وقال فيه إن هذه المعادلة البسيطة التي تنطبق على الأسس التربيعية لا تنطبق على أي أس آخر على نحو لا جدال فيه. من دون شك في ذلك.

ربما يلجأ معظم علماء الرياضيات في مثل هذه الحالة إلى نشر العبارة السابقة في مجلة معنية بعلم الرياضيات. لكن فيرما كان مختلفًا ولم يكن هذا أسلوبه. إذ لجأ إلى كتابة تعليق موجز في هامش إحدى صفحات نسخته من كتاب رياضيات إغريقي قديم يسمى علم الحساب. يقول التعليق:

«اكتشفْتُ برهانًا رائعًا حقًّا لهذه الفرضية، لكن الهامش لا يتسع لكتابته.»

استمد هذا التعليق الارتجالي أهميته من احتوائه على كلمة السر «برهان».

يعتبِر علماء الرياضيات أن البرهان دواء فعال لهم. فضلًا عن أن ضرورة وجود برهان — وهو الإثبات المنطقي لصحة عبارة ما في جميع الأحوال — هو ما يميز الرياضيات عن غيرها من معظم العلوم «الجامدة». فالفيزيائيون — على سبيل المثال — يحصلون على هذا البرهان بسهولة مطلقة. فإذا نثر عالم فيزياء مجموعة من البروتونات عالية السرعة على سطح من الألومنيوم عشر مرات أو مائة مرة، وفي كل مرة حصل على مزيج واحد من جزيئات أخرى متطايرة يجوز له افتراض أنه إذا أجرى فيزيائي آخر نفس التجربة في مكان آخر فسوف يحصل دومًا على نفس مجموعة الجزيئات.

لا يتمتع عالِم الرياضيات بهذه السهولة. فنظرياته ليست إحصائية. بل لا بد أن تكون جازمة. لا يجوز لعالم رياضيات أن يقول إن جملة رياضية ما «صحيحة» ما لم يكن لديه — وفق منطق لا خطأ ولا جدال فيه — برهان مترابط يوضح صحة الجملة في أي حال من الأحوال؛ وربما يؤدي إثبات العكس إلى تناقض واضح مخالف للمنطق.

هكذا إذن بدأ البحث الفعلي. وسعى علماء الرياضيات إلى البحث عن البرهان الذي ادعى فيرما التوصل إليه. بذل عدد كبير من كبار علماء الرياضيات — أمثال أويلر وجولدباخ وديريشليت وصوفي جيرما — قصارى جهدهم للوصول إلى هذا البرهان الغامض. وسار على نفس النهج مئات من الأسماء الأقل شهرة. ومن حين لآخر كان بعضهم ممن أصابهم الإنهاك يعلنون فجأة وقد تملَّكتهم السعادة أنهم توصلوا إلى الحل. اكتُشفت مئات من هذه «البراهين» المزعومة ظهر منها ألف برهان على مدار أربع سنوات فقط أوائل القرن العشرين.

لكن سرعان ما كان علماء الرياضيات الآخرون يفندون هذه البراهين بعد اكتشافهم أن من كتبوها قد وقعوا في أخطاء جوهرية فيما يتعلق بالحقيقة أو بالمنطق. وبدأ يبدو لعالَم الرياضيات أن فيرما الشهير قد أخطأ، وأنه لا يمكن الوصول أبدًا إلى البرهان الذي تحدث عنه.

لكنهم لم يكونوا محقين تمامًا في هذا الاستنتاج.

أخيرًا اكتُشف برهان صحيح وحاسم لنظرية فيرما قرب نهاية القرن العشرين. حدث ذلك في الفترة بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥ عندما نشر عالم رياضيات بريطاني يدعى أندرو وايلز — من جامعة برينستون في الولايات المتحدة — برهانًا حاسمًا كاملًا خاليًا من الأخطاء وقاطعًا لفرضية فيرما التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ٣٥٠ عامًا. حُلت المسألة إذن.

غير أن هذا البرهان لم ينل رضا أحد.

بدايةً اتسم برهان وايلز بالإسهاب المفرط فوصل إلى مائة وخمسين صفحة مكدسة بالكتابة. والأسوأ من ذلك أنه احتوى على أجزاء لا يستطيع أي بشر قراءتها ليثبت بذلك أنها خالية من الأخطاء. إذ لا يمكن التحقق من صحتها إلا باستخدام أحد برامج الكمبيوتر. والأسوأ من هذا أيضًا أن برهان وايلز لا يمكن أن يكون نفس البرهان الذي ادعى فيرما التوصل إليه؛ لأنه اعتمد على براهين وخطوات لم تكن معروفة لفيرما أو لأي شخص آخر في تلك الفترة. ومن ثم رفض الكثيرون من كبار علماء الرياضيات قبول هذا البرهان …

ومن بين هؤلاء الذين رفضوا برهان وايلز — كما تابعنا في الرواية — عالم رياضيات بارع للغاية وإن كان شخصًا خياليًّا. نحن نتحدث عن شخص كان يبعد كثيرًا عن فيرما في المكان والزمان اسمه رانجيت سوبرامانيان، وهو محور هذه الرواية.

الخاتمة الخامسة

المؤلفان

حاز كل من سير آرثر سي كلارك وفريدريك بول عددًا كبيرًا من الجوائز عن أعمالهما. وقد منحتهما جمعية كتَّاب الخيال العلمي الأمريكيين لقب «أستاذ كبير في أدب الخيال العلمي». شارك كلارك وبول كتَّابًا آخرين على مر الأعوام. لكن لم يسبق لأيٍّ منهما التعاون مع الآخر من قبل.

اعتُبر آرثر سي كلارك منذ زمن بعيد أشهر كاتب خيال علمي على مر العصور. وقد كان يمثل قيمة عالمية في نواح أخرى، منها على سبيل المثال أنه كتب مقالًا عام ١٩٤٥ كان السبب في اختراع تكنولوجيا القمر الصناعي. بلغت مبيعات كتب كلارك — الخيالية والواقعية — أكثر من مائة مليون نسخة حول العالم، ووافته المنية عام ٢٠٠٨.

ألَّف فريدريك بول العديد من الروايات من بينها «الفتى الذي قد يحيا إلى الأبد» و«البوابة» و«جيم» الذي نال عنه جائزة الكِتاب القومي. يعد أحد الأعضاء المؤسسين — بالاشتراك مع إسحاق أسيموف — لرابطة الخيال العلمي التي يُطلق عليها اسم المستقبليون والتي تتخذ من نيويورك مقرًّا لها. وفي الستينيات رأس تحرير مجلة «جالاكسي» والمجلة الشقيقة لها «إف» التي نالت جائزة هوجو ثلاثة أعوام على التوالي. وفي عام ١٩٩٣ نال فريدريك لقب «أستاذ كبير» لدى جمعية كتَّاب الخيال العلمي الأمريكيين.

يعيش فريديرك بول في بالاتاين بولاية إلينوي.


هنداوي